المركز القومي للترجمة

ريتشارد كريتشفيلد

شحات

رجل من مصر

ترجمة: سمير محفوظ بشير

1459

سلسلة
الإبداع
القصصي

مكتبة طريق العلم

حيث لا إحتكار للمعرفة

www.books4arab.com

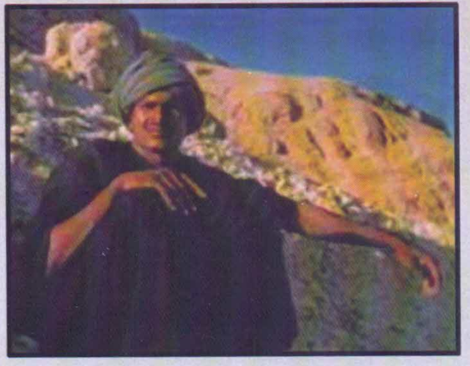

الغرض من تدبيج هذه الرواية هو استعراض ما تعرض له فلاح صعيدى شاب من تفكك وضياع بسبب تلك التغيرات الفجائية التى أدت إلى تغيير أسلوب كل مخالطيه سواء فى مجال الفكر أو الشعور أو التصرف.

شحات، الذى نرى صورته على الغلاف، رجل مصرى تجرى فى عروقه بعض من الدماء البدوية، لعله واجه تقلبات حادة فى أسلوب حياته لو قورن بأى فلاح آخر من أهله، هذا مع العلم بأن الصعايدة الذين يقطنون وادى النيل من منتصفه حتى أسوان يشتهرون بمدى تمسكهم بالتقاليد المتوارثة وتجرى فى عروقهم دماء حارة ويتميزون بطباع حادة، لذلك نرى أن شحات هذا يماثل الكثير من المصريين الفقراء الذين تتحكم فيهم العاطفة، فهم دائما ما يبحثون عن إجابات شافية لما يواجهونه من ظواهر طبيعية، ليس بإعمال المنطق الحضارى، لكن باللجوء إلى عالم ما فوق الطبيعة بما يحفل به من غوامض وأسرار ومقدسات.

تصميم الغلاف: نادية كشك
التصميم الأساسى للسلسلة: عبد الحكيم صالح

شحات

رجل من مصر

(رواية)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : 1459
- شحات المصرى : رجل من مصر
- رتشارد كريتشفيلد
- سمير محفوظ بشير
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية :

SHAHHAT, An Egyptian

by : Richard Critchfield

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

شحات

رجل من مصر

(رواية)

تأليف : رتشارد كريتشفيلد
ترجمة : سمير محفوظ بشير

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كريتشفيلد ، رتشارد
شحات رجل من مصر (رواية) / تأليف : رتشارد كريتشفيلد ؛
ترجمة : سمير محفوظ بشير ؛
ط١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٤٧٢ ص ؛ ٢٠ سم
١ - القصص الأمريكية
(أ) بشير ، سمير محفوظ (مترجم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٠٤٤
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978-977-479-468-5)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة المؤلف 7

الجزء الأول 29

صلاة مقدمة لآمون رع 31

سنية 65

ليلة ظهور الجنى 85

تعال نملأ الكاسات 105

الأب وأمثاله 121

الجزء الثانى 139

الحياة المعتادة تأخذ مجراها 141

ركوبة صباحية إلى السوق 161

حول منقد النار 181

طبعا، إنها المرأة 195

عالم الكفاية 217

الضحك الشافى 239

الجزء الثالث 249
الجاموسة وعين الحسود 251
أم حامد وفاروق 273
أجزاء من المباراة 297
وقت أن غرقت سنباط كلها بالدماء 323
الأم والابن 353
الجزء الرابع 367
تراجيديا وكوميديا 369
عن راكبى الخيول العربية.. وإرادة الله 389
ما بعد ذلك 421
ملحق الصور 431

مقدمة المؤلف

هى قصة شاب مصرى أصوله من أقاصى صعيد مصر، هذا الشاب واجهته تغيرات فجائية استطاعت أن تلوى مسار حياته المعتاد.. هنا نرى كيف أنه تلاءم مع مواقفه وتحكم فيها واستطاع أن يتواصل مع ما يحيط به من عوامل ومؤثرات.

هذا الشاب ينتمى إلى أقدم شعوب العالم، لكنه مشابها لمعظم مواطنيه، هو يدرج فى مراحل الشباب المبكر، وفى طيات هذه الرواية نشاهده وهو يتطور ويخطو وئيدا فى رحلة حياته وعمره.

المكان هو قرية صغيرة تدعى "بيراط" تقع جنوب مصر قريبا من مدينة الأقصر ذات الشهرة على مستوى العالم كله.

كما هو الحال، عندما نستطلع موقع أى قصة ينتمى إلى العالم الثالث، لا سيما داخل نطاق الدول العربية، نصطدم بعقبات شتى ذات محتوى ثقافى سيكلوجى مضطرب، ذاك إذا كان بحثنا يدور داخل نطاق علم الدراسات الإنسانية.

نوعية الثقافة هى التى تحدد للبشر طريقة العيش واستخدام عدد من الحلول الجاهزة التى تمكن الفرد من التصدى للمشاكل اليومية، بذلك لن يضطر كل جيل جديد البحث عن حلول جديدة تبدأ من نقطة الصفر. هذا يعنى أن لب وقلب المحتوى الثقافى الناجح ينحصر فى مدى فاعليته وتوافقه مع احتياجات الفرد العادى، لكن تلك المعايير قد تتعرض للدمار والتفسخ عندما تمعن فى القدم أو عندما يحدث تغيير فجائى حاد فى الظروف والأحوال المعيشية.

فى أقصى صعيد مصر، نجد أن التعاليم الإسلامية التى تنتمى للعصور الوسطى، تتغلب على التأثيرات القبطية والعادات الفرعونية التى سبقتها وسادت منذ ٦٠٠٠ عام سابقة. نجد أيضا أن الغزاة الأجانب الذين قدموا غازين، رحلوا عائدين إلى بلادهم مرة أخرى سواء أكانوا من الفرس، اليونان، الرومان، البيزنطينيين، الأتراك، الفرنسيين ثم أخيرا الإنجليز. وكما عبر عن ذلك السيد/ هنرى حبيب عيروط عندما قال إنه، "عندما يغير فلاحو الصعيد سادتهم ونوعية دينهم، كذلك لغاتهم ونوعية محاصيلهم، هم فى الواقع لا يغيرون أو يستبدلون أسلوبهم المتميز فى الحياة والعيش المشترك". سبب هذه الاستمرارية العجيبة هو أن قيم القرية تتحدد وتتشكل بموجب ما تستلزم فلاحة وزراعة الأرض، وهذه ارتبطت تماما منذ أجيال سابقة مضت بفيضان النيل الذى لم يخلف مواعيده السنوية المعتادة أبدا. لكن مع إنشاء السد العالى

وتوقف الفيضان المعتاد الذى كان آخره أغسطس ١٩٦٧ . كان هذا التطور العلمى التكنولوجى جديرا بأن يرسى ويخفف من وقع التغير فى أسلوب المعيشة، لكنه بالعكس، جعل من أناس الصعيد عموما أكثر عرضة لحدوث صدمات ثقافية وحضارية أشد وقعا.

الغرض من تدبيج هذه الرواية هو استعراض ما تعرض له فلاح صعيدى شاب من تفكك وضياع بسبب تلك التغيرات الفجائية إلى أدت إلى تغيير أسلوب كل مخالطيه سواء فى مجال الفكر أو الشعور أو التصرف.

شحات، هو بطل روايتنا، تجرى فى عروقه بعض من الدماء البدوية، لعله واجه تقلبات حادة فى أسلوب حياته لو قورن بأى فلاح أخر من أهله، هذا مع العلم بأن الصعايدة الذين يقطنون وادى النيل من منتصفه حتى أسوان يشتهرون بمدى تمسكهم بالتقاليد المتوارثة وتجرى فى عروقهم دماء حارة ويتميزون بطباع حادة، لذلك نرى أن شحات هذا يماثل عديد من المصريين الفقراء الذين تتحكم فيهم العاطفة، دائما ما يبحثون عن إجابات شافية لما يواجهونه من ظواهر طبيعية، ليس بإعمال المنطق الحضارى، لكن باللجوء إلى عالم ما فوق الطبيعة بما يحفل به من غوامض وأسرار ومقدسات.

فى هذه الرواية، نتقابل مع أم تسوقها وتتحكم فيها توقعات وتطلعات تفوق قدراتها، نرى أيضا ذلك الخال الذى يتقبل وينتهج

أساليب العيش الحضارى فى زماننا الحالى، أيضا نتعايش مع مشارك الزراعة الذى يستغل الآخرين وقد امتلأ قلبه بالسعادة والمسرة - جميعهم نماذج نتقابل معها دوما فى بلدان العالم الثالث، ولكل هذه الاعتبارات، وجدت أن شحات وما تعرض له من مشاكل، هو خير مثال.

طبقا لرغبات أبطال الرواية، ذكرت أسماءهم الحقيقية كذلك صورهم الفوتوغرافية، ولم أخف سوى شخصية كل من حسن وسليمان، فليس تلك هى أسماؤهم الحقيقية. معظم القرويين كانوا يماثلوننى شغفا وتأييدا بأن يتم عرض أسلوبهم فى الحياة كما هو وأنه لا مانع لديهم أن تعرض أمام القارئ.

الفترة التى شغلتها أحداث الرواية - بعدما قمت بعرض سريع لطفولة شحات - عاما كاملا يبدأ من شهر أغسطس (وهو الشهر الذى يبدأ فيه الفيضان)، وينتهى فى أغسطس التالى. وقد حاولت أنا ومعى المترجم أن لا نتدخل أبدا فى تدفق الأحداث بسبب تواجدنا بقربها، وأعتقد أننا نجحنا إلى حد كبير فى هذا الشأن.

كلمة "فلاح" فى اللغة العربية منشقة من كلمة "فلاحة" التى تعنى عزق وتقليب الأرض الزراعية، هى أيضا كلمة تنشئ علاقة حميمية مع الأرض الملاصقة لنهر النيل، كذلك مع قرية كل فرد منهم، كذلك أساليبهم المعهودة المغرقة فى القدم.

طالما أنه يتم ذكر النقود كثيرا فى هذه الرواية، فإن القارئ الغريب عن الموقع، وبالرغم من التغير المستمر فى أسعار صرف العملة، نقول إنه فى زمن هذه الرواية، كان سعر الجنية المصرى يبلغ دولارين أمريكيين!.

تم اختيار موقع القصة - وهو السهل الطيبى المجاور لمدينة الأقصر - لأنه أكثر المناطق التى تتشبث بقوة بالتقاليد الراسخة.

هذه الرواية لا تهدف إلى رسم حياة كل الفلاحين المصريين، فهناك ستة أعشار الفلاحين المصريين يقطنون قرى الدلتا. هذه الدلتا هى على شكل مثلث كبير تقع شمال مدينة القاهرة وتمتد حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

فى الدلتا، نجد أن مظاهر الحضارة قد سادت بشكل تدريجى، لا سيما وأنه قد تم تطويع النيل باستخدام عدد من السدود بقرب القاهرة وكذلك إنشاء عدد من القنوات التى جعلت من اليسير قيام الفلاحين بزراعة أراضيهم على مدار العام كله، وقد حدث هذا منذ قرن مضى.

لذا لا نجد سوى فى مناطق الصعيد الأعلى المنعزل بفضل الصحراء المحيطة بهم، أن ظلت التأثيرات الفرعونية القديمة سائدة ومسيطرة. عندما تتمعن فى وجوه التماثيل بالمتحف المصرى، تلاحظ أن ملامح الفلاحين الذين ينتمون إلى السهل الطيبى لم تتغير كثيرا منذ

أربعين قرنا، هى تختلف عن ملامح الوجوه التى تشاهدها فى القاهرة والدلتا حيث صنعت الدماء العربية والتركية واليونانية مفعولها. أيضا عندما تتمعن فى الصور والأشكال المنحوتة فى مقابر النبلاء والرسميين التابعين للأسرة الثامنة عشر والتاسعة عشر المنتشرة فى تلال غرب الأقصر، تلاحظ أن طرق الزراعة وأساليبها بالكاد تغيرت.

نلاحظ أيضا أن استخدام طلمبات المياه الميكانيكية التى تعمل بالديزل والتى انتشر استخدامها خلال العقد الأخير، قد حلت بديلا عن السواقى التى تعمل عليها الأبقار والجواميس. تلك الأخيرة استخدمت منذ العهد البطلمى (٣٣٢ حتى ٣٠ ق.م)، أما الآن فقد اختفى هذا الأسلوب تماما وهجر استخدامها. لكن (الشادوف) ما زال منتشرا هناك، كذلك (النورج) كذلك (المدراة) وهى شوكة خشبية، أيضا هناك (الفأس) التقليدى ذو اليد الخشبية القصيرة. كل هذه الأدوات تعود إلى أيام الفراعنة (التأريخ يبدأ فى مصر من عام ٤٢٤١ ق.م، وأول أسرة ملكية تعود إلى الملك مينا عام ٣٤٠٠ ق.م. وبحوث التنقيب تؤكد أن مصر العليا قد استقرت أحوالها منذ العصر الحجرى، هذا وتعود زراعة نبات القمح إلى ما قبل ١٢٠٠٠ عام، وهو فجر التاريخ الذى بدأ فيه الإنسان نشاطه الزراعى).

فى قرى الصعيد وفى حالة حدوث وفاة أحد القرويين، نجد أن الصلوات التى يقوم بها المشايخ المسلمين تتوافق مع العادات والتقاليد

الفرعونية وليست الإسلامية، كذلك هذا ما نجده فى عديد ونوح النسوة على موتاهم. أيضا تستخدم نساء الصعيد الكحل لتسويد عيونهن وتحديد خطوطها، كذلك هن يستخدمن نبات الحنة لتلوين شعورهن، هذا ما كانت تفعله نفرتيتى. نلاحظ أيضا أن كل النساء والرجال يحلقون شعر أجسادهم، وهذه عادة موغلة فى القدم.

عندما تتطلع على حوليات المدعو (ميشيس)، ذاك الذى سجل الأنشطة اليومية لقرية تدعى (كريكيوسيرز) - عام١٢٠:١١٠ ق.م - نلاحظ أن ملكية الأفراد لا تزيد عادة عن فدانين، أما المحاصيل المعتادة فهى القمح والشعير والعدس، بنفس مقدار ما يغله الفدان الواحد حاليا، أيضا وجد عن القدماء هؤلاء تربية الحمام، كذلك تمليك الأرض للمحاربين القدماء. كل هذا يؤكد أن مجالات التغيير كانت فى حدودها الدنيا. أيضا سجل ميشيس هذا طرق وأساليب الرى فى أيامه والمنازعات التى تحدث بسببها، والتى لا تختلف عما يحدث فى أيامنا هذه.

الرى باستخدام مياه النيل له خصوصية معينة، حيث يعتمد على اتباع أساليب تتوافق مع طقس يندر فيه سقوط الأمطار. فى مصر، تجد النيل وقد شق طريقه متجها نحو الشمال وسط صحراء جرداء - وادى النيل فى الصعيد هو عبارة عن خط أخضر رفيع يتراوح عرضه ما بين ٥-١٠ أميال حتى يصل إلى القاهرة. النيل يشق مجراه عميقا لدرجة أن التلال المحيطة به تشبه الجبال فى شكلها، وأرض الوادى تتكون من

طمى قد يتراوح عمقه ما بين ٢٠-٣٠ قدما وهو ذاك الذى وفد على مدى آلاف السنين من الهضبة الإثيوبية، وإلى درجة محدودة من جبال وبحيرات أوغندا وتنزانيا.

يمد النيل الزراعة بالماء، وهذا يدعو بالطبع إلى نشوء سلطة مركزية لكى تضبط تدفقه وتوزيع مياهه بالعدل، هذا بالتالى أدى إلى قيام دولة متحضرة لها أشكال اجتماعية متعددة. عندما كان النيل يفيض كل أغسطس، يبدأ الغرين الجديد فى تجديد التربة الزراعية، أيضا تنقذ المياه المتدفقة مصر من خطر تمليح الأرض، وهى الحالة التى كانت سببا فى اضمحلال حضارتين نهريتين سابقتين، هما حضارة ما بين النهرين وحضارة وادى الهندوس، وقد صدق هيرودوت عندما قال " مصر هى هبة النيل".

هذا التدفق المنتظم للنيل، خلف وراءه دورة من الحياة أثرت فى شعب تحيط به الصحراء من كل جانب، وتنتصب التماثيل الفرعونية الفارهة أمامه وخلفه، لذا انطبع فى ذهنه منظومة ديدنها هو الاحتفاظ بالثوابت مع تكرارها. النيل يكرر نفسه أيضا بلا ابتكار، ففى كل شهر أغسطس من العام، وقد تغذى بكم هائل من الأمطار التى تنصب على قلب إفريقيا، يسارع بالفيض. لأسابيع متعددة، يسارع الفلاحون إلى تقوية جسورهم، ثم يتركون له العنان فيغمر حقولهم ويغطيها بالمياه خلال الفترة ما بين شهر سبتمبر حتى نوفمبر، ثم يتراجع النيل ويستكن

فى مجراه المعروف تاركا خلفه طبقة من الغرين الخصيب الغنى تغطى كل الأراضى الزراعية. هنا ليس على الفلاحين سوى أن يلقوا ببذور القمح أو الشعير أو العدس - وهى ذات المحاصيل التى تتكرر زراعتها منذ أجيال موغلة فى القدم - ثم ينتظرون صابرين حتى شهر أبريل حيث يجمعون محاصيلهم حينذاك، ولم يكن متيسرا سوى زراعة محصول واحد كل عام، بينما يعتبر كل فصل الصيف هو وقت للراحة.

ليس فى مقدور الإنسان سوى أن يخمن المدى الذى استمرت فيه هذه الظاهرة، لعلها استمرت على مدى ٢٤٠ جيلا من البشر وربما ضعف ذلك، وهذا نوع عجيب من الاستمرارية، هذا يدهشنا عندما ندرك أن مجىء المسيح قد مر عليه ٨٠ جيلا فقط وأن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية كان منذ ثمانية أجيال، لكن هذا النشاط توقف بشكل فجائى بعد آخر فيضان وقع فى أغسطس ١٩٦٠ .

بدأت مشكلة زيادة السكان فى مصر، كما فى أى مكان آخر، تضغط على حكام البلد بداية من النصف الثانى من القرن العشرين. الشعب المصرى، لم يزد عدده عن سبعة ملايين فى العصور الفرعونية، لكنه ربما وصل عدده إلى ٢٠ مليون نسمة فى الفترة المسيحية تحت حكم الرومان، إلا أن الإحصاء وصل إلى ٢.٥ مليون فرد أوائل القرن التاسع عشر بسبب الحروب والأوبئة، لكن منذ ذلك الوقت بدأت الزيادة تعلو تدريجيا وبشكل منتظم. إنهم الآن فى حدود ٤٠ مليون نسمة (عام ١٩٧٤)

ونصف عددهم يستقر في المدن، ومن المتوقع أن يصل عددهم إلى ٧٢ مليون عام ٢٠٠٠ .

في وقتنا الحالي، إذا سعى أحدهم لحكم مصر، فإن أولى اهتماماته سوف تنصب على توفير الطعام لهذه الجموع الغفيرة، هذا يمكن أن يتحقق إذا كان هناك تدفقا مائيا منتظما على مدار العام لكي يتم زراعة محصولين أو ثلاثة بدلا من محصول واحد كما كان يحدث في السابق، وأن يتحقق هذا على نفس مساحة الأرض الزراعية على أن ترتفع غلة الفدان الواحد، وهذا ما يحدث فعلا في مصر الآن.

السد العالي هو بناء تراكمي ضخم يبلغ طوله ميلين وعرضه عند مستوى قاعدته يبلغ ميلا ويزيد حجمه عن الهرم الأكبر بمقدار ١٧ مرة.

فكرة ترويض النيل لم تكن أبدا جديدة، لا سيما عندما يكون الفيضان عنيفا. وهذه الفكرة طرأت على بال أمنحتب الأول الذي صمم أول هرم، كذلك فعل الإنجليز الذين احتلوا مصر، فهؤلاء هم الذين شيدوا سد أسوان الأول عام ١٩٠٢ ثم قاموا بتعليته عام ١٩١٤ وعام ١٩٣٦، لكن مع ذلك لم ينجح أحد في التحكم التام في هذا النهر. لكن بعد حدوث فيضان مدمر عام ١٩٣٨، نشأت فكرة بناء سد عال يكون موقعه جنوب أسوان.

بعد تأخيرات كان من أسبابها قيام الحرب العالمية الثانية، صممت الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر على بناء السد العالى، ثم حدثت نزاعات مع البنك الدولي وأمريكا، لذا لجأ عبد الناصر إلى الاتحاد السوفييتى الذى رحب بالفكرة وتم بالفعل الشروع فى بناء السد بمعاونة وتمويل هذه الدولة بداية من عام ١٩٦٠ .

كان الهدف المعلن عن أسباب بناء السد هو الحصول على قدر كاف من المياه تجعل مصر قادرة على زيادة الرقعة الزراعية وليس للتحكم فى فيضان النيل. بدأ السد فعلا فى احتجاز الماء بداية من عام ١٩٦٤ وتم توليد الكهرباء من توربينات السد عام ١٩٧٠، ولم يكتمل تماما إلا عام ١٩٧١، بذلك أصبح واحدا من أكبر أربعة أو خمسة سدود على مستوى العالم.

فى البداية، نظر إلى السد العالى كمشروع ناجح تماما بالرغم من انتقادات علماء البيئة الغربيين الذين أهملوا تماما حاجة حكام مصر إلى توفير الغذاء الكافى للشعب المصرى المتزايد، وفى عام ١٩٧٤، اشترك بعض من علماء الولايات المتحدة مع المصريين فى دراسة "حركة النهر" بهدف قياس العوامل الكيمائية والبيولوجية والجغرافية التى تتحكم فى تدفق مياه النهر، وما كشفوا عنه هو أنه بالرغم من أن السد قد أسهم فى زيادة كمية الغذاء المقدمة للشعب المصرى (أيضا باستخدام التكنولوجيات الزراعية المتقدمة)، فإن الزيادة المقلقة فى حجم المياه الجوفية التى غزت كل الأراضى الزراعية فى وادى النيل سوف تهدد

أراضى كثيرة وتصيبها بالتمليح والقلوية وتراكم المياه أسفل المزروعات، لذا أشاروا بتنفيذ عدد من المشروعات التى يمكن بها تصريف هذه المياه الزائدة، هناك مشكلة أخرى أشاروا إليها وهى غياب الغرين الذى كان يجلبه الفيضان ويجدد شباب التربة، أيضا هناك مشكلة النحر التى تؤثر سلبا على بطن وجوانب النهر، كذلك زيادة انتشار الأعشاب الضارة مثل ورد النيل وانتشار القواقع الناقلة للأمراض مثل البلهارسيا.. لكن كل هذه العوامل يمكن بالجهد المخلص والكفاح واتباع الأساليب العلمية التخلص منها والحد من تأثيراتها.

وقع آخر فيضان للنيل وغطى السهل الطيبى فى أغسطس ١٩٦٠، بعدما انتهى العمل فعلا فى شق عدد من الترع تنبع من أسوان، بعد هذا التاريخ بدأت الزراعة المستديمة وإمكان زراعة نوعين أو ثلاثة من المحاصيل الزراعية، وتم للمرة الأولى استخدام المخصبات الكيمائية (نتروكيما من أسوان) والتى استخدمت بكثافة، لذا تنوعت المحصولات الزراعية فى السهل الطيبى وكان من ضمنها قصب السكر الذى هو محصول يغل عائدا ممتازا للفلاح، كذلك استبدلت السواقى بمضخات صغيرة تعمل بالديزل، بذلك أصبح العمل الفلاحى مستمرا شتاء وصيفا طوال العام.

هذا التحول من الزراعة الموسمية إلى الزراعة الدائمة حدث فى أراضى الدلتا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهذا يعنى أن الفلاحين هناك تلاءموا مع الطرق الحديثة للرى منذ مئة عام سابقة،

وأمكن لهم الاستغناء عن استخدام جهود الحيوانات فى الحقل، كذلك اعتادوا على استخدام أنواع مختلفة من المخصبات الكيمائية لتعويض نقص الغرين، وانهوا مشكلة تعرض الأرض للملوحة بعمل شبكة من المصارف المختلفة. لديهم هناك عدد من الشباب الذين لم يدخلوا المدارس، لكن أهمية التعليم راسخة فى أفئدتهم، لذا تجد حتى أقل العائلات فقرا تجتهد لأن ترسل بنتا أو ولدا يلتحق فى مجال التعليم الفنى، ومن المقبول عندهم أن يبعثوا بأبنائهم إلى المدن الكبرى أو حتى الخارج ليبحثوا عن عمل. لكل هذا يمكن القول إن الثورة الزراعية التى بزغت فى الدلتا واستقرت منذ قرن من الزمان، استطاعت أن تخلق قيما ثقافية محددة وراسخة.

هذا بالكاد حدث فى أقصى الصعيد، حيث انخفضت قيمة المحاصيل بشكل تدريجى خلال العشر سنوات الماضية، كذلك لم يتعود الفلاحون هناك بعد على رى الأرض على مدى العام كله، وأكدوا بأن هذا سوف يؤدى إلى ارتفاع مستوى المياه الجوفية. ادعوا أيضا أنه عندما يصل مستوى المياه حتى أربعة أقدام من السطح، فإن الجذور سوف تموت ويتحول لون النبات إلى اللون الأصفر. لكن هذا فكر خاطئ ناتج عن سوء استخدام المخصبات الكيمائية. كذلك استمر استخدام فضلات الحيوانات واستخدامها كوقود، أيضا نلاحظ أن الأمية ما زالت منتشرة هناك، وقليل من الفلاحين الذين يسعون لتعليم أبنائهم، أما

معدلات الإنفاق والصرف فإنها تعتبر مرتفعة بالمقارنة بمستويات الدخول. نلاحظ أيضا أن حفلات الذكر والصلوات ما زالت مستمرة وقد تستغرق الليل كله، هناك أيضا ينتشر الزواج المتكرر ويفضل عن الاستثمار فى الزراعة أو تعليم الأبناء، وهناك قدر كبير من الدخل ينفق على شراء السجائر والكحوليات والحشيش.

فى الدلتا، تمتلك العائلة المثالية أرضا مساحتها تبلغ فدانين فى المتوسط، كذلك تمتلك جاموسة أو بقرتين، بعض الأغنام، طيور داجنة، حمام وأرانب للاستخدام المنزلى. أيضا يزرع البرسيم لتغذية الحيوانات، كذلك يزرع القمح والذرة والخضروات للاستهلاك الأسرى.

يبلغ دخل الفلاح السنوى فى الدلتا حوالى ١٢٠٠ دولار، تفصيلها كالآتى، (٤٠٠$ من بيع محصول القمح، ٢٤٠$ نظير الزبد، ٢٠٠$ أغنام وماعز، ٥٦٠$ مقابل بيع المحاصيل النقدية مثل القطن أو بذور البطاطس. أما متوسط الإنفاق الشهرى فإنه يتوزع بالشكل الآتى: ٨$ دولارات لشراء اللحوم (كيلو من اللحم يستهلك كل يوم خميس طبقا للتقاليد الإسلامية)، ١٠$ لشراء الملابس والصنادل، ٦$ للسجائر، ٢٠ سنتًا للكبريت، ٣$ للسكر، ٣$ للشاى، ١$ للكيروسين، ١.٢$ دولار للصابون. والمجموع هو ٣٢.٥$. (فى الحقيقة، معدل الصرف الشهرى عند العائلات الفقيرة التى لا تمتلك أرضا زراعية قد ينخفض ليصل إلى ٢٥$ فقط، لكن ليس أقل من ذلك).

على العكس من ذلك فى أقصى الصعيد، حيث نجد أن العائلة التى تمتلك نفس القدر من الأرض الزراعية قد تنفق ضعف ما يحدث فى قرى الدلتا، والفرق يصرف على شراء مزيد من السجائر واللحم والسكر (فهم كرماء للغاية أمام الأصدقاء والضيوف).

العائلة فى الدلتا قد تنفق ٢٠$ على تعليم أبنائها شهريا، لكن هذا المعدل ينخفض كثيرا فى جنوب الصعيد. كذلك نلاحظ أن مستوى أجر العامل الزراعى عندهم يتراوح ما بين ٧٠ سنتا حتى دولار واحد، أما فى الدلتا فإن هذا المعدل قد يبلغ الضعف مع إمكانية العثور على عمل فى المدن القريبة.

لكن على أية حال، فإنه مع مرور الزمن، من المتوقع أن تتوافق المعايير الثقافية مع ما هو حادث فى الدلتا، علما بأنه هناك حركة متصاعدة لإصلاح الأراضى الصحراوية وضمها إلى الأراضى الزراعية.

بالرغم مما ظهر من عيوب ظهرت بعد إنشاء السد العالى، أيضا عيوب الاستخدام المستمر للأراضى الزراعية فى الصعيد على مدار العام، نجد أن السد العالى تسبب فى ضم ٩٠٠ ألف فدان من الأراضى الصحراوية وجعلها أرضا زراعية وثلثاها خضع لنشاط المحراث، لكن هناك أراض زراعية عديدة انضمت إلى نطاق المبانى السكنية أو تعرضت للتمليح، لذا استمرت حيازة مصر للأراضى الزراعية لا تزيد عن ٥.٦ مليون فدان، وهو نفس الرقم الذى كان عندما تم بناء السد

العالى. لذا نجد أن أمل مصر لمجابهة تلك الزيادة الرهيبة فى معدلات النمو السكانى، ينحصر فى استصلاح مزيد من الأراضى الصحراوية.

فى حديث قام به مؤلف هذه الرواية مع الرئيس أنور السادات فى صيف عام ١٩٧٦، أشار الرئيس إلى أنه يهدف إلى مضاعفة حجم الأراضى الزراعية فى مصر مع قدوم عام ٢٠٠٠! وهو يخطط إستراتيجية تهدف إلى تشجيع التصنيع الزراعى، وأن يتم التقليل التدريجى من زراعة القمح والذرة والبرسيم فى مقابل زيادة إنتاج المحاصيل والسلع التى تحقق عائدا أكبر مثل الفواكه والخضروات والألبان والطيور التى توجه للتصدير. بهذا الأسلوب يمكن أن يوفر القمح للسكان الذين يتزايدون بمعدلات كبيرة عن طريق الاستيراد من الخارج. هو يؤمن بأن انتهاج هذه الإستراتيجية أفضل كثيرا من الاتجاه إلى التصنيع السريع فى مصر، واضعا فى اعتباره معدلات الجهل ونقص التعليم ورسوخ التقاليد الزراعية. السادات هو أول حاكم مصرى ينحدر من أصول قروية، بل وعمل فى مجال الزراعة فى شبابه، وما زال حتى الآن له روابط قوية مع قريته التى تقع فى قلب الدلتا. هو يهتم بشكل بالغ بالتأثيرات الثقافية التى يمكن أن تصدم الإنسان الناتجة عن التغيرات الفجائية، كما يحدث فى قصتنا هذه. أشار أيضا أنه قد أبلغ من يحاولون تثبيت دعائم الحضارة أن "ينظروا بتمعن إلى مجتمعنا وشعبنا وموروثاتنا"، قال أيضا إنه مهموم للغاية من احتمال

بزوغ مجتمع جديد تنقصه القيم الروحية الأصيلة، لا سيما وسط جموع الشباب، أضاف بقوله، "يجب أن تعود مصر وتتمسك بقيمها الروحية العتيدة، أنا لا أود بتاتا أن يصبح الجيل الجديد هو جيل مفقود"

يستطيع القارئ أن يعثر على قرية بيراط التى تقع بجوار مدينة الأقصر، حيث تقع على بعد ميلين شرق المدينة. كلمة الأقصر مشتقة من الكلمة العربية "القصور"، وهى مدينة مشهورة على مستوى العالم كله تقع فى السهل الطيبى وتزدان بمجموعات ضخمة من التماثيل والمعابد الفرعونية.

هذه المدينة هى طيبة التى كانت يوما ما عاصمة لمصر بعدما فقدت ممفيس العاصمة أهميتها قبل ٣٦٠٠ عام سابقة، هربا من لصوص المقابر الذين دنسوا الأهرامات العظمى. وعندما انتقل الفراعنة إلى العاصمة الجديدة، استطاعوا قهر عدد كبير من الدول المعروفة فى زمانهم، ووصل المجد الفرعونى إلى أقصى حد له. ظهر هناك عدد من الفراعنة العظام أمثال تحوتمتس، أمنحتب، الهرطوقى أخناتون، توت عنخ أمون، رمسيس الثانى والثالث كذلك مرنبتاح الذى يعتقد أنه هو فرعون موسى.

الأقصر هى حاليا مدينة صغيرة تبعد عن القاهرة ٤٥٠ ميلا، ويمكن أن تقضى ساعة بالطائرة لتصل إليها. وسوف يندهش الزائر لهذه المدينة عندما يشاهد بعينيه تلك المعابد الجبارة والكرنك والتماثيل

المدهشة وهى تلك التى ما زالت تنتصب هناك أو التى أعيد ترميمها خلال القرن الماضى. هى شواهد تقف صامدة أمام تلك الشوارع المزدحمة وشاطئ النيل الذى تنتصب على حوافه كل ما هو حضارى وحديث. حتى الآن تعتبر الأقصر مكانا تجرى فى شوارعه العربات التى تجرها الخيول، وتحفل بمن يرتدون الجلابيب التى تمتلئ بالهواء، مع قليل من البشر يعتمرون الملابس الحديثة، هذا بالإضافة إلى معابدها الفرعونيــة الشاهقة التى تضفى على المدينة جوا لازمنيا؛ فالإنسان قد لا يحس بعودته إلى الزمن الغابر، لكنه أيضا لن يشعر تماما أنه يعيش فعلا فى أواخر القرن العشرين.

عبر المدينة، فى الجانب الغربى منها، فى موقع صحرواى يبعد حوالى ميلين وفوق سهل أخضر، يمكن أن تسعد باستكشاف عدد كبير من المعابد بالإضافة إلى أكثر من ٤٠٠ مدفن محفور فى الهضاب المحيطة – وهى المنطقة التى كانت تدعى سابقا باسم مدينة الأموات – ثم مع نهاية هذا المكان، على بعد ميلين آخرين وبسلوك طريق ملتو متدرج خلال هضاب من الحجر الجيرى، نصعد فوراً إلى وادى الملوك، وهو المكان الذى تم فيــه دفن فراعنة مصر. وفى نفس المكان، بعرض قدره ميل، تقع قرية القرنة، وهى تلك التى يقطنها بعض من سلالة قبيلة الحرويات، هم كانوا قد احتلوا هذا المكان فى القرن الثالث عشر ومهمتهم هى سرقة الآثار، وهى وظيفة ما زال الكثيرون منهم يمتهنونها.

جنوب القرنة، تقع قرية بيراط التى تمتد من حافة النيل حتى أطراف الصحراء الغربية. هى قرية زراعية صغيرة تمتد لمسافة أربعة أميال، يزرع فيها القمح، الذرة وقصب السكر. تربة القرية تتكون من التراب كذلك بقايا المدن الغابرة ببيوتها وقصورها. عندما يقوم الفلاحون بحرث أرضها، تظهر أحيانا قطع فخارية وأجزاء من الحلى والزجاج القديم وأحيانا بعض العظام وبقايا متهالكة من المنسوجات التى كانت تلف حول المومياوات. هى قرية حية عاشت على مدى أجيال عديدة، ومن العسير تخيل عدد من عاش أو مات ودفن تحت أرضها.

يتراوح عدد سكان قرية بيراط حوالى ٧ آلاف نسمة يشغلون أربعة عشر نجعا، كل منها يتكون من عدد من المبانى الطينية تتخللها أشجار النخيل والأكاسيا والجميز، كذلك منارات المساجد التى تنتصب هنا أو هناك.

هناك صرح فرعونى واحد فى بيراط، هو معبد ضخم رائع يقع فى الجانب الشمالى الشرقى من القرية. هذا المعبد تم تشييده منذ ثلاثة آلاف عام بيد الفرعون رمسيس الثالث، ويدعى الآن بالاسم الذى أطلقه عليه المسيحيون الأوائل وهو "مدينة هابو". إلى حد كبير، يعتبر هذا المعبد هو أول أو ثانى صرح فرعونى تم الحفاظ عليه سليما فى مصر، فما زالت ألوانه زاهية يمكن أن تشاهدها فى أسقفه أو حوائطه.

مدينة هابو هذه هى آخر معبد يقع جنوبا فى نيكروبوليس الطيبية، وبساحاته الجرانيتية وأعمدته الضخمة ثم تليه تلك الصحراء الشاسعة،

نتلمس خفوت واضمحلال تلك الحضارة التى دامت قرونا نهاية لسلسة طويلة من الفراعنة العظام، كان رمسيس الثالث هو آخرهم.

ما بين أعمدة هذا الصرح العظيم وترعة مياه حديثة الإنشاء تدعى باسم ترعة رمسيس، ينحشر أربعون منزلا طينيا قميئا، وهو أصغر نجوع بيراط، ومن الصعب تحديد اسمه، إلا أن الفلاحين تراضوا أن يدعونه باسم "لوهلة"، وهو اسم أحد جدود عائلة كانت تسكن فى هذا المكان.

بالرغم من ضآلة هذا المكان، نقول إن سكان هذا النجع احتفظوا فى صدورهم بما هو أكثر أهمية من حجارة المعبد الضخمة، فخلال ٣٢ قرنا حيث انتصب هذا المعبد صامتا ميتا وهو يطل على صحراء جرداء، احتفظ هؤلاء القرويين داخل بيوتهم الطينية بطريقة عجيبة للعيش والحياة، هى طريقة وأسلوب سوف يكون مآله الخفوت والذبول مع مرور الزمن والأيام.

فى عين المسافر، يبدو نجع لوهلة مشابها لأى قرية مصرية وقع بصره عليها، هناك سوف يجد نفس الأبقار وهو تدور صابرة حول السواقى، نفس أكنان الحمام المتناثرة فى السطوح، نفس الوجوه السمراء الكالحة وقد تلفعت بجلابيب لونها أبيض أو اسود. سوف يشاهد أيضا الدخان وهو يتصاعد من الكوانين والأفران البلدية، كذلك أقراص الجلة المجففة التى هى بقايا فضلات الحيوانات، القهوة التركية،

ويتشمم روائح حلوة وثقيلة فى نفس الوقت.إذا اجتزت حواريها الضيقة الملتوية، ولم يشغلك الذباب المتكاثر والغبار والعفار والرياح، فربما شعرت وأحسست بمتعة غامرة، لكن لا أحد فى رأيى يمكن أن يرحب بالعيش الدائم هناك. وفى إحدى هذه الحارات، يقع بيت بطلنا شحات، ومن هنا تبدأ قصتنا.

الجزء الأول

"أن تقاوم من هو فى السلطة، هو شر و إثم"

(من وصايا أمنحتب -٢٦٧٥ ق.م - طيبة)

" فاض نهر النيل، عشب مصر وأرضها وزرعها جيد، اذهبوا على بركة الله وعونه، تمتعوا بخيرها، ألبانها، بهائمها، قطعانها وارعوا جيرانكم وأحسنوا إليهم"

(عمر بن الخطاب، قاهر مصر، الذى خرج جيشه من الأراضى العربية وقوامه ٣٥٠٠ من الفرسان عام ٦٣٢ م، هذا الخطاب أرسله لمحاربيه بعدما قهروا الرومان واستولوا على مصر.)

صلاة مقدمة لآمون رع

"يا رب، نفسى توعدنى بزيارة حبيبك رسول الله فى مكة المشرفة، بأى طريقة كانت، لكن لازم تكون الزيارة بفلوس حلال، قبل ما أتكل واموت".

استمع شحات لدعاء أمه المملوء بالوجد والعواطف المحتدمة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، متوقعا ما سوف يجرى لاحقا.

" لكن يا رب، لازم تسمح انى آخد معايا الواد شحات ده "

" تاخدينى أنا ؟ دا انا ما اسافرش حتى لو ببلاش. "

اتسعت فشخة ابتساماته، فهو عندما يشعر بالحبور والمرح ترتسم على وجهه ابتسامة حنونة، واسعة لطيفة كأنما هو طفل صغير. هى ابتسامة معدية، ما أن تراها هى حتى تضطر أن تقابلها بالمثل. ثم قهقه بصوت عال وهو يرمق والدته وقد تلبست بنوع من الوقار الجاد الذى تتقمصه عندما يحاول أحدهم أن يسحبها إلى أسفل لتلامس قدميها الأرض.

بدأ بعد ذلك فى إغاظتها، "إذا انتى رحتى مكة، طبعا حترجعى من هناك وانتى مسلمة بحق وحقيقى، وبعد كده ممنوع نقربع عرقى ولا نسب ولا نشتم، حتديقيها علينا يعنى. مين بعد كده يقدر يعيش معاكى. بقى انتى عايزة تروحى مكة، يا سلام، يا سلملم".

هكذا كانت الأحوال بينهما فى ماضى الأيام، ففى مواجهة أم حامد يظهر ابنها شحات دائما بمظهر المتحدى والمخالف لرأيها. كانت دائما ما ترفع يديها إلى السماء وهى تتقدم بأمنياتها، حيث تلتمع عيناها بطريقة مسرحية متقنة، بينما يواصل شحات السخرية منها ويقاوم أفكارها.

قالت له مرة، " شوف يا شحات، لازم يا ولدى تلبس كويس، حتى لو جعت وما لقتش الرغيف". هو عادة ما يسير فى شوارع القرية مرتديا جلابيته السوداء المملوءة بالثقوب التى يبدو من خلفها شعر صدره الكثيف أو ذراعه السمراء المفعمة بالقوة، ويعتمر فوق رأسه بشال ملفوف، أما رجلاه الحافيتان العظميتان فإنهما تدقان بقوة فى بطن الأرض المتربة، كان فى الحقيقة يبدو كأنه فعلا، شحات يستعطى.

يقال إن الفلاحات المصريات يبدو عليهن كأنهن بلغن أرذل العمر وهن فى الثلاثين من العمر، ففى ذلك الجو الصحراوى الجاف والحرارة الحارقة، تصبح المرأة نحيفة ومقددة، وبدلا من مظاهر الجمال والابتسامات الخلابة تحل مسحة من الحزن والوقار. لكن أم حامد هذه،

وهى فى منتصف الأربعينيات من العمر ما زالت جميلة. حقيقة أن وجهها الآن متغضن قليلا، وينكمش ما حول عينيها عندما تشعر بالمرح والسرور، وقد تظهر خطوط باهتة حول فمها عندما تحس بخيبة الأمل والإحباط، إلا أنها مع ذلك تمتلك وجها عظميا قويا له سماته المميزة، لا يتأثر كثيرا مهما أظهرت لها الحياة محنا أو مصاعب. لها أنف مستقيم، وجه بيضاوى، بشرة رائقة وعيون واسعة لامعة نتلمس مثيلا لهما فى التماثيل والأشكال الفرعونية القديمة. يبدى الغرباء دهشتهم البالغة عندما يعلمون أنها أنجبت عشرين بطنا، فقط لترى بعينيها أربعة عشر منهم يمرضون أولا ثم يختطفهم الموت. ما أن بلغت هذه السيدة منتصف العمر، حتى عانت من مآس وحسرات متعددة، ليس فقط من أن معظم أولادها قد ماتوا ما عدا ستة منهم، لكن أيضا بسبب وفاة والديها وجديها المفاجئ بسبب مرض الطاعون. وقد تعرضت كل عائلتها لهذه المصيبة ولم ينج سوى شقيقين لها.

هذه المصائب علمت أم حامد كيف تكون قدرية، لكن إيمانها الأكيد بمفاعيل القضاء والقدر لم يمنعها أبدا من استشراف المستقبل، فتوقعاتها هى التى أبقت عليها حية وفعالة. معظم آمالها وتوقعاتها صبتها فى ابنها شحات هذا، فهو أكبر أبنائها الذكور الثلاثة الذين ظلوا على قيد الحياة، والأول فيهم الذى يصل فعلا إلى مرحلة الرجولة.

إنـــه لا يشبههــا بأى حـــال من الأحوال. أحد أجـداد زوجـها عبد الباسط لم يكن من فلاحى وادى النيل، لكنه كان بدويا عربيا. هو أحد راكبى الخيول الذين عاشوا فى الصحراء بين صخور الجانب الشرقى البعيد لنهر النيل ويمتهنون أساسا رعى الغنم وتحميل البضائع على ظهور جمالهم فى أوقات الندرة والقحط، قد يلجأون للسرقة والإغارة والقتل فى أحيان أخرى. كان هناك دائما نوع من الكراهية والبغض ما بين "حفارى الطين" فى الوادى وبين مرتادى الصحراء والقفار هؤلاء. لكن "خليفة"، وهو الجد الأكبر لشحات، عصى أوامر قبيلته وتعارك معها، ثم اتجه نحو وادى النيل مصطحبا عددا وافرا من الجمال وباعها واشترى بثمنها أرضا زراعية، ثم تزوج واستقر. بعدها اغتنى واشترى عشرة فدادين، هى التى منها ورث عبد الباسط جزءا منها عن طريق أبيه.

الدم البدوى هو الذى استقر فى مجرى دماء شحات، لذا ما أن ثبت نمو بنيانه الجسدى، حتى بلغ طوله ستة أقدام، وأصبح ذا جسد قوى، عضلات مفتولة، عود مستقيم كالعصا، بشرة بنية اللون مع أنف محدب قليلا.

لذا فيما عدا شعره الأكرت الذى يشى بمنبته الإفريقى الأسود، فإن شكله يبدو أعرابيا أكثر منه مصريا. معظم الشباب فى قريته " بيراط " يبدون قصار القامة ببنيان كثيف وعظام وجنات قوية وأنوف

مفلطحة وفكوك سميكة. بالمقارنة بوجوههم الكالحة، يبدو وجه شحات أكثر تعبيرا وإحساسا. ملامحه سامية دقيقة وطباعه ثائرة عنيدة، يخترقه شعور دافق يؤكد أهمية الأخذ بالثأر بكل مظاهره القاسية. هو يعشق الصحراء بكل قسوتها وهى تلك التى ينفر منها باقى الفلاحين وينظرون إليها بكل الخوف والهلع. صبغت كل هذه الظواهر شحات، لذا بدا كأنه واحد من سكان الخيام ورعاة الإبل.

مثل هذا الدم العربى ليس نادر الوجود فى الأوساط المصرية، هم أناس تجدهم طوال القامة، أعوادهم صلبة، لون بشرتهم أكثر سمرة. هم يقطنون المنطقة الوسطى من وادى النيل حتى أسوان، بالرغم من أن عددا كبيرا منهم دماؤهم فرعونية خالصة.

أم حامد لم تتمكن أبدا من فعل شيء ما فيما يختص بالطباع الثائرة لابنها شحات، فأبناؤها الاثنان الآخران الذكور وكذلك بناتها الثلاث يشبهون عائلتها من جهة الطباع والملامح الجسدية. بعد كل ثورة عارمة يندفع فيها شحات، كانت ترفع يديها نحو السماء ضارعة، "يا رب، هدى طبع ولدى وخليه يبقى هادى وراسى".

مع كر السنين، تعهدت أم حامد خيالاتها وأمنياتها أيام الصبا، كان هذا يحدث كثيرا بالرغم من اللطمات التى تلقتها بالكيل من الخسارة وسوء الحظ، لكنها لم تلتمس أبدا أو تسعى لأن يشفق عليها الآخرون، بل كانت تنفر من هذا السلوك بسخرية بالغة. كانت ترغب

دائما أن يتقبل جيرانها فكرة أن الحياة قد ضيقت عليها، لكنها لا تنتوى أبدا أن تستمر فى حالة الفقر هذه إلى الأبد. بخيالها الجامح، بالرغم من حالة الفقر المدقع الذى أمسك بتلابيبها على الدوام، تعلقت باعتقاد راسخ قوامه هو أنه إذا أتيح لها أن تقبل الحجر الأسود فى الكعبة وتزور جبل عرفات لتنهل من بركات الله، فإنه تأكيدا سوف تتغير أحوالها إلى الأحسن والأفضل.

قبل عام من ولادة شحات، كسرت أم حامد أهم القواعد الإسلامية قداسة، وهى أن لا اله إلا الله. منذ ذلك الحين أصبحت أكثر ورعا ومداومة على الصلاة والصيام. لقد خشيت أن يكون طبع شحات المتفجر وعصبيته الزائدة ليست سوى عقاب من الله. لقد استقر فى وجدانها اعتقاد جازم بأن الحج إلى مكة هو السبيل الوحيد لأن يغفر الله ذنبها. لكن ما الذى فعلته هذا السيدة ؟

لقد صلت لكى ترزق بغلام قوى يعيش حتى يبلغ طور الرجولة، لكنها لم تتقدم بصلاتها هذه إلى الله، لكن إلى الإله المصرى القديم : آمون رع !

بالرغم من مرور عشرين سنة على هذه الحادثة، ما زالت القشعريرة تتملكها عندما تتذكر هذا الموضوع. إنها تتذكر حالها وهى فى عمر الثانية عشر عندما انتشرت تلك الحمى المرعبة التى جعلت ملاك الموت يعمل بكل همة ونشاط ويحصد أحباءها، لدرجة أنهم كانوا يرصون

الجثث فوق بعضها وينقلونها على ظهر عربة كارو ويلقون بها جملة فى حفرة واسعة داخل نطاق مقبرة البلدة، وبذلك لم يتح لأى فقيد أن يحصل على شاهد قبر واحد. تتذكر أيضا كيف أنهم زوجوها بعد ذلك بعام واحد من عبد الباسط، وهو ذلك المجند الذى أنهى خدمته فى الجيش منذ قليل، بشعره الأكرت وصدره العريض. لكن من عليه أن يدفع ثمن جهازها، إنه ليس سوى قريب لها يعيش فى قرية قريبة تقع على النيل، وقد تكرم هذا الرجل ولم يدفع سوى أربعة جنيهات لا غير.

تذكرت أيضا أيام شبابها الغض ومقدار شعورها بالعزة والفخار، وما كانت وما زالت تكنه من حب وإعزاز لأخويها، لا سيما أحمد الذى تيتم وهو فى سن الرابعة من العمر- وكيف أنها لم تتوافق أبد أو تنسجم مع أقرباء زوجها عبد الباسط، لذا اضطر أن يبنى لها منزلا بالطوب اللبن فى مكان بعيد فى السهل.

كم نهلت من سعادة ورضا بالغ خلال السنوات العشر الأولى من زواجها، إلى أن سقط ابناها جهلان والعزب وعمراهما تسع وثمانى سنوات مريضين، وبعد عذاب مضن وأمل ورجاء، توفيا الواحد تلو الآخر. لم يشرح لها أحد لِمَ حدث هذا. لقد استقر فى ذهنها أن الشيطان قد أرسل الجن لكى يخنقوا طفليها. ثم رزقت بعد ذلك ببنتين عاشتا. لكن عندما ولدت بعد ذلك ذكرين متتاليين وماتا بنفس الطريقة، خشيت أن يطلقها عبد الباسط.

تملكها خوف وقلق بالغين، وقامت بالتضحية بعدد من الخراف في أقدس الأماكن، وذهبت للسحرة ليكتبوا لها التمائم والرقيات التى قيل لها أن تحرقها فى وعاء للبخور لتتحقق أمنياتها. أيضا استشارت الشيوخ والمتصوفين وداومت على الصلاة لله، بل إنها أيضا سعت للحصول على المساعدة من القسس الأقباط، فمركزها كامرأة وزوجة وأم كان فى مهب الريح.

أخيرا، وبعدما فشلت كل الوسائل، فى وقت متأخر من الليل، زحفت متلصصة نحو الجدار الشاهق للمعبد الجنائزى لرمسيس الثالث لكى تتوسل للآلهة القدامى.

تملكها خوف وجزع، فالزمن هو شهر أغسطس، حيث تهب رياح عاتية ترد من الصحراء الغربية المجاورة تزلزل أعواد النخيل، إما الرجال الذين يمتطون الجمال أو الحمير ويسيرون بمحاذاة جدران المعبد الضخم، فإنهم يراعون تغطية وجوههم لكى يتقوا شر الغبار والرمال الثائرة التى تلتمس عيونهم لتطمسها، كل مألوف فى نظرهم يبدو غامضا ملفوفا بما يخيف ويرعب. فوق أحد أبراج المعبد، تذبذب ضوء مصباح الحارس، راسما أشكالا شبحية متحركة تتحلق فوق الجدران الحجرية. انتظرت أم حامد طويلا حتى يبتعد الحارس من مكانه، ورأته وقد عبأت الرياح جلبابه المتطاير خلفه، بينما يتابع جولته ليكمل دورته الليلية المعتادة. نحن الآن قد تجاوزنا منتصف الليل، هو الوقت المناسب

الذى تعتقد أم حامد أن الجن والعفاريت تخرج من معاقلها لتجوب وتتجول، وقد سمعت أيضا أن المعبد يشغى بالأفاعى السامة والعقارب المميتة التى تتحرك بكل حرية فى الظلام الدامس.

موقع المنزل الذى بناه عبد الباسط يقع فى نطاق الأرض التى ورثها من أبيه، قريب للغاية من الجدران الشرقية للمعبد الضخم، الذى يستقر بجانبه أيضا بقايا حصن رومانى وبوابة احتفالات شاهقة بناها رمسيس الثالث. لم تزر أم حامد، مماثلة فى ذلك أقرانها من السيدات هذا المعبد من قبل، أما الآن فقد أدركت كم هو ضخم واسع مهيب، فقد امتدت مجموعة من المنشآت الجرانيتية، عملاقة المقاسات افترشت الصحراء الممتدة، ظهر أمام عينيها المعبد الجنائزى لرمسيس الثالث وقد احتل مساحة واسعة، بدا كأنه عملاق ضخم بجواره عدد من الأقزام، فأنصابه شاهقة وقاعاته متعددة، الواحدة تلو الأخرى، بالإضافة إلى أبراج وتكوينات أخرى غريبة الشكل والتكوين، استقر على جانب ردم أنقاض قصر ملكى. هذه المجموعة كلها تدعى "مدينة هابو"، هو الاسم الذى أطلقه عليها المسيحيون القدامى الذين ابتنوا كنيسة داخل المعبد كانوا يلوذون بها إبان الاضطهاد الرومانى فى الزمن القديم، وقد حاولوا حينذاك أن يطمسوا الرسوم ذات التعبيرات الجنسية من أعمدة المعبد.

أطلق عليه الفلاحون اسما مجردا وهو "المدينة"، ولم يعيروه اهتماما بالغا. بخلاف الحافلات التى تظهر بين الحين والآخر محملة بمجموعات

من السائحين الأجانب، فإن المكان يصبح مهجورا لا يشغله سوى أسراب ضخمة من الحمائم التى بنت أعشاشها فى حمى ظلال أعمدته وجدرانه الرهيبة، وعندما يظهر صقر فى الأفق، يهرب الحمام فى دوائر متتالية تظلم المكان كله.

قليل من الفلاحين هم الذين كانوا يزورون المعبد نهارا، لكن لا أحد منهم يجرؤ أن يرتاده ليلا. إنهم لا يخشون فقط مغبة إلقاء التهم عليهم بأنهم يحاولون السرقة، بالتالى يتعرضون للضرب المبرح والتعذيب من رجال الشرطة (وقد سمعت أم حامد حكايات كثيرة عما كان يحدث فى تلك الحالة)، ولا من رؤية تماثيل المساخيط الضخمة برؤوس على هيئة قطط أو ابن أوى التى تزعج مشاعرهم الإسلامية، لكن هناك فى داخل فؤاد كل واحد منهم شعور داخلى مبهم غير طبيعى فيما يختص باستجلاء تلك الأشكال الغريبة التى يعج بها المعبد.

ما أن شاهدت أم حامد ضوء مصباح الحارس يبتعد عنها بمقدار، تحركت متلصصة بجوار الجدران العالية التى لاحظت أنها تزينت بأشكال حياتية متنوعة غريبة كما أخبرتها بذلك الشيخة "داية" - حائط بأكمله خصص لرسم قضيب الذكر- كما لو أنه فى ديانات الأمم القديمة يختلط دائما المقدس مع القبيح فى آن واحد. هناك أيضا رسوم توضح انتصارات الفرعون فى الحرب، ألسنة يتم قطعها، سجناء يدهسون تحت عجلات المركبات الحربية، رؤوس تقطع، رجال يتم خصيهم، مع أكوام

عديدة من الأعضاء الذكرية المحفورة فى الحجر. رأت جميع ما كان يهمس به جيرانها . بالرغم من أنه مبنى شيد إكراما للموتى ومهد الحياة، إلا أن المرء عندما يشاهد تلك المناظر ينتابه قوة شبق طاغية وجاذبية شريرة. تذكرت أم حامد ما كان يهمس به الفلاحون، وكيف أن الشهوة كانت تسيطر عليهم وهم يشاهدون هذه الأشكال، كأنما هذه الرغبات الوليدة قد تفجرت داخلهم جراء إشعاعات صادرة من هذه الأحجار المرسومة ذاتها.

شمل فؤاد أم حامد خاطر آخر، أنه مزيج من الخوف والرعب. لم تعد الآن ترى مصباح الحارس، لذا أسرعت بترك ظلال الجدران واخترقت مسارا تحفه أعشاب طويلة، والندى يغمس رداءها وملاءتها الطويلة. وصلت أخيرا إلى المكان المطلوب وهو البحيرة المقدسة لآمون رع القائمة فى مكان عميق تحيطه الأعشاب وعتبات حجرية متدرجة. أخذت تنظر هنا وهناك، ثم انسلت هابطة الدرج ونزلت فى البحيرة سبعة مرات. تذكرت أنه لا يجب أن تبدو متسرعة، لكن عليها أن تهبط بخطوات متأنية محسوبة تشابه ما هو مرسوم على جدران المعبد، كما نبهت عليها بذلك الشيخة "داية".

تحركت وتمايلت واقشعرت من أخمص قدميها حتى قمة رأسها، حينا تتوسل وتطلب مغفرة الله، وآنا تتوسل للإله المجهول، آمون رع، لكى يتحنن عليها وتخلف ولدا يتمسك بالحياة ولا يموت مثل سائر أبنائها

الذكور، وأن يبلغ مبلغ الرجال. أخذت تدور وتدور منشغلة بهمساتها المبهمة، أخيرا انهارت على شكل كومة لاهثة مرتعشة، ثم وهى تعاند نفسها، غطست يدها فى المياه الراكدة السوداء وشربت قليلا منها.

لم تخبر أحدا بفعلتها هذه، وعندما ولدت "شحات" دعته باسم "محمد" على اسم نبى الإسلام، ثم، خوفا من عيون الحساد المحيطة بها من كل جانب، بدأت فى المناداة عليه باسمه الحالى وهو "شحات".

كانت أم حامد تترك طفلها بكل قذارته بدون تنظيف، مرتديا ملابس ممزقة، وعيناه تعف عليها زرافات من الذباب التى تنتقل بخفة من عين لأخرى، بدون أن يبذل أحد جهدا لإبعادها. أصبح الطفل " شحات" مهملا بالكلية، وحاولت أمه بكل جهدها أن تخفى عن الجيران وكذلك الجن أن محور حياتها ومركزها يدور حول هذا الطفل. حتى وهو ولد صغير كان "شحات" نصف ملاك ونصف شيطان، يلذ له أن يسير فوق رغفان العيش قبل دخولها الفرن، ويدفع دائما يده الصغيرة فى نيران الكانون، أو أن يحبى مطاردا الخنافس والحيات والعقارب. لهذا لجأت أم حامد إلى الشيخة داية لترقى هذا الولد لتحميه من قرص ولدغ الحشرات والثعابين الزاحفة. منذ أن حصل على الرقية، أصبح بإمكان شحات أن يضع عقربا على ذراعه العارى ويدفعه ليتحرك ولا يحدث له شيء. فى حمى القلق عليه، لم تفطمه أمه إلا بعد أن بلغ الثالثة من العمر.

كلمة شحات لها مدلول آخر فى اللغة العربية، فبالإضافة إلى كونها تعنى متسول، فإنها تعنى أيضا " المرغوب أن نحصل عليه كعطية من الله"، وهذا ملائم تماما لحالة "شحات".

ما أن بلغ شحات السادسة عشر من عمره، حتى بدا عليه كأنه قد اكتمل نموه، فقد تضخمت عضلاته وأصبح بإمكانه أن يؤدى عمل رجلين فى آن واحد. كان سريع البديهة، لكن لا أحد فكر أن يرسله إلى المدرسة الإلزامية التى تقع فى قرية "الكوم" القريبة التى افتتحت مع قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢، هذا التاريخ هو أيضا تاريخ مولد شحات. قليل من الأولاد هم الذين التحقوا بهذه المدرسة، طبقا لخبرة أم حامد وزوجها عبد الباسط، كان التحاق ابنهما بالكتاب الذى يقع فى قرية الكوم كافيا لأن يتعلم كيف يقرأ ويكتب ويجمع ويطرح ويحفظ القرآن، لأن مهنته الأساسية سوف تكون العمل بالزراعة فى الأرض ملكهما. ما أن كبر شحات قليلا، حتى أرسلوه إلى الحقول ليعمل. لم يمانع شحات أبدا، بل إنه أحس بالفخار يملأ جوانحه لأنه كان يؤدى عمل الرجال، وتقبل وضعه هذا لأنها ليست سوى مشيئة الله.

بلغ عبد الباسط الأربعينيات من عمره، لذا ترك موضوع الزراعة كلية على كاهل ابنه شحات، واكتفى بأن يفتتح دكانا صغيرا ملاصقا لجدران المعبد، يتجمع فيه الفلاحون فى أوقات فراغهم ليلعبوا الكوتشينة

والدومينو، واختص كل وقته في معاقرة الخمر ولعب القمار. لم يعد وسيما كعادته، بل أصبح سمينا بشارب أسود كث ووجه أحمر قان بسبب الخمور التي يتجرعها يوميا. يبدأ عادة يومه بقربعة كوز أو اثنين من عرق البلح تكفيه حتى الليل. كان عبد الباسط رجلا لطيفا محبوبا من كل رجالات القرية، يتمتع بموهبة جذب الأصدقاء والاحتفاظ بهم. عندما ترتفع أسهم حظه، يكسب الكثير من لعب الكوتشينة. هو أب وزوج حنون، لكن زوابع الغضب التي تنتابه أحيانا - وهي الدليل على تواجد خليط الدم البدوي الذي يسري في عروقه، وقد ورثه لابنه شحات - تنتهي سريعا كما بدأت.

عندما يجانبه الحظ، كما يحدث أحيانا، تبادر أم حامد - التي تحب زوجها بشكل جنوني وطاغ- ببلع كرامتها التي تعتز بها، وترسل شحات إلى سوق الأقصر محملا بالطماطم والبصل ليقايض بها من باب لباب. كان شحات يتطلع إلى هذه المهمات التي تبدأ في فجر اليوم مصطحبا حماره حتى نهر النيل، ثم يعبره مستخدما المعدية بمجرد أن تبدأ حركة العبور. المعدية الثقيلة العجوز، ذات الشكل الغبي، تتحرك مغادرة الشاطئ بكل تثاقل وبطء. لا يدرك شحات ما إذا كانت قد تحركت أم لا سوى بملاحظة تباعد الشاطئ رويدا رويدا. يأخذ عادة جانبا من المعدية ويراقب الضباب وهو يتصاعد بينما يلف شاله بإحكام على وجهه، ثم يراقب باقي الركاب وقد أحنوا ظهورهم اتقاء

لصقيع الصباح. هؤلاء الناس لا يتحدثون مع بعضهم قليلا. الكل ملخمد(*) فى لفائفه ورؤوسهم تلامس صدورهم فى حالة نوم أو تفكير عميق وتدبر. يبدو لشحات وهو يراقبهم من خلال الضوء الرمادى الغامق للصباح المبكر كأنهم جميعا يمتطون ظهر حيوان خرافى غريب يعوم، مقصده هو بلاد باردة مجهولة. ثم تتأرجح المعدية وتعدل نفسها لأنها بلغت منتصف المسافة، ثم سريعا تكركب بعنف لإجراء مناورة الوصول إلى الشاطئ الآخر.

عندما يعود إلى القرية، يدور هو وأم حامد أرجاء البلدة وقد ارتفعت أصواتهما مولولة، " تعالى وبص. البصل الأخضر الطازا، ياللّه تعالوا، الطماطم ! "، لكن عندما شعرت أم حامد أن هذا الأسلوب فيه إهانة لمركزها، انقطعت عن مصاحبته، وأصبح هو وحيدا، يضحك ويهزر مع كل من يقابله. إنه إنسان ثرثار، لا يحمل هما، يعامل الجميع بالمرح والكل يرحب به. النساء على وجه الخصوص كن متخصصات فى إغاظته، الواحدة منهن تمسك بخضرواته متأففة، وبعبارات ساخرة تقول، " خضارك غالى يا شحات، مش قد كده، انت ليه مغلوانى يا واد". فيبادرها بابتسامة واسعة، ثم يغمز لها ويقول بصوت على مسمع الجميع، "طيب، أشوفك بالليل"، هنا تصطبغ وجنتاها من الخجل، فيجلجل هو بضحكات خشنة عميقة. إذا ظن شحات أن الموقف يدعو للسرور،

(*) ملخمد : فى لغة الصعيد تعنى أنه ملتف بكل ما لديه من ثياب وأغطية .

فإنه فجأة يطلق ضحكات متتالية حتى تدمع عيناه. إنه دائما ما يكون قليل الحياء، ومتخصصا بالذات فى شقلبة التحيات المعتادة. مثلا "صباح الخير" تصبح عنده "صباح الزفت"، و "إن شاء الله بكرة" تصبح "إن شاء الله بكره نموت".

اعتاد جيرانه على فوران طباعه. هناك قول شائع أن الفلاح الصعيدى يشبه البركان الذى ينفجر فجأة فى وقت غير متوقع. إذا عامل أحدهم أبويه بشكل غير لائق، أو أن يسئ أحدهم لطفل أو رجل فقير، حينئذ تنقلب سحنته، وتمتلئ عيناه بأمارات الغضب ويحمر وجهه وتنفر عروقه. ويمكن أن تميز غضب شحات، عندما يرتعد صوته وينبعث من عينيه الشرر ومن الحركات الدائبة لذراعيه الطويلتين بينما يقبض ويبسط كفيه باستمرار. مع ذلك، إذا كان هو سريع الغضب، فإنه ما ينفك أن يعود سريعا ليصبح أليفا وتهدأ أخلاقه. إذا شعر شحات يوما بالانقباض، فإنه يجلس كأنما هو مشلول، يركز ناظريه إلى فضاء نهائى أمامه ويكاد أن لا يسمع صوت أحد. هذا بالطبع يسوء جيرانه ويشعرون كأن هناك شيئا مفقودا فى يومهم هذا.

مماثلا لأم حامد، شحات مغرم بالثرثرة، وطباع وتصرفات زملائه الفلاحين تسحره، ولكى يشرح أحداث يوم ما، يقلد صوت الآخرين ويغير من تعبيرات وجهه وصوته. هو أيضا مثل والدته، يحب أن يسرف فى سرد التفاصيل، يستنبط من الذاكرة وصفا كاملا وحديثا شاملا كان قد استمع إليه سابقا. عندما يتكلم، فإن يديه بأصابعها البدوية لا تهدأ

أبدا، هو يحركها جيئة وذهابا، يرفع إصبعا فى الهواء، يقبض يدا ثم يضرب بها على سطح ما. كل جيرانه يفضلون سماع شحات وهو يصف حادثة ما، من أن يشاهدوها بأنفسهم.

بعد أبيه، الرجلان اللذان يقدرهما هما خاله أحمد، كذلك شريك عبد الباسط فى المزارعة، فاروق، علما بأنهما لا يشبهانه فى شىء.

بالرغم من أنه يعتبر شابا، لأنه لم يتعد بعد أواخر العشرينيات من عمره، إلا أن الخال أحمد كان جهما بارد الأعصاب. لا يميل للمرح والهزار. هو إنسان جاد لا يحيد عن طريقه ويكره الانغماس فى الرغى التافه. يبدو دائما أنيقا فى ملبسه وذا قوة بادية. حوله يتحلق شحات مبهورا وقد اصطبغ وجهه بإعجاب زائد. عندما تقع عيناه على خاله، يشعر فورا بارتباك، كما لو كان فى حضرة بطل من الأساطير، ويحس بخجل بالغ من أساليبه الخشنة الفظة. كان أيضا يشعر بقليل من الغيرة من أحمد لأن أم حامد كانت دوما ما تغمر أخيها بكل الحب الأمومى، فهى التى ربته عندما كان طفلا صغيرا. هى دائما ما تدافع عنه قائلة، "أحمد عمره ما لعب زى العيال التانيين، من صغره كان لازم يكون شديد وياخد حقه بدراعه، وعمرى ما شفته بيضحك من قلبه" .

أما "فاروق" فهو عكس ذلك تماما، هو معجون بالضحك والفرفشة. فاروق فى منتصف الأربعينيات، خشن المظهر، متوسط الطول، وجهه منتفخ، ووجنتاه منقرتان، عيناه حمراوان، شفتاه الرطبتان المنفرجتان

تعطى ذلك المظهر المميز لمعتادى السكر والشهوانيين. كان فاروق هو الملازم الدائم لعبد الباسط فى جلسات قربعة الخمر، عديد من الليالى كانا يحضران إلى المنزل سويا يتطوحان، يداهما متشابكتان، يتمايلان على بعضهما بعضًا. وبصحبة صديق آخر أو جمع من الأصدقاء، يجلسون خارج المنزل يتشاركون فيما بينهم زجاجة عرقى ويتحدثون ويقهقهون بصوت عال.

صلة فاروق بالأسرة أصبحت قوية، منذ عام مضى، عندما بلغ شحات سن الخامسة عشر، غمر الأرض آخر فيضان للنيل فى شهر أغسطس. فالسد العالى الجديد فى أسوان حجز أمامه كمية كافية من الماء تكفى لزراعة سنة كاملة للمرة الأولى فى التاريخ. ويمكن بذلك تحقيق زراعة ثلاثة محاصيل ، بالإضافة إلى إدخال زراعات جديدة مثل قصب السكر. هذا وقد قامت الثورة بتوزيع إقطاعية سنباط على الفلاحين. عبد الباسط، وهو المجند السابق فى الجيش، يحق له أن يحصل على أرض منها، لذا لجأ لأصدقاء عديدين صغار فى الحكومة وأمكن لهؤلاء أن يضعوا اسمه ضمن المستحقين لأرض يتملكها ليزرعها. بالفعل حصل على فدانين وربع فى جهتين مختلفتين من سنباط على بعد حوالى ميل من منزله فى الجهة الأخرى من قرية الكوم. هذا البعد جعل من الضرورى أن يجد شخصا من سكان الكوم يعيش بجوار أرضه يشرف عليها ويحميها.

لم تمنح له الأرض فى التو واللحظة، فقد حرصت الحكومة أن تدل الملاك الجدد عما يجب أن يزرعوه ومتى يحدث ذلك، فهى التى تمدهم بالمياه - ليست كافيه ولا تأتى فى موعدها المناسب- وتدينهم أيضا بأثمان البذور والمخصبات والعمالة. ثم تشترى الحكومة منهم جزءا من المحصول بأبخس الأثمان، هذا يعنى بالضرورة التعامل مع مفتش الزراعة بما يعنيه ذلك من تأخير، محسوبية ورشوة. لذا فضل معظم جيران عبد الباسط أن يتعاملوا مع ما يسمى نظام المزارعة، هو نظام من شأنه أن يقوم شخص ما من قاطنى قرية الكوم بحماية المحصول وأن يكون قادرا على التعامل مع مفتش الزراعة، ويساعد فى أعمال الحرث، الزرع، الرى، التنقية والجنى، على أن يحصل على ثلث المحصول.

فى البداية شارك عبد الباسط المدعو "طيار" وهو زوج ابنته ويملك دكانا، وهو فلاح أيضا مستقر فى الكوم وله شأن معتبر بين الأهالى، لكن عندما طلق طيار زوجته وتزوج من أخرى، استبدله عبد الباسط بفاروق.

شارك فاروق أيضا سبعة فلاحين آخرين بنفس النظام، لذا وجد نفسه يرفل فى عز مقيم. كان سابقا يعمل خادما فى إقطاعية سنباط، وعرف جيدا ما الذى يعنيه الفقر، أما الآن فقد تعرف على النقدية ووفرتها لأول مرة فى حياته. فى البداية عمل بكل جد وإخلاص، لكن بعد

ذلك استخدم عمالا آخرين ليرعوا له المحاصيل وتعامل جيدا مع مفتش الزراعة، بينما انغمس في فج عميق من الدنس، الفجوْر، الشرب المفرط، تدخين الحشيش، مطاردة النساء وقضاء وقت ممتع مع صديقه عبد الباسط يلعبان القمار. قالت عنه أم حامد، إنه يخطر فى شوارع القرية كأنما هو العمدة ممتطيا حماره الأبيض، وجلبابه الأبيض الذى يغيره كل يوم يرفرف حوله، بينما كان واجبا أن يكون مستقره فى الحقول ليرعى مسئولياته العديدة.

شعرت أم حامد بقهر شديد لأن أخلاق فاروق معروفة للجميع، كانت تفضل أن تشارك " طيار" الجسيم، ضخم الجثة ومع ذلك، لا يفوته أبدا حضور صلاة الجمعة، هو إنسان محترم بحق وحقيق. عندما اشتكت بأنه ربما فاروق يغشهم، أخبرها عبد الباسط- الذى لا يرى بأسا أن ينهال عليها ضربا إذا لزم الأمر- أن تخرس وتبلع لسانها. كان هو سعيدا بشريكه، ولا يلتفت أبدا لتقولات الجيران، لأن سمعته كشريب للخمور المعتقة تفوق سمعة فاروق.

شعر شحات بالحزن وهو يشاهد آخر فيضان للنيل، منذ البداية أخذ ينظر بشك نحو سماد نيتروكيما الذى ينتجه مصنع جديد أنشئ فى أسوان ليحل بدلا من غرين النيل الخصيب الذى يرد مع كل فيضان. حتى الآن، كانت الأرض التى تتعرض لفيضان نهر النيل ويحدث لها تسميد طبيعى، هى الوحيدة القابلة للاستزراع، فما أن تصل مياه

الفيضان فى أغسطس لتغمر الأراضى، لا يعد سوى القليل الذى يمكن عمله. فالفـــلاح عليـــه أن يبذر الأرض بتقاوى القمح، الشعير، العدس أو الذرة فى شهر نوفمبر، ثم ينتظر حتى يحين وقت الحصاد فى حدود شهر أبريل.

أما الآن، فإنه يتم استزراع ثلاثة محاصيل خلال العام الواحد، وحتى فى عز الحر اللافح، لا ينتهى العمل فى الحقول، والسماد الصناعى يستخدم للمرة الأولى فى أراضى وادى النيل بالصعيد.

شعر شحات بإحباط بالغ، فهو الذى عليه أن يزرع أرضهم الموروثة من أجداده القائمة بجوار منزلهم ويسعد هو بها. أما الأرض التى تملكوها فى سنباط، فالأمر مختلف، إنهم مضطرون أن يستعينوا بفاروق أو المفتش تقريبا فى شأن كل شىء، ونادرا ما تسير الأمور كما يرام. إنه يتمنى أن يكون مستقلا عن أى إنسان آخر.

منذ أن وصل شحات إلى مرحلة البلوغ، وجد نفسه فى حالة جوع جنسى حاد. كان ممزقا ما بين فخره بذكورته، وبين اعتبارها كلعنة حلت به. القرية لم تمده سوى بالقليل مما يرضيه ويريحه. أطلق عليه فاروق والرجال فى الحقول لفظ " التور "، لأنهم كانوا يتغامزون دائما على حجم قضيبه غير العادى، وادعوا أنه لن يرضيه سوى أن يضاجع حمارة. إنها مأساة كل شبان القرية، فقليل من النسوة كان متاحا، وحتى إذا كن راغبات، فإن المخاطر الاجتماعية فى مجاراتهن كانت

كبيرة وخطيرة. الآيات القرآنية تنص على أن المرأة الزانية ترجم، والزانى أيضا يستحق مئة جلدة.

فى الحقيقة، سار كل شىء فى طريق ممهد، ولو سرا وفى استحياء، فالقوانين الإسلامية تحتاج إلى تقديم دليل قوى، وتهمة الوقوع فى جريمة الزنى تحتاج إلى شهادة أربعة شهود، ومن الطبيعى أن تحقيق هذا الشرط نادر للغاية. آخر حادثة زنى مؤكد، حدثت منذ عدة سنوات سابقة، فيها قام الزوج وأبوها وإخوتها باصطحابها إلى قلب الصحراء وقطعوا رأسها وتركوا جسدها لتنهشه الثعالب، هذا فى نظرهم أفضل من أن تلوكهم الألسنة وتسىء لكرامتهم.

يفتخر رجال القرية بقوتهم وقدرتهم الجنسية وصلابتهم، ويعاملون زوجاتهم بنوع من الغلظة، ودائما ما ينادون على زوجاتهم بقولهم "يا مرة"، وهم دائما ما يحاولون إخضاعها والحط من شأنها. هذا الفخار دعا الذكور المتنافسين لسلوك مزالق أقل احتراما مثل السادية، السيطرة الغاشمة وحتى المعاشرة المثلية. هذه النوعية الأخيرة، سواء تمت مع ذكر آخر أو حيوان، كان ينظر إليها دائما كأنها هفوة أو ذلة بسيطة.

تعرض شحات لكرب بالغ عندما حضر إليه بعض شباب القرية، وكان معهم صديقه " العزب" واصطحبوه إلى حقل ذرة وعرضوا عليه حمارة للمنافسة عمن هو " الأقوى جنسيا".

ما أن سمع فاروق والآخرون بهذه الحادثة حتى انفجروا ضاحكين، واعتبروا هذا دليلا أكيدا على قوة وعنفوان شحات.

تفشى السودومية أزعج نساء القرية. فأم حامد، وهى مستعدة تماما لإساءة الظن دائما بفاروق، لم تصبها الدهشة عندما علمت أنه يضاجع الأولاد أو الحيوانات ضمن رذائله العديدة الأخرى. قالت صراحة لعبد الباسط، إن هذا الرجل هو مثال سيئ بالنسبة لابنها.

عديد من المرات، كان فاروق يصطحب شحات إلى منزل أرملة عجوز لديها بنتان يمتهنان الدعارة. هناك حصل شحات على أنثاه الأولى. لكن، بالرغم من أنه لا يخشى الموت، إلا أنه لديه هلع بالغ من الأمراض، لذا عندما علم أن هناك عددا كبيرا من الرجال يرتادون هذا المنزل، خشى على نفسه وامتنع عن الذهاب مرة أخرى.

معظم الأمور الجنسية، تتطرق إليها نسوة القرية بكل حرية فيما بينهن مشابهين فى ذلك الرجال. أم حامد وصديقاتها يتناقشن فى أكثر التفاصيل خصوصية فى علاقتهن الجنسية مع رجالهن، ودرجت الفتيات الصغيرات على معرفة كل شيء، لكن فى التجربة، لا شيء. هذا الجو والطابع الوثنى من الشهوانية، مرتبط بالعقوبات الإسلامية الشديدة وكذلك يختفى خلف جو غريب من التحمل المختلط بالتوتر. كل شيء سار مسيرته فى كتمان، فالدردشة الهامسة يتم الترحيب والسعى إليها، لكن الجهر مصيره هو الإدانة القاسية التى لا ترحم.

إذا كان عبد الباسط، أحمد وفاروق يوضحون لشحات كيف على المرء أن يتعايش ويتصرف فى المواقف المختلفة، إلا أن أمه نبهته وحذرته من جماعة الأشرار، هم جميعا أقرباء زوجها عبد الباسط - أخته الكبرى " فتنة" وابنا العم وهما " صبحى" و " الحاج على" - خلال سنوات طويلة، لم تزرهم أبدا أم حامد، وعندما تتحدث عنهم، يبدو فى لهجتها نبرة غضب واتهام.

أثناء نمو شحات، أصبح معتادا على سماع اتهامات والدته التى تتعدى المئات ضد أقرباء زوجها ومؤامراتهم التى يحبكونها باستمرار ضدها هى وزوجها. فى منتصف العمر، درجت أم حامد على شد أنفاس الشيشة فى الأمسيات، ثم تنهمك فى سرد خيالات رومانتيكية فيما يختص بأقرباء زوجها، هى جميعا تتدرج ما بين اللون الأسود والرمادى. طبقا لرواياتها، العمة فتنة هى إنسانة بخيلة وأنانية، وحتى عندما كانت أم حامد ما زالت عروسا، كانت فتنة تعترض بكل قوتها إذا ضبطت أم حامد وهى تحمل طعاما لأخيها أحمد. لكن الأشرار بحق هما صبحى والحاج على، اللذان صورتهما كلصين تخصصا فى سرقة الأيتام والأرامل، وجريمتهما عبارة عن عدد لا نهائى من المآزق والغش والإهانة التى لحقت بها أو بزوجها. فى الواقع هى لم تنجح أبدا فى أن تكون اتهاماتها محددة المعالم، لذا لم يدر شحات أين هى الحقيقة.

كانت أم حامد تصدق قصصها بكل ثقة، هي إنسانة صادقة وأمينة، صادقة تماما في شأن تخيلاتها وتصوراتها فيما يختص بما حدث لها ومعها، حتى فاروق اعتبرته قديسا بالمقارنة بأقرباء زوجها. من الواضح أيضا أن فاروق كان يعز أم حامد ودائما ما يأخذ حريته وهو يتصرف أمامها، بل أحيانا كان يشاركها في كركرة الشيشة. بالرغم من شكواها وشكوكها المتنوعة، فإنها يمكن أن تغفر لفاروق هفواته وسقطاته، فهو مماثل لها، يهوى المرح والانبساط.

أما قريبا زوجها، فهذا أمر آخر، فمؤكد أن كلا منهما قد اغتنى فجأة بطريقة غامضة. قيل إن ثراءهما راجع إلى اتجارهما في الآثار الفرعونية، لكن لم يثبت عليهما شيء ما، كلاهما كانا على صلة وثيقة برجال البوليس.

صبحي، هو الأصغر، ما زال في الثلاثينيات من عمره، كان يتاجر أولا في السمك، لكن بين يوم وليلة حصل على مال وفير مكنه من افتتاح لوكاندة موقعها لا يبعد كثيرا عن بيت عبد الباسط بجوار المدخل العظيم لمدينة هابو. أم حامد لم تتهم صبحي بما يسيء عندما كان يبيع السمك، لكن بمجرد ما افتتح فندقه الذي دعاه باسم " فندق هابو "، حتى جذب إليه كل أشقياء وصيع الشط الغربي للنيل. ما أن أصبح مالكا للفندق، حتى اكتسى جسمه بلحم وفير ولازمته طباع شرسة مشاكسة. كان دائما ما يقدم لضابط النقطة خمورا مجانية، ولم يعد لديه أي مانع أن يخبص

على جيرانه، وسلك بذلك طريق كله عداء وخصام. كان يفاخر بأنه لا يسير أبدا بدون الطبنجة محشورة فى جيبه. فى اللوكاندة، أحاط به جمع كبير من المنافقين والمتسكعين الذين كان يغدق عليهم بين الحين والآخر بالخمور والمآكل. هؤلاء الناس كانوا يسارعون إلى إشعال سيجارته بنوع من الخنوع، ودائما ما يسارعون على الموافقة على كل ما ينطق به.

أما الحاج على، فهو له نفس الصفات، إلا أنه كان كثير السفر إلى القاهرة، ودائما شاغلا فكره بمشروع شرير أو آخر. هو فى الخمسينيات من عمره، عينه يشع فيها المكر، تقيس الأمور وتتحوط لها جيدا، له أنف صقر، وجه ملئ بالتجاعيد، طباعه فيها ليونة وغموض، نظراته دائما متفحصة مترقبة، له معين لا ينضب من التحايل والتلفيق كأنما هو ثعلب ماكر، يعرف جيدا من أين تؤكل الكتف.

خلال ثلاثين عاما من العراك والخناق مع أبناء عم عبد الباسط، وهم " فتنة"، صبحى والحاج على، حاولت أم حامد كثيرا أن تبسط حمامات السلام والوئام بينها وبينهم، من جانب كنوع من التدبير لأن لدى كل منهم قدر وفير من المال، أيضا لم تشأ أن ينشأ شحات وأخواه الاثنان بدون أن يكون لديهم عزوة وعلى صلة بأقاربهم. كان يشاركها فى هذا الرأى على الأقل كل من صبحى والحاج على - لأن أم حامد لم تر فتنة منذ عدة سنوات- لذا كان يبدو أن هناك نوعا من الهدنة فى تلك

المعارك، لكنها كانت تشتعل مرة أخرى لأسباب جديدة. أما عبد الباسط، وهو الإنسان الطيب الودود، فقد ارتضى أن يحتفظ بالسلام فى منزله وذلك بأخذ جانب زوجته.

حقيقة أنه بنى منزلا راعى فيه أن يبتعد بقدر الإمكان عن أقربائه، لكنه شعر بالإحباط والأسى عندما افتتح صبحى لوكاندته تقريبا ملاصقة لمنزله ولا يفصلهما سوى حارة ملتوية منبثقة من طريق المعبد. صب عبد الباسط بنفسه قوالب الطين اللبن، حرص أن يكون البيت من طابقين، سقفه بجذوع وفروع النخيل، به برج للحمام له حيطان تميل إلى الخلف على الطراز الفرعونى، هذا أعطى لمنزله مظهرا كأنما هو قلعة حصينة.

للبيت بوابة خشبية ثقيلة تفتح مباشرة على مندرة أمامية متسعة يمرح فيه الهواء ويشع الضوء من خلال طاقتين صغيرتين أعلى الجدار، ومثل السقف زينت هاتان الطاقتان بالطين الرمادى والتبن، وزينت الجدران بمعلقات من ورق الجرائد وقد ثبتتها أم حامد بديلا عن التصاوير. على جانب توجد كنبة متسعة ينام عليها شحات ليلا، وعلى الكنبة طبقت بعض الأغطية. على جانب آخر تجد بعض القلل وكذلك الرحاية التى تطحن بها أم حامد الذرة. هذه الغرفة تعتبر شبه خالية، لذا على الضيوف أن يجلسوا على الكنبة أو على الأرض. خلفا تقع غرفة أخرى مخصصة للحريم، ثم نجد زريبة

الحيوانات، بعدها فسحة مكشوفة، يليها المطبخ حيث يوجد فرن واسع يشغل كل عرض الحائط وقد اسود شكله بسبب الدخان الصادر منه كذلك بسبب الذباب الذى يزن طوال النهار حوله، هو ذباب مزعج لحوح لا سيما فى الربيع والخريف. يوجد أيضا سلم خارجى يؤدى إلى غرفة السطوح، ثم فسحة متسعة تتجمع فيها العائلة لتناول وجبة المساء. بالغرفة العليا أهم ما تمتلكه العائلة من متاع، فيها ينام كل من عبد الباسط وأم حامد. على جانبين من الغرفة وضعت كنبتان تغطيهما مفارش بيضاء. بالغرفة أيضا دولاب به مرآة مشروخة، أيضا صوان أدراج خشبى عليه أكوام مما يخطر أو لا يخطر على البال من ملابس وبرام وأوانى أخرى. هذه الغرفة العلوية لها نافذتان كبيرتان، الأولى تفتح على الحارة وتطل على جدران المعبد، الأخرى تواجه ترعة رمسيس والأرض الزراعية التى تمتلكها العائلة. دائما ما تشاهد أحدهم وهو يمر سائرا على الطريق المجاور للترعة، أو ترى نسوة اتشحن بالملابس السوداء أو رجالا بملابسهم البيضاء أو الملونة إما ممتطين الحمير أو مترجلين. يمر فى هذا الطريق تلاميذ المدارس، قطعان الماشية، طابور من الجمال، جواميس متجهة إلى الماء أو رجال آتون من الحقول على أكتافهم الفئوس والمناجل. غربا ارتفعت بقايا المعبد الجرانيتى الذى يعلو فوق قمم المنازل وفروع النخيل العالية التى يلاعبها الهواء. من هنا تبدو القرية آمنة وممتعة للنظر.

الغريب قد يجد أن هذه الغرفة سيئة الشكل مشوهة، لكن بالنسبة لأم حامد هى مصدر الذكريات ومخزن لكل ما تعتز به. لسنوات عدة لم يعرف شحات كيف انشرخت مرآة الدولاب - وهو جزء من جهاز أم حامد - إلى أن أخبرته أمه بالقصة. إنها تتذكر الحادثة كأنها حدثت بالأمس فقط، فيوم أن فطمت شحات، أحضر عبد الباسط إلى البيت فتاة سمينة فى الرابعة عشر من عمرها قال إن اسمها حسنية، وإنه قد عقد عليها وبذلك هى زوجته الثانية. فى غضبة عاتية صرخت أم حامد، " لا، لا. اختار بينى وبينها ! أنا مش قاعدة معاك بعد كده"، ثم طوحت فى اتجاهه ببراد الشاى فأصاب المرآة وشرخها.

من ضمن خيبات الأمل التى تعرضت لها أم حامد فى حياتها، كانت هذا الطامة الكبرى، قد كرهت حتى أن تتذكر تلك الحادثة. أسرعت أم حامد على حبيبتها الشيخة داية إلى طمأنتها قائلة، "ما تخافيش، أنا حاعمل تحويطة تخللى عبد الباسط ليكى لوحدك". حضرت الشيخة تلك التعويذة، لكن أم حامد لم تحتاجها، فقد ضبط عبد الباسط العروس الجديدة وهى تسرق نقودا فطلقها على الفور بعد أربعة عشر يوما من الزواج. بعد عدة سنوات، كانت أم حامد عائدة مع زوجها للمنزل عندما مرا بجوار حسنية، التى تزوجت من آخر وعاشت فى مكان بعيد. سأل عبد الباسط، "مين الست دى؟ ". لقد فشل فى التعرف عليها، كان هذا مصدر سرور ورضا بالغ من أم حامد، فهذا الموضوع بالذات جرح

كرامتها وأذلها أكبر ذل فى حياتها. لم يكن عبد الباسط من النوع الخائن ولم يفكر أبدا بعد ذلك فى أن يتزوج من أخرى، بالرغم من أنه محلل له أن يتزوج حتى أربعة من النساء.

تسير أم حامد دائما والفخار يملأ جوانحها محاولة قدر إمكانها أن تدارى الجانب التشاؤمى من شخصيتها، لكن شحات يعلم يقينا أنها تفضل النوم على الكنبة التى تقع بجوار الحائط البحرى، لأن فوقها تحصل على أعز أحلامها. إنها تؤمن إيمانا أكيدا بهذه الأحلام. مرة عندما كان شحات مريضا بحمى شديدة وهو طفل، حلمت أنها راكبة فلوكة فى النيل، ثم رأت شحات واقفا على الجانب الغربى للنيل، وسمعت صوتا يقول "مع السلامة" ثم شاهدته وهو يطير فى الجو حتى استقر بين ذراعيها. عندما استيقظت، وجدت أنه قد شفى. مرة أخرى حلمت أيضا أنها على مركب راس على الجانب الشرقى للنيل بجوار مقام شيخ اسمه"نوبى". بعدها علمت أن هناك فعلا مقاما لشيخ بهذا الاسم لا يبعد كثيرا عن معبد الكرنك. لذا صلت إلى الله، ووعدت بأنها إذا ولدت غلاما فإنها سوف تدعوه "نوبى"، وعندما ولدت نوبى أخذته إلى المقام وضحت هناك بخروف. من يومها تعتقد أم حامد اعتقادا جازما فى أحلامها، لا سيما إذا ظهر فى الحلم اللون الأخضر.

ما أن بلغ شحات سن السادسة عشرة، حتى أصبح مصدرا للمتاعب، كان كثير من الغرباء يقابلون أم حامد ويشتكون منه.

"شحات اتعارك مع ولدى امبارح، ولدك ده مجنون" أو "شحات عض إيدى، لازم أروح الوحدة الصحية، لكن مين يدفعلى المصاريف؟ ".

ضبطته مرة وهو يسرق البيض من غرفة الخزين، اكتشفت أيضا أن هناك غلة مسروقة. لم تعلم أن كل فتيان القرية يفعلون هكذا وأنهم يبادلون المسروقات بالحشيش الذى يدخنونه سرا فى الحقول.

احتار عبد الباسط فيما يصنعه مع هذا الولد، فهو لم يعاقب ابنه من قبل. أحيانا كان شحات يأخذ اللحم المجنب ليأكله أبوه ويعطيه لأصدقائه، عندما تكتشف أم حامد ذلك تصرخ، "يا نهار اسود، عبد الباسط حيطلقنى وانت حتكون السبب يا فقرى!". لكن أباه عندما يكتشف ذلك يضحك قائلا، "إذا شحات أكل اللحمة دى، بطنى أنا تتملى"، بعدها بزمن قالت أم حامد لشحات، "لما كنت انت ولد صغير، عمرى ما شفت ابوك زعلان منى أو مد إيده عليك، يظهر إنه كان غلطان فى كده ". كان شحات يحس بولاء وحب شديد تجاه والده، عندما يبيع البصل والطماطم، لا يعطى النقود كلها لأم حامد، بل يستبقى منها جزءا يعطيه لأبيه بالرغم من معارضة أمه التى كانت تصرخ، "إوعى تديله أى فلوس، أبوك إيده مخرومة".

ثم مرة ضبطه عبد الباسط وهو يحاول بكل جهده أن يحمل شيكارة محملة بالغلة، وجد حينذاك أنه مضطر اضطرارا أن يعاقبه، لذا ربطه فى زريبة البهائم وتركه هناك مدة يوم كامل قائلا، "إذا كنت عايز

تعمل نفسك حمار، يبقى لازم تشاركه فى نفس المربط". لكن عندما غادر عبد الباسط المنزل، أحضرت له أم حامد أكلا وشايا.

كان الشك يساورهم بأن شحات يتعاطى الخمور، لكن كان الدليل يعوزهم، إلى أن ذهب شحات وصديقه "العزب" إلى الأقصر واشتريا زجاجة "براندى فرنساوى"، واحتسياها سويا وسارا فى شوارع المدينة وهما يتطوحان ويسبان كل من يقابلها ويتحديان الغرباء فى النزال والقتال. سببا إزعاجا لا مثيل له، مما اضطر البوليس أن يطاردهما، تم بالفعل القبض على "العزب" وصفع عدة صفعات وألقى به فى إسطبل قسم البوليس إلى أن يفيق صباحا. أما شحات فإنه استطاع أن يهرب مستغلا الظلال التى تفرشها الأشجار الواقعة بجوار معبد الأقصر، لكنه للأسف وقع فى بلاعة مفتوحة، إلا أنه استطاع بعد جهد جهيد أن يخرج منها واتجه نحو النيل وغطس فيه ليغسل نفسه وهدومه، لكنه عندما خبط على منزل خاله أحمد الذى يقع على الجانب الغربى من النيل، وهو ما زال مسطولا ومبلولا ورائحته ما زالت كلها مجارى، على وجهه ارتسمت ابتسامة بلهاء، سبه أحمد وصفعه عدة أقلام ثم أعاده إلى منزله مرتديا جلابية نظيفة من جلابيب الخال.

عندما سمع عبد الباسط بهذا الموضوع، أحضر عصا غليظة، لكن شحات هرب وركب عربة يجرها حصان ونام فوقها. عندما استيقظ، وجد أنه فى بلدة دندرة، وهى بلدة تقع على النيل وتبعد عن قريته بمسافة

ستين كيلومتر تقريبا. وهو جائع بلا نقود فى جيبه، شعر بالذل والمهانة وتملكه فى نفس الوقت نوع من العناد العجيب، لذا سار على قدميه إلى أن وصل لقريته واستغرق فى ذلك يومين كاملين يقتات بالبلح ويشرب من ماء الترعة. عاد بأقدام متقرحة ووجه متعب مرهق يدعو للرثاء. رأى عبد الباسط أنه قد تعرض لعقاب كاف ولم يجد من المناسب أن يزيد على ذلك.

كانت أم حامد فى خشية بالغة من أن يكون شيطنة شحات ليست سوى عقاب من الله لها، لأنها طلبت شيئا من الإله القديم وشربت من بركته الآسنة. حاولت أن تقنع نفسها أن المعبد ليس سوى أحجار لا تنطق ولا تفكر، وأن الماضى قد مضى وولى، لكن فى أعماق قلبها المتطير خشيت أن يقتحم عليها هذا الشعور حاضرها، وأن تأثيره لن ينتهى أبدا.

سنية

حضر شحات يوما معلنا أنه سوف يتزوج سنية، وهى الفتاة الجميلة التى تعيش فى منزل بجوار الترعة. شعرت أم حامد ومعها زوجها بحيرة بالغة، فشحات ما زال صغيرا لم يتعد السادسة عشر من العمر. مع ذلك فمعظم الشبان فى القرية يتزوجون فى العشرينيات من عمرهم. كان اعتراضهما الأساسى هو أن سنية تنتمى إلى قبيلة "الجمسية" المكروهة، هم جماعة تخصصت منذ زمن بعيد فى إمداد المنازل بالماء فى قرب (سقاء)، ويؤمن الجميع هنا أن هؤلاء الناس عرب لعنهم النبى محمد، ومنذ نزوحهم إلى مصر العليا، تعرض نسلهم بعد ذلك إلى احتقار وتقليل شأن.

كان من رأى أم حامد أن الزواج من جمسية أمر لا يمكن حتى التفكير فيه، لذا طوحت بيديها فى الهواء صارخة، "أبدا، أبدا يا ولدى، سنية دى من بيت خراب، دول غلطوا فى حق سيدنا محمد، دول يا ولدى حرامية وخاينين، حنرفع راسنا ازاى بعد كده قدام الناس؟".

أم حـــامد لا تحمـــل فى قلبها شيئا فيمـــا يختص بسنية نفسـها، بل كانت تحبـها وتعزها. فقد نما كل من شحات وسنية وهما متقاربان، وكثيرا مـا لعبا سويا وهما صغار. الآن هى فى الرابعة عشرة من العمر، لقد نمت وأصبحت فتاة لطيفة دقيقة، لكن بملامح فتانة وبشرة سمراء لوحتها شمس عفية. تعبيرات وجهها تدل على أنها ما زالت طفلة كلها تساؤل واثق. كثيرا ما كانت تبتسم ابتسامة حزينة خجولة. هى فعلا صغيرة – لم تبرز مفاتنها جيدا – لكن تعتبر فى سن زواج. هى إنسانة مريحة، لو كانت من عائلة أخرى، لوافقت أم حامد فى التو واللحظة وحصلت على موافقتها وبركاتها. تعلم الأم أن شحات قد بلغ مبكرا وسوف تستقر أحواله إذا تزوج.

بدلا من ذلك، حفزت عبد الباسط ليقف فى طريق هذا الزواج، "حتكون مصيبة كبيرة لعيلتنا لو أخدنا واحدة جمسية، شحات لسه صغير ما يفهمش فى الحاجات دى".

أحـــد خفـــراء القريـــة، المدعو "سليم"، تزوج جمسية لأن جدهم الأكبر واحـــد. والآن، لا أحـــد يهتم بـــه أو بعائلتـــه أو حتى يـــزورهم. إنه يزرع خمسة فدادين جنوب المعبد، ومنزله يقع على حافة الصحراء، يعـيش هو وأبناؤه الستـة بمعـزل عن باقى جيـرانه. سليم هذا بلغ الخمسين من العمر وأصبح وحيدا معزولا. لم ترض أم حامد أن يكون هذا هو مصير ابنها.

ناصر عبد الباسط رأى زوجتـــه وتعهــد أن يكسر هذا الافتتان، لذا أخبر أقرباءه وكذلك أصدقـــاء شحات ليحاولوا إقناعه بأن الزواج من جمسية سوف يجر عليه ندم العمر.

فى ذلك الحين، كان شحات يزرع الفدان الذى ورثه عبد الباسط من أبيـــه، وهو ينحصـــر ما بين المنازل والترعة الجديدة. كان شحات قـوى البنيـة، عندما يحرث يستند بقوة على المحراث بيديه الضخمتين وهو يزعق "ها".. "هوش" وهو يقود البقرتين، ولأنه لا يستخدم لجاما، لذا يبدو كأنه يفحت الأرض بقوة شكيمته وإرادته. عندما يحصد البرسيم ويحنى وسطه، لا يتأوه أو يتوجع مثل الضعفاء، لكنه يضرب بمنجله بقوة ولا يتوقــف للحظـــة، بينمـــا عضـــلات أكتافه ترتفع وتهبط كأنما هى ونش متحرك.

يروى شحات هذه الأرض باستخدام الشادوف، وهو عمل شاق للغايـــة، حيث يضطـــر أن ينحنـــى وينبسط دائما ليرفع ويصب آلاف من جرادل المياه من الترعة كل يوم. هو عمل يحتاج رتما منتظما وأذرعا وسيقانا قدت من حديد. أكثر الأمور غرابة فى هذا العمل، هو قيامه بخلع كل ملابســه ما عدا مـا يستـر عورته، ويغنى بلا توقف بصوته الأجش الغليظ. إنها صورة نادرة تستحق الحفظ والتسجيل.

أحيانا عندما تكون المياه ناقصة فى الترعة، فإنه يروى الأرض باستخدام الساقية، وهى عبارة عن عجلة خشبية أفقية، كان قد بناها

"خليفة" وهو جد عبد الباسط منذ زمن بعيد. هذه الساقية تدور على عكس دوران الساعة باستخدام بقرتين. مفصلات هذه العجلة خشبية ساذجة تشتبك مع عجلة دائرية أخرى رأسية مثبت فيها حزام عليه عدد من البلاليص التى تبلغ المياه فى البئر وتمتلئ ثم ترتفع لتصب فى مجرى لتسقى الزرع. عين المياه هذه وكذا الساقية قديمتان قدم التاريخ ذاته، كذلك تلك الأغنيات الحزينة التى يتغنى بها شحات وهو يشرف على عمل الساقية.

منزل والدى سنية يطل على أرض عبد الباسط المزروعة بالبرسيم والبصل، بالإضافة إلى جنينة صغيرة زرع فيها والد شحات بعض أشجار الأعناب بالإضافة إلى عشر نخلات. كثيرا عندما ينهمك شحات فى العمل يلاحظ أن سنية تراقبه وهى تطل من الشباك، كانت جميلة المحيا بوجه صغير شاحب وأنف محندق وعينين براقتين. ما أن يركز عينيه مستجليا عينيها الخجولتين وشعرها الطويل المرسل على رقبتها، حينئذ يرفع عقيرته بالغناء والشدو وهو مسترسل فى رفع جردل الشادوف. كان غناؤه مليئا بعاطفة ملتهبة وقوة وشباب، لكن الأغنية حزينة ووجهه تتغير تقاطيعه مع تتابع مجرياتها. فى الليل، يختبئ خلف شجرة السنط تحت شباك سنية وينادى عليها بصوت هامس لتخرج وتقابله. كانت أمها تظن أن هناك كلبا يعوى، لذا تخرج رأسها من الباب وتنهر، "امشى، امشى يا كلب"، حينئذ كلاهما يضحك ضحكات مكتومة.

أبو سنية يعمل بعيدا عن بلدته فى السد العالى بأسوان، ونادرا ما يحضر، لذا كان لسنية حرية معقولة فى الدخول والخروج.

أحيانا، إذا لم يكن هناك من يراقب، يخطف هو قبلة سريعة، ثم تخبره سنية بصوت حنون هادئ كيف أنها تشتاق إليه وهو بعيد عنها. مرة أحضرت له زجاجة كونياك وخبأتها فى مقطف بصل، فزحفا إلى الجنينة تحت ظل حائط عال وجلسا ملتصقين ببعضهما. سكر شحات، وبدلا من أن يصبح سخيفا، مشاغبا أو يشعر بالغثيان، كما كان يحدث معه عادة، أحس بنوع عميق من الراحة والسرور وتحدث بالساعات مخبرا سنية عما يفكر فيه وما ينتويه، وأخذت سنية تلاحظه بعيون نشوانة وتكاد أن تشرب كل كلمة ينطق بها.

بعد ذلك، أصبحت هذه الجنينة هى عالمها الخاص، كان الهواء منعشا دافئا، ورائحة الحنة تعبق المكان والنسيم يحرك فروع النخيل بكل خفة وحنية. هذه الأوقات النادرة، كانت فى نظر شحات قمة الانتعاش والفرح، فيها يحس كأن السماء الزرقاء الصافية، لقطات الضياء التى تتخلل فروع النخيل، الحشائش التى دبلتها الشمس، جميعها قد خلقت من أجلهما. إذا أحضرت له سنية زجاجة براندى أو كونياك، يشرب قليلا ثم ينسى نفسه وينطلق فى الحديث كأنما روحه قد تحررت أو أن هناك صحراء واسعة أمامه تفتحت مسالكها وتمتد إلى أقصى حد البصر. كلام سنية قليل، وكل ما تفعله هو أن تحدق فى وجهه بوجد

وافتتان أو أن تنظر إلى الأرض بطريقة رقيقة وجميلة، هنا يحس شحات أنه قد استولى على قلبها وفكرها وعواطفها وأصبحت أسيرة سحره. بمرور الوقت يقل كلامه، فالأحباء يفهمون لغات بعضهم عندما يصمتون، لم يعد شحات فى حاجة لمزيد من الحديث.

هذه المقابلات لم تمر هكذا بدون أن يلاحظها أحد. عبد الباسط كان يشاهد ما يحدث من نافذة الغرفة العلوية. فى يوم شاهد شحات وهو يقطف بصلا ليعطيه لسنية، فزعق فيه عندما عاد للمنزل، "يا ابن الكلب ! ازاى تدى حاجاتنا لواحدة جمسية؟"، لكن بسرعة تدخلت أم حامد بينهما صارخة، "لا لا يا راجلى، ما انت عارف إن شحات لسه صغير، وانت كمان المحقوق علشان سبتله الحبل على الغارب من زمان".

كان كبرياء أم حامد فى خطر محدق، فزواج شحات من جمسية يعنى العار والشنار، ولأنها خشيت أن يفقد انتماءه لهم، لذا استخدمت المنطق للرجوع عن قراره، "عشان تتجوز عن حب يا شحات، ده معناه إنك حتخلف أولاد، والجواز معناه إنك حتفتح بيت، عشان كده لازم تكون راجل بجد يراعى بيته وشغله وأولاده الكتار ويعرف يربيهم، معناه إنك تكبر وتعيش بنى آدم صحيح ليه هيبته واحترامه". شرحت له أم حامد نوعية الزواج طبقا لتصوراتها، فالفتاة الصغيرة تتمنى: زواجا يمنحها حبا وراحة ومكانا سكنيا مناسبا، هى تعرف من خبرات لم تكتسبها بالساهل أن حرية وكرامة الفلاح تتركز فى مراعاة التقاليد التى استقرت

معاييرها على مر الأزمان. الشكل النمونجى فى نظرها هو أن يمتلك الفلاح أرضا وجاموسة ، ثم يتزوج ويخلف عددا كبيرا من الأولاد - لا سيما الصبيان - ويفرح ويبتهج بأيامه. عرفت أم حامد كثيرا من الشباب يشبهون شحات، كلهم صبوة وشهوانية ورومانتيكية، لكن كل نيران الشهوة سوف تخمد وتنطفئ جذوتها مع الزمن، ما أن يصل الرجل إلى سن الثلاثين من عمره أو بعدها بقليل، يكون همه حينذاك منحصرا فى أولاده، بيته، حاجات حقله والمركز الاجتماعى لأسرته فى محيط القرية التى تربط الرجل بزوجته برباط وثيق. فى نظرها، يظل الرجال محتفظين بمكانتهم وسط المجتمع، ليس بسبب فضائلهم، لكن بمراعاة قواعد الشريعة الإسلامية والالتزام بالعادات الاجتماعية للقرية.

بالنسبة لعائلة أم حامد، يعتبر التملك والمركز الاجتماعى هو كل ما يهم، ومهمة العائلة هى التمسك بتلك التقاليد والقيم، أن ترعى أرضها، تخلف عددا كبيرا من البنين ليساعدوا فى العمل ثم يخلفونهم بعد ذلك وهكذا دواليك. من يستخف بتلك القواعد يعاقب أشد العقاب عندما ينبذه المجتمع ولا يتعامل معه إلا فى أضيق الحدود. كما أن أم حامد يملأها الفخار والعزة بالنفس، لكنها أيضا كانت حصيفة وواقعية، فبينما بقليل من الخيال تصور لنفسها صورا رائعة لحياتها إذا تغيرت ظروفها، إلا أنه عليها أيضا أن تهبط إلى أرض الواقع وتتعامل معه. لذلك تضرعت لابنها قائلة، "الجوازة اللى بتفكر فيها دى لا فيها عقل ولا تفكير.

إنت ناطح فى موضوع حيخليك ندمان طول عمرك". لم ترفع من نبرة صوتها، لكن كانت تعلم يقينا أن مستقبلها كله فى مهب الريح.

ثار أحمد خال شحات عندما استمع تلك الأنباء. أحمد هذا شاب أنيق يهتم بنوعية ملابسه، منتصب القامة ومنظره مهيب، متين البنيان، طباعه باردة رزينة وتعبيرات جسمه كلها تشبه تصاوير هؤلاء المحاربين الذين نشاهدهم فى الأنصاب الفرعونية. هو متزوج ويعيش بقرب نهر النيل، له دخل محترم من عمله كرئيس للخفراء الليليين لأكبر فنادق الأقصر. من النظرة الأولى، يتأكد الإنسان أنه يرأس آخرين، فهو له نظرة قاسية ثاقبة، يمكن بها أن يصفع مرؤوسه دون أن يهتز له طرف. يبدو هذا كله من طريقة جلوسه منتصبا، ومن الطريقة التى يتحدث بها وهو يلوك الكلام من طرف فمه، مظهرا بياض أسنانه الناصع، ومن تعبيرات وجهه الجادة التى قد تلحظها على وجوه من اعتادوا على التفكير العميق وهم فى وحدتهم. أم حامد مغرمة به وتعامله كأنها هى أمه وليست أخته. هى تعلم تماما أن أحمد هذا هو ملاذها الأخير فى كل ملماتها.

ما أن سمع أحمد أن شحات ينوى الزواج بجمسية، حتى استشاط غضبا وأتى إلى البيت وقبض على كتفى ابن أخته يهزهما صارخا، "إذا اتجوزت البت دى يا شحات، أنا حتبرى منك، وحياة النبى ده هو اللى حيحصل، دا أنا أقتلك ولا تتجوز جمسية، دا إحنا كلنا حنتجرس ويتخرب بيتنا".

شحات وهو الآن فى السابعة عشر من عمره، دائما ما كان ينظر لخاله كبطل صنديد. صحيح أنه يحب أباه بجماع قلبه، لكن عبد الباسط بانهماكه فى الشرب والقمار، كان فى نظر ابنه إنسانا طريا بحبوحا ومتباسطا، لكنه فى النهاية إنسان ضعيف لا يقدر المسئولية. أما أحمد فهو مختلف تماما. عبد الباسط لا يهتم كثيرا بالمال أو السلطة أو المظهر الحسن، هو اعتاد أن يذكر دائما بأن الفلاح ليس مجبرا أن يذهب للجامع فى كل آن وهو يغص بالمنافقين والمدعين من كل صنف. إنه لا يصلى بانتظام، لا يصوم رمضان إلا إذا أجبرته أم حامد. مبدأه هو أن على الإنسان أن يبهج نفسه باللحظة الحاضرة ولا سيما أن جميعنا مصيرنا هو القبر. عبد الباسط كله إنسانية، أحمد هو مثال البطولة التى تجتاح خيال شحات.

معارضة أحمد القوية كونت لدى شحات أولى بذور الشك فى ذهنه، فمنذ عدة أسابيع عندما تقدم ليخطب سنية، لاحظ أنها وافقت على الفور وقد غمرتها سعادة طاغية، فهى كانت على خوف مقيم بأن يعمد أبوها لتزويجها من شخص آخر. كان شحات يعلم أن زواجه من جمسية سوف يؤدى إلى نبذه، لكنه لم يهتم كثيرا بذلك، فأبناء سالم الذى تزوج بجمسية منذ زمن بعيد، وهما سيد وجمال يعتبرا من أعز أصدقائه. صحيح أن سالم منبوذ فى حقله البعيد، ولم يتقدم أحد حتى الآن لطلب يد ابنته التى تعدت سن العشرين من عمرها، لذا تعتبر الآن فى حكم العانس.

للمرة الأولى بدأ شحات ينظر إلى مشروع الزواج هذا بنظرة عملية، قال لسنية، "إذا ما وافقش ابويا وامى، يبقى لازم نهرب على مصر، وأى فلوس حناخدها من هنا حتتفرتك بسرعة. لكن بس حنعيش ازاى ؟ وازاى أشتغل فى بلد غريبة ؟ ونعمل إيه لو ما لقتش شغل أو بيت نسكن فيه؟ "

أنصتت إليه سنية، ثم شحب وجهها واتسعت حدقتا عينيها وارتعشت شفتاها. فقد استقر خوف قاتل فى قلبها، مع ذلك قالت بصوت أجوف خافت، "أنا عندى شوية دهبات، وفى مصر ممكن نعمل أى حاجة علشان نعيش. انت شديد وممكن تشتغل بقوة راجلين، وانا كمان ممكن أشتغل"، ثم توقفت عن الكلام تبحث فى أرجاء مخها عن حلول، فهى تعلم يقينا أن أهله سوف يعارضون بكل قوتهم هذا الزواج. ثم أضافت ،"يا سلام يا شحات، دا انت لو كنت فعلا أفقر شحات ، أنا حاكون مبسوطة وسعيدة. مش ضرورى ناكل كثير، عشان انت بتحبنى وأنا باحبك، وما فيش حاجة تهم أكتر من كده".

أخيرا أدرك شحات أنه إذا تزوج سنيـــة، فعليـــه أن يهجر بيته، لذا تملكه حـــزن عميـــق. لأيـــام عدة أخذ يسير غارقا فى أفكاره. عندما ينهى عمله فى الحقل يجلس فى الجنينة وقد أحنى رأسه على صدره مبحلقا فى الأرض بينما تخترق آخر أشعة الشمس فروع النخيل وتلقى بضوئها على جذوع الأشجار. كانت الأفكار تتزاحم فى مخيلته، الله - سبحانه - خلق البشر ليعيشوا ويفرحوا ويقضوا جل وقتهم فيما ينفع ويفيد.

إنه لا يفهم أبـــدا لماذا تشقـــى سنيـة بسبب أمور حـدثت فى الماضى. مع ذلك، إذا حاول أن يستعرض حياته فى مخيلته، حينئذ يكون والداه، بيته، حقله، حتى أحمد وفاروق هم الحقيقة اليقينية، بينما حبه لسنية وحلمه بأن يتزوجها هو شىء خارج الصورة ومنفصل عنها لا ينسجم معها. فكر أيضا، هو غير جدير بهذه السعادة المتخيلة فى الزواج، حياته ومصيره تحدد ورسم منذ أن ولدته أمه، عليه إذن أن يستأنف حياته المعتادة التى وهبها له الله، ومن المستحيل أن يأمل فى حياة جديدة يقضيها مع سنية بمفردهما.

مستسلما لمصيره، قرر شحات أن يهرب إلى القاهرة، لذا سرق بعض الحبوب من منزله وباعها للبقال "القط" ليصرف على نفسه فى الغربة. ربما يجد عملا فى القاهرة ويكتشف كيف يعيشون هناك، بعدها من الممكن أن يرسل لسنية لتحضر إليه. القط هو مجرم سابق حديث التخرج من السجن ويدير دكانا موقعه فى طريق العربات المؤدى إلى قرية الكوم. هو دائما ما يدفع نقودا للشباب نظير الحبوب المسروقة ليتيسر لهم مصروفات للجيب، هؤلاء الشبان يختلسون كميات صغيرة من الحبوب سواء من بيوتهم أو من الحقول أو من مخازن أغنياء القرية أمثال الحاج "عبد المطلب"، وهو بخيل القرية.

فى الليلة التى حددها شحات ليهرب، اقترب من شباك سنية وظل جالسا هناك فترة مديدة. عندما ظهرت أخيرا أخبرها عما ينتوى عمله.

كل القريـــة كانت تغط فى نـوم عمـيــق، وليس هنـــاك أى ضوء ينير. بدأ شـحـات فى مخاطبتـها وقد أحـاط به ظلام دامس، وبدا كـأنه غاطس فى جب عميق يصعب منه أن يصل إليها. كان وجـه سنية شـاحبا أكثر من المعـتـاد، وأخـذت تحدق فـى اتجـاهه بكل حنية بعـيـون اكتـست بحب عـمـيـق وحـــزن أعمـــق. تيقن له أخيرا أنها قد استسلمت لمصيرها، وأنها تتقبل كل ما تسوقه إليها الأقدار.

نشب فى قلب شحات حزن مـختلط براحة عميقة، فـجأة أحس برغبة شديدة فى أن ينفجر بالبكاء. اكتست عيناه بضباب وشعر بغصة فى حلقه، لكن الدمـوع لم تطاوعـه. يريد أن يصـرخ ويمـسك بيـد سنيـة بكل قـوته ويهرب بها بعيدا متحديا الجميع. خاطبته أخيرا قائلة، "مع السلامة يا شحات"، رد قائـلا، "نفسى والله أعيط وابكى للصبح..."، لكن فرصة ذرف الدموع كانت قد ولت. اختفـت هى من الشبـاك، وقف هو قليلا والحيرة تتملكه، ثم استدار ومشى يتلوى فى طريقه متجها نحو نهر النيل.

لكن كـان الوقت هو شـهـر سبتـمبر ١٩٦٧، مـصـر كانت فـى حـالة حرب، القاهرة لم تكن مكانا مناسبا لفلاح جاهل لم يبلغ السابعة عشرة من عمره، حتى الجيش لن يقبله. قضى هناك أسابيع قليلة، لكنها كانت فى نظره عبـارة عن دهر طويل. عندمـا عـاد، علم أن سنيـة قـد خطبت لقـريب لهـا، هو جندى يـخـدم فى صـحـراء سـيناء. لم يـفـاتحـهـا فى أى حـديث، وعندمـا كـان يقـابلـهـا فى الطريق أو يلاحظـهـا وهى تنظر من

شباكها أثناء عمله فى أرضهم، دائما ما يلمح نظرة الحب المختلط بالأسى يملأ عينيها. لذا لم يحضر فرحها.

من حقله، شاهد الفتيات وهن يزرعن الطريق، يغنين، يزغردن ويصفقن بأيديهن، ثم شاهد سنية نفسها وقد اكتست بوشاح أبيض فى أحمر فوق جمل، بينما انهمك الرجال فى إطلاق الرصاص فى الهواء، والنساء يزغردن بأصوات طويلة شاهقة.

استمر الرقص والغناء لوقت متأخر فى الليل، وعندما أحضر أخوه الصغير معه بعضا من الحلوى الملونة حصل عليها من الفرح، أمسك بها شحات ورماها غاضبا خارج الشباك.

لعدة أيام كان يكسو وجهه غضبا مكبوتا، كل فرد من العائلة تحاشاه. أما عبد الباسط فكان قد رحل إلى القاهرة بصحبة الحاج علي. لقد استطاع ابن العم هذا أن يحصل لعبد الباسط على عمل ضمن بعثة استكشافية أجنبية تعمل فى منطقة آثار منف القريبة من القاهرة، واعتبر هذا الصنيع كنوع من الترضية لقريبه، قائلا إنه نائب عنه. فكر هذا الرجل الماكر أن تواجد قريب له مطواع، سيتيح له فرصة أن يختلس بعض الغنائم. وسوف يستمر هذا العمل لمدة ثلاثة شهور.

فى اليوم الذى غادر فيه عبد الباسط، نشبت معركة حامية بين شحات وأم حامد، لدرجة أنها غادرت البيت. ما أن تركت المنزل

حتى كسر هو صندوقها المتين واختلس كردانا ذهبيها كان قد أهداه لها عبد الباسط يوم زواجهما. وبسرعة توجه إلى الأقصر وباع الكردان إلى أحد الصاغة بمبلغ زهيد للغاية لا يمثل سوى جزء ضئيل من قيمته الحقيقية، ثم صرف النقود فى شرب الخمر وتدخين الحشيش وزيارة العاهرات لينسى بذلك سنية. عندما اكتشفت أم حامد ضياع الكردان، وسمعت الأقاويل عما يفعله شحات في الأقصر، التجأت لأخيها أحمد وسردت عليه ما حدث. بدوره قام أحمد بإبلاغ العمدة بالسرقة الذى بدوره بعث بأربعة من الخفراء إلى الأقصر ليقبضوا على شحات ويعيدوه.

أمكن للخفراء أن يستعيدوا شحات- مقيدا، غير حليق وقذرا مشوشا- وركبوا به العبارة ثم ألقوه فوق عربة يجرها حمار، بعدها إلى سجن قرية الكوم. إلا أن سالم وهو أحد الخفراء، ويعلم تماما ما يعانيه شحات، لم يشترك فى هذا الموضوع. إلا أن باقى الخفراء، بعدما قيدوا شحات جيدا وهو يقاومهم بعنف، استطاع أن يوقع أحدهم أرضا، انهالوا عليه ضربا ساديا كله توحش، بل أيضا ربطوا رجليه فى عارضة خشبية ثم تناوبوا ضرب قدميه بعصيان طرية، وهى إحدى وسائل التعذيب المعروفة فى منطقة البحر الأبيض عموما. أخذ شحات يصرخ ويشتمهم بأقذر الشتائم وهدد بأنه سوف يقتلهم واحدا بعد الآخر. الأسوأ من ذلك، أن أحد الخفراء، وهو قليل الحجم، خبيث، خدوده ضامرة وعيونه براقة، أمسك بخصلة من شعر شحات وأشعل فيها النار،

هنا صرخ شحات ملتمسا الرحمة، لذا أسرع أحدهم بإحضار جردلا من المياه وألقاه فوق رأسه، ثم تركوه وحيدا بلا طعام أو شراب لمدة ثلاثة أيام متوالية. فى صباح اليوم الرابع، فتح سليم الزنزانة ومد يده برغيف من الخبز لشحات الذى تكوم فى ركن كأنما هو حيوان مفترس. ما أن رأى شحات هذا التصرف، حتى زام ولعن وأمسك بالرغيف وألقاه بكل عنف فى وجه الغفير. عندما سمع العمدة بما جرى، أمر بأن يجلد مرة أخرى، لذا تقدم أكثر الخفراء قسوة ممسكا بعصا رفيعة وبكل عزم وثبات ومتعة حقيقية أخذ يضرب قدمى شحات حتى انفجر الدم منهما. عندما منعوا الخفير من استكمال متعته، كان وجه شحات شاحبا وأخذ يقىء من الألم والدموع تتساقط مدرارا من عينيه. كانت قدماه وركبتاه وارمتين حتى أنه تعذر عليه أن يقف على رجليه، لذا شعر العمدة أنه قد زودها حبتين، وأمر أن يفرج عنه فورا. لذا تبرع سليم أن ينقل شحات إلى منزله مستخدما حماره الخاص.

ما أن رأته أم حامد، حتى انفجرت باكية من الرعب، ثم أدخل شحات إلى منزله وهو يترنح ووجهه شاحب كالأموات والعرق ينبثق من كل جسمه وصعب عليه أن يبقى عينيه مفتوحتين على مقلتين حمراوين كالدم. قامت أم حامد بمهمة استحمامه وأحضرت له ملابس نظيفة وساعدته ليستلقى على الكنبة ورفضت أن تترك جانبه. لم يتحدثا أبدا عن سنية أو الكردان المفقود. ثم حضر أحمد وبدأ فى إلقاء محاضرة فى

أذن شحات، "اتعلمت الدرس والا لسه ؟ ما فيش حاجة اسمها سرقة تانى.."، لكنه لم يستكمل الدرس لأن شحات شملته رجفة قاسية فى مرقده، ثم أمسك بخشبة كانت فى متناول يده محاولا ضرب خاله، لذا صرخت أم حامد وألقت بنفسها بينهما وتلقت ضربة قوية على جنبها. فى ألم شديد أخذت تصرخ بكل قوتها، لذا حملوها إلى الغرفة العلوية لترقد هناك. عندما عاد أحمد لشحات، نادى على بعض الجيران وقيدوا يديه ورجليه وأخذوا يضربون قدميه المزرقتين. ما أن استمعت أم حامد لصرخات شحات المتوجعة، حتى هبطت الدرج مسرعة وهى تترنح متمايلة من جانب إلى آخر تكاد أن تقع على الأرض، وأخذت تصرخ فى وجه أحمد ليتوقف فورا عن تعذيب ابنها، ثم أتت وحضنت رأس ابنها طالبة السماح والغفران. التفتت أم حامد نحو أخيها وزعقت فى وجهه، "روح.. روح، كفاية كده"، فعلا انتهى الموضوع بهذا الشكل. عندما عاد عبد الباسط من رحلته، لم تحك له أم حامد شيئا عن الكردان، لكن عندما عرف القصة من مصادر أخرى، لم يعر الموضوع أى اهتمام.

شفى شحات وعاد إلى عمله فى الحقل، لكنه راعى أن يبقى بعيدا عن منزله فى الأمسيات التى قضاها فى قهوة "عبد اللاه" بقرية الكوم وهو يمازح أصدقاءه ويعاقر الخمر.

هذه القهوة ليست سوى عشة منخفضة السقف، رائحتها مقززة حيث يختلط فيها روائح أسوأ أنواع الخمور كذلك الحشيش. فيها يتجمع

الأشقياء والصيع ليلا، وعادة ما تجد بداخلها السكارى والهازئين الذين يسبون بعضهم بعضا بأقذع أنواع الشتائم، تنحصر متعتهم فى معاقرة الخمر، الحشيش، المقامرة، ارتكاب الفحشاء والتشاجر مع بعضهم بعضا.

فى ركن من العشة، وضعت لمبة جاز ترسل ضوءا خافتا بالكاد يؤثر فى الظلام الكثيف الذى يحيط بالمكان بحيث يتعذر تحديد الموجودات بدقة بالغة. عندما يدخل وافد جديد ثم يجلس القرفصاء مربعا رجليه ومستندا على حائط، يصعب عليك أن تحدد من هو، وحتى أكثر الموجودين براءة وطيبة يكتسى وجهه بمظهر الشرير الآثم بفعل هذا الضوء الخافت الملئ بالظلال، والشر تجده معلقا فى جو عشة "عبد اللاه" كأنما هو ضباب متكاثف.

عبد اللاه بذاته، تراه عادة جالسا كأنما هو جوال أمام نصبة النار، رجلاه منحنيتان أسفل جسده الضخم بينما هو يزرد ويزرد فى الشاى الأسود، ينهمك فى وضع بعض من الجمرات المتوهجة فى شيشة أحدهم، يفتح الزجاجات، يقبض النقود أو يلفظ ببعض الأوامر الغامضة لزوجته. هذه المرأة البائسة، هى الوحيدة التى يمكن أن تجدها فى هذا المكان، تجرى هنا وهناك ملبية الطلبات وقد اكتسى جسمها السواد بينما يبدو بعض من شعرها الخشن وهى تجلجل بصوتها المبحوح.

عبد اللاه هذا خبير بكل ما هو شرير شيطانى، هو رجل فى الأربعينيات من عمره، على وجهه آثار بشعة لمرض الجدرى، شعره مفلفل كأنما هو زنجى، يبدو فى شكله كأنما هو مصارع قديم؛ عادة ما يرتدى جلبابا مهيبا يبدو خلفه صديرى غير مزرر بحيث يمكن أن تلمح شعر صدره المفلفل أيضا. هو دائما ما يحافظ على مظهر بارد متحفظ، إلا إذا اقترب منه أحدهم وأسمعه آخر الأخبار والأقاويل، حينذاك تراه وقد ضرب الأرض بقبضته قائلا، "يا راجل !" ثم ينطق بشتيمة أو اثنتين ويدير رأسه خلفا ويبصق بكل ثقة على الأرض.

بالإضافة إلى الخمر والحشيش، اشتهر هذا المكان أيضا بالمتاجرة فى الأفيون بطريقة سرية خفية، علما بأن عبد اللاه يتعاطاه يوميا ويبدو هذا واضحا من سلوكه وتصرفاته وصوته.

لا يستطيع شحات سوى أن يتعاطى أرخص أنواع الخمور، التى يدخل فى صناعتها خليط من المكونات، لكن العنصر الأساسى هو البلح. هذا الخمر شنيع للغاية، لدرجة أن الرجال يفضلون أن يسقطوا أعواد الكبريت المشتعلة داخل فوهات الزجاجات الفارغة ليلاحظوها وهى تشتعل بفرقعة. لكن من النادر أن يتعرض شحات أو أصدقاؤه لنوع من السكر البين، إلا أنك تجدهم جالسين فاغرى الأفواه مبتسمين وعيونهم عمشاء ترتعش من جراء قريعة تلك الخمور السيئة التى سرت فى دمائهم، كذلك بسبب فيضان الضحك الخشن المزعج وشخللة الزجاجات

والأيمـــانـــات البـذيئـــة التى تصـدر من أفـواه لاعـبى الكوتشـينة. زبائن عبد اللاه يرحبون دائما بمقدم شحات قائلين له، "أبوك كان راجل تمـام، يا ما عمـــل حـــاجـــات وحـــاجـات فى حياته"، وكأنما هذه التحية لم تكن كـافـيـة، لذا يضـيف أحـدهم، "دا حـتى كـان دايمـا يدفع لنا تمن المشاريب".

فى الصباح، يلعن شحات خسارته لنقوده ويحلف أنه لن يخطو مرة أخرى قهوة عبد اللاه، لكن وهو غيـر راغب فى قضـاء أمسياته بجوار أبويه، يسرع فى سيره تجاه تلك القهوة.

فى إحـدى الليـالى، بينمـا هو عـائد إلى منزله يتـرنح قابل صـديقـه العـزب بجـوار القناة. كـان هذا الصـديق عـائدا للتـو من الحـقل مـحـمـلا بحـزمـة برسـيم وممسـكا بالمنجل فى اليد الأخـرى وقد انهـمك فى رفع عقيرته بالغنـــاء خوفـا من أن يقابله جنى فى الطريق. قال له شـحـات، "ليه بتجعر زى الجاموسة"، لاحظ العزب أن صديقه سكران، لذا أجاب، "مـا حـدش يقدر يضـحك على ويسـتـغـفلنى، طبـعـا انت كنت عند المدعوك عبد اللاه، مش كده. ثم أنا حر، أعمل اللى انا عايزه". اعتبر شـحـات هذا الرد مبررا كافيا لأن يبدأ خناقة مـع صـديقه، لذا تعزم وضـرب العزب كفا على صـدغه، فمـا كـان من ذاك وقد تملكه الغضب سوى أن يرفع المنجل ويطعن به ذراع شحات. أخذ هذا ينظر بكل غباء للمنجل وقد انغرس فى لحم ذراعه، ثم نزعه بقوة وألقـاه فى الترعة. أسرع العزب لينقذ منجله،

إلا أن شحات لحق به وتعاركا وتمرغا فى الطين الرخو. أسرع الرجال ليحجزوا بينهما صائحين، "انت مجنون يا شحات ؟ سيبه. إيه اللى بيعمله السكران ده؟ ".

فى الحال تظاهر الشابان بأنهما كانا يهزلان. توجه شحات إلى منزله وقد غطى الجرح بأكمام جلبابه الطويل حتى لا يلاحظ والداه ما حدث له. لكن فى اليوم التالى تقيح الجرح وأبى أن يندمل. عندما سمع عبد الباسط بموضوع الخناقة بعد مرور عدة أيام، أمر شحات أن يريه ذراعه. عندما شاهد مدى سوء الجرح، لعن ابنه، "يا ابن الكلب، تخبى المصيبة دى عنى ؟ انت فاكرنى عيل صغير ؟ ليه يا ولدى ما نطقتش بحاجة ؟ قاعد ساكت طول الوقت ده ! عايزهم يقطعولك دراعك والا إيه؟ ".

بالرغم من احتجاجات شحات، أخذه عبد الباسط إلى مستشفى الأقصر ليعالج. بعدها اشتكى شحات لأمه، "أنا خجلان يا امه إننا رحنا للدكتور، دلوقتى كل البلد حتشوف دراعى المربوطة ويقولوا: دراع شحات متعورة والعزب ما حصلتلوش حاجة، يبقى مين فيهم الجدع؟ ".

ليلة ظهور الجنى

ما أن بلغ شحات سن الواحدة والعشرين، حتى بدا أنه قد نسى سنية تماما واستقرت أحواله، فهو الآن ذلك الشاب الريفى، يعيش وسط أهله واختار الطريق الآمن وهو الاستقرار فى حضن قريته التى حققت له الأمان فى الماضى والحاضر. بغرامه بطين أرضه، حبه للعمل اليدوى المجهد، تذوقه للأغانى المتوارثة والحكايات والحواديت، أصبح شعوره محكوما بحواسه. الحياة بالنسبة له لم تعد سوى أن تكون متتابعات من يومه هذا. لكن حتى إذا قلنا إنه أصبح عاقلا ومؤمنا بالقضاء والقدر والمصير المحتوم، إلا أنه كان فى بعض الأحيان يبدو عاصيا. عندما قرر أبواه أن يبنيا بيتا جديدا فى جنينتهم وأن ينتقلوا هناك، رفض شحات بكل عناد أن ينتقل معهم. قال إنه سوف يأخذ باله من البهائم فى منزلهم القديم يحرسها ليلا؛ فى الحقيقة، كانت ذكرياته عن الأيام التى قضاها مع سنية ما زالت تؤرقه.

عملية الانتقال إلى المسكن الجديد كانت أمرا هاما وحيويا فى نظر أم حامد، فهى ترغب أن تبتعد بقدر الإمكان عن لوكاندة صبحى.

بالرغم من أن هذه اللوكاندة تبعد إلى حد ما عن منزلهم ويفصلها عنهم عدة بيوت، فإن جلبة السكارى كثيرا ما كانت تسمع ليلا. فصبحى وزبائنه كثيرا ما يتناقشون بأصوات منفرة مسيئة، لدرجة أن أم حامد كانت دائما تتنهد قائلة، "يا ربى، هو إيه اللى حاصل هناك ؟" . باستمرار تستمع إلى أقبح الألفاظ، لكن هذا لا يزعج أم حامد البتة. فنساء القرية وأطفالها اعتادوا على سماع تلك لألفاظ القبيحة بدون انزعاج، لقد اعتادوا على ذلك. ما كان يضايق أم حامد فعلا هو أنها كانت تتخيل أن الشتائم المسموعة موجهة إليها وإلى زوجها.

فكرة الانتقال تلك لم تكن مدروسة جيدا، فالجنينة تشغى بالأفاعى والعقارب، لذا لم يستكمل بناء هذا المنزل الجديد أبدا. وعادت الأسرة إلى مقرها القديم بعد عدة أسابيع. مع ذلك، أتاح هذا الانتقال إلى أن تنشأ صداقة متينة بين أم حامد وامرأة أخرى هى الست بهية، وهى زوجة الحاج عبد المطلب، بخيل القرية الموسر، ومنزلهم يقع على الجانب الآخر من جنينة عبد الباسط. ظهرت هذه السيدة منذ اليوم الأول للانتقال محملة بمقطف ملئ بالخبز، السكر، الشاى، أرنبين، أربعة أزواج حمام. ثم أعلنت بصوت عال، "انتى جارتنا دلوقتى يا أم حامد، وأنا لازم أرحب بيكى". بعدها ردت لها أم حامد الزيارة وبيدها مقطف أكثر إكراما وملينا بأنواع مختلفة من الأطعمة. فى تلك الأيام، عندما كان شحات يزور والدته، يجدها جالسة بجوار صديقتها الجديدة على

الأرض يتشاركان فى شد الشيشة وشرب الشاى والثرثرة. كثيرا ما كان يشعر بالإحراج وهو يراهما منهمكتين في همس حميم، كان يشعر ويخمن أنهما يتهامسان بأكثر الأمور حميمية فى علاقتهما بأزواجهما. بهية ذات آراء متعمقة فيما يختص بتلك الأمور، ودائما ما تصدق فى أحكامها، لا سيما ما كان منها ما لا يبعث على السرور.

من النادر أن يمر يوم دون أن يتردد اسم زوجها على الألسنة فى أنحاء القرية. فالحاج عبد المطلب، الذى كان خادما فى ماضى أيامه، هو الآن إنسان فائق الاجتهاد يمتلك عشرة فدادين بالإضافة إلى دكان القرية ويشترى ويبيع الحبوب ويشارك بالنصف فى دستة ماكينات رى. هو دائم المشغولية بمشروعاته المتعددة التى تدر عليه دخلا محترما، لدرجة أنه من المتعذر على أى إنسان أن يتابعها جميعا.

أهالى القرية جميعا مدينون له، هو أول من ينهض من نومه فى القرية، لكى يعزق حقله فى الفجر، ثم يفتح دكانه الساعة التاسعة. دائما تراه ممتطيا حماره ذاهبا هنا أو هناك، يستمر فى عمله بالحقل حتى يحين الظلام. هو دائما يتوقع نفس هذا الاجتهاد من أفراد عائلته. كانت بهية هى المرأة الوحيدة التى عليها أن تذهب للحقل يوميا لتحش عليقة وعلف البهائم.

بخله معروف للجميع، لدرجة أن من يقبل الأجر الذى يقدمه لخدمة أرضه لن يكون سوى رجل كبير فى السن أو أكتع أو مجنون. يقال إن

بهية تطعم عائلتها بخبز الذرة والفول والبصل والمش. من جانب آخر، يبدو أن الحاج عبد المطلب هو إنسان ورع، مثلما نجد أن صبحى إنسان سيئ السمعة. هو الذى بنى جامع القرية، لكن كرمه هذا لم يطل بحيث يستكمل بناءه ويثبت منارة أعلاه. إنه إنسان لا يشجع الحديث التافه المستهتر والأقاويل، مظهره جاد وخاطره دائما مشغول بأمور هامة. يقال إن ثروته هائلة، لذا يقف الناس أمامه فى خشية ويعتبرون مصاحبته مصدرا للخوف والفزع.

فى تلك الأيام، منح الحاج رخصة صرف التموين لأهالى القرية، هذا التموين يتكون من السكر، الشاى، الدقيق، الزيت والكيروسين. ولأنه لا يمكن لأحد فى القرية أن يعيش بدون هذه المستلزمات، لذا أبقى دكانه مفتوحا عدة ساعات قليلة كل صباح، وعلى الجميع أن يقفوا فى صف أو أن يتجمعوا أمام المحل بينما هو يزن كل حبة سكر.

ما أن أصبح الحاج رجلا غنيا، حتى اعتاد أن يركب بغلته بكل وقار دافعا رأسه إلى الأمام بينما شفتاه تهمس بلا كلل. عندما يراه شحات هكذا يقول بأنه يعد نقوده، لكن يبدو أن الحاج كان يظهر للجميع كيف أنه إنسان مشغول وعاقل ورزين.

كانت الصداقة التى تربط بين أم حامد وبهية مصدر تعجب لشحات. كلتاهما ذاتا إرادة حديدية، لكنهما مختلفتان جد الاختلاف من كل الوجوه. عينا أمه جميلة، جريئة متسلطة، أما عينا بهية فهما باهتتان

فيهما بعض الحول. أم حامد إنسانة حساسة، مسرفة، لسانها سليط، كريمة وكرامتها فوق كل اعتبار. بهية إنسانة هادئة، لا تدرى شيئا عن أحوالها، دائما مشغولة، فاقدة الإحساس ولا تهتم كثيرا بما يقال عنها أو عن زوجها، مع ذلك تشعر بالاندهاش إذا تعرضت لأى نوع من المقاومة. أم حامد فقيرة، بهية غنية، مع ذلك هى أمه التى تقضى أيامها فى انبساط وانشراح. إنها نادرا ما تترك مناسبة زواج أو وفاة، تلبس وتأكل أفضل، ويبدو من مظهرها أنها إنسانة عظيمة. بينما تقضى بهية الساعات تعمل بكل كد فى الحقل كأفقر الفعلة. لكن على أية حال، ما أن بدأت هذه الصداقة حتى كان من النادر أن يفترقا.

هذه الصداقة نجت من كثير من التجارب- زينب بنت بهية الكبرى، افتتنت بالفتى "العزب"، لذا بدأت فى سرقة الأقمشة من دكان أبيها، ثم تبيعها وبنقودها تمنح حبيبها هدايا متنوعة. عندما أحضرت زينب بعض المسروقات إلى بيت عبد الباسط، ثار هذا قائلا، "أبوكى كويس معانا، أما أكون محتاج شوال أو اتنين دقيق، أبوكى بيدهوملى سواء عندى فلوس أو ما عنديش. أنا أكلت عيش وملح مع الراجل ده، ازاى أقابل وش كريم إذا اشتريت الحاجات دى منك ؟ امشى بعيد يا بت!"

لإحراج أم حامد، وجدت زينب وسيلة لتصريف مسروقاتها عن طريق"سعاد"، وهى بنت أخت عبد الباسط، ومسكنها قريب من منزل عبد الباسط القديم. سعاد هذه سمينة، كسولة وقد هجرها زوجها ورحل

إلى القاهرة، لذا هى كانت فى حاجة مستمرة للنقود. كانت دائما تعنف أم حامد قائلة، "يا اختى دايما بطنك تتنفخ ويجيلك إسهال لما تشوفى البت زينب داخله عندى، ليه كده ؟".

يوما شعرت أم حامد بألم شديد فى جنبها فى المكان الذى تلقت عليه ضربة شحات التى كان يقصد أن يوجهها لخاله، وعندما طلبت من عبد الباسط أن يقصد منزل الحاج على ليطالبه ببعض مستحقاته منذ أيام مأمورية الاستكشافات لكى يمكن لها أن تذهب للطبيب، قال عبد الباسط، "ما تروحى انتى، إذا انا طلبت فلوسى وقاللى لأ، يمكن أقتله أو هو يقتلنى. ابن الكلب ده كل كلامه نصب فى نصب، أحسن يا مرة تروحى انتى"

ما أن رأى الحاج على أم حامد آتية من بعيد، أخبر زوجته أن تنكر تواجده. ما أن صافحت هذه أم حامد، حتى بادرتها بتعنيف شديد، "أما انتى محتاجة كده لفلوس، ما تروحى لحبيبتك بهية وهى تساعدك. وقوليلى يا اختى، لما هى صاحبتك بالقوى كده، ليه طيب تفت فى وشك؟"

"مين قال الكلام الواطى ده"

"سعاد هى اللى فتنت، وكل العيلة سمعت منها الكلام ده"

ثلاثون عاما من الخصام والاختصار مع أقارب عبد الباسط لم تكن كافية لتتعلم أم حامد كيف تنحى جانبا أقاويلهم وإشاعاتهم. لذا عندما

عادت لمنزلها والغضب يزلزل كل كيانها، قالت لزوجها، "إذا كان فعلا بهية تفت فى وشى، فانا قادرة بإذن واحد أحد إنى افصل رقبتها من جسمها، الحاج عبد المطلب راجل غنى الأيام دى، لكن هو نسى أيام ما كان بيبيع بصل على السكة؟".

زعق فيها عبد الباسط، "انتى ازاى تاخدى فى بالك الكلام الهجص ده، لازم دلوقتى وقبل حتى ما تغيرى هدومك تروحى لبهية وتشوفى إيه الموضوع، يا الله. مع السلامة".

"طاب أستريح من المشوار يا راجل"

"لا. أنا قلت دلوقتى يعنى دلوقتى"

وصلت أم حامد إلى منزل الحاج وقد شمخت بأنفها عاليا فى الهواء، بينما أوصالها ترتعد غضبا. ما أن رأتها صديقتها بهذا المنظر، حتى خبطت على صدرها قائلة، "ليه يا اختى بتترعشى كده ؟ ووشك مغير". ما أن حكت أم حامد عما سمعته من سعاد والقماش المسروق، حتى انفجرتا سويا فى بكاء شديد، بينما وقفت بجوارهما زينب وهى تستمع مطأطأة الرأس. ما أن استجلت أم حامد الحقيقة وانفض غضبها، حتى أخذت تطبطب على ظهر بهية الباكية قائلة، " بس. بس يا اختى. إحنا نشكر ربنا ألف شكر إن الشيطان ما كانش حاضر إلا فى صوابع السهتانة بتاعة بنتك زينب دى"

فى اليوم التالى استدعت أم حامد سعاد لتحضر لمنزلها بعذر مفتعل، ما أن حضرت هذه حتى أمسكت أم حامد بنسخة من القرآن الكريم وطلبت من السيدة المذعورة أن تحلف بأنها لم تأخذ أبدا قماشا مسروقا من زينب. هذه أخذت على حين غرة، لذا أقسمت بأنها بريئة تماما من هذه التهمة. لكن بينما هى عائدة إلى منزلها وهى تسير فى الطريق المجاور للترعة، أحست بدوخة شديدة وسقطت فى الترعة. عندما أتى شلتوت جريا لينقذها وسحبها فعلا من الماء، كانت هى ترغى وتزبد وترتعد. الكل أشاع أن سعاد قد ركبها عفريت، وقيل إن أهلها استدعوا ثلاثة مشايخ من الكوم لكى يحرروها من هذا المس.

بالنسبة لأم حامد، لا يجب أبدا أن يستهان بالحلفان على القرآن، ولا سيما إذا كانت جارتها اللئيمة هى التى فعلت ذلك. جارتها الكرنبة هذه، ذات العيون المملوءة مكرا، كثيرا ما كانت تنصت عبر منزلها المجاور لأم حامد وتنقل كل ما تسمعه بشكل مبالغ فيه فى أرجاء القرية. مرة عندما رأت أم حامد سعاد وبرفقتها ابنتها الجميلة بطة خارجتين وقد ارتدتا ملابس حيكت من القماش المسروق، لم تجد أم حامد سوى أن تسخر منهما، لذا خاطبت عبد الباسط بصوت عال مسموع، "كل الناس عارفه مين هما الحرامية، أيوه ربنا ما ينساش أبدا، ويخرب بيت كل واحد ظالم فى حينه"، ضحك عبد الباسط وأجاب، "اتكلمى على كيفك يا مرة، وأى كلب يفتح بقه، أنا قادر أقفله بالضبة والمفتاح!"

بعد هذه الحوادث وبشكل عاجل، زوجوا زينب لعمدة الكوم، لكن هذا طلقها قبل مرور شهر العسل. قيل إنه ضبطها تسرق، وإنها ما زالت تواعد سرا الواد العزب. ثم بسرعة بالغة زوجها أبوها الحاج عبد المطلب لرجل ميسور الحال من قرية التوتة البعيدة.

استأجر الحاج دستة سيارات تاكسى لتقل العروس إلى منزلها الجديد، لكن ما حدث بعد ذلك ليس واضحا، ولم يشر إليه الحاج أبدا. قيل إنه عندما توجه ليحزم مقتنيات العروس، وجد مخبأ عندها به كميات ضخمة من الأقمشة، السكر والشاى وكلها واردة من مخازنه. تستمر الحكاية فى القول بأنه لطم خديه وأخذ يزعق ويزبد، إلى أن تقدمت إليه بهية مواسية قائلة، "يا جوزى بطل الكلام ده، انت نسيت إن عندنا ضيوف !" . ومهما حدث، فإنه إذا كانت بهية تزور بنتها فى أوقات متباعدة، إلا أن الحاج لم يرد ذكر اسم ابنته على لسانه أبدا بعد ذلك.

بدأ موضوع ظهور الجنى لشحات عندما انتقلت الأسرة لتسكن البيت الجديد، بينما استمر هو بمفرده فى المنزل القديم. هناك بدأت قصته مع الجنية. بلغ شحات الآن عمرا يستطيع فيه أن يتزوج، لكن خلال الخمس سنوات منذ أن رفضوا تزويجه سنية، لم يجد والداه عروس مناسبة له، فكل من أم حامد وعبد الباسط يود أن يزوجه من عائلته. الجنى الأول الذى ظهر لشحات كان فى الحلم على هيئة فتاة رائعة الجمال. لا يندهش أحد من ذلك، فكثير من رجال القرية يزورهم الجن

فى الأحلام، ومعروف للجميع فى القرية أنه من الممكن أن يتخذ الإنسان زوجة له من الجن !. أحد المشايخ فى قرية الكوم حدث له ذلك، وأجبر على أن يمتنع عن النوم مع زوجته الإنسية لأن الجنية هددته بأنها سوف تقتله إذا حملت امرأته منه!.

الجنية التى زارت شحات فى المنام عذبته أشد العذاب، فكل ليلة تظهر له وتطلب منه أن يعاشرها معاشرة الأزواج. كانت جنية طماعة للغاية، وكان يصحو من نومه كل صباح مرهقا ومتعبا وبدأ يفقد وزنه، فهى تبقى له القليل من الجهد الذى ينفقه فى خدمة أرضه. أخيرا اعترف بالأمر لأم حامد قائلا، "دى حلوة خالص يا امه، عايزانى أتجوزها هى مش إنسية".

تملك الذعر أم حامد وأسرعت به إلى الشيخة داية فى قرية الكوم. هذه العجوز حذرته قائلة، "ياه يا ولدى، دى عايزة تتجوزك. يبقى انت كده فى خطر. لازم يا ولدى ترفض. لو كنت فعلا متجوز إنسية، يمكن هنا تقبل، لكن انت لسه ما اتجوزتش. حتى لو الجنية دى ادتك كل اللى أنت عايزه، كده هى تقدر تخليك زى الخاتم فى صباعها".

سأل شحات عما يمكن أن يفعله فى هذا الشأن، قالت، "شوف، أنت عليك تروح للشيخ الحفنى فى الأقصر. دا راجل واصل وحاجج بيت الله أكتر من مرة، وعنده كتب قديمة خالص، ويعرف حاجات كتير عن عمايل الجن وهو حيوضبلك سحر يحطه فى صندوق حديد علشان يخلصك من العفريت ده".

الشيخ الحفنى هذا، هو رجل عجوز محنى القامة، لا أسنان له وذقنه كلها بيضاء. طلب هذا الرجل ستة جنيهات مقدما، وثمانية جنيهات أخرى إذا نجح تعزيمه. قال بصوت حاد مرتعش، "إذا ما نجحش العمل، يبقى انت مش ملزم بحاجة خالص، وكمان حارجع ليك الستة جنيه" . إنه مبلغ كبير، يساوى ما تنفقه العائلة خلال شهر من مأكل وشرب، لكن أم حامد قالت إنها سوف تبيع معزتين.

أطلق الشيخ بخوره وتمتم ببعض آيات القرآن الكريم، ثم أعد لشحات حجابا وذلك بأن أمسك بورقة بيضاء غير محددة المعالم وكتب بعض الرموز الغامضة غير المفهومة بخط أحمر قان، ثم طبقها وأعاد تطبيقها حتى أصبحت مثلثا صغيرا، ثم ثبت خيط دوبارة فى أحد أركانه وطلب من شحات أن يضعه حول رقبته عندما يذهب للنوم قائلا، "إذا جالك الجنى ده قول الله أكبر، وامسك فى إيدك حتة حديد لأن الجن كلهم يخافوا خالص من الحديد".

شحات ينام كالعادة بمفرده فى البيت، فى تلك الليلة حضرت الجنية كالمعتاد، لكن فى تلك المرة كانت تمتطى حصانا أبيض، ومن خلال الضباب الأبيض الذى يكتنفها كل مرة وهى قادمة نحوه، نزلت هذه من على ظهر الحصان وهى تتمخطر وتتمايل وقد ارتدت الملابس الحريرية الحمراء الهفهافة وتزينت بعقد وأساور من الذهب البراق الذى يتلألأ فى ضياء مبهر، ثم اقتربت منه جدا لدرجة أنه استطاع أن يميز

العطر الفواح الذى ينبعث من جسدها. لقد كانت فى أوج قمة جمالها تلك الليلة. توقف شحات عن ترديد أنفاسه، وتعثرت ضربات قلبه وهو يتلمس بيديه ذلك الحجاب الصغير وقطعة الحديد التى يجب أن يقبض عليها بقوة فى يده، أخيرا تغلب خوفه على جنون رغباته وهمس "الله أكبر". ما أن نطق بذلك حتى تحولت رائحة العطر الفواحة إلى رائحة كبريتية منفرة، والضباب الذهبى تحول إلى دخان وهباب أسود. وجه الجنية تحول فجأة أمام عينيه ليصبح وجها مخيفا مرعبا له قرون شيطانية. كاد شحات أن يحس فعلا بالأبخرة السامة الحارة المتدفقة من فم الشيطان، ورأى بأم عينيه ذلك الفم المشلفط الملتوى والعين الصفراء الجاحظة، لذا صرخ، "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، واهتز بعنف فى مرقده وعصر عينيه بقوة وفتح فمه محاولا الصراخ، لكن لم يصدر من حلقه سوى حشرجات متقطعة. فى رعب كامل أخذ يتلوى مبتعدا، ثم شعر بسخونة تشمله كله تبعتها برودة، وأحس كأن هناك أيادى تقبض بعنف على أكتافه وعنقه محاولة أن تزيحه من فوق الكنبة لتلقيه أرضا. أخذ يهتز ويرتعش بدون توقف، يلهث طالبا المعونة من الله، ثم، أغمى عليه. فى الصباح الباكر وجدته أم حامد راقدا فى الحارة أمام المنزل مستغرقا فى نوم عميق. عندما أيقظته، أخبرها عما حدث قائلا، "دى كانت عايزه تقتلنى يا امه، لكن أنا مسكت جامد فى الحجاب". بعد تلك الحادثة، لم تتركه أم حامد أبدا ليبيت بمفرده فى البيت.

ليال طويلة بعد ذلك، جلست هى بنفسها بجواره، لكنه كان يتقلب كثيرا فى نومه ويصدر منه أنين متقطع عال، هنا تهزه أم حامد ليستيقظ. كلاهما كان يخاف عودة تلك الجنية، وقبل توجهه للنوم كل ليلة، يتلو شحات ما تيسر من أى الذكر الحكيم، متوسلا إلى الله أن يحميه من ذلك الشيطان الرجيم وأن تتركه الجنية ليعيش فى سلام.

فى ليلة، وهو عائد من قهوة "عبد اللاه" ممتطيا حماره، وكان قد احتسى قدرا كبيرا من العرقى، رافعا عقيرته مغنيا بصوت عال ليرفع من معنوياته، توقف حماره فجأة عن السير وأبى أن يتحرك قيد أنملة. فجأة تحول الهواء حوله ليصبح باردا ثلجيا، لذا تملكه خوف مسيطر من الظلام الذى يلفه بعباءته تماما، وعندما بحلق بعينيه أمامه أخذ يصرخ مذعورا، فعلى البعد كان هناك الجنى بانتظاره وهو يقفز قفزات متتابعة فى الهواء بينما ترتسم على شفتيه ابتسامة مخيفة. فى جزع بالغ، سحب شحات سكينه وأخذ يطعن به الهواء بكل عنف. هذه الحركات العشوائية أدت إلى إصابة حماره بجرح بسيط، فما كان من الحمار إلا أن يرفع ساقيه عاليا فى الهواء ويسقط راكبه على الأرض وهو يتدحرج. حينئذ أسرع شحات بالزحف على يديه ورجليه فى الاتجاه العكسى. ما أن أحست كلاب القرية بتلك الجلبة حتى أخذت فى النباح بكل نشاط وقوة. عندما وصل شحات أخيرا إلى منزله، أخبر أمه أن الكلاب هى التى أنقذته.

لم يحدث أى شىء آخر لفترة زمنية أخرى، وعادت العائلة كلها لتستقر فى المنزل القديم. بعد ذلك أقسم شحات بأنه لن يغادر عتبة بيته أبدا لأى سبب كان بعد حلول الظلام، لكن عندما سخر منه "العزب" وألح فى أن يذهبا سويا إلى مقهى عبد اللاه فى ليلة ما، وافق شحات. لذلك وجد نفسه يعود ليلا ممتطيا حماره من قرية الكوم بمفرده، لأن العزب تركه متوجها لمنزله.

فجأة، وجد شحات نفسه فى قلب عاصفة صحراوية غريبة الشكل. فى لحظة يسكن الهواء تماما، فى التالية، بدون أى إنذار، تزمجر حوله ريح عاتية تطيح به من فوق ظهر حماره ممزقة ثيابه، ثم ينفجر فى أذنيه صوت صفارة عات. أحس شحات فجأة ببرودة تشمله، لقد تحقق الآن أن الجنى قد اتخذ صورة المارد، وهو أقسى أنواع الجن ووجوده ينشأ من دم قاتل ميت ويظهر دائما على شكل عاصفة هوجاء تخنق ضحاياها. بينما يكافح شحات ليتنفس، أخذ المارد فى الصراخ فى أذنيه ومزق ثيابه وضربه وجعله يدور حول نفسه مرات ومرات. أمسك شحات برقبته محاولا الحصول على الهواء، لكن النفس كان يصله بصعوبة بالغة، ثم أخذت العاصفة تعوى وتعوى جاذبة إياه نحو قلب دوامتها السوداء.

بعض الجيران عثروا عليه فجرا راقدا فى الطريق مغشيا عليه وحماره بجواره يمضغ بعض الحشائش. حملوه إلى منزل والد العزب

القريب، والعزب بنفسه وضع بصلة مكسورة على أنفه وألقى بمياه باردة على وجهه، وجرى أحدهم جالبا معه رجلا مبروكا ذا سمعة طيبة. حضر هذا ووضع نسخة من القرآن الكريم فوق رأسه.

عندما أفاق، حملوه إلى منزله. هناك صرخ لأمه، "أنا شفت جنية قبل كده، لكن مش زى ده أبدا، أنا كنت متأكد انى حاموت". ظل شحات مريضا ملازما الفراش لعدة أيام بعدها أحس بتعب شديد وضعف وبأنه غير قادر على مغادرة فراشه. عندما يحاول النهوض، يشعر بألم ثاقب يخترق صدره. هنا استحضرت أم حامد الشيخة داية من الكوم، قال لها شحات، "الجنى ده حاول يلفنى كلى ويخنقنى". فصاحت الست الشيخة، "أيوه يا شحات يا ولدى، هو ده المارد، كان عايز يشيلك ويرميك فى الصحرا عشان تموت هناك، أو حتى يرميك فى الترعة وتغرق. دايما المارد يحب يقتل البنى أدمين، كان لازم يا ولدى تنطق وتقول "الله أكبر" زى ما قال لك الشيخ الحفنى، وتمسك حديدة فى إيدك لأنه حتى المارد يخاف من الحديد وتقول: حديد يا مشئوم !. المارد هو أفظع أنواع الجن، حظك كويس إن انت لسه عايش".

تركت الشيخة تعليمات محددة ليكتمل علاج شحات، فهناك تعويذات معينة تحرق بجواره كل مغربية أثناء وقت الصلاة، وكل صباح ومساء، على أم حامد أن تحرق البخور وتحرك الإناء الفضى الخاص بالبخور فوق رأسه سبع مرات، ويوضع حجاب معين فى منتصف الغرفة

تماما، وفوقه يخطو شحات سبعة مرات فى اليوم. بعد خمسة عشر يوما يحضر لها طبقا صينيا وهى سوف تكتب على حوافه بعض الكتابات السرية. وعندما يكون القمر بدرا عليه أن يغسل هذه الكتابات بالماء ثم يشربه على ثلاث دفعات. بعد ذلك، وعدت الشيخة بأنه لن يشعر بأى ألم فى صدره ويعود قويا كما كان.

طبق شحات كل ما أوصت به الشيخة بكل دقة، لكن الألم لم يفارقه. عبد الباسط، وهو أقل تشاؤما من زوجته اصطحب أخيرا شحات إلى مستشفى الأقصر. أخذت له أشعة على الصدر، الطبيب وهو مسيحى كبير فى السن وجد دلائل على تأثر قلبه بروماتزم، وشدد على شحات بأن يمتنع نهائيا عن التدخين، الأكل الحريف، الكحوليات وبذل أى جهد مبالغ فيه. عندما هزأ شحات من هذا التشخيص، أخذه عبد الباسط للعرض على طبيب مسلم أمن على تشخيص الطبيب الأول، ثم قال هذا بحدة بالغة، "إذا ما أخدتش بالك من نفسك، انت حتموت فى ظرف سنة أو اتنين". هذا التحذير بعث بخوف مريع فى قلبى عبد الباسط وشحات. أخيرا أخذه عبد الباسط إلى طبيب متخصص فى القلب وعيادته فى مدينة قنا، الذى وجد بالفحص الدقيق أن قلب شحات سليم ولا يعيبه شىء. هذه التناقضات التشخيصية تركتهما محتارين، مما جعل شحات أخيرا يقول لوالده، "كل اللى بيقولوه الدكاترة دول هو كدب فى كدب. كل شىء من عند الله، ولحظة الموت بيحددها ربنا

من يوم ما يتولد البنى آدم ومافيش أى شىء يقوله الدكاترة دول ممكن يغير المكتوب". مع الوقت، خف ألم صدره، بعدها رجع إلى التدخين، الشرب والأكل وأخذ يعمل فى الحقل كما كان يفعل سابقا، ولم يزعجه الجن بعد ذلك.

تمسك عبد الباسط بمناسبة شفاء جسد وروح شحات، وانتوى أن يقيم حفلا رائعا بهذه المناسبة السعيدة. قرر أن يستأجر فرقة موسيقية ويستقدم بعض الرواة المشهورين، وربما يحضر أيضا بعض الرقاصات. هذه الحفلة ستستمر سبعة ليال وسوف تتكلف ثروة صغيرة، لكن الحاضرين سوف يساهمون عندما يقدمون النقوط للعازفين ويحضرون معهم مددا من الحشيش وزجاجات العرقى، وأقسم أن يذبح خروفين ليأكل الجميع أول وآخر أيام الحفلة.

اندهشت أم حامد عندما عرض عليها الفكرة، ثم شملها سرور بالغ. لا شىء يبعث على الانبساط أكثر من أن تفعل مثلما يصنع الجيران، هى لديها قدرة عجيبة على أن تكون مبذرة أكثر من زوجها بمراحل. إذا أحست هى أو زوجها بأن هناك واجب ضيافة محتم – وأم حامد مشهورة بأنها أحسن طباخة فى القرية – فإنهما فورا يقومان بشراء اللحم والحمام والفراخ، حتى لو اقتضى الأمر أن يعيشا بعدها على أكل الفول بمفرده لمدة أسبوع كامل. ورغبة منها فى تتميم واجب الضيافة على أكمل وجه، يمكن لأم حامد أن تقدم عشرين أو ثلاثين كوبا

من الشـاى فى اليـوم الواحـد، هذا يعنى أنـهـا تنفق فى شـراء السكر والشاى أكثر مما تنفقه عـائلات أخرى على المأكل والشرب. الدخل الذى يحصلون عليه من بيع منتـجـاتهم الزراعيـة شـحيح للغـاية ولا يتـعـدى أربعمـائة أو خمسمـائة جنية سنويا، لكن إذا كـان حظ عبد الباسط عـاليا فى القمار، فهنا يتيسر الحال.

حينئذ، وأثناء التـجـهيز للحـفل، اعتـرف عبد البـاسط لزوجتـه أنه اضطر أن يبيع نصف فدان من أرضـه الموروثة للحـاج عبد المطلب لكى يسدد ديون قمـار. ثارت أم حامد واحتجت بعنف، لدرجة أن عبد الباسط أضطر أن يضـربها قلمـا على وجـهها، لكن مـا أن اسـتمرت فى العويل، حـتى أمسك هو بفـأس وكـاد أن يجـزر رأسـها لولا تدخل شـحـات الذى أمـسك بيـده. فى الحـال تراضـى عـبـد البـاسط مع زوجـتـه وطلب منـهـا الغفران. شـعر شـحـات بغضب شديد يعتريه لأن والده باع أرضـه، ولم يجد فـى نفسه القدرة الكافيـة لأن يتحدث مع والده فى هذا الشـأن، لهذا داوم على ارتيـاد قـهـوة عـبـد اللاه كل ليلة لكى يبتـعـد عن طريق والده. بالنسبة إلى شحـات، يعتبر بيع الأرض كأنه يشبه الاستغناء عن رجولة الفرد، لذا انتابه خجل وعار شديدان من فعلة أبيه.

كان جل اهتمام عبد الباسط منصبا ناحية زوجتـه، فهو على وعى كـامل بما تعنيـه المقتنيات والوضـع الاجتـمـاعى بالنسبـة إليـهـا، وبينمـا إحـسـاسـه يتـضـاعف بأنه أخطأ فى الأولى، لذا انهمك فى التـعـويض

بالنسبة للثانية. يا الله، إنه سوف يقيم حفلا لن ينساه الناس بسهولة!. إنه لن يذبح خروفين فقط بل أربعة. لماذا نعيش، هذا ما قاله لها، أليس لكى نأكل ونشرب وننبسط، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يخبئه الغد. وهو ليس سوى الطريق القصير المؤدى إلى القبر. لقد استرد شحات صحته، أليس هذا مبررا كافيا للاحتفال ؟ إذا كان الإنسان كريما مع الناس، فالله هو العاطى الأكرم. فى صميم قلبه، كان يحس بخجل بالغ من فعلته لأنه بدد من ميراث أبنائه، لذا ود أن يريهم جميعا.

تعال نملأ الكاسات

نحن الآن فى اليوم الأول من الحفل، كانت ليلة منعشة وصافية من ليالى شهر مايو. لمدة يومين كاملين، انهمكت أم حامد ومعها ابنتاها المتزوجتان بالإضافة إلى ابنتها سماح ونساء من الجيران فى الطبخ وتجهيز وجبات فاخرة تتكون من الفراخ المسلوقة، الحمام المحشى، ملفوف ورق العنب بالأرز، وكل أنواع الخضروات، سلطة طماطم وكرات وخس، أكوام من العيش الشمسى وعيش الذرة، أربعة أنواع من الجبن ونوعيات مختلفة من الحلوى. كان عبد الباسط قد أحضر عدة صناديق من عرقى البلح والينسون بالإضافة إلى البيرة وشىء آخر يدعى "البراندى الفرنساوى" الذى اشتراه من محل رجل يونانى فى الأقصر. عبق الجو برائحة شواء خروف مغروز فى سيخ فى الفسحة. الكل ينادى على أم حامد، وهى مقطوعة النفس وبنظرة ثاقبة تهرول هنا وهناك فى أرجاء المطبخ، حيث تشتعل النيران منذ فجر اليوم.

ظهر عبد الباسط وقد حلق ذقنه وشذب من شواربه، وجهه متورد من جراء حمام ساخن بالماء والصابون، متبخترا فى جلباب واسع أبيض

ونظيف. هو الآن يشرف على جيرانه وهم يرصون الكنب والمقاعد التى سوف يحتلها أكابر البلد، كذلك يرصون الحصر على الأرض، هى التى سوف يجلس عليها الآخرون. أخذ أيضا فى تعداد زجاجات الخمر، وكان ينتابه قلق داهم خوفا من أن لا يحضر الراوى فى موعده الذى سوف يحين بعد أربع ساعات قادمة. وجهه الغارق فى عرقه تلألأ فى ضوء اللمبات العديدة التى علقت، ليس فى الساحة والحارة فقط، لكن تمتد حتى تصل إلى حدود جدران المعبد الفرعونى، لأنه فيما بعد سوف يكون هناك رقص. هو احتسى بالفعل زجاجة زبيب ومستعد الآن ليقربع زجاجة أخرى. بعض المدعوين حضروا بالفعل وأخذوا يتبادلون السجائر فيما بينهم ويدخنونها بتلذذ ونظراتهم كلها توقع وتشوق ونستمع إلى ضحكاتهم الخشنة المقرقعة. بدأت الضوضاء تشتد، والغرباء يمرون ممتطين حميرهم يتعجبون ويستغربون مما هو حادث أمام أعينهم. راجت همسة دائرة مفادها أن الرواى العجوز فى طريقه الآن آتيا من محطة القطار.

منذ بدأ عبد الباسط فى التفكير فى إقامة هذا الحفل، حتى قرر أن يجلب إليها أفضل الفنانين. والراوى الذى تعاقد معه هو رجل عجوز محنك يعتبر الأجود فى مهنته. الآن نستمع إلى الصوت المجلجل لمؤذن الجامع المدعو عمرو وهو يدعو المؤمنين لحضور آخر صلاة فى النهار، ثم اختفى تدريجيا صدى صوته ذو الجرس الحاد.

حوالى الساعة الثامنة مساء، تجمع الكل، حالا ازدحمت الساحة والحارة التى أمام المنزل بالمدعوين. شغل الرجال كل الكنب والحصر، أما النسوة فقد انهمرن داخل البيت ليحتللن مداخله ونوافذه. تزاحم الأطفال محاولين احتلال أى فراغ متاح إلى أن يطردهم أحد الكبار من هنا أو هناك. عبد الباسط، شحات، أحمد، العزب وأقارب آخرون تحركوا بين الجموع بكل لطف يقدمون لهم أقداح صغيرة من الشاى، يجلبون بعض الفحم المشتعل لتغذية الشيش، يوزعون عليهم سجائر الكيلوباترا التى يشعلونها لهم بكل اهتمام ووقار.

واحد منهم أخذ يدور بين المدعوين وقد أمسك بوعاء فضى به بخور لبان دكر مشتعل، هذا الوعاء كان معلقا بسلسلة ويتم أرجحته فوق رؤوس الضيوف بحيث يغمرهم بدخان أزرق له رائحة محببة.

الجميع حضر. أتى فاروق وبصحبته أخ بهية المدعو "فاتح"، هو أحد أصدقاء عبد الباسط ومشاركا عتيدا معه فى احتساء الخمور. فاتح هذا وجهه أحمر وسيم، هو تاجر بارع فى مجال بيع وشراء حيوانات الزراعة. من الأسلوب الذى يصافح به الناس هو وفاروق بكل حرارة وهم يخبطون على أكتافهم ثم ينفجرون فى ضحكات خشنة، تنبئ بأنهما فى حالة شعشعة من شرب بعض من الخمور. فاروق إنسان خشن، لكنه لطيف، يستطيع أن يتماشى مع الجميع. وقد لاحظت أم حامد أن شريك زوجها هذا لا يستطيع أن يناضل كثيرا فى تجنب تصويب نظرات

متفحصة نحو النساء بعينيه الحمراوين. فاروق هذا من النادر أن يفتح فمه بدون أن يصدر منه قول فاحش، هذا يؤيد تقديرها له كإنسان وضيع.

حضر الحفل أيضا الغفير "سالم"، وقف منتصبا ممسكا ببندقيته. لقد بعث به العمدة بشكل مخصوص لكى يتأكد من أن الأمن مستتب. حضر أيضا "لمعى"، وهو من أكبر ملاك الأراضى فى القرية وفى معيته عدد من الرجال توجهوا بكل احترام لاحتلال الدكة الرئيسية، ومن كانوا يشغلونها سابقا غادروها فورا باحثين عن أماكن أخرى. أيضا حضر "يوسف"، وهو جار عجوز، تعدى الستين من العمر، محنى الظهر، بلا أسنان، ثرثار، يتحدث بلا توقف لالتقاط أنفاسه عندما يجد من يستمع إليه.

فقط هو الحاج عبد المطلب الذى كان غائبا عن الحفل. أرسل يقول إنه سوف يحضر متأخرا، فهو ليس لديه وقت يقضيه فى مثل تلك التفاهات. امتلأ المنزل بالنسوة، انحنت " بطة" ابنة سعاد الجميلة على إفريز نافذة علوية وهى تضحك بجماع قلبها كأنما تود أن تلفت نظر أحدهم، أما "سماح" أخت شحات الصغيرة، فقد تنازعتها فضائل التواضع مع الفضول، لذا وقفت خلف بطة وخمارها يغطى نصف وجهها. جلست الشيخة "داية" وسط مجموعة من النساء العجائز احتللن عتبة الباب الرئيسى. فوق الجلبة الصادرة من المطبخ، يسمع صوت بهية الآمر فوق الجميع.

حدثت استثارة غير عادية وسط الجموع عندما حضر كل من "صبحى" والحاج "على" سويا وأخذا يصافحان عبد الباسط بحرارة ملحوظة، كانا يودان أن يظهرا للجميع أن ثلاثين عاما من الخصام بين الأقرباء لا يجب أن يلتفت إليها. دوت بعد ذلك أصوات حادة صادرة من كلاكسات بعض السيارات دفعة واحدة، وحدثت جلبة غير عادية عندما رأوا عبد الباسط يندفع خارجا ليحيي شخصا ما، أخيرا حضر حضرة الراوى. فى التو قاده عبد الباسط وسط الجمهور. هو رجل أعمى، وجهه شاحب كأنما قد من شمع متموج، تحت لحية بيضاء مشعثة. ثم أجلسوه فوق مقعد خشبى خاص كان عبد الباسط قد نصبه سابقا ملتصقا بحائط المنزل، مزينا بحبل من المصابيح الكهربائية العارية ذات الضياء المبهر.

أمسك هذا الشيخ بالسمسمية فى حجره، كذلك فعل رجل عجوز آخر جلس بجانبه، بينما تصاعدت صيحات الجمهور المتوقعة. بدأ الاثنان فى تجربة أوتارهما، من الأول صدرت نغمة حادة بينما من الآخر رتم أقل حدة. ثم حدثت جلبة عندما وصلت جماعة العازفين، حاملين معهم زماراتهم، الطبول، كمنجة، الناى ثم السنج، اتخذوا لهم مكانا خلفا لأنهم لن يمارسوا فنونهم إلا بعدما ينتهى الراوى من إنشاده.

الحاضرون جميعا يعرفون عن ظهر قلب تفاصيل القصة التى سوف يحكيها الراوى على مسامعهم، إنها ليست سوى المغامرة العجيبة

التى صـادفت أبا زيـد، وهو إعرابى أسـود البشـرة من قـبيلة بنى هلال منذ زمن بعـيـد. هذا الرجل قـضى طفولة عنيفـة قتل فـيـهـا أسـتـاذه فى ساعة غضب، لكن هذه الحادثة تحكمت فى كل مـشاهد حياته التالية. فى سن الحادية عشر قرر أبو زيد أن يذبح أباه، ظانا بـالخطأ أنه يسعى فى الفتك بقاتل أبيه !.

وقف شـحـات خلف المعـازيـم منتظرا أن يبـدأ الراوى فى إنشـاد المقدمة التى تبدأ بحمد الله. عندما بدأ هذا فى الإنشـاد بصوته المرتعد الذى ضعضعه كر السنين، لكنه ما زال شجيا ومطربا، سكن المستمعون وأصاخوا السمع جيدا. لا يوجد أى نوع من التصنع الانتباهى الشديد الذى انصـهـــر فيـــه هـــؤلاء الفلاحـــون، فهم مـغـــرمون بالاستمـــا ع إلى تلك المقدمات. تلمظ فاروق وقبض بأسنانه على شفتيه الرطبتين ومال إلى الأمـام قليلا بكل شـغف واهتمـام كـأنما يود أن يزدرد الكلام بفـمه، بينمـا خـفض "لمعى" رأسـه وأغـمض عينيـه كـأنما هو فى رحـاب صـلاة الجمعة فى المسجد.

جلس الراوى العـجـوز وقـد أرسـى أصـــابعـــه العنكبـوتيـة على السمسمية وعــزف اللحـــن الابتدائى؛ ثم، بينمـا حل صمت بالغ حوله، بـــدأ فى نطـــق الأبيـــات الأولى الملـــوءة بدفء تعـــودوا عليـــه. بـــدا صـــوته مـهـتـــزا فى البدايـــة، لكن اسـتـعـاد قـوته وجـلاله بفـعل إنصات الحاضرين.

له صوت رائع، بالرغم من أن وقع اللحن فيه تكرار لا ينتهى. تدريجيا بدأ مسار إنشاده يخشن كأنما هو يعبر مجرى ملاحيا من الأبيات المألوفة، واضعا فيها جماع أحاسيسه ومشاعره. أمكن لشحات أن يشاهد الرجال حوله وهم يهتزون طربا ويتجاوبون، أحدهم صاح متنهدا "الله، الله"، وحالا انتشرت تلك اللفظة بين الجمهور تند عنهم كلما نطق الرجل ببيت يعرفونه، أيضا انطلقت منهم جملا أخرى متنوعة تعبر عن الاستحسان والإعجاب مثل، "صوتك هايل"، "يا سلام، انت اللى فيهم"، كل هذا زاد من ثقة الراوى، لذا أخذ يلعلع بصوته العجوز.

يوم ربيعى، أنا واصحابى رحنا..

لما اتجمعوا الملوك فى جلسة أحكام..

السرد كان دراميا ومختلف التنويعات. كان الراوى يغير من لهجته وأسلوبه لكى يماثل المادة المروية. هو الآن يهدد، ثم يتوسل، وحين آخر يحتج، وفى أخرى يعاتب.

أصرخ لله - يا لطيف يا لطيف

أصلى للحى القيوم، أصلى من أجلك يا نبينا الغالى

لا يدعو للدهشة أن تكون كل كلماته صحيحة، ففى القرى، نلاحظ أن الرواة والمعلمين المسلمين لهم مقـــدرة عجيبة فى الحفظ والتذكر؛ حتى شحات وهو طفل صغير حفظ تقريبا كل القرآن عن ظهر قلب.

الآن هو ينصت بكل إعجاب وهو يحملق من فوق رؤوس الحاضرين وقد تصاعدت إلى عنان السماء دفقات من الدخان المتموج الصادر من شيش المدخنين. كان هو فى حالة افتتان شامل من جراء صعود وهبوط أبيات الشعر المنطوق، ملك عليه كل انتباهه.

يعينك الله وتاخد بتار الدم

وخيام الهلالية انت اللى خربتها

بين فترة وأخرى من الشعر المرسل، تحدث إنصاتة فيها لا يتحرك أحد أو حتى يهمس بكلمة، لكى تتاح له فرصة لأن يتمعن فيما حدث من جلائل الأمور فى ماضى الزمان. ثم غرس الراوى ذقنه فى صدره كأنما يود أن يستعيد قوته، وبكل لطف شبك أصابعه. أسرع عبد الباسط ليحضر له كوب شاى أو ماء مثلجا، ثم فى مرة أخرى، يرفع الراوى رأسه إلى الأعلى نحو نور لا يراه ويبدأ مرة أخرى فى الإنشاد.

ما أن حل منتصف الليل تقريبا، حتى اكتمل الجزء الأول من القصة، وسوف تستكمل على هيئة مسلسل يومى خلال الستة أيام الباقية من الحفل، حتى، كما يعلم الجميع، يجتمع شمل أبو زيد مع أمه وأبيه ويستمرون بعد ذلك فى البحث عن مراع جديدة ومغامرات مثيرة فى بلاد المغرب. انهمك الرجال فى تصفيق حاد، بعدها قاد شحات الرجل العجوز إلى داخل المنزل ليتعشى. تدفقت الدموع مدرارا

من عينى شحات؛ فهو مثل أبيه كان قد قربع كمية لا بأس بها من الخمر من قنينة ضخمة، هو الآن فى حال تأثر بالغ بما حكاه الراوى.

استراح الحاضرون، بينما دفعت البسط والكنب خلفا، ثم اتخذ الموسيقيون أماكنهم ليعزفوا. شحات والعزب حملا صناديق بها زجاجات العرقى من المنزل، فى الحال أحاط بهما الرجال وضغطوا حولهما بكل انفعال وأخذوا يصيحون محددين طلباتهم لدرجة أن شحات أحس كأن رأسه سوف تنفجر. ساد الجميع نشاط وهمة بالغة، أخذ الشباب فى تداول زجاجات الخمر فيما بينهم، بينما انهمك الكبار فى شد أنفاس الشيشة. الأطفال أخذوا فى الجرى هنا وهناك وهم ينطقون بأجزاء مما استمعوا إليه بانفعال بالغ، بينما انفجرت بين الجموع ضحكات خشنة ملعلعة.

بعد دفعة من شرب الخمور، جلس الجميع ليأكلوا. استمر الموسيقيون فى العزف، بينما انهمك الرجال فى الحديث والصياح. صوت النساء كان يلعلع داخل المنزل، بينما كان صياح الأطفال جنونيا، مما جعل المكان كله يبدو كأنه سراية المجانين.

عبد الباسط تجده فى كل مكان، يلف ويدور هنا وهناك، يحيى هذا ويحضن ذاك، يصب قدرا آخر من الخمر لصديق، يشعل سيجارة آخر، يبلع هو نفسه كأسا، ينادى على أم حامد لتلحقه بمدد من طعام حدث فيه نقص، يزاحم الجميع بكرشه الواسع، ينطق فى بهجة وسرور"الحمد لله،

الواد شحات رجعت ليه صحته، وانا لازم احتفل بالمناسبة دى، دا ولدى الغالى يا ناس!".

بعض الرجال، وقد بلغ بهم السكر حده الأعلى، انقضوا على أطباق أم حامد كالنسور، وقبضوا على كل ما تطوله أيديهم كأنما هم طيور جارحة والفريسة أمامهم، حتى أن البعض حشوا جيوبهم، فسمعة أم حامد فى طبخ كل ما هو طيب ولذيذ معروفة للجميع. لذا خلص الطعام كله. بعد ذلك أخليت الساحة، وكون الحاضرون دائرة كبرى امتدت من الحارة حتى الطريق العام، ثم واحدا تلو الآخر، قام الرجال للرقص. يتقدم الواحد فيهم بحركات بطيئة وهو يحرك شومته فوق رأسه فى حركات متناغمة لطيفة، ثم يخطو بخطوات واسعة انسيابية. بعد دقائق يظهر أحدهم داخل الدائرة وقد ربط قماشا يحيط بطنه ومؤخرته، فى الحال يسرع العازفون من وقع موسيقاهم، تنطلق المزامير فرحة مبهجة، يزعق الناى، تدق السنج بينما يهز الراقص مؤخرته ذهابا وإيابا ومن جانب إلى آخر وللأمام والخلف بأسلوب حسى متموج، ويبدأ الرجال فى الصياح، "الله، الله"، هذا يشجع الراقص فيزيد من حركاته.

بعض الرجال يتراقصون سويا، ويمثلون معارك وهمية فيما بينهم بعصيهم. أما عبد الباسط فقد سكر تماما، أمسك فى يده بزجاجة من "البراندى الفرنساوى" وأخذ يهزها متابعا دقات الطبول.

هذا المشروب ذو المذاق السيئ، لا يعلم سوى الله مما صنع، يعطل تماما ملكات كل من يشربه، بحيث يبدو عليه لاحقا أنه كمن قد أصيب بارتجاج فى المخ.

أزاحت الفتيات الصغيرات خمرهن لتظهر خلفها فساتين ذو ألوان فاقعة تتراوح ما بين اللون البرتقالى والأحمر الفاقع، ثم أخذن يتمايلن ويدقن كعوبهن فى المندرة الأمامية. أحد أصدقاء شحات المدعو "التعبان" وهو شاب قوى البنية، بشرته بنية اللون، وقف يراقب الفتيات ويغيظهن قائلا، "والله، لاتجوز دى ودى ودى ! أنا حاغير واحدة كل أسبوع!"، أجابت الحسناء "بطة"، " ما ينفعش الكلام ده معانا يا شاطر، إحنا عندنا خطابنا. روح العب بعيد".

تنقلت أم حامد هنا وهناك يلفها اهتمام زائد وقلق وهى تشرف على النسوة العاملات فى المطبخ، لكن من الواضح أنها كانت راضية تماما لأن الطعام كان وفيرا ولذيذا ولن يجرؤ أحد من الجيران أن يعيب عليه. نظرا لعدم تواجد غرباء من خارج القرية، دعا عبد الباسط الفتيات ليخرجن خارجا ويرقصن. وافقت بعض الفتيات الجريئات أمثال بطة ودخلن وسط الدائرة متظاهرات أولا بالحشمة وقد غطين أنفسهن بالطرح السوداء، لكن وجوههن ظهرت بعد ذلك وقد ارتسمت عليها ابتسامات غنجة، وبعد لحظات، أخذن يدرن فى خطوات رتيبة سريعة. عندما أصر عبد الباسط على أن تنضم إليهن أم حامد،

أرخت هذه طرحتها على وجهها ورقصت بارتباك لفترة بسيطة، ثم وهى تنفجر ضاحكة خجلا، أسرعت بالهروب إلى الداخل.

أصبح الوقت متأخرا ليلا، وتم قيادة الراوى إلى مكان نومه، لكن لا أحد يود أن يرحل إلى منزله. لم يعد الرجال بقادرين على تمييز ما أكلوه أو شربوه، ولا ما قيل أو قال. فقط عندما يخفت صوت الموسيقى قليلا، يسمع حينذاك جلبة صوت النساء الصادر من جهة المطبخ.

دخل فاروق حلقة الرقص وفى كل يد زجاجة بينما قبض بأسنانه على ثالثة، هذا أضاف إلى مقدار البهجة والانشراح السائدان، ثم سحب فاروق عبد الباسط إلى منتصف الدائرة وحزمه بقطعة من القماش. من داخل المنزل والساحة انطلقت همهمات تقول، "عبد الباسط بذاته حيرقص". راقب شحات أباه وهو يرقص ويتمايل بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء سكرانة. أخذ عبد الباسط فى تحريك أردافه الثقيلة هنا وهناك وإلى الأمام والخلف ودق برجليه فى الأرض وشاهد أم حامد وهى ترمقه من داخل المنزل وقد تورد وجهه من السعادة. بعض الرجال تمايلوا على بعضهم بعضا منتشين وهم يضحكون ويصفقون قائلين، "يا عينى، عبد الباسط ولا الغازية فى أيامها ".

رمشت عينا شحات، لقد كان يعاقر الخمور المختلفة بدون رابط أو نظام، الآن هو يرى والده أمامه كأنه شخصان ورأسه بدأت تسبح

في الملكوت. بالكاد فهم ما المقصود عندما اندفع إليه شخص ما ليقول له إن والده ممسك بيد أم حامد ومتجهان الآن نحو صبحي والحاج علي لكي يقرروا صلحا رسميا. في موجة من الشعور الطيب، ارتسمت ابتسامة عبيطة على وجه شحات وأخذ يتمايل أماما وخلفا، إلى أن أمسك بكتفيه شخص ما، إنه خاله أحمد. حاول شحات أن يركز نظره على وجه خاله الوسيم، لكن لاحظ أن وجه هذا قد اكتسى بأمارات غضب عات. وزعق فيه أحمد، "إذا انت اتكلمت مع الناس دي، أنا مش عارف حاعمل فيك إيه يا واد يا شحات!، إذا حاول أي واحد فيهم يتحدت معاك قول لي، وأنا حاقف معاك". ثم أخذ يزغد في كتف شحات حتى كاد هذا أن يقع من طوله. إما العجوز يوسف، فهو لم يتطوح مثل غيره سكرا، لكن العجيب أنه ثبت إحدى ساقيه في الأرض بينما رفع الأخرى عاليا في الهواء، كان يستوقف كل من يمر عليه ممسكا بملابسه صارخا في وجهه، "الحفلة دي اتكلفت على الأقل خمسين جنيه!".

وقف الحاج علي أمام شحات وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة قائلا، "ليه يا شحات ما جتش تتحدت مع ولاد اعمامك، دا احنا بقينا خلاص زي السمن على العسل. اسأل كمان أبوك وامك!". ابتسم شحات ثم تجشأ بصوت عال وحاول أن يركز نظره الزائغ على وجه الحاج علي، لكن جفونه كأنما قدت من رصاص، بالكاد استطاع أن يبقي عينيه مفتوحتين وشعر بدوخة شديدة تتملكه، ثم رأى خاله أحمد

يقف خلف الحاج على وهو يهز رأسه بغضب، ويقول بصوت عال "لا، لا" لذا حول الرجال أنظارهم نحوه.

تغير وجه الحاج على واكتسا بغضب جامح، لاحظ شحات عروق جبهة الرجل وهى تنفر، ثم لاحظ أنه رجع للخلف قليلا ثم طوح ذراعه وضرب شحات على خده بكل قوة. فوجئ شحات بهذه الصفعة، لذا وقع دفعة واحدة وسط مجموعة من صناديق الخمر الفارغة، وسمع صوت زجاج يتكسر. استرد شحات توازنه وأخذ يدعك خده وهو يتحرك أماما وخلفا. قال وهو مطأطئ الرأس، "متشكرين يا عم". تفتف الحاج على وهو يصرخ، "ما بتنطقش ليه يا واد، باقول لك روح دلوقتى وحب على إيد عمك صبحى!". فتح شحات فمه، ثم أغلقه، ثم فتحه مرة أخرى وقد سيطرت الخمر على كل حواسه، لذا تملك الحاج على غضبا عاتيا ورفع ذراعه عاليا وضربه كفا للمرة الثانية، هنا تفجرت شعاعات من الضوء فى رأس شحات، أخذت يداه تبحث عن أى شىء يمكن أن تقبض عليه، لم تكن هذه سوى زجاجة خمر فارغة، لذا قام بسرعة ورفعها عاليا لكى يهشمها فوق رأس الحاج على، إلا أن أحدهم أمسك بيده، ولم يكن هذا سوى خاله أحمد. تجمهر الناس حولهم وأخذوا يتصايحون وتوقف العازفون عن العزف، ثم اندفع عبد الباسط وسطهم ممسكا بكتف شحات، "يا ابن الحمار، عايز تقتل الحاج على؟" ودفع شحات خلفا ففقد هذا توازنه ووقع أرضا. أخذ شحات فى الحبو أرضا جامعا فى يديه

عددا من حبات الزلط وأخذ يحملق فى الجمع محذرا إياهم من أن يتدخلوا، ثم قام وأخذ يجرى فى عرض الطريق. كان يود أن يعثر على خاله، لكن هذا لم يعد له وجود. سمع صيحات تتابعه، لكنه أسرع جريا وترك خلفه المعبد ثم الفندق ثم عددا من المنازل ثم الجامع وبعده المعبر الذى يقع على الترعة. بدأت كل كلاب القرية فى النباح، ما أن تخطى شحات حقل ذرة خلف منزل الحاج عبد المطلب، حتى اختبأ داخله وهو يلهث ويتلهف على التقاط أنفاسه. سمع أصواتا تقترب من مكانه، لكنها مع الوقت أصبحت خافتة ونادرة، لعل الرجال عادوا مرة أخرى إلى الحفل. بعد مرور وقت طويل، استطاع أن يميز صوت فاروق يقول، "يا ريت يا عبد الباسط تعمل لنا حفلة تانية زى دى ! يا سلام، آدى الليالى والا بلاش، ليالى انس صحيح". أخذ شحات يتنفس وهو يشعر بثقل يطبق على صدره، ثم وضع رأسه على الأرض الطينية الصلبة وأغمض عينيه، وفى الحال استغرق فى نوم عميق.

عندما استيقظ، كانت الشمس تفترش وجهه. أخيرا عثر عليه "العزب" الذى أخبره بأن والده قضى الليل كله يبحث عنه، قيل أيضا إن أم حامد أخذت تبكى طوال الليل وإنها تشاجرت مع أبيه بسببه.

سويا، ذهب الصديقان إلى قهوة القرية ليشربا الشاى. بعض الأولاد الصغار شاهدوا شحات لذا أسرعوا ليخبروا عبد الباسط الذى حضر من فوره. أخذ هذا يحادث ابنه بكل لطف وأخبره بأن كل الأمور

سوف تستقر إذا قام من فوره وتوجه إلى الحاج على واعتذر له، لكن شحات أبى قبول هذا العرض، وأخبر أباه عما حدث فعلا وقال بلهجة كلها اتهام، "خالى أحمد راجل بحق وحقيق، إذا قال لى اعمل أى حاجة، أنفذها على طول". فى حالة شعوره بالعار لأنه باع أرضه، لم ينطق عبد الباسط بشيء عن الحاج على، لكنه توسل لابنه، "عايزك بس تعدى أسبوع الحفلة دى على خير ومن غير ما تعمل دوشة تانى".

بالكاد استطاعت أن تخفى أم حامد فرحتها بما فعله شحات أو أخوها ضد أبناء العم هؤلاء؛ لقد شعرت بإهانة بالغة عندما جرجرها عبد الباسط لكى تقف أمامهما.

باقى أيام الحفل انقضى بنجاح منقطع النظير، الراوى العجوز، الذى نال استحسانا بالغا من مستمعيه، كان رائعا، وأداؤه أصبح مثار تعليق وفخار لعدة سنوات تالية. لم يحضر أحمد سوى فى الليلة الأخيرة، وعندما أتى احتفظ بمظهره العملى الجاد المعتاد، لكن عندما شاهد شحات، اختفى ذلك التعبير البارد وتورد وجهه قليلا ثم ضحك مرتبكا، ثم أتى لكى يقبض على كف شحات، لكن هذا سحب يده بسرعة قائلا، "أنا اتخانقت، لكن انت رحت فين؟ انت عايز منى إيه يا خال، عايزنى مثلا أدخل السجن؟" . لفترة طويلة بعد ذلك، لم يتخاطب كل من الخال وابن الأخت.

الأب وأمثاله

طباع شحات الوعرة وطرق معاملاته الخشنة لا تبعد عنه أصدقاءه، فكل واحد منهم له شهرة خاصة فى نوع معين من الشيطنة والتهور، فبالإضافة إلى "العزب"، هنالك من أصدقائه المدعو "القط" وهو سجين سابق، أيضا هناك "عبد الرحمن" وهو شاب ضخم الجثة وعامل مجتهد مشهور عنه إلقاء النكات الفجة وامتطاء ظهر المهور، ثم هناك أيضا "التعبان" وهو سليل قبيلة الحرويات الشهيرة فى مجال سرقة مقابر المصريين القدماء والذين يعيشون وسط هذه المقابر فى قرية القرنة.

مثل شحات والعزب، نرى أن كلا من عبد الرحمن والتعبان يتمتعان ببنية قوية وعضلات مفتولة، فى كل تحركاتهم يلحظ المرء اتجاهاتهم الشيطانية التى يؤججها شبابهم الغض وهم على علم تام بما يملكونه من قوة واندفاع.

لكل من الأصدقاء الأربعة سمات متشابهة، مثل استدارة الكتف، حديثهم وهزلهم أعلى نبرة من غيرهم، يبدون دائما كما لو كانوا مقدمين

على عرض بعض الأعمال البارعة التى سوف تدهش الجميع. عندما يجتمعون سويا، فمن الأمور العادية تماما أن يبحثوا عن شيء يتعاركون بشأنه أو يتضاحكون بسببه. إنهم لا يخافون من شيء ولا يخجلون من شيء. لعبد الرحمن نفس ذلك الملمح البدوى الذى يلتحف به شحات، بينما نلحظ مثلا أن بشرة " التعبان" بنية غامقة، شعره متموج، شفتاه غليظتان وعظام وجهه بارزة، مما يؤكد أصوله الإفريقية.

الأربعة لا يفارقون بعضهم بعضا، كل واحد منهم قد يحضر أو يختفى لأيام وأسابيع، يتزوج ويخلف أولادا، يطارد النساء، يتشاجر مع والديه، يدخل فى مشاحنات مع باقى القرويين، لكن فيما بينهم هم دائما لطفاء وسعداء وروحهم عالية، كل شيء بالنسبة إليهم يعتبر مسليا يدعو لإطلاق قهقهات تصل إلى عنان السماء.

كلهم فى العشرينيات من العمر ما عدا "القط". إنه تعدى الثلاثين، هو عمر تجد فيه الفلاح وقد استقر فى حياته يتجمع هو وزوجته وأولاده حول النار فى الشتاء يتدفأون. فى الحقيقة، دائما ما تجد القط فى حالة بحث عن عروس جديدة. لقبه كاملا هو"القط الجرجاوى"، ليس هذا بالطبع اسمه الحقيقى، لكن يدل على البلد الذى نشأ فيه. لقد دخل السجن لأنه قتل جارا له فى شجار دموى. عندما أفرج عنه، حضر إلى قرية بيراط واستقر فيها. سر جاذبية "القط" كانت مصدر توقعات متعددة، فهو قليل الحجم، أكتافه المستديرة دائما مسحوبة إلى الأمام

كما لو كان فى حالة مستمرة من الشعور بالبرد والصقيع، لذا أطلق عليه لقب "القط". مع ذلك، هو تزوج وطلق أربع مرات؛ كل زوجاته كن سمان وضخام ومقبولات. قيل إنهن كن يذرفن الدمع الهتون عندما يقوم بتطليقهن وتسريحهن. القط هو الوحيد ذو الحجم الضئيل بالمقارنة بأصدقائه الثلاثة الطوال القامة، لا يبزهم سوى بضخامة حجم ذراعيه اللتين تدليتا من جانبيه كأنهما مخلبان عملاقان.

بعد انتهاء الحفل بوقت قليل، فى إحدى الليالى، ذهب كل من شحات، عبد الرحمن، العزب، التعبان والقط إلى القرنة ليحضروا زواجا جمسيا. دعى كل من عبد الباسط وأم حامد، لكنهما خجلا من الظهور هناك، فالكل يعلم أنهما منعا شحات من الزواج من سنية لأنها جمسية.

مع ذلك، رأى عبد الباسط أن تنتدب العائلة أحد أفرادها للذهاب، لذا أعلن، "ما فيش حد يروح غير شحات، لازم حد فينا يكون حاضر". لذلك أعطى شحات جنيهين، وأخبر ابنه بأن ينقط الموسيقيين بجنيه ويحتفظ بالآخر لينفقه على نفسه كما يشاء. دائما ما يبرز كرم عبد الباسط عندما يتعامل مع شحات، بل إنه لا يمانع أبدا أن يدخن ابنه فى حضوره - هذا الفعل لا يسمح به أبدا الآباء الآخرون فى القرية.

بتشجيع الآخرين، أنفق شحات الجنيهين بأكملهما على شرب عرقى البلح. ما أن حل منتصف الليل حتى كان الأصدقاء جميعا فى حالة سكر بين. كان حفل الزفاف هادئا رتيبا، لكن عندما حان الوقت

التقليدى لرحيل العروس إلى منزل زوجها، وقف سالم، وهو خال العروس، وطلب من الجميع الإنصات، ثم اعتذر بأنه بدلا من امتطاء العروس ظهر جمل أو حصان كالعادة، فإنها سوف تركب تاكسيا، وطالما أنه ليس متوفرا سوى سيارة واحدة، لذا لن يركب مع العروس سوى بعض من أهلها الأقربين. ثم أعلن سالم بصوت جهورى، "من فضلكم يا اخوانا، ما حدش يحاول يركب على رفارف التاكس، أنا عارف إن بعضكم سكران طينة، لكن كل واحد يحترم نفسه، عايزين الفرح ده ينتهى على خير".

انطلق فى الهواء عديد من طلقات المسدسات والبنادق، ورجال وسط الجموع أخذوا يصفقون ويتصايحون. أصدقاء شحات اعتبروا أن ما نطق به سالم ما هو سوى إهانة بالغة موجهة إليهم، لذا أخذوا يلكزون شحات ليقوم ويحتج. وقف شحات متغصبا، لا يدرى ما الذى سوف ينطق به. الكل حملقوا فيه، "انت راجل قليل الذوق يا سالم، انت... انت... صحيح جمسى!". أخذ أصدقاؤه فى تلقينه خلفا وهم يجذبون ثيابه، "الناس لازم تحترم بعضها بعض، هو احنا جينا من نفسينا، مش انتو اللى دعتونا. كلامك ده فيه إهانة لينا!". ما أن أحس شحات بأنه قد زودها حبتين، حتى جلس دفعة واحدة فى مكانه. جماعته الصغيرة أخذت تصفق له، لكن باقى المدعوين جلسوا عابسين، فالكل يعلم قصته مع سنية.

فى الواقع، لم ينتو سالم أن يمر هذا السلوك المعيب بدون عقاب، لذا التفت نحو شحات والغضب يغطى سحنته، "إيه الكلام قليل الأدب اللى بتخـــر بيـــه ده؟ انت مين عشان تتكلم أساسا؟ فين ابوك وامك؟ هما يعنى أحسن من مين عشان ما يحضروش فرحنا؟ ". هوذا بعد تلك السنـــوات الطـــوال، يطفـــح على السطح كل ما كان يشعـــر به سالم من جراء نبـــذه لأنه تزوج من جمسية. وقف هناك وهو يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه غير قادر على السيطرة على مشـــاعـــره، وأخذ يزعق فى شحات، "أبوك أكبر خمورجى فى البلد! كل الناس عارفين كده! دا ممكن يبيع شنبه عشان القمار، دا حتى باع أرضه عشان يسكر بفلوسها!".

حل صمت رهيب على الحاضرين، وقف شحات مرة أخرى، لكن فى هذه المرة لم يحاول أصدقاؤه أن يجلسوه، "متشكرين يا عم سالم، انت فى مقام أبويا، إذا كان هو راجل بطال يبقى انت زيه. إذا كان هو كويس يبقى انت كويس. دلوقتى اتهنوا بفرحكم"، ثم استدار خلفا وترك المكان يتبعه أصدقاؤه الأربعة.

ما أن ابتعدوا قليلا وهم فى الطريق، أسروا لشحات بأنه لا يجب أن يبتلع تلك الإهانـــة، ثم أخـــذ كل من تعبـــان والقـــط فى رص سيل من الشتائم المنتقاة لسالم، بينما اقترح عبد الرحمن أن يسدوا الطريق بوضـــع عـــدد من الأحجـــار الضخمـــة فى طريـــق مســـار السيارات.

وهم يترنحون سكرا، أخذوا يكومون عددا من الأحجار في عرض الطريق. عندما ظهرت أضواء السيارات على البعد، تجمع الأصدقاء الخمسة في خندق منخفض بجوار الطريق وقد أمسك كل منهم بعدة زلطات في يديه. ما أن اضطر السائق إلى التوقف بسبب الطريق المسدود، حتى اخذوا يمطرونه بالأحجار مما أدى إلى إصابة أخي العروس بجرح غائر في جبهته جعلت الدماء تتدفق مدرارا منه. ما أن شاهد شحات هذا المنظر، حتى طلب من إخوانه أن يتوقفوا. بعض الرجال الذين كانوا حاضرين الفرح، سمعوا الجلبة، لذ أسرعوا بالمجئ والصراخ وقد تسلحوا بالمسدسات والشوم وبأى شيء تطوله أيديهم، لذا أسرع شحات وأصدقاؤه بالهرب في جنح الظلام.

عندما وصلوا إلى حدود قريتهم، جلسوا بجوار الطريق المؤدى إلى المعبد. لمدة ساعة أخذوا يتذكرون ما حدث بأصوات متهدجة. عندما اقترب ضوء سيارة، تعرفوا عليها بأنها نفس تاكس العروس. هرب الجميع ما عدا شحات الذى وقف مكانه وقد لفه عند غريب منتظرا ما يمكن أن يحدث. ما أن رآه سالم، وكان عائدا هو وأبناؤه إلى بيراط، حتى أمر سائق التاكس بالوقوف وقفز منه ممسكا بيده البندقية الميرى، "فين ابن عبد الباسط الخمورجى ده؟"، فأجاب شحات الذى ما زال ملازما مكانه، "أنا هنا، عايز منى إيه؟ "، أسرع إليه سالم وزغده بمؤخرة البندقية في صدره، "انت يا ابن الكلب، تتجرأ وتشتمنا

فى فرحنا، انت فاكر نفسك مين؟ دا انت لسه عيل أهبل ، اللى زيك المفروض يحفر حفرة يندفن فيها هو وأهله".

تملك الخوف شحات، لكن يبدو أن ذهنه لم يصف بعد، لذا أمسك ببندقية سالم وأخذا يتصارعان بشأنها. ما أن رأى ولدا سالم البالغان، وهما "سيد" و "جمال" ما يحدث، حتى أسرعا بالوثوب من التاكس لنجدة والدهما. أحدهما خبط شحات بضربة قوية فى ظهره، وما أن اندفع هذا إلى الأمام، حتى عاجله الآخر بضربة قوية فى معدته. وقع شحات على الأرض ولاحقته الضربات الموجعة التى انهالت عليه كالمطر. أخذ الشابان يلكزانه بأرجلهما فى أجنابه، بينما أخذ سالم يزعق وهو يزيح أبناءه بعيدا، واستطاع بعد جهد جهيد أن يبعدهما حتى مكان وقوف التاكس. ثم عاد الرجل وسحب شحات إلى جانب الطريق وركب السيارة وغادروا المكان.

فى صباح اليوم التالى، كان وجه شحات عبارة عن كدمات وجروح غائرة، حكى لأبيه سردا دراميا جعل نفسه فيه هو وأصدقاؤه فى أفضل موقف، مما جعل عبد الباسط يشعر أن شرفه قد أهين، لذا أقسم أن يقتل سالم.

فى نفس اليوم، حضر سالم واقتحم منزل عبد الباسط، وبدون إزجاء التحيات المعتادة، قال، "أنا جاى فى سلام أهه، كفاية خناقات" ، ثم بسرعة أخبر عبد الباسط عما حدث فعلا، وأخذ يروى لوالدى شحات كيف أن ابنهم بدأ بشتم كل الجمسيه الذين كانوا حاضرين العرس.

انهمرت فورا عبارات الاعتذار من فم عبد الباسط مخبرا سالم، "كل الخساير اللى حصلت دى أنا مسئول عنها ولازم أعوضها. واللى تؤمر بيه حاعمله فى الواد الحمار ده". لأن سالم كان قد أعد نفسه جيدا لهذه المواجهة، خرج فورا من المنزل ليحضر العمدة والشيخ نوبى، وهو جار محترم، كان قد أخبره بأن ينتظر بقرب الطريق. ما أن جلس الجميع فى منزل عبد الباسط، حتى أسرعت أم حامد بإعداد الشاى للجميع بينما انهمك الكبار فى مناقشة موضوع الخناقة، وقرروا أن يتحمل عبد الباسط مصروفات علاج أخى العروس، وأن على شحات وأصدقائه أن يعوضوا ما أحدثوه من خسائر.

هذه الاتفاقات عالجت ما كان موضع اهتمام العمدة، لكن الشيخ نوبى كان يشعر أن تقاليد القرية تستلزم أكثر من ذلك، لذا طلب أن يحضر شحات ويقبل رأس سالم اعتذارا. كان شحات فى الغرفة العليا يذرعها جيئة وإيابا، عندما صعد عبد الباسط ليحضره. لكن هذا رفض بكل إباء وشمم ، لذا انفجر فيه الأب، "يا ابن الكلب، انت عايز تجرسنى قدام الرجالة؟ دول بيقولوا إنى قمرتى وخمورجى وانى بعت أرضى اللى ورثتها، وانى أنا مش راجل. انت لازم تحب على راس سالم!". عندما رفض شحات بكل العناد، صفعه عبد الباسط بقلم فوق صدغه.

أخذ شحات يغالب دموعه، بينما خده يغلى من قوة الضربة. أخيرا رضخ ونزل مع والده. لم يلاحظ أحد أن شحات تعمد أن يبعد شفتيه

بمقدار وهو يقبل قمة عمة سالم سوى الشيخ نوبى، لكن عندما أبدى العمدة ارتياحه، لأنه كان راغبا فى إنهاء هذا الموضوع سريعا، لم يعلق. عنــدما رأى ســالم شحـات وهو مقبل نحوه ليؤدى مراسم الاعتذار، أبعد رأسه قليلا، محتجا بأسلوب أبوى، "لا. لا يا شحـات! انت ولد صغير، أنا مش قلت لكم انكم لسه عيال تحفروا حفرة وأبهاتكم تقع فيها؟ جدودنا عاشوا فى سلام مع جدودكم فى بلدنا دى. نفسى يا ولدى ما تشربش كتير زى اللى حصل فى الليلة اللى فاتت. أبوك يقدر يشرب بحر النيل بحاله وما يحصلهوش حاجة، لكن العرقى بيخرب عقولكم انتوا يا صغيرين".

كل من عبد الباسط وسالم لم يقدرا جيدا حاسة الثأر التى تؤججها الدماء البدوية التى تسرى فى عروق شحات، لقد أحس بأن الإهانة التى لحقت بأبيه لن تفوت بدون رد مناسب. إنه يقبل انهماك والده فى الشرب والقمار، لكن بيع الأرض هو أمر آخر. لقد شعر أن أباه قد لحقته إهانة عظمى لن يمحوها سوى الانتقام.

فى صباح يوم، كان شحات يحرث جزءا من أرضهم فى سنباط، ويبعد هذا المكان حوالى ميل من منزلهم، عندما شاهد جمال بن سالم وهو يسير بجوار الترعة، خاطبه، "فين أبوك يا جمال؟" فأجاب هذا، "مين عايزه؟ دا راح الأقصر" فأضاف شحات، "طاب تعالى اقعد معايا نشرب كباية شاى".

تابع جمال شحات واتجها نحو خص فاروق. هذا الخص يكون غالبا خاليا ما بين فترة حصاد وأخرى. ما أن دخل جمال حتى هجم عليه شحات وأوقعه أرضا ثم أوثق يديه ورجليه بالقيود وكمم فمه لكى لا يصرخ. أخبره شحات، "إوعى تحاول تهرب أو تنادى على حد. أنا مش حأذيك". توجه شحات إلى منزله وأحضر طعاما وملأ قلة بالماء، وقال لأهله بأنه سوف يقضى الليلة فى قرية الكوم، ثم رجع سريعا إلى الخص وجلس بجوار ضحيته قائلا له، "خللى ابوك يدور عليك يوم والا يومين".

عندما لم يعد جمال هذه الليلة إلى منزله، ركب الهم زوجة سالم وطلبت من زوجها أن يخبر العمدة. إنها تعلم بما حدث سابقا وتخشى أن يصنع بهم شحات سوءا. زعق فيها سالم، "اقفلى خشمك يا حرمة، وما تنطقيش بحرف لأى بنى أدم".

ذهب سالم إلى عبد الباسط وأخبره بما حدث، استمع هذا للقصة مبهورا، ثم كان رده، "ما تزودش كلمة، الضهرية انهاردة حيكون جمال فى بيته". بعدها وافق سالم أن يعود لبيته وينتظر.

جلس عبد الباسط واحتسى زجاجة عرقى بأكملها، ثم جرع زجاجة أخرى. لم يخبر أم حامد بشىء، إنما استحم وارتدى جلابية بيضاء، ثم جلس على كنبة فى المندرة الأمامية وأخذ يحملق فى الحائط المقابل له. استفسرت منه أم حامد عما يشغل باله، فغمغم قائلا، "إذا اتطلقنا من بعض، يبقى ابنك هو السبب".

كان يعلم أن هنـــاك مكانين أو ثلاثـــة يمكن أن يعثـــر فيـهمـــا علـى شـحـــات وجمــــال إذا لم يكونـــا فى قـلـب الصـحـــراء الشـاسـعـة. لذا وصــــل الخص فى آخـــر عمليـــة بحث، لكنه كان فى حـالة سكر بين، لا سيما أنه توقف وهو فى طريقه فى قهوة عبد اللاه واحتسى زجاجتين أخريين.

وجد شـحـات نائما بينمـا جمـال مربوطا ومكمما بجواره، لذا بادر بفك قيود جمال وأخبره أن ينتظر خارجا. التفت مرة أخرى ناحيـة ابنه الذى استيقظ الآن وقد ثبت ناظريه نحو والده. وضع عبد البـاسـط قدمـه فوق رقبة شـحـات ، "خليت رقبتى زى السمسمة، ما اقدرش دلوقتى أورى وشى لحد"، ثم زعق فيه بقلب مكلوم، "أنا مصيرى أقتلك يا شحات".

اسـتـدار عـبـد البـاسط خـارجـا، لا يدرى أنه يخـاطب ابنه للمـرة الأخـيـرة فى حياته، واصطحب جمـال مـعه إلى بيت سـالم، الذى مـا أن شـاهدهـمـا حتى اغـرورقت عيناه بالدموع وعـانق عـبد البـاسـط. الدموع التى ذرفها سالم لم تكن بسبب عودة ابنه سالما، لكن كانت بسبب منظر عبد الباسط الذى بدا أمـامه كشبح متهالك. عندما عاد عبد الباسط إلى سنباط، كان شحات قد اختفى.

لعدة أيام تاليـــة، لم يعلم أحـد بما جرى لشحـات، إنهم لا يدرون أنه كمـأخـوذ، راح يتجـول فى الصـحـراء هنا وهناك بلا طـعـام أو زاد. فى الفجر بعد يومين، عندما نزلت سماح لتوقد النار، استطاعت بجهد جهيد

أن تكتم صرختها عندما وجدت شحات راكعا على الأرض فى ركن من المخزن وهو يعبئ جوالا بالحبوب. كان وجهه قذرا يغطيه الغبار وعيناه حمراوين غائرتين. حدج أخته بضراعة، وهمس بجنون، "إوعى تقولى لحد، إنتى لا شفتى الجمل.." فهمست سماح، "ولا الجمال"، أضاف شحات، "باقولك إيه يا سماح، هاتى هنا غنمة، إذا حد سألك، قولى الغنمة دخلت بالليل وأكلت القمح"، ثم حضنها وهو يقول، "مع السلامة يا اختى"، ثم وضع الجوال فوق كتفه وغادر المنزل.

عندما استيقظت أم حامد ونزلت، لم تخدعها رواية سماح، وبدأت تنهنه، "يا واحد أحد، خلاص مش قادرة يا ربى"، ثم استدعت عبد الباسط ليرى بنفسه كيف أن شحات قد سرق الغلة، واستمرت فى النهنهة قائلة، "باقولك إيه يا راجلى، يا انا يا شحات فى البيت ده، لا ابنى ولا حتى أعرفه". لم يصدقها عبد الباسط، لذا صرخ فى وجهها، "يا بنت الكلب، شحات عمره ما يسرق حاجة من بيت ابوه"، لكنه اكتشف بعد ذلك أن القصة ربما تكون حقيقية، لذا التفت غاضبا نحوها، "إنتى السبب ! سبتيله الحبل على الغارب، حيعيش شحات ازاى دلوقتى، يجيب فلوس منين؟ وازاى حياكل؟ ".

أخذ عبد الباسط فى لوم نفسه، عندما علم أن أحد جيرانه مسافر للقاهرة، أعطاه خمسة عشر جنيها متوسلا إليه أن يبحث عن شحات ويسلمه هذه النقود ليعود بها إلى منزله. كانت هناك قهوة يرتادها

المسافرون إلى القاهرة من أهالى القرنة أو بيراط، وربما ذهب إليها شحات، لكن الأيام مرت ولم يسمع عنه أى أخبار.

فى صباح يوم، عندما حاول عبد الباسط أن يحلق ذقنه، لاحظ أن يده بالكاد قادرة أن تمسك بالموس، عندما توجه ليخبر أم حامد عن هذه المعضلة، صدر الكلام من فمه متلعثما، بالكاد استطاعت فهم ما يريد قوله. صممت أن تحضر له طبيبا من الأقصر، لكنه شعر بتحسن وأخبرها متحشرجا أنه أفضل الآن.

خرج من منزله متجها نحو الطريق، لكنه لاحظ أنه يتأرجح فى مشيته وأن خطواته أصبحت غير منتظمة، استدار نحو منزله وهو ينتوى أن يطلب المعونة من أم حامد، ثم حلت النقطة الثانية التى زلزلت جسده كله؛ وبذل جهدا خارقا ليتنفس القليل من الهواء، ثم تمايل هنا وهناك ووقع على الأرض. هنا رأته سماح وأطلقت صرخات متتابعة.

حملوه إلى كنبة المندرة الأمامية، أفاق لكن الصوت بالكاد يصدر من حنجرته. لم يعد قادرا على تحريك أى جزء من جانبه الأيسر. أرسلوا للشيخة "داية"، وآخر أحضر بعض المشايخ من قرية الكوم، ما أن حضر هؤلاء حتى انهمكوا جميعا فى تلاوة أجزاء من القرآن الكريم فوق رأسه طوال هذا اليوم وكذلك صباح اليوم التالى، أخذت أم حامد فى ممارسة الصلاة بطريقة لم تعهدها من قبل. فى وقت الظهيرة، حملوه إلى العبارة ليذهبوا به إلى مستشفى الأقصر. بعد فحص دقيق،

صرح الطبيب بأن هناك القليل الذى يمكن عمله. حاول عبد الباسط أن يبتسم فى وجه زوجته، لكن نصف وجهه كان قد تعرض للشلل، لذا أصبحت الابتسامة نوعا من التكشيرة. أخبرها بهدوء بصوت متلعثم، "أنا حاموت، الحمد لله"، وطلب منهم أن يعيدوه إلى منزله. هناك حموه وألبسوه ملابس نظيفة، ثم تلى صلواته، فى النهاية طلب أن يشرب قليلا من ماء النيل. تجمع جيرانه من الرجال على الباب وهم يصيحون، "لا إله إلا الله، ارحمنا يا ارحم الراحمين"، أما النسوة فقد تجمعن على السلالم وابتدأن فى الصراخ والعويل والعديد. عدلت أم حامد وجهه ليقابل القبلة، ثم أغمضت عينيه بينما شفته تنطق بالدعاء الأخير، "إنَّا لله وإنا إليه لراجعون، لا اله إلا الله، محمد رسول الله"، ثم... مات.

صرخت أم حامد ثم صرخت. لم يظن أحد أن هذه السيدة ضئيلة الحجم من الممكن أن يصدر منها هذا الحجم الهائل من الصراخ. كان صراخا مرعبا، كل القرية سمعته، فى الوقت الذى لحقت بها الجارات، كانت هى تمزق وجهها، صدرها، جلدها بدون أى اهتمام. أخذت النسوة فى التدفق بخفة فوق الدرج وما أن يدخلن الغرفة حتى يند من كل واحدة منهن صرخة ثاقبة.

ارتج المنزل من صرخاتهن، لكن صرخات أم حامد تفوقت عليهن جميعا. استخدمت بهية كل قواها لتمسك بها وتمنعها من إيذاء نفسها، لكن هى كانت تستبسل لتفلت منهن. هدومها تمزقت وأصبحت هلاهيل

وغطى وجهها الهباب. التفت النسوة حول جثمان عبد الباسط الساكن وهن لا يتوقفن عن إصدار صرخاتهن الموجعة، البعض منهن أخذن في قرع صدورهن قائلات، "يا خسارتك يا اخونا يا خسارتك"، والبعض منهن أخذن في ضرب وجوههن وهن يتلوين ويدرن طالبات من الميت أن يقوم من رقدته!.

غيروا ملابس الميت. غطوا وجهه بملاءة. أم حامد بسطت يديها نحو جسده، بينما أمسكت بها النسوة ليبعدوها عنه، وبدأت تنادى، "قوم يا غالى، يا سيدى، يا جملى، يا حامينى. قوم يا حياتى". بكاؤها وعديد النسوة أثر فى كل القرية. أقفل الحاج عبد المطلب باب محله بكل عنف، قام الرجال مسرعين هاجرين القهوة وهم يبعثرون الزجاجات والأقداح هنا وهناك. العزب وضع جلبابه فوق رأسه وجرى نحو المنزل حافيا. فى الحقول، ترك الرجال أعمالهم وأسرعوا بالذهاب إلى المنزل. تجمع الكل أمام الساحة التى أمام المنزل وهم يتصايحون ويخبطون أكفهم وقد تغيرت ملامح وجوههم ويصيحون، "الله يرحمه، الله يرحمه، ويسكنه فسيح جناته". أتى فاروق، لكنه غادر سريعا، بعدها وجدوه ملقيا على وجهه فى الحقل وهو سكران طينة. أبناء العم وهما صبحى والحاج على بالغا فى إبداء مظاهر الحزن، كأنما العويل الصادق يمكن أن يزيل تماما سنوات عدة من الخصام. أحمد وقد اكتسى وجهه الوسيم حزنا حقيقيا، أتى متأخرا ووقف مستندا على حائط مذهولا عما يجرى

من حوله. بعض النسوة هدهم التعب، "فتنة" أخت عبد الباسط الكبرى، وهى عمياء تقريبا، أغمى عليها وحملوها خارجا.

فى الصباح الباكر، أتى المغسلون، وهما اثنان من قرية الكوم واللذان سوف يأخذان ثياب المرحوم كأجر لهما. أحضر الحاج على كفنا من البوبلين الأبيض. وكلما اشتعلت مشاعر الرجال بسبب العويل الثاقب الصادر من النسوة وأم حامد، يقوم هو ويوزع السجائر على الحاضرين.

لم تحتمل سماح المناظر التى تراها فى الطابق العلوى- حملقة أمها التائهة عن الوجود، الصوت الصادر من لمبة الجاز، حفيف قطعة الإسفنج فى الماء الصابونى الساخن، خربشة موس الحلاقة، لذا سحبت أمامها الولدين الصغيرين نوبى وأحمد بعيدا عن هذا المنظر المفجع. لكن حتى فى الطابق الأرضى، كان فى إمكانها أن تستمع لصوت الماء الجارى وصوت الجسد وهم يقلبونه على العارضة الخشبية العارية، لذا غطت أذنيها وأغمضت عينيها بكل ما أوتيت من قوة.

أخيرا وبعد تغسيل جسد عبد الباسط وضمخه بالكافور وماء الورد ووضع قطع من القطن فى أذنيه وأنفه، ربطت أعقابه ووضعت يداه متعارضتين فوق صدره، أخيرا رقد مستسلما وسط أكفانه البيضاء. لم يتبق سوى أن يشعشع نور الصباح كاملا لكى يدفنوه. أم حامد - وقد أنهكت تماما - بدت كأنها شبح فى ملابسها المستعارة ووجهها

المغطى بالسواد وشعرها الممزق - أخذت تشهق وهى ما زالت بين أحضان بهية. سمع صوت المشايخ فى الأسفل وهم يرتلون القرآن الكريم بصوت متهدج يمدحون ويحمدون الله. الفجر لم يشعشع بعد، لكن فى المشارق بدت السماء تنير قليلا قليلا، وبدا كل شيء واضح الملامح ولو بشكل غامض.

سمعت جلبة فى الطريق، أصوات الترتيل والعويل اتحدت جميعا فى نغمة واحدة. قادوه، بل جروه، تقريبا حملوه، كأنما هو رجل أعمى عاجز عن المسير، ليس أحد بقادر أن يحملق فى وجهه - كل ملامحه قدت من ألم وعذاب وتعب مضى - مظهره ينبئ بأقسى حالات الفشل الإنسانى. جروه بل حملوه إلى الطابق الأعلى حيث توقف للحظات متأملا وجه أبيه؛ ثم ارتمى على ركبتيه لتتلقفه يدا أمه التى تبكى الآن بكل حنية وهدوء.

الجزء الثانى

"انت خلاص عايز تخنقنى وتطلع روحى؟

يا رب

من فضلك، فكها شوية"

(شدو فلاح مصرى وهو فى الغيط)

الحياة المعتادة تأخذ مجراها

الحياة، مماثلة لمجرى مياه النيل، تبدأ صغيرة أولا ثم تندفع كالسيل من فوق الجبال، وتتلمس طريقها الصعب خلال هضاب الصحراء والوديان والرمال، تهدأ عندما تتقابل مع الجنادل والصخور القاسية، ثم تستقر مطمئنة وهى تشق طريقها بكل نعومة لتغذى الوادى الخصيب، حتى تصب فى النهاية فى البحر الكبير.

شحات، مدفوعا بذكرى والده، حزن أم حامد، عتاب أحمد، توقعات الجيران وآماله التى تفور داخله، كلها تفاعلت ليصبح رجلا كما كان يرغب والده. فى الأسابيع الأولى بعد وفاة والده، بدا كأنه خاطئ يبحث عن الخلاص، لذا أجهد نفسه فى عمل جاد مجهد. كان يصحو كل يوم قبل الفجر، يذهب ومعه حماره إلى النيل، وباستخدام المعدية يعبر النهر متجها إلى الأقصر لكى يشترى الخضروات من هناك وكذلك عرقى البلح وحلويات مختلفة ليبيعها فى دكان والده. ثم يعود ليباشر خدمة أرضه فى الثامنة صباحا. بعد الظهر يقضيه فى تصنيع الكنافة، وهى من المعجنات التى تستخدم كنوع من الحلوى فى شهر رمضان،

ويسويها مستخدما فرنا مفتوحا تحت لهيب الشمس المحرقة. في المغربية تجـده ذاهبـا إلى الحـقل مرة أخرى ليحصد علف الحيوانات. إنه الآن لا يشرب الخمر، لا يدخن، لا يطلق النكات، وحتى لا يتكلم كثيرا. في تلك الأسابيع أصبح إنسانا وحيدا هادئا يسير مرتديا جلبابه الأسود دليلا على حزنه، يعمل حافيا، غير حليق الذقن، وقد بدا أرفع عودا وخدوده ضامرة. عندما استمر في مسيرته تلك، مع تمسكه بصيام شهر رمضان، حيث لا يمكن للمسلم أن يأكل أو يشرب من فجر اليوم حتى مغيب شمس النهار. الكل كان مندهشا، قالوا في أنفسهم إن شحات قد أصبح أخيرا رجلا بحق وحقيق.

نادرا ما كان يخاطب أمه. بالنسبة لأم حامد أصبحت الحياة كأنما قد شارفت على نهايتها، كل ما كانت تتمناه هو أن تزور الكعبة قبلما تموت. إنها الآن لا تذهب لأى مكان. تقضي صباحها في العديد بصوت عال كله حزن وأسى. كان ما يشغل فكرها هو أن تؤدى ما عليها من واجبات نحو المرحوم زوجها، هي احتفالات تتم في اليوم السابع للوفاة، الأربعين، ثم المائة، يتبعها بعد ذلك احتفالا رئيسيا نهائيا بعد تمام عام كامل. هذه العادات متفقة تماما مع الطقوس الفرعونية، لكن اتخذت شكلا إسلاميا من ذكر وصلوات. التكاليف كانت ضخمة، ولأن الأرض التي يملكونها في سنباط كانت باسمها، لذا أمكن لأم حامد أن تستدين ثلاثمائة جنيه وقالت بأنها سوف تسددها بعد جني محصول القصب -

هذا المبلغ يعادل إنفاق عام كامل، وبهذا أصبحت العائلة تحت طائلة الديون.

فى حفل الذكر، يتجمع أربعون شيخا ودرويشا ومنشدا- معظمهم ملتحون آتون من قرية الكوم- أمام المنزل ينشدون الذكر من أجل أن تستريح روح عبد الباسط، يحدث هذا طوال الأمسيات وجزءا كبيرا من الليل. ساعة بعد أخرى، يستمرون بلا كلل أو نصب، ينشدون بصوت عال وبنبرة سريعة، فى دندنة وتعزيم، أحيانا ينخفض الرتم ليصبح على شكل مناجاة ثم يرتفع ليصبح نوعا من الهستيريا الزاعقة. مثل هذا الذكر يمكن أن يقام بسبب أى مناسبة دينية مثل الذهاب أو العودة من الحج، لكن كثيرا ما يحدث كشعيرة تختص بالموتى.

"يا الله بارك على سيدنا محمد بين السالفين، بارك على سيدنا محمد بين اللاحقين، بارك على سيدنا محمد فى كل مكان وزمان، بارك على سيدنا محمد بين النبيين العظام يوم الدين..."

كلما عمقت الليلة فى مسيرتها، تزداد بالتالى سرعة نطق الكلمات، ويبدأ الشيوخ أولا فى الهزهزة أماما وخلفا، أيديهم وأكتافهم تهتز إلى أعلى وأسفل فى تناسق مع رتم ترتيلهم، "لا إله إلا الله...لا إله إلا الله..."، أحيانا يتحرك أحد الشيوخ الصغار وسط الصفين المتقابلين من الرجال، ثم يبدأ الآخرون فى تحريك رؤوسهم بسرعة ذات اليمين وذات اليسار مع كل لفظة تنطق سريعا بجملة، "لا إله إلا الله"، الرجل المستقر

فى الوسط يرمى بذراعيه حوله ويحول وجهه فى كل الاتجاهات، مرة نحو الأرض وأخرى نحو السماء، ليصل بعد فترة إلى نوع من الوجد والانسجام الدينى العميق، يصبح وجهه متوردا، بشرته تغرق فى عرق غزير، عضلات رقبته تنفر وتبدو كأنها حبال عندما يزعق فجأة بصوت مرتفع للغاية، لتصبح صرخة خارقة، "الله، الله، الله، لا، لا، لا.. "، ثم ينادى "يا أمى، أمى، أمى" ويكررها مرارا، ثم "يا خالى، يا عمى!" بعد فترة يهدأ صوته وبالكاد يسمع، ثم يتلوى ويبدأ فى الوقوع على الأرض، حينئذ يندفع شيخ آخر ليمسك به بينما يبدأ الزبد فى التدفق من فمه وتغمض عيناه وتختلج ذراعاه، هنا يبدأ كل الشيوخ فى الانتفاض بشكل سريع وقد ازدادت درجة حماسهم وهم يأرجحون رؤوسهم خلفا وأماما. عندما ينضم إليهم شحات، فإنه ينزاح وينسجم تماما داخل نطاق هذا الوجد العاطفى، يأخذ فى أرجحة رأسه وكتفيه فى كل جانب، العرق يغمره، وجلبابه السائب يطير فى اتجاهات مختلفة حوله، يتوحد كل كيانه مع هؤلاء المشايخ المنشدين، يتخيل أباه وهو يسرع الخطى فوق الصراط المستقيم، وهو المعبر الذى يقع فوق منتصف نار جهنم، هو أدق من شعرة الرأس وأحد من شفرة السيف. الخطاة أمثال شحات وأقرانه ربما يزلون ويسقطون فى مزيج من النار الملتهبة والثلج !، هناك سوف يصرخون وسط سيل لا ينتهى من الضرب والتعذيب حتى تغفر ذنوبهم؛ أما الرجال الصالحون أمثال أبيه، فإنه تأكيدا سوف يردون الجنة فى التو واللحظة.

شحات وقد تشبع بمعتقدات إسلام العصور الوسطى، صورت له الجنة فى ضوء ذهبى مشع؛ هو يتخيل وجود ينابيع براقة، أنهار يانعة، فواكه وخضروات ناعمة، فتيات بعيون مثل عيون المها.

لقد وعد القرآن، حتى بالنسبة لأقل الناس منزلة فى الجنة بثمانية آلاف خادم واثنتين وسبعين حورية، وخيام من اللؤلؤ والمرجان والياقوت، وأقداح من الذهب الخالص، والاستماع إلى أغان ينشدها الملاك إسرافيل - أما بالنسبة للمباركين من الناس، فإنهم يتمتعون بكل المتع الروحية العليا من الصباح إلى المساء، بل ويتاح لهم رؤية الله سبحانه وتعالى وقد أشع وجهه حتى يصبح النظر إليه كأنما تحملق فى قرص الشمس(*).

يؤمن شحات بأن مصيره سيكون أسفل سافلين فى النار السابعة، يضربه مختصون بالعقاب، هما ناكر ونكير. هو يتقبل مصيره ذاك، لكن أباه هو رجل فاضل بالرغم من انهماكه أثناء حياته فى الشرب والقمار، هو يؤمن بأنه لو عقد من أجله عددا كافيا من جلسات الذكر، فإن فرصته ستكون عظيمة لأن يرد الجنة ويتمتع بما فيها، وليس على شحات أو أم حامد أن يغمطوا حق عبد الباسط، حتى لو أنفقوا كل ما يمتلكونه من متاع.

حزنهم البالغ أثر فى الجميع. ابن العم صبحى، صاحب اللوكاندة شعر بندم وتقريع للضمير، تبرع أن يشترى جاموسة صغيرة لأم حامد قائلا، "إنتى تاخدى لبنها بالليل وعيالها لما ييجوا، وأنا آخد لبن الصبحية

(*) هذا هو فهم المؤلف لما ورد فى القرآن الكريم من آيات تتصل بوصف الجنة ونعيمها .

لعيالى واللوكاندا". ووعد بأنه إذا قام شحات بتغذية الجاموسة لمدة عام، فإن نصف الجاموسة سوف يؤول لأم حامد، ولأن الجاموسة يمكن أن تعيش ثلاثين عاما، إذن من الممكن أن تخلف عشرين رضيعا، لذا لم يذكر فى محضر كلامه أى شىء يختص ببيع النتاج.

صدمت أم حامد، ووقفت أمامه بعيون غائرة متعبة، بدت كأنها شبح بالمقارنة بماضى أيامها، ردت على كرمه بقولها، "لكن الناس حتقول إيه ؟". أجاب صبحى، "ولا حاجة، هو انتى بترقصى والا ماسكة صاجات". سمع الأطفال سماح ونوبى وأحمد بتلك الأخبار وشعروا بسعادة بالغة وحلموا بحصولهم على اللبن كل يوم، اخذوا يتضاحكون ويتغامزون إلى أن أسكتتهم أم حامد بعنف، "ازاى تضحكوا يا قللات الأدب قدام الجيران، حيقولوا إيه عنا، مش ابوكم ده هو اللى مات؟ ".

غضب شحات عندما سمع بهذا العرض، "أنا مش حاحش ليها علف، انشالله تموت، ما اخدش إحسان من حد". وافقته الأم قائلة، "فعلا دا كلام فارغ، الراجل يموت وعيلته تجيلها جاموسة؟". لكن طبيعتها العملية تغلبت أخيرا. عندما أحضر صبحى الجاموسة إلى المنزل، توسلت لشحات بأن لا ينطق بشىء، "من فضلك يا ولدى، صبحى ده زى الشمعة اللى نورت لينا فى الضلمة، هو مبسوط وفرحان وبيعمل دا كله عشان فاكر أبوك".

كرم صبحى لم يدم سوى إلى مدى ذهابه للسوق، هناك اشترى أرخص جاموسة معروضة للبيع. ما أن شاهد خيبة الأمل المرسومة

على وجــه أم حـامـد، حتى هز كتفيه قائلا، "بصى، خليها فى بيتك، واعملى من الختا بتاعها جلة تخبزى بيها، إذا ماتت أنا بنفسى حارميها فى الصحرا".

لكن الحاج على لم يعان من أى تأنيب للضمير، لأنــه بادر وطلب من أم حـامد تسديد كل ما أنفقه على شراء كفن المرحوم وكذلك ثمن السجائر التى وزعها بكرم على المعزين، لكن عندما ذكرته بأنه ما زال مدينا لهم بمبلغ سبعين جنيها، ثمن حبوب كان قد اشتراها من عبد الباسط، أخبرها بأن لا تفكر بتاتا فى هذا الموضوع، وأنه متبرع بأن يساعدها فى عمل إجراءات لمنحها معاشا من الحكومة يساوى عشر مرات ما هو مدين به. لكن أم حامد من الناس الذين يصعب خداعهم، لذا أخبرت شحـات، "الحـاج على ده راجل مكار وزى الحيـة". لكن خيـالاتها الرومانتيكيـة كانت فى حاجـة إلى أقل القليل من التشجيع والمساندة، لذا تمسكت بموضـوع المعاش هذا واعتبرته كمخرج مناسب تستطيع فى حالة حدوثه أن تحقق كل آمالها، لا سيما موضوع حجها لمكة.

بعد مرور زمن، لم يتطرق الحاج على لموضوع المعاش مرة أخرى، ذكرته به يوما، فانتفض فى ضيق مخبرا إياها ، "الحرمة لازم تبلع لسانها! بطلى لت وعجن"، لكنها ردت بصوت هادئ، "أنا ما يهمنيش الفلوس، لكن دلوقتى عبـد الباسط عنـد رب كريم، وانت دلوقتى أبونا يا حاج على. أروح لمين يساعدنى أنا وعيالى الصغيرين نوبى وأحمد ؟

إذا احتــاجــوا أكل والا شــرب. إيه رأيك أبعتـهم بيتك يا حـاج على ياكلوا عنــدك؟". فانفجـر الحــاج على، "لا يا اختى، أنا مش أبو حد. ما اعرفكيش، اعملى اللى انتى عايزاه".

خجلت أم حامد من نفسها لأنها وثقت فيه وأخبرت شحات بعد ذلك، "أنا كنت عـارفـة من الأول إن الحـاج على ده ابن كلب، لكن مـا صدقتش روحى. أروح لمين بس دلوقتى يا ولدى؟".

أصبحت العائلة بعد ذلك وحيدة فى أحزانها، واستمرت الحياة فى مـسـارها المعـتـاد فى القـرية، وبدأت فى شـدهـم بلا توقف لينخـرطوا وينتظموا فى شئونها.

بعد شهرين من وفاة عبد الباسط، حدث أمر مثير، فقد وجد فاروق فى خصه صباح يوم وقد ضرب ضربا موجعا، لذا أخذوه للمستشفى فى الأقصر، لكن لأيام عدة منـــع من أن يراه أى إنسان، كان معلوما أن شحات قد ارتاد هذا الخص فى اليوم السابق، وحدث همس مفاده بأنه ربما حاول شحات أن يقتل فاروق فى إحدى اندفاعاته الغاضبة، ربما تجرأ فاروق وسب والد شحات بطريقته العفوية. كل هذه الهمسات أقلقت أم حامد، لذا سألت ابنها، "انت اللى ضربت فاروق وعدمته العافية". مثل هذه الاتهامات تغضب شحات وتخرجه من شعوره، هو كان قد غادر الخص مبكرا، وموضوع الضرب هذا يعتبر لغزا حتى بالنسبة له، لذا رفض بكل إباء وشمم أن يناقش هذا الموضوع مع أى إنسان.

بعد عدة أيام، أصبح فى مقدور فاروق أن يتكلم. ذهب العمدة لزيارته، ما أن شاهد الوجه المنتفخ الأزرق حتى بادره، "مين اللى عمل فيك كده يا فاروق، إوعى يكون شحات؟"

أجاب هذا، "لا. لا مش شحات". لكن أكثر من ذلك لم يفصح، واستمر فى رقدته فى المستشفى لمدة عشرة أيام أخرى، وكثيرا ما كان يزوره شحات وهو مصمم على معرفة حقيقة القصة، أخيرا نطق فاروق وحكى لشحات ما حدث.

تلك الليلة، عندما غادره شحات، استمر فاروق فى خصه يدخن الحشيش. كانت ليلة مقمرة لطيفة، وكان قد اتفق سرا أن تحضر إليه امرأة معينة من قرية قريبة. هى سيدة ضخمة، يبدو عليها الوقار نهارا، كان زوجها قد هجرها، لكن هى كانت رشيقة كما لو كانت شابة صغيرة. بالرغم من أنها لا تمتهن الدعارة، إلا أنها تساير بعض رجال القرية مثل فاروق لقاء أجر. عندما حضرت مخترقة الزراعات قبل منتصف الليل، أخذ فاروق يستجلى المكان ليطمئن أن لا أحد قد قطرها، ثم صحبها داخل الخص. كان هو قد شرب قدرا كبيرا من الحشيش، لذا أخذ يتمايل فى سيره ويتعثر، فجأة سمعا صوتا سكرانا صادرا عبر الحقول، "فاااروق!". أخذ فاروق يشتم فى سره، وجلس بجوار المرأة يتسمع، بعد لحظات سمع نفس النداء الخشن المسحوب كأنما هو صادر من بطن الأرض، "فارووووق!"، ثم سمعا صوتا ثانيا ينادى أيضا، هو صوت سكران وخشن مثل الأول.

المرأة، وقد ميزت الأصوات وعرفت من كان يتابعها، انكمشت خائفة مستندة على خلفية الخص وهى تجمع ملاءتها حولها، كان أمرا عجيبا أن ترى أمارات الجزع المرتسمة على وجه تلك المرأة العملاقة، لذا شتمها فاروق عندما سمع شهقتها العالية، "مالك يا مرة، اخرسى واسكتى، هما حيسيبونا فى حالنا بعد شوية". كانت الأصوات مألوفة لفاروق مما جعله لا يحس بالأمان، إنه صوت اثنين ضمن مجموعة من أشقياء قرية الكوم يعرفهم بالاسم، وطالما حضروا إلى قهوة عبد اللاه ليشربوا العرقى. فى كل مرة، يسرفون فى الشرب وتدخين الحشيش، ينسون كل شىء ويتحرشون بالكل، وكانوا قد ضربوا بعضا من جيرانه بشكل شنيع، لذا تم القبض على بعضهم وحبسوا لفترة.

"فـاااروق! فاروووق"، أصبحت الأصوات قريبة للغاية من الخص. فى خوف وجزع، أخذ فاروق فى البحث عن عصا أو شومة أو أى شىء يصلح ليدافع به عن نفسه، إلا أن المرأة وقفت فى طريقه وتعلقت بذراعه وهى تتفتف، "بالله عليك، احمينى"، فكر أن ينظر خارجا، لكن قبلما يتاح له تنفيذ ذلك، سبقه سعال مخمور ودخل رجل الخص. كان هذا طويل القامة، طويل الذراعين، طويل الأنف، كل شىء فيه طويلا، ما عدا رقبته التى كانت قصيرة للغاية لدرجة بدا مظهره كما لو كان أحدبا. هو يرتدى جلبابا قديما كالحا وعمامته انزاحت قليلا عن رأسه موضحة جانبا من رأسه وجزءا من صلعته اللامعة بينما تعلقت على كتفه بندقية

طويلة. خلفه ظهر شكل رجل آخر، قصير القامة متين البنيان تفوح منه روائح مختلطة من الخمر والحشيش. رأى فاروق أنهما ما كان يخشى أن يكونا، فهما خشنان، قذران، خائنان ومعتادان فى مجال السكر والعربدة. هما من ذاك الصنف الذى يعتدى دائما على زوجاته بالضرب، ودائما فى حالة خناق وعراك مع الآخرين. عندما يزيد عيار سكرهما فى قهوة عبد اللاه، يبدآن فى شتم الآخرين وإدخال الرعب فى قلوبهم.

توقفا داخل الخص وأخذ الرجل الطويل فى استعراض ما أمامه إلى أن عثر عما يبحث عنه. ذهب نحو المرأة، ورفع ذراعه إلى أعلى وهوى بيده وضربها بقوة على وجهها. أخذ يقهقه وانضم إليه الآخر بشكل قاس غبى. فوجئت المرأة بهذه اللطمة، لكنها لم تنطق بحرف بل انكمشت على نفسها، وفى الحال بدأ أنفها فى الإدماء.

أخذ فاروق يشتم، "يا ولاد الكلب، يا شراميط"، لكنهما سرعان ما تكتلا عليه وأمطراه بوابل من اللكمات فى كل مكان من جسمه، أخذ فاروق فى التنفس بصعوبة بالغة ثم زحف على يديه ورجليه ملتمسا الهواء. قام الاثنان بربط يديه بدوبارة وجداها فى الخص، فى لحظات كان مكوما على الأرض يكافح للخلاص، لكن بلا فائدة.

كان واضحا أنهما مدركان ما صنعاه من رعب حولهما، هذا زاد من سرورهما. ثم أمسك السكيران بالمرأة وجذباها إلى الخارج، وبدآ فى نزع ملابسها وهما يعويان كالحيوانات. بينما فاروق يلاحظ ما يجرى

أمامه وهو مكوم فى الخص، لاحظ أنهما نزعا كل ملابس المرأة حتى بدت عارية تماما، وأخذت المرأة ترتعد وأسنانها تصطك. كان شكلها فى ضوء القمر غريبا، فهى باهتة وجميلة، شعرها طويل، صدرها ممتلئ متماسك وناهض، رونق بشرتها واضح تماما. ثم دفعا بها إلى الأرض وهجما عليها مما صعب من مهمة فاروق فى المراقبة. فجأة عوت المرأة بصوت مرتعب، لكن سرعان ما هدأت وضبطت نفسها. فقط كان يسمع بين الحين والآخر أنين يعلو فوق الصوت الحيوانى الذى يصدر من الرجلين. بين الحين والآخر، يسمع فاروق صوت كلاب تنبح، بكاء أطفال من بعيد، أصوات أخرى مبهمة.

سمع أحد الرجلين يقول للآخر، "بسرعة". الرجل القصير انتهى أولا، ثم وقف ممسكا بزجاجة خمر يقربع منها فى جرعات كبيرة. ثم تحرك من مكانه فأمكن لفاروق أن يرى يدى المرأة وقد قبضت بقوة على كتفى الرجل الطويل فى حضن غرامى، وساقاها الممتلئتان البيضاوان فى ضوء القمر قد انضما بقوة حول فخذى الرجل العريانين الأسمرين. لم يستطع فاروق من إبعاد نظره وهو يستمع لأنات المرأة.

شعر فجأة بيد ممسكة برقبته ورأى على بعد بوصات منه الوجه الساخر للرجل الآخر، رأى جزءا من ذقن سوداء غير حليقة، عين حمراء كالدم، فم ممتلئ يظهر منه أسنان مكسورة بنية اللون بسبب دخان السجائر، وتنفسه يزخر بروائح كريهة لا تطاق يختلط فيها الخمر مع الحشيش.

ثم أمسك الرجل بجلباب فاروق وانفجر فى ضحكة خشنة عميقة وخاطب زميله، "واه! يظهر إن فاروق عايز دوره كمان". عندما لا حظ فاروق أن تنفس الرجل قد ثقل، وفهم ما يود فعله من ابتسامته الغبية، وعلم أنه مقبل على تنفيذ ما انتواه، انفلت إلى جانب واخذ يشتمه بأقذع الشتائم، "يا ابن الكلب، يا خنزير، يا حمار.. "، وكأنما لم يكن هذا كافيا للإعراب عن غضبه، لذا أضاف، "يا ابن القحبة، الله يلعنك!". تأثر الرجل بهذا التعنيف الشديد وبدا هذا واضحا على وجهه السكران، لذا تراجع وخرج من الخص.

ما أن أرضى الرجلان أنفسهما حتى شعرا بذنب ما، وبدون أن يلتفتا نحو المرأة فكا قيود فاروق وهما يعتذران له ويلقيان بالنكات. طلبت منهما المرأة نقودا، لكن لم يعيراها التفاتا، وبينما هى تلتقط ملابسها وتلعنهما، اختفت فى بطن الحقول. أمسك الرجل الطويل ببندقيته وبفظاظة أمر الآخر أن يتبعه. كان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد، لولا أن فاروق أسرع وراءهما وهو يطلق شتائمه ولعناته، لذا التفت الرجل الطويل إليه ودفعه إلى الخلف وضربه بعقب البندقية على كتفه، ثم ضربه مرة أخرى، لذا وقع فاروق على الأرض متدحرجا، وحاول أن يزحف على يديه ورجليه، مما جعل الرجلان يغرقان فى الضحك، ثم بكل رغبة حقيقية واستثارة انهالا عليه ضربا فى كل أجزاء جسمه كما لو كان حيوانا، إلى أن أغمى عليه.

أخبر فاروق شحات بأنه كان يرى هذين الرجلين كل ليلة فى قهوة عبد اللاه، وقال إنه يود أن يتجنب نزاعا دمويا. هذا ليس نادرا فى الصعيد عندما يثأر أحد أفراد عائلة ما من عائلة أخرى، ثم تبدأ بعدها سلسلة لا تنتهى من حلقات الثأر. أخو فاروق الكبير كان قد قتل فى معركة نشبت بين مجموعة من السكارى، وانقطعت سلسلة الأخذ بالثأر عندما حضر القاتل إلى بيت فاروق وقد استرد وعيه حاملا على يديه أكفانه، أخبر فاروق بأنه سوف ينام على الأرض تلك الليلة أمام منزله، وأضاف، "دلوقتى إذا حبيت تاخد بتارك اتفضل". عندما قدمت قضية هذا الرجل إلى المحكمة، حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات لأنه لم يكن قتلا متعمدا.

رفض فاروق أن يسمى من اعتدوا عليه أو ينبس باسم المرأة لشحات، ولم يحدث ذلك قط لاحقا. فالحياة فى القرية تهتم بالحاضر، وما حدث بالأمس، لا سيما إذا كان للخمر أو الحشيش دور فيه، فإنه ينسى وينتهى. استمر فاروق فى ارتياد قهوة عبد اللاه مشاركا مع من اعتدوا عليه فى الشرب وتدخين الحشيش، واستمر أيضا فى مواعدة النساء فى خصه العتيد واستمرت الحياة فى دورتها المعتادة.

معظم الخناقات فى القرية تنشب بسبب مشاكل توزيع مياه الرى، فمنذ انتهاء فيضان النيل السنوى الذى كان يغمر الأراضى الزراعية فى الصعيد، استبدل هذا بنظام الرى الدائم مع استخدام ماكينات الديزل

لضخ المياه. منذ سبع سنوات، أصبحت تلك المضخات هى أولى الآلات التى استخدمت فى بيراط. كانت هذه الآلات غالية الثمن إذا انتوى أن يتملكها ويديرها فرد واحد، والتعاون المطلوب بتكوين نوع من التشارك أو بيع المياه للآخرين كان خارجا عن تقاليد القرية، لكن ما أن أتيح استعمال هذه المضخات حتى استخدمها الجميع، ما عدا قلة أمثال شحات هى التى استمرت فى استخدام الوسائل القديمة، مثل السواقى والشواديف التى تكسر ظهر الإنسان.

تملك الحاج عبد المطلب النصف فى عدد كبير من الماكينات، واحدة منها كان الغفير سالم هو الذى يديرها، لكن عندما اختلف كل من الرجلين بسبب أمر تافه، اشترى الحاج عبد المطلب نصيب سالم. فقام هذا الأخير بشراء واحدة جديدة بمشاركة عبد الرحمن، صديق شحات ووضعاها فى نفس مكان الآلة القديمة على الترعة. هاتان الطلمبتان اللتان عملتا جنبا إلى جنب كانتا مصدرا لانهائيا من النزاع. أحمد، وهو ابن الحاج عبد المطلب، ذو قلب حام وطبع محتدم، يماثله فى ذلك عبد الرحمن، كانا كلاهما يعملان باستمرار على فك الأنابيب وإلقائها فى الترعة، وبعد كل حادثة، يتجمع أنصار كل من الفريقين ويتعاركان. وقد حاول كل من الحاج عبد المطلب وسالم بأن يحافظا على السلم بلا جدوى. هذا وقد انضم شحات إلى زمرة جمال بن الغفير سالم، حيث إن هذا الأخير نسى تماما ما حدث من شحات عندما ربطه فى الخص

وجعله أسيرا، لا سيما أن جمال هذا كان يتنازع كثيرا مع والده، لكن شحات اشترط على جمال أن لا يصل هذا القدر من التعاون والمساندة إلى آذان أم حامد.

لأيام عدة، استخدم شباب القرية المتنازعون استراتيجيات مختلفة، ثم استراتيجيات مضادة، وكاد أن يصبح للنزاع تبعات خطيرة لولا وصول اثنين من الغرباء ليصليا الجمعة فى الجامع الذى أنشأه الحاج عبد المطلب.

لم يكن هذا مبعثا على العجب، فمن العادة أن يرتاد الفلاحون أقرب مسجد، لكن جامع الحاج كان صغيرا لا يعتد به وليس مشهورا أو ملحوظا، ولا سيما أن بخل منشئه حرمه من أهم سماته وهو المنارة، لذا ندر حضور الغرباء ليصلوا فيه.

الغريبان، اللذان ظهرا أولا فى القهوة المجاورة لبوابة المعبد، بدا على وجهيهما الإجرام الأصيل، وقد ارتديا جلبابين صوفيين طويلين واعتمرا عمامتين سوداوين، وأصبحا فى التو واللحظة مثار تعليقات وتنبؤات. مجرد تصفح وجهيهما والاستماع لأصواتهما وضحكاتهما يتأكد مقولة إجرامهما. بالفعل هذان الاثنان ينتميان إلى أسوأ الطبقات، ويمكن الحكم بذلك من قبح شكليهما وخشونة أصواتهما وبذاءة نكاتهما، لذا توقع الكل الأسوأ الذى يمكن أن يصدر منهما. ثم عندما أخبر هذان الاثنان شلتوت صاحب القهوة بأنهما حضرا من قرية جامولة، وهى منبع ومفرخ اللصوص، كان هذا كافيا للحكم عليهما. ما أن دفعا ثمن المشاريب

وتوجها للمسجد، حتى أرسل كل من شلتوت وشحات ولدا صغيرا يقطرهما ويتسقط ما قد ينطقان به. رجع الولد مقطوع النفس قائلا إنه سمع أحدهم يقول للآخر، "خلينا نروح دكان الحاج عبد المطلب ونشترى علبة سجاير ونشوف فيه إيه تانى هناك". فصاح شحات، "أنا حاقول للحاج عبد المطلب ما ينامش الليلة دى، دا حتى عنده بندقية"، لكن العجوز يوسف قال، "لا. بسرعة علينا نبلغ النقطة". لكن لا أحد شجع تنفيذ هذا الاقتراح، لأن الجميع يشعر أن أى تدخل للبوليس يعنى التعرض لمتاعب جمة. مرة قام بعض اللصوص بمهاجمة بيت شحات ليسرقوا الجاموسة، فقفز هذا فوق سطح الزريبة واختبأ، أما اللصوص فقد ظنوا أنه أسرع يطلب المعونة، لذا هربوا سريعا. قال شحات بأنه لو صادف وقابل أحد هؤلاء اللصوص فى الطريق، فإنه سوف يمر عليه بدون أن يبدى معرفته به، لأنه فى الواقع يخشى البوليس مقدار خشيته من اللصوص، وهكذا بالنسبة لمعظم الفلاحين.

غادر الغريبان الآتيان من قرية جامولة قرية بيراط بعد صلاة الظهر، لكن الخوف من أن يعودا فى أى ليلة وحد الجميع ونسوا تماما الصراع حول موضوع ماكينات الديزل، كل الشباب تبادلوا حراسة منزل الحاج عبد المطلب ليلا.

لعدة أيام، أصبحت القرية فى حالة حصار. البقر، الجاموس، الجمال، المعين، الفراخ والأرانب أدخلت مبكرا إلى حظائرها وتم إحكام

إقفال أبوابها، واستقرت كل الأسر وراء أبواب متربسة جيدا، سلم صبحى مسدسات لكل خدم فندقه، وعندما حل الظلام بدا كأن كل الخطر جاثم خلف كل شجرة، لم تنبح الكلاب بكل قوة مثلما حدث تلك الأيام. مرة أطلق "العزب" عيارا على لا شىء، لذلك عنفه الكبار. بعد مرور أسبوع ولم يحدث شىء، شعر كل فرد بالخجل وتوقفوا عن حراسة منزل الحاج عبد المطلب ونسوا تماما موضوع الغريبين.

لكن هؤلاء حضروا فعلا فى وقت متأخر من ليلة الثلاثاء، وفاجأوا الجميع. كان هناك توقع أن يختاروا ليلة الخميس، حيث إن التقاليد الإسلامية تعتبر هذه الليلة هى المفضلة لأن يعاشر الرجل زوجته، لاحقا لم ينطق الحاج عبد المطلب بشىء ما يختص بموضوع السرقة التى حدثت، لكن الإشاعات ادعت أن اللصوص حملوا فيما حملوا نقودا، جواهر وذهب تزيد قيمتها عن خمسة آلاف جنيه. كانت خسارة الحاج كبيرة، طالما، أنه مماثل لكل الفلاحين، لا يثق فى البنوك ويحتفظ بكل ثروته داخل منزله.

ما أمكن التقاطه من فم بهية والأولاد أن اللصوص كانوا عبارة عن ثلاثة أفراد عرايا تماما، وقد دهنوا أجسادهم بالقار، واعتمروا فوق رؤوسهم بطراطير سوداء تغطى وجوههم. أيقظوا الحاج فى الثانية صباحا بالخبط فوق رأسه بماسورة مسدس، يقال إن أحد اللصوص طلب منه أن يعطيه مفتاح خزنته وآخر طلب مفتاح الدولاب الذى تحتفظ فيه بهية بذهبها.

للحظ الحسن كان ابنا الحاج وهما أحمد ومحمود ومعهما أختهما الصغيرة نادية نائمين فى الجانب الآخر من المنزل الواسع ولم يسمعوا شيئا، بينما قيد اللصوص كل من الحاج وزوجته. أما الأقاويل التى ادعت أن بهية قد اغتصبت، فقد ثبت أنها كاذبة. فى الحقيقة، استطاعت بهية، وذلك طبقا لأدق المصادر، أن تحرر نفسها من القيود وتنقذ الحاج. هناك تفصيلات أخرى أسرت بها بهية لصديقتها أم حامد، مثلا أن الحاج عبد المطلب بمجرد ما تحرر طلب من بهية أن تصرخ لأن صوتها حاد ومسرسع ويمكن أن يستجيب إليه الجيران سريعا.

حضر مفتش البوليس، وسأل كل من اعتاد على ارتياد القهوة. ألقى أسئلته بصوت هادئ ورتيب وسمع أقوال فلاح ثم آخر، وكان يصرف كل واحد منهم بقوله، "اطلع بره". ثم أسرع إلى اللوكاندة وهو يسعل، هناك كان من الممكن رؤيته بصحبة صبحى جالسين على مائدة رص فوقها عدد من زجاجات البيرة ومملوءة بأعقاب السجائر، يناقش فيما يختص بأموره الخاصة، وبدا كأنه قد نسى تماما المأساة التى حلت على دماغ الحاج عبد المطلب.

توقعات القرية لم تعد تنصب في ما إذا سيتم القبض على اللصوص أم لا، لكن عمن أخبرهم بالمكان الذى خبأ فيه الحاج نقوده وذهبه. زعق العجوز يوسف، "بتقولوا مين؟ طبعا ما فيش غيرهم عدوين الحاج هما اللى بلغوا. دا كل واحد فيكى يا بلد مديون للحاج، مين غيرهم يعنى؟".

ركوبة صباحية إلى السوق

لعدة شهور بعد وفاة والده، كان نوم شحات غير منتظم وكله مصحوب بالقلق. بقدوم شهر أغسطس، هبت رياح شديدة مصدرها الصحراء، أخذت تهز أعواد النخيل بعنف وتشخلل مصاريع النوافذ بينما يظل شحات مستيقظا لساعات عدة، يتذكر كيف أن أباه قد مات وأنه لن يراه فيما بعد. نوم العائلة ككل كان مضطربا، أم حامد بسبب خسارتها الجسيمة، وسماح بسبب قلقها، الأولاد الصغار بسبب الجوع والحك. كان شحات يستمع إليهم وهم فى الطابق الأعلى يسعلون، يتقلبون من جانب للآخر، يهمهمون أثناء نومهم أو يقومون ليشربوا الماء.

هو ينام فى الدور الأرضى بالمندرة الأمامية ليحرس الزريبة. هذه الغرفة أرضها وجدرانها طينية، يتم إنارتها باستخدام لمبة جاز تدخن باستمرار وضوؤها خافت. إذا تحرك هو أمام اللمبة، يرى ظلا ضخما مرسوما على الحائط المقابل، ويمكن أيضا أن يميز ضوء القمر. عند الفجر، عندما تسكن الرياح وتنطفئ اللمبة، يمكن حينذاك أن يميز ضوء القمر الباهر وهو يغمر الشباكين الصغيرين العاليين.

يحاول شحات أن ينام لكى ينسى، للحظات يباغته نعاس، ثم فجأة يحس كما لو أن أحدهم قد وضع يده على كتفه وأنفاس تحتك بخده، لذا يستيقظ مذعورا متوقعا أن يرى والده أمامه، لكنه للأسف راح، من المستحيل أن يعود مرة أخرى. أخذ يفكر فى قول سمعه من العزب عندما قال: قبل كده ما كنتش تهتم بأى شىء فى حياتك، لأن أبوك كان هو اللى واخد باله من العيلة ويصرف عليها، لكن دلوقتى حزن الدنيا كلها حل على دماغك. لازم تثبت للكل إنك بقيت راجل.

حول شحات جسمه إلى الناحية الأخرى وتناسى تماما والده. هو الآن يفكر فى شأن النقود، العلف اللازم للحمار والجاموسة، الأسعار المتصاعدة للمخصبات، الدين الذى يتزايد على كاهلهم بسبب مسحوباتهم بالشكك من دكان الحاج عبد المطلب من دقيق ولوازم أخرى، أخذ شحات يئن بسبب أفكاره السوداء تلك، ثم بعد فترة اعتدل فى نومه مغمغما "الحمد لله".

أحيانا كان يستمع لأصوات مبهمة صادرة من الطابق الأعلى، لكن عندما ينظر نحو النوافذ العليا يصعب عليه أن يتأكد ما إذا كان هذا الضوء مصدره القمر أم ضوء الفجر. أخيرا عندما هبطت سماح لحلب الجاموسة، عرف أنها قد تجاوزت الساعة الرابعة فجرا. الوقت الآن مبكر للغاية، لكنه استطاع أن يميز مكان الأشياء. أحيانا كان يسمع الصوت العالى لتنهيدة أم حامد المتألمة

وهى تدور فى أرجاء المطبخ، تشعل النار وهى نصف نائمة وتتحرك بشكل روتينى.

عندما يشع ضوء أزرق من خلال ثقوب الباب الرئيسى، ينهض شحات من رقدته ويخرج ليطس وجهه بقليل من الماء الموضوع فى جرة، ثم يتمضمض ويضع إصبعه فى فمه محركا إياه خلال أسنانه ثم يبصق، بعدها وهو شارد الذهن، يتذكر أنه لم يطلب السماح من الجنى الذى يسكن المكان!. أسنان شحات المتينة لوثها بعض من النيكوتين؛ فهو لا يماثل أم حامد التى تحافظ على أسنانها دائما. تعوى الكلاب على طول الطريق كأنما هى عازمة أن تحفز الجميع على أن يستيقظوا، ثم بعد ذلك يسمع صوت ابن عم الحاج عبد المطلب المدعو عمرو وهو يؤذن بصوته الجهورى زاعقا، "الله أكبر، الله أكبر". يخرج العجوز يوسف من منزله ويتحرك قليلا فى الحارة وهو يسعل وينهج ويحدث جلبة ويبصق عدة مرات، ثم يعود إلى منزله ليستأنف نومه.

بعدما غسل شحات وجهه، ينطق شحات بدعوات صباحية، "اللهم نجنا من الشيطان الرجيم"، ثم يجمع من تحت مخدته معدات الحفظ، نسخة مصغرة من القرآن الكريم، تعويذة مكتوبة، خاتم ملفوف بخيط أبيض. إنه لا يفارق أبدا هذه اللوازم منذ أن شاغبته تلك الجنية.

تحضر له أم حامد الشاى. وجهها باهت جامد كما يبدو على وجوه الناس فى الصبـــاح الباكر عندما تخفت النجوم ويبدأ أول ضوء للنهار

فى الظهور. لقد ركب الهم شحات، فهو لا يستطيع أن يحمل إليها كل يوم ما اكتسبه من لعب القمار كما كان يفعل أبوه لكى يغطى إسرافها، لكنهم الآن يسقطون فى بئر لا قرار له من الديون، ولأن يحدثها ويناقشها فى هذا الأمر، معنى ذلك أن هناك عراكا سوف ينشب.

دائما ما يشعر شحات بالراحة وهو يغادر منزله كل صباح. هذا اليوم بعدما أسرج حماره، توجه فورا إلى سوق القرية الذى يعقد صباح كل يوم ثلاثاء بجوار المعدية التى تقف أمام شاطئ النيل.

ما أن يبتعد قليلا عن القرية بالخطى الواسعة للحمار، حيث لا يحجب الرؤية تلك الأشجار، المنازل أو جدران المعبد الهائلة، يمكن حينذاك لشحات أن يستجلى السماء الزرقاء، الهضاب الصفراء، الأراضى الزراعية المنبسطة الخضراء التى تمتد لأميال وأميال، هنا يحس بانشراح وبشر يغمره. أثناء سيره يلاحظ مزروعات جيرانه، ونظرة شحات التى تخترق المفاصل، هى موهبة ربما حصل عليها مع طبيعته سريعة الاشتعال من جدود جدوده من البدو. ما يعتبر بالنسبة لغيره خواء فارغا، يجده هو مكانا يشغى بالحياة والحركة، ليس عليه سوى أن يوجه ناظريه نحو الهضاب حتى يلمح ثعلبا صحراويا، أرنبا يسرع بالاختباء، صقرا يحوم مركزا نظره على الفريسة، يراها وهى ليست فى حالة هروب أو هلع، لكن وهى تمارس حياتها اليومية الحرة غير مختفية أو متلصصة. الفضل كله يعود إلى حدة نظره، فبجانب كل

العوالم التى يمكن أن يحددها كل فرد، شحات له عالم آخر يخصه لا ينافسه فيه الآخرون، وهو عندما يحدق فى شىء بعيد ويتعرف عليه بسهوله، يصبح من الصعب أن لا يتعرض لنظرات الحسد.

جاوز الحمار حقل الفول الخاص بلمعى، وهو المزارع الميسور الحال، ثم تابع مسيرته مخترقا مسارا خشنا يتكون من رديم قصر فرعونى منسى، ثم دار شرقا ليتابع سيره على أرض الطريق المرصوف المؤدى إلى النيل. أجبر شحات لأن يظلل عينيه، فعلى البعد عبر النيل، حيث يفصل السماء عن الأرض تلك الهضاب الصفراء للصحراء الغربية، برز شعاع متسع أصفر اللون مصدره الشمس، أخذ يزحف خلال قمم الأشجار وبيوت الأقصر على بعد ميلين تقريبا. فى لحظات، تقترب منه حزمة الأشعة تلك، وعندما يتفحص ما حوله، يتضح له أنها فى الحال قد افترشت هضاب الصحراء الكبرى التى تقع خلفه. ثم يحس بشىء دافئ يمس كتفه، فهناك شعاع يتقدم حثيثا مفترشا الطريق الذى أمامه ويرتفع ليتقابل مع الشعاع الأول، ثم فجأة يفيض النور وينير كل وادى النيل ويغمره بنور مبهر.

كيزان الذرة الناضجة، السمسم الملقى على الأرض على هيئة أكوام ليجف، البرسيم الأخضر الذابل، كلها نصف ميتة منذ المساء السابق بسبب الحرارة الشديدة، تجدها الآن وهى تلمع بسبب الندى وقد شملتها حياة جديدة . يرى أيضا اثنين من طائر أبى قردان يطيران

عبر الحقول المروية، ثم سرب من الحمام بأجنحته البيضاء التى تتغير ألوانها بفضل أشعة الشمس المبكرة، يرتفع الحمام إلى الأعلى ثم يتمايل بكل رشاقة ويلف فى دوائر متناسقة، ثم يبتعد حتى يصل إلى جدران المعبد ليجثم هناك طوال النهار فى الظلال. على البعد يسارا فى مكان ما، سمع صوت هديل قمرية.

طاف أمام شحات وحماره هدهد متوج لونه أبيض بنى، يحرك جناحيه بنعومة بالغة، ثم توقف الطائر فجأة وحط على الأرض كأنما قد تذكر مأمورية عاجلة يجب الوفاء بها، ثم اندفع كالسهم طائرا عبر الحقول. إذا مات الهدهد وعلقته فوق باب منزلك، فإن الحظ الحسن سوف يطرق بابك، والقرآن الكريم يخبرنا أن هذه الطيور بالذات كانت تحمل رسائل من سليمان النبى إلى ملكة سبأ.

"حا، حا، اطلع يا حمار"، أخذ شحات فى تحفيز حماره ليسرع الخطى، وفى نفس الوقت أخذ يصدر فرقعة صوتية من فمه.

أماما، قدمت عربة محملة بأعواد السمسم، وولد صغير راقد فوق قمة الحمل مستغرقا فى النوم يتأرجح مع حركة العربة. فجأة رفع هذا الولد رأسه بتثاقل ليحيى شحات قائلا، "سلامو عليكم"، فرد شحات، "سلام ورحمة الله وبركاته"، ثم تغيرت لهجة شحات وخاطب الولد مازحا، "انت اتجوزت يا سيد والا لسه؟ "، فأجاب هذا، "لا لسه، لكن إنشاء الله".

رقد الولد في مكانه وعبرت مركبته وجاوزت شحات. كانت قصته معروفة في كل أنحاء القرية، فبالرغم من أنه لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر، إلا أنه حاول أن يتزوج فتاة تبلغ الثامنة عشرة. كان والد الفتاة موافقا لأن سيد هذا كان قد ورث ثلاثة فدادين من الأراضي الزراعية. عندما مانعت أم سيد من إتمام هذا الزواج، أغرق سيد نفسه بصفيحة جاز، لكن الجيران أنقذوه قبلما يشعل عود كبريت. بعدها تزوجت الفتاة لشاب مقارب لعمرها، لكن سيد حصل على تعويذة من الشيخة داية يمكن بموجبها أن تهجر تلك الفتاة زوجها الجديد، وهذا ما حدث فعلا. الآن هوذا سيد يعمل بكل جد واجتهاد كرجل بالغ، يشرب الخمر ويشعل السجائر ليقنع والدته بأنه قادر على الزواج، ولا يمر أحد بسيد هذا في الطريق بدون أن يسأله، "انت اتجوزت يا سيد والا لسه؟ "، فيجيب هذا بتأكيد منقطع النظير،"لسه، لكن إنشاء الله! ".

لم يسر شحات مسافة طويلة قبل أن تتبخر قطرات الندى وأصبح الهواء ساخنا جافا، واستأنف الوادي في عرض مظهره المسترخي الفاتر، بدت الهضاب الصفراء، الحقول الخضراء، الزنابق البعيدة المتراصة على جوانب النهر كأنها ميتة وبلا حياة، كأنما هي صور مرسومة باليد. يبدو أن اليوم سوف يكون خانقا، ثم لاح له مبنى نقطة البوليس، وهو بناء أبيض ضخم يقع على يسار الطريق، جاوزه شحات دون أن يوجه نظره إليه. إنه يمكن أن يفتخر أمام أصدقائه بقوله،

"لو حاوطونى عشر عساكر، أنا ممكن أغلبهم. لو كنت برئ، ممكن أعمل أى حاجة، اكسر على دماغاتهم القزاين، حتى ممكن كمان أضرب راسى فى حيطة". فى الحقيقة، شحات مماثلا فى ذلك معظم الفلاحين، لا تنقصه الشجاعة فى معاركه القروية، لكنه يبدو خاضعا وأليفا عندما يختص الأمر بالسلطات. يدرك الفلاحون أن حمايتهم الوحيدة فى مقابل رجال السلطة هى مدى درجة ذكائهم ومكرهم.

ما أن اقترب شحات نحو النيل، حتى مر على حقول قصب السكر المملوكة للحكومة وهى تمتد على الجانبين، هنا تتجول الثعالب على حريتها ليلا – ولا يستطيع أحد أن يدخل غابة القصب الطويل بعد حلول الظلام. ثم مر على حقل للفول وشاهد ستة من الفلاحين متراصين فى صف يحركون مناجلهم وقد انحن ظهورهم، وعلى بعد قليل كانت هناك امرأة تتلفع بثياب سوداء وهو تحش بعض الحشائش، ثم وقفت فجأة ممسكة ظهرها المتألم بكلتا يديها وتابعت بعينيها مسيرة شحات. إنه لا يستطيع أن يجزم ما إذا كانت تعرفه، أو إنها فقط تستريح. على أية حال وقفت مدة طويلة تنظر إليه بدون حراك.

عاجلا، ازدحم الطريق بالقرويين المتوجهين للسوق؛ نساء غطين وجوههن بطرح سوداء يمشين على أرجلهن أو يمتطين ظهور الحمير، فوق رؤوسهن تتوازن مقاطف ضخمة محملة بكل أنواع الخضروات؛ رجال طوال القامة يوسعون الخطى يرتدون جلابيب بيضاء أو زرقاء

باهتة؛ فلاحون ميسورو الحال يسيرون والفخار يملأ جوانحهم وهم يتمخطرون بقفاطينهم الصوفية بالرغم من وهج الحر القاتل؛ رجال فى هلاهيلهم حضروا لبيع معزة أو غنمة؛ فتيات حضرن ليشترين ويثرثرن وفتيان أتوا ليغازلوا الفتيات. بالنسبة لشحات، هناك أربعة فئات من الناس حاضرون فى هذا السوق؛ هؤلاء الذين يبيعون الخراف والماعز أو الخضروات؛ هؤلاء الذى يقومون بشراء هذه اللوازم؛ تجار يشترون الحيوانات ثم يبيعونها بسعر أعلى فى سوق المدينة؛ هؤلاء الذين حضروا للفرجة وتبادل الأحاديث والأخبار.

استمر السوق فى أعماله منذ الفجر حتى منتصف الفترة الصباحية. إذا أراد شحات أن يبيع شيئا، يأتى نهارا ثم يختار مكانا على مدى الطريق ليعرض خضرواته أو أن يعقل شاته ثم يجلس القرفصاء منتظرا قدوم الزبائن. ما أن بلغت الساعة الثامنة صباحا حتى أصبح السوق كله عبارة عن ضوضاء لا تطاق وخليط من الرجال، النساء، الأطفال، البهائم والبضائع. بالرغم من تواجد أماكن كثيرة على طول نهر الطريق، إلا أنهم جميعا تكوموا فى منطقة صغيرة للغاية، فالفلاحون مغرمون باستجلاء الأماكن المزدحمة. عندما يعبرون النيل كل يوم ، يحتشد الجميع فى تلك المعدية الصغيرة، مع ذلك يندهش المرء من ندرة الحوادث. وعندما ينوون ركوب القطار، يحضرون قبل موعد قيامه بساعتين أو ثلاث ويتجمعون فى إحدى نهايات الرصيف، ثم يتزاحمون

ليحتلوا جميعا عربة واحدة من القطار حتى لو كانت العربات الأخرى شبه خالية. فى الطريق السالك وسط السوق، ترى الناس وهم يهرولون خلاله فوق ظهور حميرهم أو على أقدامهم - معظمهم يحمل ربطا ضخمة أو يصطحب أغناما أو معيزا أو واضعا عددا من الأرانب تحت أزرعتهم، منهم من يتوقف ليحيى بعضهم بعضا بصوت عال وآخرون يزعقون فيهم ليخلوا الطريق - كل هذا يشبه عملية إجلاء أو إخلاء، ثم ترى الغبار المستثار وهو يكاد أن يغطى المركبات السائرة، بينما يساق سرب لا ينتهى من النعاج خلفها أولاد صغار ممسكون بالعصيان. يعبر الطريق أيضا تاكسيات قديمة جدا نفيرها لا يتوقف أبدا، رأى شحات أيضا ولدا صغيرا ينفخ فى نفيخة ورقية ليثبت أنه متواجد، ثم ابتلعه الزحام، لكن صوت صفارته لم ينقطع.

رأى شحات بهية وسعاد، وقد غطاهما السواد من قمة رأسيهما حتى أخمص قدميهما، يسيران على جانب الطريق، فجذب لجام حماره وتوقف بجوارهما، فألقيتا عليه التحية بحرارة بصوت عال وسرور بالغ، وهو ما يحدث عادة فى السوق. ثم أمطرته بهية بسيل من الاستفسارات والتحيات، "ازيك يا واد يا شحات؟ انت مشغول والا إيه؟ ازاى حال القصب اللى انتو زارعينه؟ انت ليه ما فتحتش دكان أبوك؟".

عبرت كلتا السيدتين قرية الكوم وهما يسيران بجوار شحات، وقد امتلأت أفواههما بكل نوعيات الثرثرة، قالت بهية مخاطبة شحات، "عارف البنت فتنة؟"

" فتنة مين؟ "

" فتنة اللى ابـوها محمـد اللى مـات السـنـة اللى فـاتت، دى بكرة دخلتها"

"بس دى لسـه صغيرة، ازاى حتتجـوز وهى سنها ما يزيـدش عن اتناشر أو تلاتاشر سنة"

" لا دى مش صغيرة، انت يظهر ما شفتهاش ليك مدة، دى طويلة طول النخلة، هى يتيمة دلوقتى، فيه واحد كويس من الكوم أخدها لدكتور فى الأقصر وسننها وحيتجوزها. ليه يا شحات ما فكرتش تتجوز لغاية دلوقتى؟ "نطقت بهية بذلك فى لهجة اتهام، فقاطعتها سعاد، "ازاى يتجوز بس ولسه ابوه ما لهوش غير ثلاث شهور ميت"، فهزت بهية كتفها قائلة، "إذا اتجوز، أبوه حيستريح فى قبره وشحات يقدر يفتح بيت ومراته ممكن تساعد أم حامد. دا بيتهم كبير وفيه شغل ياما"، قاطعتها سعاد قائلة، "شحات دلوقتى راجل وممكن يتجوز بعد سنة أو اتنين، وممكن ياخد أى بنت يا بهية، لكن أخته سماح لازم تتجوز الأول، دى سنها دلوقتـى أربعتاشر"، قالت بهيـة التى لا تتأثر كثيرا بآراء الآخرين، "أنا عندى بنت حلوة خالص ليك يا شحات وست بيت تمام وغنية كمان ولا حتكلفك حاجـة وعنـدها لبس بالكـوم، ومعاها شوية دهابات وخواتم وعقود.."

ضحك شحات، "لازم الأول أشوفها، أنا ما يلزمنيش الدهب ولا تهمنيش الهدوم الحلوة، عايز أشوفها، إذا كانت كويسة، ممكن أعيش معاها فى خص جوا الغيط. يمكن بعد ما نحصد المحصول أجيلك".

توقف شحات عن المسير، ثم عقل حماره بجوار نصبة شاى، ثم اقترب منه "العزب" وقال، "تعالى يا شحات، انهارده بالليل نروح لقهوة عبد اللاه ونقربع قزازتين والا تلاته"، مصمصت السيدتان بشفتيهما مما يعنى عدم رضائهما، فضحك شحات وأمسك بذراع العزب، "يا الله بينا نروح". أشعل العزب سيجارة، لكن شحات اختطفها من بين شفتيه وبدأ كل من الشابين يتنازعانها، فزعقت فيهما بهية، "وقف يا شحات انت والعزب من الهزار ده. انتو الاتنين دمكم فاير وعايزين كل حاجة بالقوة". صاحت سعاد، "واه، ما انتى عارفه، شحات يموت فى الهزار". ضحكت بهية قائلة، "الواد طالع لابوه، ولاد البطة يعوموا ورا بعض".

فدافعت سعاد عن خالها، "خالى عبد الباسط كان راجل بحق، هو صحيح كان بيشرب ويلعب، لكن الواحد يعتمد عليه فى أى خناقة. ندعى لربنا يكون متواه الجنة".

ابتعد الشابان عن السيدتين، ونظر نحوهما شحات، "نهاركم اسود يا حريم، أوعو تفكروا فى". ثم خبط أحدهم على كتفه بقوة، فالتفت ليجد أنه "التعبان"، فتعانق الصديقان بحرارة بالغة وأخذا يقبلان بعضهما عدة مرات يمينا ويسارا، فهما لم يتقابلا منذ عدة أيام.

"سلامات"

"طيبون"

"حمد الله على سلامتك"

"إن شاء الله تكون بخير"

"سلامو عليكم"

"عليكم السلام ورحمة الله وبركاته"

"مرحبا، تعالى اشرب عندنا الشاى"

"أنا شربت، متشكرين".

تعانق أيضا كل من "التعبان" و "العزب" وكررا نفس حوار التحيات. ثم أخبرهما "التعبان" أنه قضى ليلته فى السجن لأنه اشترك فى خناقة عند مرسى المعدية، أغرق فى الضحك وهو يقول، "تصور، أربعين واحد محشورين فى زنزانة صغيرة، قعدت طول الوقت أفكر، أنا إيه اللى جابنى هنا يا ربى؟". التعبان هذا من مواطنى قرية القرنة المجاورة وتقع شمال بيراط. رجال القرنة، وقد اختلطت دماؤهم بدماء قبيلة الحروبات، كانوا دائما منغمسين فى منازعات دموية لا تنتهى.

حتى فى بيراط، أى نزاع ينشب بسبب ماكينة رى أو أى شىء آخر تافه، يمكن أن يستمر زمنا طويلا. الخصومة قد تنشأ لسبب لا يعتد به

مثل، غنمة شاردة، علف ناقص أو زحزحة مكان فى السوق، ما أن تنقضى فترة بسيطة إلا وتصبح حياة الفرد ذاتها لا قيمة لها بالمرة. مثل هذه النزاعات فى بيراط يمكن أن تهدأ وتتوقف إذا تدخل العقلاء الكبار فى السن.

لكن فى القرنة، تسير الحياة فى ظل عدم الأمان. عندما يحل الظلام، تجول الكلاب وهو تنبح باستمرار، كل فرد قابض على شومة ثقيلة إذا جازف وخرج ليلا. أحيانا تنشب معركة حامية بدون أى سبب ظاهر، بعد لحظات ترى الرجال مندفعين لينضموا إلى هذه الجهة أو تلك، مسلحين بالمسدسات والشوم صارخين، "الله، الله"، ولا يمر وقت إلا وقد أقسم كلا الطرفين بأن يتحاربا حتى الموت. يعانى البوليس أشد المعاناة ليحل السلام مرة أخرى. مثل هذه النوعية من المعارك تعتبر نادرة فى بيراط لأن الفلاحين منشغلون باستمرار فى فلاحة أرضهم. بالرغم من أن بعض رجال القرنة أصبحوا فلاحين وانتقلوا للسكنى فى الوادى، ظل معظمهم ساكنين عند أهاليهم الذين احتلوا مساكن مبنية وسط مقابر الفراعنة يتربحون، بشكل غير قانونى ، من التنقيب أسفل منازلهم ليلا، وآخرون منهم يمتهنون بيع الأنتيكات المزيفة للسائحين.

يتشارك كل من رجال القرنة وبيراط نفس الطريق والسوق والمعدية، وكل فرد له معارف فى القرية الأخرى. مع ذلك، فإن الزواج المختلط يعتبر فضيحة، فالبيراطيون ينظرون لأهالى القرنة بنظرة مختلفة.

فى الحقيقة، كل قرية هى عبارة عن نظام مقفل، بعمدتها وخفرائها ليحافظوا على القانون، النظام، السجن، المساجد، المدارس الإسلامية، المدارس الحكومية، الصيدليات والأطباء ولكل منهما مفتش زراعة مستقل. يحافظ أهل بيراط على العادات، القيم والتقاليد المتوارثة منذ أيام الفراعنة؛ أهل القرنة لهم عادات أهل الصحراء.

سأل شحات " التعبان" عما إذا كان والده سيعطيه علقة، فأجاب هذا، "يمكن أيوه، يمكن لا. ما حدش يعرف غيره". ثم سأل العزب عما إذا كان الجانب الآخر من الخناقة سوف ينتقم، فضحك "التعبان" قائلا ،"محدش يعرف إيه اللى حيحصل غير ربنا فى سماه، يمكن بعض العواجيز يتدخلوا وينتهى الموضوع على كده. دول كلاب، والبوليس عايز فلوس. أديلهم ليه أنا فلوس من غير ما استفيد حاجة، دا انا اخلص عليهم الأول!"

تساءل "التعبان" عن أسباب عدم قيام شحات بفتح محل أبيه حتى الآن، فى الحقيقة شحات لا يؤيد موضوع القمار الذى كان أبوه منغمسا فيه؛ هو أولا وأخيرا فلاح، فنصحه صديقه بقوله، "ما تزعلش يا شحات يا خويا، دا مصيرنا كلنا، أنا حاموت، انت حتموت. كل واحد حيموت. انت لازم تفتح المحل وتتلم على شوية فلوس وتبقى زى ابوك، يوم بعد يوم حتنسى كل شىء مزعلك لأن أصحابك وأصحاب ابوك حييجوا دكانك ده عشان يشربوا ويلعبوا ضمنة مرة تانية".

عندما بدت مظاهر الحزن على وجه شحات ولم ينبس بكلمة، قبض "التعبان" على كتفيه وهزهما قائلا، "شوف. الناس اللى بييجوا يلعبوا قمار عند أبوك بطلوا دلوقتي وكرهوا المكان. لكن ليه ده كله كان بيحصل؟ السبب هو إن ابوك كان راجل طيب وبحبوح مع كل الناس"، ثم لكى يرفع من معنويات شحات، خطف عمامته وزاغ بها وخاطبه مغيظا، "حانجسك!". فشخ شحات فمه فى ابتسامة واسعة وجرى وراء "التعبان" وبعد جهد استرد عمامته.

الجلبة التى أحدثوها أيقظت ثلاثة كلاب جربانة من نومها، وابتدأت فى النباح دفعة واحدة، وبدا كأنهم وقعوا فى كمين. كان منظرها مرعبا، شعر منتفض، عيون تدمع، ثم اندفعت نحو "التعبان" كأنها على استعداد أن تمزقه إربا. التعبان يعشق العراك، يشعر دائما بسرور بالغ واستثارة، لذا التقط عدة زلطات من الأرض وأخذ يرمى الكلاب بها ووجهه ملئ بأمارات الغل. أصاب الكلاب حجران، فأخذت تنبح فى ألم، وبعدت مسافة ليزيد نباحها عما ذى قبل.

ما أن دخلوا السوق حتى أخذ شحات يستجلى المكان، فهو يبدى اهتماما بكل شيء. لاحظ وجود امرأتين طاعنتين فى السن، تربعتا على الأرض تتهامسان بصوت فيه صفارة، ووجهاهما متقاربان تماما، وبدت ملاءاتهما سويا كما لو كانتا خيمة واحدة. أيضا استطاع أن يميز صوت"فاتح" وهو يفاصل فى شراء غنمة، "وحياة ربنا أنا مش حادفعلك

أكثر من خمسة وعشرين!". شاهد أيضا فتاة شابة وجهها رائع الجمال وهى تحدق فيما يجرى حولها فى السوق وأمارات السعادة والابتهاج ترتسم على وجهها الذى زينته نصف ابتسامة، كما لو كان هذا السوق المزدحم القذر هو شيء عجيب جديد بالفرجة عليه. شاهد أيضا شابا مفتول العضلات يرتدى جوالا يتجول هنا وهناك. إنه شاب متخلف العقل من قرية الكوم، النساء لم يبتعدن عنه، بل سمحن له أيضا أن يخترق صفوفهن، فمثل هؤلاء المتخلفين يقال إنهم ذوو حظوة عند الله وأرواحهم تستقر فى الجنة حتى وهم على قيد الحياة.

تربع العجوز يوسف بجوار عجوز آخر وأخذ يجعر بصوت عال بسبب رغبتــه فى شــراء معــزة من الآخر، يفتح منديله ويخرج منه أربعة جنيهات قذرة بكل احتفاء وجلال ثم يسلمها للآخر الذى يبدو الامتعاض على وجهه. بكل بطء يعد هذه النقود ثم يعيدها لعم يوسف ويكشر قائلا، وقد بدت لثته خالية من الأسنان، "أربعة ونص"، فيبدو الغضب على وجه يوسف، "بس معزتك دى عجوزة! ما حدش عاقل يشتريها، حتى لو اديتهاله ببلاش!"، مال عليه شحات هامسا فى أذنه، "ادفعله، يمكن يطلع منها لحم كتير.. لكن أقولك الحق، السودة اللى هناك دى أجدع منها".

ابنة سعاد، وهى الآنسة بطة، عيونها لعوبة خلف رموش طويلة ناعسة، قبضت على ذراع شحات، وسألته ما إذا كان مبلغ جنيهين قدرا

كافيا للحمل الذى تسوقه، فرد متجهما، "أيوه مناسب"، لكن فى الحقيقة كان السعر قليلا للغاية.

حيا جمال، ابن سالم، شحات. كان هو غاضبا من أبيه لأنه باع نعجة ووليدها بمبلغ عشرين جنيها، "دا سعر وحش، كنا عايزين فيهم تلاتين، لكن ابويا خجل وكان عايز ينهى الموضوع بسرعة من غير خناق. وحياة ربنا لو كان معايا العشرين جنيه لكنت اشتريتهم انا وبعتهم فى الأقصر بأكتر من كده بكتير. لكن يا شحات يا خويا أنا ما أقدرش أتكلم. أبويا لسه فاكر انى انا واخويا سيد لسه عيال صغيرين. أنا وسيد ابتدينا نكره كل حاجة فى بيتنا"، نصحه شحات، "معلش، انسى. انت ما خسرتش حاجة من جيبك يا جمال، الصبر جميل. لازم تعرف إن كل حاجة حتكون من نصيبك انت واخوك سيد فى النهاية" . ثم دعا شحات كلا من جمال والعزب لأن يفطرا معه، لأن كلا منهما لم يتناول صباحا سوى كوب من الشاى، أما الآن فقد تجاوزت الساعة التاسعة صباحا.

توقفوا أمام نصبة فى الطريق عليها العيش، الفول، البصل. وكما هى العادة، ازدرد شحات الأكل بسرعة بالغة، بعدها مضمض بقليل من الماء واستخدم أصبعه داخل فمه للتنظيف ثم بصق الماء على الأرض.

ذهبوا بعد ذلك للفرجة على خناقة؛ فقد اختلف رجلان على سعر شراء نعجة، وبدأ كل منهما فى استخدام عصاه والمشاهدون يحجزون بينهما وينادون بصوت عال"معلش، معلش". فى الأيام التى ترتفع فيها

الأسعار أو أن يكون الطلب على شراء الغنم أو الماعز أكثر من العرض، فإن معارك مثل تلك تنشب فى السوق، كثيرا ما يقتصر الأمر ما بين البائع والشارى على تبادل بعض عبارات اللعنات والإهانات، لكن البعض معروف عنهم أن الغضب قد يدفعهم لأن يحاولوا خنق الخصم، عض أنفه أو حتى قتله. فى تلك الحالات النادرة، يحس المعتدى دائما وغالبا بندم فورى ويأخذ فى البكاء على جثة ضحيته. الطبع الساخن الحاد هو القاعدة وليس الاستثناء فى مصر العليا، إذا افترضنا أن الأمور لم تصل إلى نهاياتها المأساوية، فإن هذه الخناقات تعتبر مثار اهتمام وفرجة للمشاهدين، موضوع مفضل لكثير من الوصف عند العودة إلى المنزل.

أعجب العزب ببطة عندما مرت بجواره وهى وسط مجموعة من الفتيات الضاحكات. اقترب منها وخاطبها بصوت خافت لا يسمعه سواها، "اتكلم معايا يا جميل، ما تيجى تونسنى الليلة دى"، كانت جرأة العزب ساذجة للغاية. عندما احمرت وجنتا بطة خجلا، رمقته بنظرة غاضبة. ثم صرح لزملائه، "بصراحة صدرها تمام التمام، لكن رجلها تخينة شويتين". بينما أسرعت بطة فى سيرها، نادى شحات وراءها، "يا عينى، ضحكته تجنن، والودان تعشق قبل العين". رمته بطة بابتسامة دلع، فنسى كل شىء وتعجب لماذا لم يلاحظها من قبل وكيف أنها قد كبرت وأصبحت فتاة جميلة.

حول منقد النار

فى الأمسيات، يلذ لشحات أن يتجول قليلا ثم يتوجه إلى قهوة شلتوت ليقضى بعض الوقت. ودائما ما يكون هذا المكان مزدحما ما بين الغروب والعشاء. البعض تجدهم جالسين يلعبون الدومينو، والبعض الآخر يردد بعض الأغنيات بصوت خافت، وينادون عاليا طالبين الشاى بدون الحصول عليه لأن حسابهم قد ثقل. جلس شحات ليدخن سيجارة، وأخذ يراقب مغيب الشمس. من الفندق، أمكن له أن يسمع صوت صبحى وهو يشتم أحد الخدم، "لا. انت حتشتغل يا ابن الكلب، عايز ليه تروح الأقصر؟ ارجع لشغلك أحسن أقتلك والله العظيم!"

فى الساحة الواسعة أمامه، يمكن له أن يشاهد الحقول المبذورة حديثا بالبرسيم تمتد على طول الترعة، لها لون أخضر يانع فى ضوء الشمس الغاربة. هنا وهناك يتحرك رجال يجمعون العلف لبهائمهم أو يروون الزرع.

على منحدر صخرى شمال المنازل تجمع عدد من النسوة العائدات من البئر وقد حملن فوق رؤوسهن الجرار، كلهن تلفعن بطرح سوداء

تغطى جزءا من وجوههن وهن يثرثرن ويضحكن. رأى شحات بينهن أخته سماح ثم بطة التى سارت أماما وهى تنادى على إحداهن بصوتها الحاد المرتفع، كانت تتلفت حولها وتستدير هنا وهناك، ويبدو أنها رأته وترغب أن تلفت أنظاره، ثم رأى أيضا سنية بينهن، كانت تسير خلفا وتجاهد بأن تلحق بهن وهى تلتقط أنفاسها بمشقة بالغة. كانت بطنها عالية بسبب الحمل، فعن قريب سيكون فى حضنها طفلها الأول.

استدار شحات ودخل القهوة، حيث كان هناك العجوز يوسف مصدر الإزعاج فى القرية وقد احتل كالمعتاد ركنا معينا. بذراع منحنية، بادر شحات بالتحية وخاطبه هذا قائلا، "أيوه يا شحات، أنا فى السوق اتفقت أشترى المعزة بأربعة ونص، من غير ما حد يغصبنى.. أيوه..". يقوم أبناء يوسف الآن بزراعة أرضه، كان يزعم بأنه يقوم ببيع الليمون للسائحين الذين يزورون المعبد، وإذا لم ترهقه زوجته بالشجار المستمر، فإنه يمارس مهنته، إلا أن معظم أيامه يقضى وقته فى قهوة شلتوت يشكو ويثرثر. دائما ما يخبر أى إنسان يستمع إليه بأن هناك أعداء يتربصون به، ويشكو أيضا من الإهانات التى تلحق به من الجيران، وكيف أن السلطات تسىء استخدام سلطتها، إنه إنسان مزعج، وحظه عاثر من يستمع إليه.

هذه القهوة كانت صغيرة الحجم، إنارتها براقة، حيطانها بيضاء، نظيفة، على الموائد أغطية ملونة؛ معلق على الجدران صور آيات قرآنية،

فشلتوت صاحب القهوة رجل متدين. هو وزوجته زينب كانا فقيرين للغاية، يعملان فى مقايضة الخضروات من باب لباب، لكن الآن وهما يملكان هذه القهوة، بدأ العز المعتدل يعرف طريقه إليهما. لكن صبحى دائما ما كان يتآمر مع مفتش البوليس ليقفل أبواب هذه القهوة. كثيرا ما كان البوليس يضايق شلتوت، لكن الأمور لم تتعد ذلك، فلا يوجد مسلم محترم يرضى أن يخطو داخل الفندق، الفلاحون ليس لديهم مكان آخر يتجمعون فيه إلا إذا فكروا أن يذهبوا لقرية الكوم. عندما يجد شحات أبواب القهوة مقفلة ونوافذها مسدلة، ليس عليه سوى أن ينادى، "شلتوت"، فيهبط هذا حالا من الدور الأعلى ويفتح القهوة ويضع البراد على النار ليغلى. أخبر شحات كل معارفه أن شلتوت وزينب، وهى امرأة جميلة معتدلة القوام، يقضيان كل أوقات فراغهما فى الطابق العلوى فى حالة عشق وغرام.

شفط العجوز يوسف شفطة قوية من الشيشة التى يعدها شلتوت لزبائنه قائلا، "شوف يا شحات، عارف، أنا اشتريت المعزة من غير ما حد يغصبنى، الحمد لله، أنا ما أحبش أزعل حد، وفى ساعة نحس جه حسين من القرنة، ما انت عارفه، خال الواد محمود سواق الحمير، وهو ....". أخذ الرجل العجوز يتنقل بين موضوع وآخر ولا أحد منتبه لكلامه. فصوته المهتز الذى لا يتوقف أبدا، ولطف شلتوت وابتسامة زينب الساحرة، هذه كلها مظاهر تكون جزءا خالدا من جو هذه القهوة، ويمكن أن تفتقد مثل تلك الأغانى أو الشتائم التى يتبادلها لاعبو الدومينو.

يقـال إنه منذ زمن قـديم، ربما منذ عـشـرين أو ثلاثين سنة، كـان القيل والقال أكثر متعة وإثارة. فى أيام ما قبل الثورة، كان يبدو على كل إنسان كما لو كان يحتفظ داخل قلبه بسر ما، كما لو كان يعلم شيئا ما، يتـوقع وقـوع حدث. الجـمـيع كـانوا يتـحـدثون عن أعـادة توزيع الأراضـى المتنازع عليها مثل سنباط، وعن المقابر الفرعونية المكتشفة حديثا المليئة بالتحف والثروات، لكن الآن، ها هـى الثورة قد أتت ثم ذهبت، وكل المقابر الملكية قـد عثر عليـها، والصـراع مـع إسـرائيل استـمـر طويـلا ولا تعـتبـر تطوراته الآن مـصدر اهتمـام. بدا كأن القرية قد خلت تماما من الأسرار ومما قـد يبـعث على الإثارة؛ كل حـياتهم بدت كـأنهـا منقـوشـة على كف اليدين يطلع عليـها كل الجيران، واقتصر جل حديثهم على لا شـىء سوى المياه، العلف والأسعار.

قـال شـحـات، "زمـان أحـسـن من دلـوقـتـى". ثـم جلس بجـوار يوسف ممسكا كوب شاى فى يده، "كـان القمح مـتلتل ويحطوا العـيش الشـمـسـى للكلاب عشان تاكل، دلوقتى مين يلاقى عيش كفاية؟". تفتق يوسـف وأخذ يكركر بسـرور، ثم خاطب شلتوت بصـوته المشروخ، "شـحـات ده لسـه ولد صـغير، ما يعرفش إيه اللى كان حاصل أيام زمان، مش كده؟"، ثم التفت نحو شـحـات وقـال مبـتـهـجـا، "أيام زمـان كنا نزرع القـمـح والذرة وناكله، دلوقتى إحنا بنزرع القصب، وإيه كمـان، مـحـاصـيل كتيرة تجيب فلوس نشـترى بيهـا الأكل". ثـم التفـت العـجـوز نـحـو الجـمـهـور مـخـاطبـا،

"إحنــا دلوقتــى الحكومة هى اللى واخدة بالها منا وعندينا كل حاجة. إذا مرض واحد يروح على طول على المستشفى". كان يوسف يرحب دائما بالذهاب إلى المستوصف القريب من قرية الكوم، كثيرا ما كان يذهب هناك ليحصل على القطرات له والمراهم لزوجته. أحيانا كان يذهب لمستوصف القرنــة بدلا من ذلك، بل ربما ذهب إلى مستشفى الأقصر، إنه يعرف جميع الأطباء والممرضات، ولم ينج واحد منهم من ملاحقة يوسف وشكواه المستمرة وآرائه. ثم استأنف حديثه، "دلوقتى لازم الحكومة تعاملنا كبنى آدمين". هذا ما أعلنه بينما يخبط قبضته على المائــدة ويبحلق فى الحاضرين كما لو كان يحذرهم من أن يعارضوه. قال شحات، "لكن بس دلوقتى الناس كترت خالص". أجاب يوسف، "أيوه. أيــوه يا شحات. انت مظبوط، أنا من رأيى إن الناس اتضاعفوا مرتين أو تلاتة أو أكثر من أيام ما كنت عيل صغير. زمان ميت نفر ما كانوش يلاقوا حاجة، دلوقتى ميتين يلاقوا كل حاجة. راديو، تلفزيون، تاكسات – ممكن دلوقتى ناكل ونشرب على كيفنا. أيام زمان كنا ناكل الزبالة، مش كده يا شلتوت؟ مش أنا باقول الحق؟".

خلف نصبته وهو يعد الشاى، ضحك شلتوت؛ كان رجلا طويلا لطيفا قامته معتدلة، رد على يوسف وهو يهزل، "عارف، لو كان عندى قنبلة ذرية، لرميتها على بلدنا دى وابتديت من جديد". فصاح شحات، "ربنا مش حينولهالك لأنه عارف حتعمل بيها إيه". تنحنح العجوز يوسف

قائلا، "ربنا مش حينولنى أبدا فلوس كتيرة، لأنه عارف أنا حاعمل بيها إيه"، ثم أخذ يضحك بسبب النكتة التى ألقاها، بعدها استغرق فى نوبة من السعال.

قال شحات وهو يهم بالانصراف، "كلنا بكرة حنموت، كله فى علم الله". فصاح العجوز بصوت عال كأنما يؤكد أنه من زمرة المؤمنين مماثلا فى ذلك كل من يجلس بجواره، "الحمد لله على كل شيء".

كان الجو باردا عندما وصل شحات إلى منزله، وجد كل أفراد عائلته متجمعين على شكل دائرة حول منقد به بعض الحطب المشتعل فى الغرفة الأمامية، وقد توهج الحطب وشع دفئا محببا. بعدما ازدرد عشاء سريعا مكونا من شوربة اللحم، بصل وعيش، رقد شحات على بطنه فوق الكنبة مسندا رأسه على يديه وهو يحملق فى الحطب المشتعل. ذهبت سماح لتحضر بعض الحطب. الولدان الصغيران ومعهما بعض من أحفاد أم حامد تمددوا كالكلاب الصغيرة فى كومة، ينعسون أو يحملقون فى النار بأعين محملقة، بعدما أخذت أم حامد أطباق شحات، انسحبت إلى مكان ظليل بعيدا عن النار مرددة الله أكبر. لقد بدأت فى ترديد صلوات العشاء.

شحات نفسه لم يصل أبدا الصلوات الخمس، أو حتى كان يذهب للمسجد بانتظام، لكن أم حامد كانت إنسانة مؤمنة، بدأت أولا بقراءة الفاتحة ثم أخذ صوتها يخفت وهى تواصل صلاتها. قامت. ركعت،

جلست ورجلاها أسفلها، أحنت رأسها ومست به الأرض. وقفت مرة أخرى، وفى كل خطوة كانت تردد الآيات القرآنية. بعض القرويين يسرعون فى الصلاة جاعلين إياها نوعا من الترديد المبهم، لكن أم حامد كانت تنطق كلماتها بكل وضوح وتأن وتحديد تام. أخيرا التفتت إلى جانبيها مرددة بصوت ناعم، "السلام عليكم ورحمة الله". عرف شحات إنها قد انتهت من صلاتها، أخذ يلاحظها وهى تجلس فى هدوء تام لفترة وهى تحرك شفتيها فقط، بينما انهمكت يدها فى تحريك حبات مسبحة، فى كل مرة يسمعها شحات وهى تذكر اسم النبى، يهمس هو باستجابة، "صلى الله عليه وسلم". ما أن انتهت هى من الدعوات التى وجهتها نحو روح عبد الباسط، سمعا قرعا عنيفا على الباب، عندما فتحه شحات اندفع عبد الرحمن صديقه داخلا منقطع الأنفاس ومنفعلا، سأله شحات بكل اهتمام، "فيه إيه؟ لقيت كنز مدفون فى الأرض والا إيه؟"، فانفجر هذا الشاب الطويل الرفيع فى الضحك، وأطبق بكل جماع قلبه على يدى شحات الممدودة إليه، "أنا جيت لك علطول، أنا عارف انك تحب لى الخير، عشان كده حبيت تكون انت أول واحد يعرف"، أجاب شحات، "ده صح، مش قدامك بس باقول انى باحبك، لا دا كمان من وراك". عندما جلسا أخبره عبد الرحمن أن أباه قد أعلن وهم يتعشون بأنه وافق أن يشترى له تاكسى، "قال إنها شغلانة تكسب"، ثم أضاف بصوت متهدج، "أبويا قال انه كبر خلاص، وانت دلوقتى متجوز وعندك أولاد وبيت،

لكن أنا عايز أموت مرتاح انى عملت معاك واجب. انت كنت كويس معايا ويتشتغــل جـامد فى أرضنا". كان هذا أمرا حقيقيا، فبالنسبة للحصاد، لا أحد يفوق عبد الرحمن فى جده واجتهاده. أصدر عبد الرحمن تنهيدة طويلة ثم خبط شحات على ظهره - استغرق كلاهما فى ضحك متواصل وأخذا يضربان بعضهما بهزار.

لم تشارك أم حامد فى هذا الابتهاج، وعبرت نظرة قلقة استغرقت كل وجهها الوسيم، "بس يا عبد الرحمن، دى مش شغلتك! أحسن يا ولدى أبوك يشترى لك فدان أرض تزرعه، التاكسيات دايما محتاجة إصلاح وحتصرف كتير عليها من جيبك، وفى النهاية تتبسط لما تتخلص منه". فى الحقيقة، كان اعتراضها له مغزى آخر! فسائقو التاكسى لديهم وقت فراغ كبير يقضونه عند موقف المعدية حيث يشربون الخمر والحشيش.

ما أن رأت أمارات الهم تعبر وجهيهما، حتى رفعت يديها إلى أعلى قائلة، "أنا باقول رأيى وانتو حرين تعملوا ما بــدا لكم!". اعترض شحات فورا، "كام مرة أقولك يا أمه ما تزوديش فى الكلام؟ الراجل جاى فرحان عشان حيشترى تاكس. كلامك ده وقع قلبه وقطع خلفه". فى التو بدأت خناقة بينهما، "انت فقرى يا شحات، وبتفتى فى حاجات ما تعرفش عنها حاجة. تعرف إيه انت فى التاكسيات؟ انت تعرف فى الجاموسة، الحمار، الزراعة" ، انفجر عبد الرحمن فى ضحك متواصل،

وصاح وهو يخبط فخذه، "وحياة ربنا، أنا جاى عشان حد يعيننى، أتابى انتو المحتاجين للعون"، ثم استغرق هو وشحات فى ضحك متواصل حتى دمعت أعينهما، ووقفا على أرجلهما. ولكى تجارى أم حامد هذا الموقف، أخذت تضحك هى أيضا، لكن عيناها كانت مليئة بأمارات القلق. صاح شحات ومازال مغرقا فى الضحك، "والله، لابيع الجاموسة والحمار والأرض واشترى مرسيدس جديدة وأشارك عبد الرحمن!". أبدت أم حامد بعض أمارات الامتعاض، مما زاد من درجة قهقهتهما. وهى ساخطة، أمسكت بذراع عبد الرحمن تستبقيه ليشرب معهما كوبا من الشاى، لكن هذا غمز لشحات كعلامة بأنه يود أن يخرج. كان شحات يعلم أن عبد الرحمن يتقابل مع أرملة من قرية الكوم سرا، وأنه مهتم بأن يكون فى الميعاد معها.

بعد رحيل صديقه، أخذ شحات يروى للأولاد حكاية عن رجل من قرية الكوم كان قد هاجمه بعض اللصوص، هنا استرجعت أم حامد روحها المرحة المتشوقة، ففى الليالى الباردة، عندما يتجمع الكل حول منقد النار، كان شحات يحكى تلك الحكايات التى تدهشها بينما يتجمع أولادها حولها وبجوارها. أرسل نوبى إلى سطح المنزل ليحضر بعض حطب السمسم الجاف، انضم شحات للدائرة جالسا القرفصاء واضعا يديه فوق شعلة النار، محملقا فيها وهى تستهلك الحطب بشراهة. أحضرت سماح الماء، وملأت أم حامد البراد ووضعته فوق النار

التى تراقصت وهى ترسم قسمات وجه شحات الوسيم وأحيانا تخفيه، الجميع راقبوا الحطب يتراقص مظهراً أشباحا ورؤى.

بدأ شحات فى سرد حكايته، "دا كان من خمس سنين فاتوا، هما كانوا اتنين حرامية أصل بلدهم جامولة، فى ليلة قعدوا متربصين ورا تمثال ممنون القريب على النيل، وكان الوقت شتا. الضلام غطى البلد بدرى، فى مجية واحدة ست غنية راكبة حمار. الحرامية راحوا مسكوها وكتموا بقها عشان ما تصرخش، وسحبوها ناحية شوية شجر سنط ونتشوا منها الكردان بتاعها وبعدين قطعوا راسها".

لم يصدر أى نفس من المجتمعين حول النار، أم حامد وهى حريصة أن لا يصدر منها أى ضوضاء، أخذت تحرك بعض الحطب فى النار. بعد قليل من الانتظار حتى ينتهى هسيس الحطب، واصل شحات الحكاية، "وكان فيه واحد من سكان الكوم مارر برضك وهو فوق حماره وشايل عليه مقطفين مليانين خضار راجع بيهم بيته، دا كان ابن عم لفاروق واسمه محمد أبو المجد، لما شاف بعينه اللى حصل حاول يهرب، لكن الحرامية جريو وراه ومسكوا حماره وسحبوا الراجل ووقعوه على الأرض"، ارتفع صوت شحات واعترته نبرة فزع، "سيبونى"، بدا وكأن حياة شحات ذاتها هى المعرضة لخطر داهم، وأكمل، "أنا عندى عيال كتير، حيجوعوا من بعدى، أن حاديلكم حمل البطاطس اللى معايا ده، كمان البصل والطماطم، وكل اللى معايا وكمان الحمار،

لكن بسم الله الرحمن الرحيم ما تخلصوا على"، وجه شحات المتقع على ضوء المنقد لم يعد يخصه هو، لكنه بدا كأنه روح شرير نصادف أمثاله كثيرا فى أحلامنا.

كان المـاء يغلى. صبت أم حامد قليلا منه فى كوب به سكر وشاى ثم تذوقتـه، همست سماح، "خـلاص، كويـس؟" فهمست الأم، "استنى شـوية"، بينما انكمش كل من نوبى وأحمد وهما جالسان بجوار بعضهما بالكاد يتنفسان، ملأت أم حامد أكواب الشاى وقلبتها ومررتهـا عليهم. لم يبـادر أحـد فيهم بالشرب بل حملقوا فى شحات كما لو أنهـم يتسمعون خطـوات اللصـوص وهى تقترب لبـابهم، "لكن الحراميـة ما سمعوش كلام الراجل، قطعوا راسه هو كمان، بعدين قطعوا جسمه حتت وحطوها فى المقطفين وحطوا الخضار فوق وضربوا الحمار وقالوا له "يا الله على بيتك".

ما أن رأى شحات أمارات الجزع المرتسمة على وجوه الأطفال، حتى انفجـر ضاحكا وهو يقـول لهم، "يا له اشـربـوا الشـاى". لكن لم تتحرك ولو أنملة من أجسـادهم. لذا توقف شحات عن السرد وأمسك بقطعة حطب مشتعلة وأخذ ينفخ فيها، فبدا شكل وجهه واضحا، ثم واصـل، "بعدين ظهر عيل جاى من ناحية النيل، لقى الحمار ماشى من غير صاحبه ومحمل، فسحبه وراه لبيته، لما أهله فتشوا المقطفين اتعـرفـوا على راس محمـد أبو المجـد وراحوا مبلغين البوليس،

بعدها قعد الضابط يستجوب الولد الخايف ويعصر فيه، لكن الولد اتخرس خالص. الكل ظن إنه هو اللى قتل القتيل، قال له الضابط، "انت حتتشنق لأنك قتلت الراجل ده "، لكن فى اللحظة دى بالذات، طلعت راس القتيل من بين البصل والطماطم اللى فى المقطف وقالت بصوت عالى، "مش الولد هو اللى قتلنى، دول اتنين حرامية هما اللى قتلونى أنا وواحدة ست غنية، وحتلاقوها مدفونة تحت شجر السرو اللى جنب التمثالين!".

سكت شحات، ثم استأنف بصوت عادى، "الأيام دى، الراجل ده راسه مدفونة فى الكوم وقبره مكان مبروك وليه كرامات كتيرة". شاعرا بالجو المحيط بانتهاء القصة، أضاف شحات، "والأيام دى، فيه حرامية كتير من الصنف ده". أكدت أم حامد على كلامه، "أيوه صحيح. كتير، ثم اقتربت أكثر نحو النار، "كتير، كتير. غارة تشيلهم".

يميل شحات دائما لنسج مثل تلك القصص وهم متجمعون حول منقد النار فى ليالى الشتاء القارصة، فى جميعها تستمع إلى قصص اللصوص والجن والعفاريت، ولها سمات واحدة تتلخص فى إثارة الرعب والمبالغات الغريبة. بعض الحكايات استمع إليها من آخرين، والبعض الآخر ألفها هو مختلطة بخبراته الشخصية.

الحياة فى الصعيد الأعلى مخيفة ورائعة فى نفس الوقت، فمهما كانت القصة التى يحكيها شحات مرعبة، إلا أنها تبعث فى نفوس

المستمعين لها حقيقة الأحداث. ألم يهجم على منزل الحاج عبد المطلب ليلا مجموعة من اللصوص العراة، وقد غطوا وجوههم بأقنعة سوداء؟، ألم يعذب شحات عفريت له قرون وظهر له أولا على هيئة فتاة رائعة الجمال؟ ثم هل ينسى ذلك المارد المخيف الذى تصور له على هيئة عاصفة صحراوية عاتية؟ يتوقع من الغريب المتعلم أن يشعر بالملل والتشكك وهو يستمع إلى هذه المستحيلات والمتناقضات، لكن القرويين الذين قضوا كل حياتهم تحيط بهم الصحراء من كل جانب لآلاف من الأميال، خالية من الحياة وخاوية، وكذلك تلك المعابد الفرعونية الجرانيتية التى استقرت فى مكانها لقرون عدة لا تتغير ولا تتبدل. لأى إنسان معزول مكانا وزمانا مثلهم، ليس من المستغرب أن يجد أن أكثر الأمور غرابة وإغراقا فى الخيال تختلط وتتشرب من الواقع المعاش.

كسر شحات ذلك الشعور المسيطر عليهم وذلك بسرد الأحداث التى وقعت معه أثناء النهار؛ مرة أخرى، كما لو كانت طبيعة ثانية فيه، أخذ يمثل حركات وهمسات كل من قابلهم. فى لحظة، هو صبحى المزعج الزاعق، الذى دائما ما يكيل سيلا من الشتائم للعاملين عنده. مرة أخرى، يتحدث بصوت عال، ثم يقبض يديه ويمسك برأسه، إنها الآن بهية بدون أدنى شك. سماح ونوبى وأحمد، بالرغم من أنهم يخشون طباع أخيهم الأكبر، إلا أنه لا يوجد أى حائل يمنعهم من مواصلة سماعه وهو يقص عليهم حكاية، حتى إذا كانوا على علم كامل بما حدث.

فالسرد بفم شحات له طعم آخر وله صبغة درامية محكمة وأكثر إثارة للاهتمام من الحدث ذاته. بالرغم من أن عادة الصدق ليست شائعة كثيرا بين القرويين - وشحات ليس مستثنى من ذلك - إلا أن هناك قدرا كبيرا من الإثارة والإخلاص في سيل كلماته المتدفق، في عيونه البراقة، حركات يديه الطويلتين، ويصبح من الصعب عدم تصديقه.

هذه الليلة، ما أن نعس كل من نوبي وأحمد، حتى حملهما شحات واحدا بعد الآخر إلى كنبته، بينما حملت أم حامد وسماح الأحفاد الصغار. ما أن خمدت النار ، حتى غطى شحات نفسه ببطانية صوفية ثقيلة (بردة)، ولفترة طويلة أخذ يحملق في الدائرة الحمراء للحطب المشتعل. ما أن داعب النوم جفونه، حتى أحس بالأسى يخترق فؤاده لأنه عارض أمه في موضوع التاكسي. كان يود أن يخبرها بذلك، لكن هي الآن تغط في النوم وإذا حاول أن يوقظها فإنها لن تفهم.

قال في نفسه، "معلش، ننسى الموضوع ده"، ثم استدار ليواجه الحائط وجذب البطانية لتغطي رأسه. شعر بالنوم اللذيذ يتسلل بينما هو يستمتع بالدفء والراحة، "إن شاء الله بكرة"، ثم غط في نوم عميق.

طبعا، إنها المرأة

يوم ثلاثاء آخر فى السوق. ذهب شحات ليقابل فاروق، الذى يختار دائما لمجلسه مكانا معينا بقرب منطقة رسو المعدية، هناك يشترى الحبوب من الفلاحين الذين لا يرغبون فى التوجه إلى سوق الغلال فى الأقصر. وجد شحات فاروق وهو يؤنب رجلا عجوزا ممتطيا حماره. تعرف عليه شحات، إنه ليس سوى "مترى" ، هو أحد أغنياء نجع باسيلى، وهى إحدى ضواحى قرية بيراط المسيحية.

هناك قول سائر أن عمر مترى هذا قد تجاوز المائة والخمس سنوات، مظهره يدل على ذلك؛ كان نحيفا للغاية ومكرمش، يبدو كأنه عفريت من عفاريت ألف ليلة وليلة؛ عيناه الزرقاوان بالكاد يبصر بهما بسبب إصابتهما بالمياه البيضاء، أيضا كان تقريبا أصم. يقال أيضا إنه إنسان بخيل للغاية بطريقة تجعل الحاج عبد المطلب يحمر خجلا. زوجته، المحنية، الهتماء الحيزبون، هى تقارب مترى فى السن، وقفت بجوار حمار زوجها وهى تنوح بصوت عال وذراعاها العنكبوتيتان تتحركان جيئة وذهابا.

كان الرجل العجوز يصرخ فى وجه فاروق، "لا أنا مش عايز أبيع الفول، امشى بعيد عنى!". أخذ فاروق يضحك بينما تصرخ الزوجة فى أذن زوجها قائلة بأنه فعلا قد اتفق مع فاروق على بيعه ثلاثة جوالات من الفول بثمن قدره ثلاثة جنيهات، وأخذت تحرك النقود أمام وجهه وتتضرع له أن يعودا لمنزلهما. لكن مترى كان قد نسى تماما ما اتفق عليه منذ لحظات قليلة، لذا استمر فى المشاغبة، "إذا ما بعدتش عنى يا فاروق، حاصرخ وأقول الحقونى، فين البوليس!". احتج فاروق بقوله، "باقولك إيه، أنا اديتلك سعر كويس خالص". طلب مترى من زوجته أن تخبره عن المبلغ الذى دفعه فاروق، فردت بأنه ثلاثة جنيهات. أجاب مترى، "لا. أنا عايز أربعة! أنا قلت قبل كده يا مرة إننا نطلب أربعة جنيه، الحقونا يا ناس، يا بوليس!". كان هناك رجل بوليس واقفا بجوار المعدية، ورأى أن المستنجد ليس سوى مترى، لذا لم يهتم. عندما رفض مترى أن يتزحزح من مكانه، بدأت زوجته فى النحيب وهى تتوسل لفاروق، "من فضلك يا فاروق، زودهم جنيه كمان، وإلا حيضربنى لما نرجع البيت!".

شعر فاروق بمرح فائق، وراح يزعق فى أذن الرجل، "دا انت راجل بارد يا مترى، بقه عشان جنيه أغبر، عايز تسحب العصاية على مراتك، دا انت عندك فلوس بالكوم". أجاب مترى غاضبا، "ادينى جنيه كمان يا حرامى!". اضطر فاروق أخيرا أن يعطى جنيها للمرأة،

"خدى يا امه الجنيه أهه. على الله ما يضربكيش" . ثم قام فاروق برفع العجوز من فوق ظهر حماره مستخدما ذراعا واحدة وأخذ يمرجحها فى الهواء قليلا، بينما وضع خرج مترى الفارغ فوق ظهر الحمار. مترى وهو ليس سوى مجموعة متهافتة من الجلد والعظام، كأنما هو لحم مجفف، ظل فى وضع الجلوس وهو يتأرجح فى الهواء، ثم وضعه فاروق فوق ظهر حماره، وخاطب شحات، "دلوقتى ما يقدرش يروح للبوليس ويقول فاروق سرق الخرج" . ثم عدل فاروق اتجاه الحمار وصفع الحيوان على فخذه ليتحرك بحمله، بينما يحاول العجوز بقدر الإمكان أن يتماسك ومن ورائه فاروق يودعه، "أخدت الجنيه بتاعك يا مترى ؟ إنشاالله يحرقك فى نار جهنم" .

ضحك شحات قائلا، "كل الأغنيا من طينة واحدة، يدفنوا فلوسهم تحت البلاطة" ، ابتسم فاروق، "زى النصارى ما بيقولوا، القرش الأبيض ينفعك فى اليوم الإسود" . ثم اتخذ فاروق مظهرا جادا، "فين يا شحات الاتناشر جنيه اللى عليكم؟ أمك سحبت بيهم شوال نتروكيما" .

شعر شحات بالارتباك، لقد أعطته أمه فعلا النقود، لكن قبلما يسلمها لفاروق حدث شىء ما واضطر أن ينفق المبلغ، الآن وجد نفسه مرغما أن يعترف لفاروق بأنه صرف المبلغ، وترجاه أن لا يخبر أم حامد؛ ووعد أنه سوف يتصرف ويعطيه نقوده.

استغرق فاروق فى ضحك متواصل، ثم خبط شحات على ظهره، "انت فقرى يا شحات، صرفت المبلغ الكبير ده كله على مرة؟ مش كده؟". يعلم فاروق تماما نوعية تلك الحماقات، ألم يفعل مثل ذلك مرارا وتكرارا؟. استمر شحات فى تحفظه ولم يخبر فاروق بما حدث للنقود، لكنه شعر بارتياح بالغ عندما وافق فاروق أن ينتظر وأن يظل الموضوع بينهما. أخبره فاروق، "انت عارف إن فيه ناس كتير بيخبصوا على عند أم حامد ويقولوا انى ماشى على حل شعرى ومش واخد بالى من الأرض، شوف بقه كد إيه أنا حاديلكم فى محصول الدرة. بس اوعى تقول لها. لكن انت لازم لازم تسدد لى الاتناشر جنيه".

فى لحظة من الافتتان، منح شحات تلك النقود لقريبته بطة، حدث ذلك بالشكل الآتى:

إلى أن رآها فى السوق آخر مرة، لم تكن بطة تثيره أو تشغل فؤاده. بطة هى ابنة "سعاد" التى تسكن بجوار منزلهم. هى أيضا حفيدة "فتنة" أخت عبد الباسط الكبرى، ولأن فتنة تلك كانت سيدة عجوز نحيفة وتقريبا عمياء، وزوجها العجوز مريض بشكل دائم وملازم للفراش، لذا عاشت بطة مع جديها فى البيت الواسع الذى ولد فيه عبد الباسط لترعاهما. رأى شحات بطة وهى تروح وتجىء أثناء زياراتها لأمها سعاد لمدة سنوات طويلة، لكن منذ أن شاغلته فى السوق، انشغل بها وأدرك كم هى كبرت ونضجت بشكل مفاجئ.

منذ ذلك الحين كثرت زيارات بطة لسعاد، كثيرا ما كان شحات يقف فى شباك المنور عندما تسير هى فى الحارة، فى البداية كانا يبتسمان لبعضهما ثم يتبادلان التحية كالمعتاد، لكن ماذا حدث منذ أن وجهت له بطة سهام نظراتها التى ترسلها من تحت جفون سهتانة وهى تستدير مسرعة نحو باب سعاد، ثم تنفجر فى سلسلة من الضحكات اللعوب تشعلل قلبه وتلهبه؟!.

بطة الآن فى الرابعة عشرة من عمرها، هو سن مقبول للزواج. هى جميلة الشكل، لدنة القوام بزوج من العيون السود البراقة فى وجه صبوح مملوء بالحيوية. كانت معجبة بنفسها وذات طبيعة ملتهبة العواطف والرغبة. هى بالكاد تتمتع بالذكاء، وبالكاد أيضا تراعى مشاعر الآخرين، لكن هى كانت قمة فى الجمال.

فورا بدأ شحات فى تصورها فى حلم الليل مثلما حدث مع الجنية فى سابق الأيام، وأصبحت هى مصدر خيالاته. فى ارتباك ظن شحات أن بطة قد سحرت له. لماذا لم يلاحظها من قبل؟ لقد سمع أقاويل عديدة تؤكد أن الشيخة داية تربط بعضا من مسحوق مستخرج من عدد من عيدان الكبريت أو شوكة سنط تضعها داخل تحويطة، يمكن هذا العمل من أن تقوم الفتاة بكعبلة أى فتى تختاره وتشعر بالاهتمام نحوه، مما يجعله فى شوق دائم إليها ورغبة أكيدة بأن يرتبط بها، لذا فقد راوده الشك بأن بطة قد عملت له سحرا.

في يوم، عندما رآها من بعيد، ذهب لمقابلتها في منطقة مهجورة من الطريق خارج حدود القرية كما لو أن هذا قد حدث بالصدفة. بعد التحيات المعتادة، مشى بجوارها ثم قال بصوت خفيض، "أنا مش قادر أنتظرك كل يوم فى الشباك، أمك حتخمن انى باحبك وانتى بتحبينى، واذا سمعت جدتك بأى حاجة، مش حتخليكى تعدى من ناحيتنا. لازم ناخد بالنا. أنا عايز اشوفك، بس لازم آجى بيتكم".

ردت، "امتى؟"، كلاهما كان يتكلم بصوت خفيض خوفا من أن يلاحظهما أحد. قال، "بكره بالليل بعد العشا، حاجى بعد ما الدنيا تضلم".

"انت مش خايف؟ فيه كلاب كتير نواحينا، دول حيهوهووا ويمكن يعضوك"

"أخاف من شوية كلاب؟ أبدا، أنا حاجيب معايا شوية عيش أحطهم فى جيبى، أبقى ارميها ليهم"

"متأكد إن ما حدش حيشوفك ويتكلم علينا؟"

"أيوه طبعا، فى الوقت ده جدتك حتكون بتصلى، ويا ريت تلبسى جلبيتك الحمرا، دى حلوة قوى عليكى". رمته بطة بنظرة متأملة، ثم ابتسمت ابتسامة جذابة، تشجع شحات واستمر فى لهجته التآمرية التى أسعدت كليهما، "بكرة وانتى بتزورى امك، أنا حاكون واقف على الطريق

ومعايا كام واحد من اصحابى ومش حامسى عليكى، كده ما حدش يلسن علينا. لكن انا حاجى بكرة بالليل".

وافقت بطة، لكنها أضافت بحدة، "ابعد اخواتك الصغيرين عننا، خايفه ليتجسسوا علينا ويبوظوا كل حاجة".

قرر شحات أن يسلك طريقا منفردا ما أن اقتربوا من منازل القرية، لذا همس، "أنا حاكون على نار يا بطة، عشان كده بكرة نتقابل إن شاء الله". تركت بطة أناملها تلمس كمه، ثم همست بحنان، "يا سلام، نفسى اقعد معاك كمان وكمان، لكن لازم امشى"، ثم أسرعت فى سيرها وهى تهز أردافها.

بعد ذلك، أصبح شحات يتسلل إليها سرا كل ليلة. الجدة فتنة كانت مغرمة بشحات، لذا لم تلاحظ شيئا، ما أن تحييه وتتحدث قليلا معه، تتوجه لتصلى أو تجلس باقى فترة المساء بجوار سرير زوجها المريض وهى جالسة القرفصاء على الأرض تقزقز الجوز أو البندق، أحيانا كانت تحدث فرقعة هائلة وهى تكسر المكسرات بأسنانها، هنا يفاجأ شحات ويحس كأنه يستمع لصوت طلقة مسدس. خطته الخاصة برمى العيش للكلاب لم تكن ناجحة على طول الخط، فقد تعرض للعض عدة مرات، والآثار ما زالت باقية فى عراقيبه.

فى ذلك الحين وقع أسيرا فى سحر بطة، بالرغم من أنه عرفها طوال عمره، إلا أنها ازدادت حلاوة وحيوية فى نظره. عندما يجلسان سويا

وهما يتحدثان في التراسينة المفتوحة القائمة في سطوح الجدة فتنة، وبطة تأخذ في التنهد من كل قلبها، تشكو ظروف حياتها، أو تنفجر أحيانا ضاحكة بدلع وهي تهتز، تبرق أسنانها وترتفع حواجبها بشكل محبب مغر، هنا يشعر شحات كم هي مخلوق رائع ومملوء بالعزة والفخار.

كما فعلت بطة مع شباب القرية الآخرين، كانت أيضا تلاعب شحات كما يفعل القط بالفأر. أحيانا كانت تداعبه حتى يصل إلى درجة الرغبة الجامحة، ثم فجأة تطلق ضحكة ساخرة عالية النبرة. أحيانا تخبط قدميها في الأرض بغضب بسبب حركة متصورة، أو تدفعه بعيدا عنها وتتجهم ولا تخاطبه. ثم بدأت في طلب هدايا منه، لذا كان شحات يأخذ كميات قليلة من مخزن حبوب أمه ويبيعها "للقط".

مع ذلك، اكتشف شحات أنه لا يهتم كثيرا ببطة مثل اهتمامه السابق بسنية، فالمشاعر العميقة التي حركتها في قلبه سنية لم تتكرر. أدركت بطة ذلك، لذا عاني غرورها الكثير. في ليلة، وقد غمرتها مشاعر الغيرة المرة، أسرت لشحات بأنها تتواعد أيضا مع صديقه "التعبان" سرا.

أطلقت ضحكتها الساخرة وهي تقول، "ليه لأ؟ وانا بأخد منه فلوس ياما، كل رجالة القرنة مليانين فلوس". ما أن لاحظت التغير في وجه شحات، حتى أسرعت في القول بصوت ناعم مثير، "لكن أنا مش عايزة حاجة منك يا شحات، مش عايزة غير صحتك"، ثم خفضت من رموشها الطويلة لتضيف، "بعض الناس قالوا لتعبان عن مقابلاتنا. هو زعل

خالص. أنا قلت له، أنا بس باتحدت مع شحات، ده ابن خالى. كمان شحات عمره ما بيدى فلوس للبنات، دول هما اللى لازم يدوله. أنا قلت للتعبان انت يظهر غيار وبتزعل بسرعة، سألته كمان، انت ليه مش عايزنى اشوف شحات؟"

خجلا من فقره، أخذ شحات الاثنى عشر جنيها من أمه، التى كان واجبا أن يعطيها لفاروق، ثم رماها بطريقة مسرحية فى حجر بطة. سرت هى بهذه الحركة وأخذت تصفق بيديها وتحضنه قائلة، "انت لازم دلوقتى تحبنى اكتر واكتر"، ثم همست، "عشان انت بتبسطنى كده، ما تاخدش بالك من التعبان، أنا مش حأقابله تانى".

لكن بطة لم تقتنع، فهى ترغب فى شراء هذا الثوب، وذاك العقد، لذا عادت مرة أخرى لمواعدة التعبان، وأخذت تعرض هداياه أمام أعين شحات.

كان من الممكن لشحات أن يشرح لها كيف يحصل التعبان على النقود، لكن بعزة نفس وإباء احتفظ بفمه مقفلا. كثير من المرات، كان التعبان يخبره أن السائحين الأجانب الذين يحضرون لزيارة مقابر القرنة، يبدون اهتماما به أكثر من الانتيكات المقلدة التى يبيعها، فيصحبهم إلى قلب الصحراء ويؤدى لهم الخدمة التى يطلبونها، طالما أن الدفع سيكون سخيا. هذا الأسلوب لم يكن غير شائع لكسب المال بين شباب قرية القرنة.

شحات لا يهتم كثيرا بالسواح، فى بعض الأيام وهو يقضى وقتا فى قهوة شلتوت، يلذ له أن يراقبهم يركبون أو ينزلون من الأتوبيسات أو سيارات الأجرة عند بوابة المعبد، البعض منهم نحيف القوام، الآخر سمين، قصير، طويل، ذكور، إناث، يتمخطرون فى ملابس عديدة الأشكال، علامات العز والثراء مرسومة على قبعاتهم ذات الألوان الحمراء، الصفراء، البيضاء، الزرقاء والخضراء، نظاراتهم دائما غامقة اللون، بنطلوناتهم إما طويلة أو قصيرة للغاية، الأكتاف معلق عليها كاميرات ذات أشكال متنوعة، جيوبهم مكتظة بالنقود، وبرفقتهم حقائب من كل نوع وصنف.

فى لحظة ما، تخلو ساحة المعبد التى تفترشها الشمس من أى نسمة حياة، فى التالية تشغى بضوضاء ونشاط بالغ مع سحابات كثيفة من الغبار، ويسرع أطفال القرية نحو السيّاح ممسكين فى أيديهم عرائس من القماش أو يتسولون البقشيش، وربما يحضر خادم من لوكاندة صبحى عارضا للبيع عقودا من العقيق وأنتيكات مقلدة سيئة الصنع أو بعض الخرز الحقيقى الخاص بالموميات والتى يتم العثور عليها بالمئات فى الحقول. ثم يوقظ العجوز يوسف نفسه من "تعسيلة" فى ظلال جدران المعبد، ثم وهو شبه نعسان يدور على السائحين يعرض بضاعته من حبات الليمون، ويسرع شلتوت بوضع كراس وموائد فى الظل خارج قهوته، بينما زينب زوجته، وقد أنهكها الحمل،

تتقدم بخطوات خجلة وهى تنادى، " ليمون، كافيه، تى يا مدام.. كوكا ؟ ، فهذه هى الكلمات الإنجليزية الوحيدة التى تعرفها.

بينما يختفى السيّاح داخل المعبد، يتحلق الباعة الجائلون والأطفال حول مدخل المعبد كالطيور الجارحة. ما أن يخرج هؤلاء حتى يستأنف الباعة صيحاتهم الطويلة الضارعة ويصرخ الأطفال طالبين البقشيش، بينما يصيح المرشدون السياحيون محددين الاتجاهات نحو الأتوبيسات والسيارات. أحيانا ربما يتواجد رجل شرطة وبيده كرباج أو عصا يطارد بها الأطفال، وقد يلحق بأحدهم فيضاف أنين هذا إلى معجنة الارتباك والفوضى.

"مدام، يو لايك زس ؟ إت إز لفلى. بيوتيفول، ألابستر. نوت تو ماتش. فايف باوندز!"

"ماى فرند ليدى، هاو ماتش يو باى؟"

"ميسو، آ سيجاريت ؟ فور ذا بابا ! فور ذا بابا!"

" تو باوندز ليدى. نو مونى مور. نايس برايس فور ماى جود الله. أوكى. يو باى؟"

بعدما تتحرك الأتوبيسات والتاكسيات، ويتحاشى الأطفال قدر إمكانهم عصا رجل البوليس، يحصل هؤلاء الأطفال بكل فرح ومرح على توصيلات مجانية وهم متشعبطون على "إكصدامات" السيارات من الخارج

حتى حدود القرية، ويعود يوسف العجوز ليستأنف قيلولته، ويرجع الخادم إلى اللوكاندة، ويسحب شلتوت كراسيه وموائده إلى الداخل. ويختفى الأطفال بنفس السرعة التى ظهروا بها .

يتحدث شحات بكلمات قليلة بالإنجليزية، التقطها من الاستماع للأجانب الذين يردون القهوة، لكنه لم يتحدث أبدا معهم. إذا سأله صديقه، لماذا لا يفعل هكذا، يقول، "ربنا اداني شغلتي، أنا عندى أرض أزرعها، ليه أتكلم مع الأجانب دول وابيع لهم أنتيكات واشحت منهم البقشيش؟ خللى بتوع القرنه يمشوا معاهم. شغلتى هى انى ازرع وبس".

فى وقت متأخر من المساء، كان شحات يتسلق إحدى الهضاب التى تقع فوق الوادى وهو فى طريقه إلى عمق الوادى. لم تكن هناك ريح تهب والصقور تحوم بكسل فى الأعالى والصخور ذات لون شاهق تسبح فى ضياء شامل. كان شحات مستغرقا فى أفكاره، عندما استمع لصرخات فتاة فى مكان ما على ربوة أعلى من مستواه. كانت هذه تزعق طلبا للنجدة.

بدون أن يعاود التفكير، خرج من مساره وبدأ فى تسلق الربوة. بعد لحظات، وهو مقطوع النفس وقلبه يدق بسرعة، تقدم إلى أعلى مخترقا ممرا ضيقا من الصخور أسفل قمة الربوة. ما أن اعتلاها حتى وجد نفسه فجأة وجها لوجه مع فتاة أجنبية شقراء ترفع بيديها صخرة تهم أن تلقيها عليه، لكنها تراجعت فى اللحظة الأخيرة ثم أنزلت الصخرة

وأخذت تحملق فيه للحظات، ثم صاحت بالإنجليزية، "من فضلك، انقذني". ثم اندفعت الفتاة في حديث انفعالي لم يفهم شحات معظمه، لكنه التقط عددا كافيا من الكلمات واللمحات مما دعاه لأن يفهم ما حدث، فهو بالإضافة إلى نظره الحاد، يتمتع بسرعة البديهة، لذا فالقليل من كلامها هو الذي لم يفهمه.

لقد سارت الفتاة بمفردها خلال الممر الضيق الهابط من وادي الملوك إلى الأسفل حيث المكان الذي تركت فيه دراجتها. كانت الصخور تحيط بهذه الربوة التي وقفا عليها والتي تلتقي بالممر الضيق المؤدي إلى مقابر الفراعنة. كان هناك طريق قد شق وسط الصخور منذ أماد بعيدة، وكل من لا ترهبه الارتفاعات يستطيع أن يتسلقه صاعدا. سلكته هي وما أن كادت تبلغ القمة حتى تقابلت مع ثلاثة أولاد. خمنت أن أعمارهم تتراوح ما بين الرابعة عشر والسادسة عشر. تبادلوا التحية معها ثم حاولوا أن يبيعوا لها بعض من خرز المومياوات، ثم قدم لها أحدهم يد مومياء متغضنة أخرجها من جيبه، وآخر عرض عليها عقربا موضوعة في صندوق ورقي. بعدما رفضت أن تشتري شيئا منهم واستأنفت صعودها، لاحظت أنهم يتتبعونها بينما ينطقون بلغة عربية سريعة. ثم لحقوا بها وأمسك أحدهم بذراعها، بينما آخر أخذ يتلمس جسدها تحت البلوزة. بكل غضب أخذت تجري وهي تدفعهم بعيدا عنها وتقول لهم بأن يبتعدوا ويتركونها لحالها. استمرت في الصعود،

لم تبتعــد كثيــرا قبـل أن تسمع صـفيرا ونداء. عندما التفتت وجدت الولد الأكبر منهم قد خلع ملابسه وأبرز عضوه الذكرى المنتصب، بينما الولدان الآخران قد التصقا ببعضهما وأخذا يتمايلان أماما وخلفا بطريقة رتيبة وقبيحة وأخذا يشيران لها أن تشاركهما. عندما التفتت أماما واستأنفت مسارها، سارعوا بالجرى خلفها. تملكها خوف وذعر بالغان وأخذت تتدحرج فوق الصخور بكل ما أوتيت من قوة، وبكل جزء أخذت تبحث عن مكان يمكن أن تختبئ فيه. عندما حاول الأولاد أن يعبروا الممر الضيق، أخذت تطوحهم بالأحجار مما عطل صعودهم وبدا أنهم سوف يغادرون المكان. كانت تصرخ بهستيريا، لذا ظنت أن شحات واحد منهم.

استمع لها شحات وأخذ يحملق فيها باندهاش، وحاول أن يكون بعض الكلمات بالإنجليزية وهو منبهر بها، فهى أجمل فتاة وقع نظره عليها. كانت عيناها مليئة بالبراءة ذات لون أزرق صاف كالسماء ذاتها. كل حركة تصدر منها فى غاية اللطف والرقة والسحر. شعرها أصفر طويل كأنه كيزان الذرة الناضجة، حتى وهى فى حالة انزعاجها تلك لم يتأثر مظهرها الجميل. كانت تلتقط أنفاسها بسرعة بالغة وترتعش كلها. أخذ غضبه يتزايد، لذا أعوزه النطق بالحديث، لكنه استطاع أخيرا أن يقول لها بإنجليزية مكسرة، "هما.. كانوا عايزين.. يعملوا حاجة وحشة معاكى؟". عندما هزت الفتاة رأسها علامة الإيجاب، فتح فمه لينطق بشىء آخر، لكنه لم ينبس بحرف، بدلا من ذلك، اسود وجهه، لمعت عيناه،

أصر بأسنانه، ثم أخيرا قال، "أعرف أولادا فى الجبال، يحبون أن يعملوا أشياء رديئة للسياح. إذا وجدوكى بمفردك وسط الجبال، يمكن أن يصنعوا أى شيء يريدونه".

أمسك بيدها، وبصمت أخذا يتسلقان القمة التى كانت تبعد فوقهما بخمسين قدما. هى كانت تشعر براحة عميقة، لكن بوعى كامل. أخذت تختلس النظرات نحوه، كان شحات بملابسه السوداء، وجهه نصف مختبئ خلف شاله الرمادى القديم الذى التف من خلف ذقنه ورقبته بالطريقة البدوية، بعض الضباب والشعر الأسود المتدلى من رأسه مع قطرات من العرق تنازعت جبهته. كان الغضب والانفعال مسيطرا عليه، لكنه أيضا كان يشعر بالسرور. عينا الفتاة مغرقة فى الزرقة، شعرها الأصفر يتمايل بكل حرية ورشاقة، بالكاد استطاع أن يبعد عينيه عنه. بدون أى كلمة، جلسا سويا على صخرة بارزة وأخذا يتأملان الممر السفلى. أشعل هو سيجارة، كلاهما أحسا بنوع من التوحد، لذا لم يعوزهما أى حوار، كما لو أن الحديث سوف يفسد هذه المتعة. مرت عدة دقائق، ثم، بعيدا أسفل الجبل، ظهر شخص بمفرده صاعدا وآتيا نحوهما. راقبت الفتاة ذلك المنظر للحظات ثم تخشبت فى مكانها، لقد تعرفت على العمة والجلباب الأبيض. صاحت بانفعال، "إنه هو"، ثم عندما لاحظت إمارات الغضب المتصاعدة فى وجه شحات، غطت فمها. قال شحات، "هو نفس الولد؟"، أجابت، "لا. لست متأكدة". لكنها فى

الواقع كانت متأكدة، لذا أضافت، "هو أيضا كان يلبس ملابس بيضاء، هذا هو كل ما فى الأمر، لماذا يعود الآن وأنت معى؟".

وقف شحات وهو متجهم؛ عندما شاهدت ملامح الغضب التى تكسو وجهه، خشيت عما يمكن أن يحدث منه لاحقا. استمر الولد فى تقدمه حتى توقف على بعد خمسين ياردة قبلهم ثم جلس القرفصاء فى الممر المواجه لهما.

قفزت الفتاة وأخذت تلوح بيديها، "اذهب بعيدا. اذهب"

همس لها شحات، "لا تتحدثى، دعيه يتقدم هنا!"

بدأ كل من شحات والولد يزعقان فى بعضهما بلغة عربية لم تفهم الفتاة كلمة منها، سأله شحات، "انت حاولت تغتصب الأجنبية دى، دى ضيفتنا".

احتج الولد أولا، "لا. أنا ما عملتش حاجة. دول كانوا عيال تانيين".

صاحت الفتاة، "اذهب بعيدا !"

زمجر الولد، "لو كانت لوحدها هنا، أنا كنت عملت اللى أنا عايزه، دا أنا حتى كان ممكن أرميها من فوق الجبل"

فى لحظة هبط شحات المنحدر، وجلبابه الأسود يطير معه، ووجهه متلبد إثر انفجار حاد فى طباعه. أمسك الولد من كتفيه، وجذب جلبابه

إليه، وخبط عمامته بيده فأوقعها على الأرض. جرت الفتاة خلفه وكادت أن تقع وهى تصيح، "لا. لا توقف. إنه الولد الخطأ، دعه يذهب" ، ثم أمسكت بكتف شحات، لكنه تخلص منها بقوة، فوقعت على الأرض. هجم شحات على الولد وعيناه حمراوان كالدم وقبضته مرتفعة على أعلى، " أنا عارفك كويس، عارف كل الناس اللى هنا ! انت عرص وناسك حرامية، وامك شرموطة!". أخذ يهز الولد بعنف مما جعل أسنان هذا تهتز، واستأنف، "يا ولاد الكلب، فاكرين إن أى واحد يطلع الجبل يمكن تعملوا فيه أى حاجة!"

تملك الذعر الولد وأخذ يئن ويتوجع ويتوسل لشحات أن يتركه ، "لا. لا أنا ما عملتش حاجة. أنا رجعت اسأل البنت دى، يمكن تحب حد يعملها حاجة، ممكن انت تبتدى الأول. ماشى؟".

بدأ شحات فى ضرب الولد بقبضته، فى ذعر حاول الولد أن يرد بضربات مماثلة وحاول أيضا أن يتفادى الضربات الموجعة لشحات.

ما أن لاحظت الفتاة أنهما فى وضع خطر قريب من حافة الجبل الهابط نحو ألف قدم فى اتجاه وادى الملوك، أمسكت بذراع شحات بكل قوتها، هنا استطاع الولد أن يحرر نفسه وأخذ يتدحرج على الصخور ثم زحف مستخدما قدميه وجرى عائدا فى الممر. لم يحاول شحات أن يلحق به. عندما بلغ الولد مسافة معقولة، التفت نحو شحات وزعق فيه، "معلش يا شحات، أنا عارفك كويس، انت عايز تاكل البنت لوحدك! اعمل ما

بداك معاها!". صاح شحات، "أنا عارف كل الناس اللى من عينتك، الرجالة والنسوان، العيال والبنات"، ثم بصق فى اتجاه الولد بكل احتقار، "كلكم كلاب وخنازير!".

لفترة طويلة، كان الغضب ممسكا بتلابيبه بحيث صعب عليه الحديث. أمسك يد الفتاة بعنف وقادها هبوطا فى الممر. لاحظت أنه يرتعش؛ فى نظر الفتاة، كان شحات، بملابسه السوداء بالمقارنة بالصخور البيضاء اللامعة والسماء الزرقاء الصافية المحيطة بكل المنظر، كأنه شخص برز من ثنايا كتاب العهد القديم المقدس. هبطا فى سكون حتى بلغا هضبة منخفضة تعلو وادى الملوك وهنا ينقسم الممر، أحدهما يتجه نحو السهل. كان هناك على البعد بعض السائحين، لذا استعدت الفتاة لأن تشكره وتودعه. شحات وهو ما زال متجهما، نطق بأول الكلمات منذ المعركة، "كنت أريد أن اضرب رأسه بصخرة!". كان يود أن ينطق بهذه الكلمات بصوت هادئ، لكنها صدرت على هيئة صيحة خشنة محتبسة.

بدون وعى، وضعت الفتاة ذراعها حول عنق شحات، وخدها على خده وقبلته قبلة أصدرت صوتا، ثم استدارت وأسرعت عدوا فى الممر واختفت، كاد شحات أن يزعق وراءها، لكنه وقف مكانه متجمدا. أخذ يحملق فى شكلها المبتعد وتعبير من الحب والإعجاب يغمر ملامحه. عندما أخذ طريقه متجها نحو منزله، ظل قلبه يدق بعنف ويداه ترتعشان بشكل بالغ لدرجة أنه اضطر أن يضعهما فى سيالته. عنقه ما زال

دافئا من مسكتها ، بدت كأنها قد مسحت بطيب وعطر بجوار شاربه حيث تلقى القبلة، أخذ عصب يرتعش. من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، كان غارقا فى نشوة وشعور لم يألفه من قبل.

فى وجبة الغذاء، أخذ يأكل ويشرب بطريقة آلية ما وضعته أم حامد أمامه، ولم يسمع لأى كلمة نطقت بها. بسرعة ترك الطبلية قبلما ينهى أكله ثم أسرع نحو المكان الذى تركته فيه الفتاة، بعدها توجه إلى وادى الملوك، ثم إلى معبد حتشبسوت وناحية مقابر الأمراء، وقضى باقى النهار يبحث عنها بلا جدوى. تخيل أنه قد يقابلها مرة أخرى، ثم يقعان سويا فى غرام مشبوب، وربما يلازمها فى بلادها البعيدة حيث تعيش، بل ومن الممكن أن يصبح زوجا لها، ثم عاد للمنزل مع هبوط الظلام، فاقد الأمل، متعبا، معتبرا أنها سوف تكون معجزة حقيقية أن تقع عيناه عليها مرة أخرى.

لعدة أيام بعد ذلك، كان شحات يسبح فى بحر من العذاب، أصبحت طباعه خشنة وميالة للعراك لأتفه الأسباب. شكت أم حامد بأن هناك من سحر له. عندما لا يكون منهمكا فى العراك مع أحد ما بالمنزل، لا يفعل شيئا سوى أن يدور داخل البيت وهو يصفر بفمه، ثم - متذكرا المنظر فوق الجبل، يقف فجأة فى مكانه ساكنا لا يتحرك، غارقا فى أفكاره، مثبتا نظره فى الأرض. كان فى حالة غياب غريب عن الوعى وطباعه شرسة، لدرجة أنهم وهم يتناولون العشاء ذات ليلة،

انفجر فى ثورة مجنونة بسبب مضايقة تافهة، فقلب الطبلية رأسا على عقب، فاندلقت الصحون وكل شىء وقع على الأرض.

عندما سمع أن بطة تتواعد مع "التعبان"، لم يهتم، وأخذ يتمتم وهو غير منتبه، "بطة دى جاموسة". عندما رأته بطة فى السوق، استوقفته قائلة، "انت مش عايز تتحدث معايا ليه يا شحات؟ وليه بطلت تيجى بيتنا؟ "، فأجابها وهو راغب فى أن يبتعد عنها، "أنا ما عنديش وقت، مشغول فى الأرض".

"تعالى الليلة، نقدر نتكلم سوا"

"لا. أنا ما عنديش وقت"

ذهبت أم حامد للشيخة داية التى قدرت أن شحات قد ناله عمل ما، ثم أخبرت أم حامد أن ترجع لبيتها وتبحث ما بين الطوبة الثالثة والرابعة من الأرض يسار عتبة الباب، هناك وجدت أم حامد قالب طوب سائب، بتحريكه وجدت قطعة ورق ملفوفة على هيئة مثلث صغير وملئ بخطوط حمراء غريبة الشكل. عندما شاهدته الشيخة داية قالت إنه ليس سوى حجاب أعده قس قبطى مشهور بأعمال السحر. أخذت كلتا السيدتين فى تلاوة بعض من آيات القرآن الكريم، والشيخة بدأت فى تبخير البيت كله وأنشدت تعزيما يطرد العمل الشيطانى المذكور فى الحجاب، ثم طلبت من أم حامد أن تحرق هذا الحجاب أثناء صلاة المغرب.

عاد شحات ليصبح مطواعا، لكنه مع ذلك لم ينس تلك الفتاة ذات الشعر الأصفر التى أنقذها وقبلته يوما. لفترة طويلة، متذكرا تلك اللحظات التى قضاها معها فوق الصخرة، استقر فى يقين شحات أن بقاءه فى تلك القرية ومعيشته فيها ليست سوى ضياع ومضيعة للوقت وكلها بؤس وشقاء.

عالم الكفاية

الحياة فى القرية محكومة بالمواسم، عندما نضجت الذرة الشامية وأصبحت جاهزة للقطاف، كان شحات يتوجه يوميا إلى سنباط لكى يحش حملا من أوراق الذرة وشواشيها ليقدمها علفا لجاموسته. مثل كل الفلاحين، يدخل شحات إلى قلب الأرض المنزرعة حافيا، فالأحذية والصنادل تترك خارجا. ويسبب الحر الشنيع الذى يحس به الفرد وهو وسط أعواد الذرة الطويلة الكثيفة حيث يندر وجود الهواء، يخلع الفلاح جلبابه وعمامته ويعمل مرتديا ملابسه الداخلية. وطالما أن الفلاحين كانوا قد هجروا ارتداء السراويل الطويلة القديمة، لذا تتكون الملابس الداخلية الحالية من قميص أبيض بلا أكمام، صديرى باهت الزرقة كثير الأزرار، لباس قطنى سائب أبيض اللون يصل حتى ركبتيه.

كان فاروق على حق؛ الذرة الآن جاهزة للحصد. أخذ شحات يفكر متى سوف يذهب لمفتش الزراعة لكى يحصل على موافقته على بدء حصاد أرضه، إنه أيضا سوف يستأجر جملين أو ثلاثة لكى يتم تحميل

المحصول إلى جرن فاروق فى الكوم. وكما هى العادة، سوف تتجمع كل من أم حامد ونسوة أخريات لكى يفصلن بذور الذرة، وعلى العكس مما يجرى فى الوجه البحرى، فإن هذا هو العمل الوحيد الذى تقوم به نسوة الصعيد.

عمل شحات بكل سرعة ممكنة، كما كان يحدث دائما وهو فى الحقل. هو يلقى بحمل ذراع بعد الآخر من الأوراق الخضراء فى كومة على الجسر المخضر بالحشائش. بعدما جمع القدر الكافى الذى يمكن للحمار أن يحمله، أخذ بكل حرص يختار عددا كافيا من الكيزان الصغيرة لكى تقوم أم حامد بشيها، ثم تبسم وهو يتذكر كيف أن أخويه الصغيرين، نوبى وأحمد سوف يتعاركان بسبب رغبة كل منهما فى الحصول على النصيب الأكبر. كان لدى شحات العديد من الأمور التى تحتاج للحسم. عليه أن يستأجر بقرتين لكى يحرث الأرض بعد الحصاد لكى يبذر المحصول التالى، لقد أخبره المفتش بأن عليه أن يزرع العدس هذه السنة بدلا من المحصول الشتوى التقليدى وهو القمح، الذى سوف يقوم معظم جيرانه بزراعته. كان مهموما أيضا بسبب الدين الذى عليه لفاروق وهو اثنا عشر جنيها. لقد اكتشف أنه كان فى منتهى الغباء عندما منح هذا المبلغ لبطة بينما هو يعلم يقينا عدم قدرته على اكتساب هذا المبلغ فى وقت قصير.

مع الكثير الذى يشغل فكره، جلس محتارا متوترا على جانب الترعة الأخضر، ثم أشعل سيجارة كليوباترا وأخذ يحملق فى الماء.

فجأة لاحظ أن هناك أسماكا صغيرة تتوثب بعضها لا يزيد حجمه عن عقلة الإصبع، والبعض الآخر يزيد طوله عن بوصتين أو أكثر، ثم فكر، أنه عندما تنخفض مياه هذه الترعة، سوف يجعل كلا من نوبى وأحمد يساعدانه فى عمل سد طينى يحجز الأسماك الكبيرة فى بربخ. ثم انتبه عندما لاحظ أن هناك ثعبانا يسبح من شاطئ إلى الآخر فرمى عليه حجرا، لكنه سرعان ما اختفى هذا.

شعر فجأة بالجوع يقرصه، لذا أخرج من جيبه قطعتين من الخبز وبصلتين وبدأ فى تناول طعامه. هو يشعر بالحر الشديد الذى يزمجر ويشتد فى منتصف النهار، ويزداد وطأته خاصة بعد تناول الطعام. تمدد شحات على النجيل الأخضر مستمتعا بالهدوء والسكينة، لكن هذا لم يستمر طويلا، فبعد دقائق قليلة ظهرت طائرة هليوكوبتر تطير فوق رأسه قادمة من جهة الصحراء الغربية. أخذ يستمع لطنينها الرتيب ثم ظلل عينيه وأخذ يراقبها وهى تتجه نحو النيل. ثم سمع صوت البط- بط الصادر من ماكينة رى ، حيث بدأ شخص ما فى تشغيلها لتسحب من ماء الترعة، كذلك سمع صوت خشخشة الماء المندفع من الأنبوب. استند بيديه على العشب واختلس النظر نحو ذاك الذى يروى أرضه الآن، فشعر بهواء بارد يلفح وجهه. لاحظ أن الماء المندفع من الأنبوب صاف تماما وهو يصب فى قناة صغيرة ويلمع بشكل براق فى ضوء الشمس. هذا جعله يشعر بعطش شديد، لكنه يخشى من شرب هذا الماء خوفا

من ديدان البلهارسيا التى تعيش داخل القواقع ويكثر وجودها فى القنوات المائية لا سيما بعدما جعل السد العالى من الممكن رى أراضى الصعيد طوال العام. كل من نوبى وأحمد يشعران بضعف عام وإعياء مستمر بسبب إصابتهم بهذه اللعنة، وكثيرا ما كان الدم يظهر فى بولهم.

من مكان بعيد، سمع حمارا ينهق، لذا أخذ يختلس النظر نحو حماره مفتشا عما إذا كان قد انتبه لهذا النداء أم لا، فهو يعتقد جازما أن هذا النهيق صادر من حمارة تطلب رفيقا. ككل الفلاحين، كان شحات يؤمن بأن الحيوانات تتخاطب مع بعضها بلغة تخص كل نوع، كذلك تفعل الطيور، فبالنسبة لإنسان ما قد يظن أن صوصوتها لا معنى لها ، لكن هى فى الواقع ليست سوى تعبير عن الحمد والشكر لله !.

الخرير الناعم للماء وصوت الطلمبة الرتيب، لم يكسرا الجو الهادئ أو يثيرا الهواء الكسول الذى يتخلل عيدان الذرة الطويلة ويجعل شحات أكثر شعورا بالنعاس، لذا أخذته سنة من النوم، ثم استيقظ فجأة ووقف على قدميه دفعة واحدة لكى يطرد النوم، ثم وضع أحماله فوق الحمار وتوجه نحو منزله. أخذ وهو سائر يهز رأسه ويدعك عينيه، التفت ناحية الغرب حيث توجد قرية الكوم، التى ارتفعت منازلها فوق تل اصطناعى تكون من بقايا قديمة لمنشآت كانت عامرة يوما ما فى الأزمان القديمة، لذا كانت هذه القرية واضحة تماما للعيان. على الحدود الشرقية لبلدة

سنباط القديمة مختبئة خلف غابة من أشجار السنط والأكاسيا، يقع الميدان الجديد، أيضا المبانى البيضاء للمدرسة الابتدائية الحكومية، بعدها المستوصف، مكتب مفتش الزراعة. لكن الكوم هى القلب النابض لقرية بيراط، هناك يوجد منزل العمدة، السجن، الكتاب حيث حفظ شحات القرآن عندما كان صغيرا، وتوجد أيضا المقابر حيث دفن عبد الباسط، ثم منازل كل من فاروق، الشيخة داية، فاتح، لمعى ومقهى عبد اللاه. الآن وتحت أشعة الشمس الحارقة، لا يعثر المرء على أى مظهر من مظاهر الحياة، كما لو أن الكوم قد هزمتها الحرارة. على يمين الكوم توجد بقايا الحصون الجرانيتية لمعبد رمسيس الثالث وكذلك الهضاب التى تظهر فى الخلف وتحت هذه تمتد سلسلة لا تنتهى من أشجار السنط والأكاسيا التى تمتد على طول الترعة والتى تخفى منزل شحات المبنى بالطوب اللبن.

أحيانا يذكر رجال المدينة أن كل قرية فى مصر هى شبيهة بزميلتها، لكن بيراط هى الكون كله فى نظر شحات، فالحقول ذات المنظر البانورامى المحيطة بها، وسنباط القديمة مع الكوم ، جميعها تعتبر قلب بيراط، وحولها تناثرت عشرة نجوع بأهلها المغرقين فى القدم، كونت فيما بينها جميعا تلك القرية العملاقة. خمسة من تلك النجوع اشتقت أسماؤها من جدود بعض من سكانها الحاليين، فنجد هناك: لوهلة، عزوز، توت، عزية، بالإضافة إلى التجمع المسيحى الوحيد وهو نجع باسيلى.

النجوع الخمسة الأخرى سميت على أساس خصائص مكانية وهى: القطر، السوق، الجزيرة ، الحلفاية وأخيرا قرنة مرعى.

انخفض عدد سكان هذه القرية خلال أيام الحرب العالمية الثانية بسبب الملاريا والكوليرا. لكل هذا فإن بيراط بكل نجوعها لم تعان أبدا من الازدحام الشديد الذى تعانى منه القاهرة أو بعض بلدان الوجه البحرى، حيث تعتبر الكثافة السكانية هى الأعلى على مستوى العالم. فى أيام الزمن القديم، كانت السهول الطيبية أكثر ازدحاما. المعابد الفرعونية كانت تستوعب ثمانمائة ألف من العبيد، وكان هؤلاء سجناء حرب.

نصف سكان بيراط لا يملكون أرضا يزرعونها ، ومن يملكون لا تزيد حيازتهم عن فدانين؛ استثناءا من ذلك لمعى الذى حصل والده من إحدى عمات الملك فاروق على مائتين من الأفدنة قبل أيام ثورة ١٩٥٢ ، الآن وبعد تطبيق قوانين الأراضى الزراعية، يمتلك لمعى مع إخوته خمسين فدانا ويعمل فى أرضه خمسون عاملا زراعيا، يتفوق عليهم لمعى فى الجد والاجتهاد.

فى نظر شحات، كل ما تقع عليه عيناه له طعمه ونكهته الخاصة، وله قيمة ومعنى يفهمه هو. هنا المنارة البيضاء، هناك تجمع عجيب لمجموعة من النخيل، كل حقل يستطيع أن يتعرف عليه بكل سهولة سواء بموقعه بالنسبة للترعة أو بأبياره أو بأشجاره. كل هذه الأمور يدركها شحات بلا وعى أو جهد عظيم، ويحس بها من رائحتها أو صوتها.

بالنسبة له كانت بيراط ليست فقط هى ونجوعها التى تكون مجتمعا متكاملا، وسبعة آلاف من البشر ينتظمون على أساس العلاقات، العائلات، القرابة، الروابط، الحقوق، الالتزامات، العصبيات، العداوات والصداقات، كل هذه أمور مفروغ منها. مع ذلك، وهو يجول بناظريه فى كل هذه الأمور المحيطة به التى اعتادها وتعايش معها، كان يشعر بغبطة سابغة قوامها الرضا والحبور.

فراشة صفراء أخذت ترفرف بأجنحتها بالقرب منه، ثم استقرت على فرع من نبات الحنة. أخذ شحات يحملق فى هذا الفرع، متناسيا كل خيالاته، ثم تملكه شعور غريب، فركع على الأرض مستندا على ركبة واحدة، وركز بصره على تلك المنطقة، ثم بكل بطء رفع الفرع بيد واحدة، وثنى الفرع الآخر، ثم فجأة نفخ أمامه، وخبط يديه قاصدا الإمساك بشىء واقف فوق الفرع.

صاح بفرح وبهجة أيام الصبا، "يا راجل". فتح يديه ووجد بداخلها جعران كبير، ومتخيلا أن هذه الحشرة قد يسرها ما قد يفعله بها، أخذ يربت على ظهرها الأصفر والأسود ويتحسس شواربها. كطفل صغير، كان شحات يصنع عجلات من لب نبات الذرة، ثم يثبت فيها جعرانا وذلك بثقب غطائها الخارجى بشوكة سنط. الحشرة وهى تجاهد للتحرر، تفرد أجنحتها وتطير بكل ثورة فى دوائر، وبذلك تدور العجلة كما تفعل البقرتان فى الساقية. أحيانا كانت خنفسة تحقق نفس القصد من هذه اللعبة،

بل وتستمر فى الدوران لساعات أطول؛ ولا يملّ أطفال القرية أبدا من تكرار هذه اللعبة. حرر شحات هذه الحشرة، فطارت سريعا محدثة صوتا واضحا؛ مماثلا لقدماء المصريين الذين صوروا الجعران على جدران معابدهم، كان شحات يعتقد أنها كائنات مقدسة ومبروكة.

استعدادا لتحميل العلف الذى جمعه، أخذ شحات يحملق فى الماء السارى المتدفق من طلمبة الرى، ثم قال بصوت عال، "يا ربنا، دا أنا لو لقطت البلهارسيا، حانام فى المستشفى يمكن شهر والا اتنين!"، مع ذلك وضع فمه بشكل آلى فى الماء الجارى وأخذ يبلع قدرا كافيا ليطفئ عطشه، ثم، وقد تحقق له ذلك، أخذ يرشف الماء بتأن، حتى سرت البرودة التى يحسها فى فمه داخل سائر جسده، أما ملابسه، فقد أصابها قدر لا بأس به من الماء.

فى تلك اللحظة سمع غناء خفيضا، فى مكان ما، بعيدا تماما. كان هو صوت فتاة يتناغم مع الأزيز الصادر من حركة دوران ساقية.

"يا لوبلى ى ى، يا لوبلى ى ى"

حبس شحات أنفاسه. أخذ يتسمع وقد تعرف على الصوت. خلال أعواد الذرة الطويلة، أخذ الصوت يميل مرة إلى جهة اليمين وأخرى جهة اليسار، أحيانا يسرى فى الهواء أو يبدو كأنه صادر من جوف الأرض، كما لو أن هناك جنيا خفيا له دور فيما يحدث. فى غنائها، كانت المنشدة

تحث أحدهم بتصديق أنها لا يمكن أن تلام أبدا، وبكل ما تملك من عاطفة، تود أن تحيا وتعيش. هى ما زالت صغيرة ومغرمة به، وسوف تكون جميلة وريحانة لولا هذا الحر الشديد، الريح الصحراوية الجافة، العمل الشاق الذى لا نهاية له. إنها لا توجه لوما لأحد، لكن تطلب السماح، تعانى ألما ووجدا، تأمل فيمن يرحمها ويأسف لحالها...

"يا اللى ورا بحر النيل، خد بايدى، خد حبى وقلبى..."

إنها ليست سوى سنية. أخذ شحات يصغى لحدائها فترة طويلة، فجأة أصبح الحقل الذى افتقد نسمة الهواء، أكثر حرارة وسكونا وقسوة، ثم أخذ يدندن بصوت عال كأنما يريد أن يغطى على صوتها، ثم انتصب ووضع ملابسه خلفه، ثم لاعنا حماره، حمله بربط العلف. ما أن وازن الأحمال، حتى قفز على ظهره أيضا وأمره بأن يسير، "اطلع، اطلع".

عندما وصل إلى حدود طريق العربات المجاور للترعة الرئيسية التى تمر خلال سنباط، أخذ يحملق خلال شراشيب نباتات الذرة حيث توجد سنية، رآها بملابسها السوداء جالسة بجوار الساقية تحت بعض النخيل على طرف الحقل. الساقية كانت تدار بواسطة بقرتين لونهما بنى، وكان واضحا أن من كان يغنى هى سنية نفسها. أثناء مروره، لاحظ أنها فكت إسار البقرتين وانهمكت فى سقيهما الماء، لم يكن متأكدا إذا كانت قد لمحته أم لا، ثم أتت بعض الأشجار حجبت عنه منظرها، ولم يعد يراها.

تذكر وهو يسير كيف أنه بحلول شهر أغسطس من كل عام، كان النيل سابقا يفيض على الجانبين، وكانوا يصيدون سمك القرموط الصغير ويضعونه فى ساقية عبد الباسط القديمة. فى الربيع، عندما ينخفض مستوى الماء، يذهب هو وسنية إلى الساقية، ويرقب السلسلة الطويلة من الجرار التى ثبتت على عجلة خشبية أفقية وهى تغطس عميقا فى البئر، ثم تمتلئ ليس فقط بالماء، بل بأسماك القرموط الكبيرة. يمسك بها شحات، وتقوم سنيه بتنظيفها، ثم تشعل نارا وتشويها بدون ملح. هناك بجانب الطريق المجاور للترعة ، يجلسان سويا ويتمتعان بوليمة سرية ممتعة. كان هناك حطام لعجلات فرعونية خاصة بجلب المياه وجدت مدفونة فى أرضية المعابد، ومرة شعروا بإثارة بالغة عندما لاحظوا وجود بعض الرسوم المنقوشة على إفريز حجرى يمثل سمك القرموط، قالت سنية عندما شاهدت تلك الرسوم، "يظهر إننا أخدنا منهم كل حاجة كانوا بيعملوها"، بعدها أطلق عليها شحات اسم الفرعونية، وهذا كان يغيظها ويفرسها. تذكر أيضا أن سنية فى صباح أحد الأيام، وهى ترقب بزوغ الشمس التى تغمر الهضاب الشرقية، أنها قالت، "الأرض كلها مبسوطة من الشمس، وبتقولها متشكرين!"

الآن، هناك القليل من الناس الذين يستخدمون السواقى، وقريبا سوف تلد سنية طفل رجل آخر. بدأ شحات فى ترديد نفس اللحن الذى كانت تشدو به سنية، لكن بكلمات أخرى كان قد ألفها سابقا، ليعبر بها عن حبه لها عندما كان يجهد نفسه ليلا فى تشغيل ساقية أبيه.

أوه، أوه، يا بنت يا حلوة يا مبسوطة
دلوقتى انتى نايمة، وأنا الفقير
عمرى ما اعمل لاجل المال، دا انا المختار.
يا بنت، يا للى كلك حلاوة وشهد،
تعالى وطلى على بالليل
شوفى معايا النجوم اللى مالية السما
بصى جوه عينيا،
ده بير ما له قرار
لأجلك، نسيت صحابى، كمان بقرتى
اللى دايره طول الليل
دى مش عايزه منى غير البرسيم
أنا غلبان يا بنت يا نعسانة وفى جيبك المال
لكن انا إنسان حر
وانتى نايمة وكسلانة ولا حاسة بحاجة
ما تيجى وطلى على وقت الليل...

التجمع المسيحى الوحيد فى بيراط، هو نجع باسيلى يقع جنوب غرب القرية على حافة الصحراء. ولأنه بعيد عن النيل، لذا تعتبر أراضيه الزراعية فقيرة للغاية. باستثناء مترى وبعض القساوسة، نجد أن معظم المزارعين فيه لا يملكون سوى فدانين من الأرض أو أقل. كانت باسيلى تلك هى مقر المسيحيين، ويقال إن هذا حدث منذ بداية انتشار الديانة المسيحية أيام قدوم القديس مرقس إلى الأراضى المصرية. كان مستقر كنائسها البيضاء بعيدا فى الصحراء، واستخدمت منذ أجيال مغرقة فى القدم، قد تمتد إلى أيام حكم الرومان لمصر. العائلات القبطية فى باسيلى منعزلة وعلى فطرتها منذ قرون عديدة، وتعتبر من أكثر الناس جهلا وفقرا بالمقارنة بباقى أهالى بيراط.

يوما، كان شحات يمر فى الطريق المجاور للترعة المارة بنجع باسيلى، عندما سمع صيحات غاضبة. ثم رأى زكريا، وهو مزارع مسيحى، يجرى نحوه ومعه فأس يرفعها عاليا فوق رأسه، وتتبعه امرأة عجوز وولد صغير يصيحان من ورائه، "لا، انت ما تقدرش تسد الميه اللى بتروى زرعنا!"، يلتفت زكريا ويرد، "أنا زيكم دافع، وأرضى جنب الترعة، أنا اللى لى الحق أروى الأول. صاح الولد، "والله ما تقدر"، ثم لحق بزكريا ورفع أيضا فأسه كأنه سوف يهم بجز رقبته. رد زكريا، "لا. أنا أقدر، واقدر كمان، يا ناس الدرة عطشانة وحتموت!". قالت السيدة العجوز، "استنى لما نخلص رى أرضنا، بالعافية أو الذوق حناخد نصيبنا".

تعرف شحات على المرأة العجوز، إنها زوجة عم زكى، وهو مسيحى آخر متواجد حاليا فى القاهرة يعالج من إصابته بالسل.

حرك زكريا فأسه فوق رأس الولد، "حاضربك ! امشى بعيد. مستعد أدخل السجن بسببك". رد الولد: "حاقطع راسك يا زكريا". أخذ الولد يرتعش والعجوز تصرخ. أدار زكريا ظهره وأسرع بخطوات متعجلة واسعة تجاه الترعة وبدأ فى إزاحة الطين من السد، جرت خلفه زوجة زكى وهى تنهج، بينما استقرت طرحتها فوق كتفيها.

"أنا مش حاخليك تاخد المية بتاعتنا، يا ابن الشيطان!"

"يا ولية، خليكى عاقلة وبطلى جنان"

ما أن أحس شحات بإمكان حدوث مشاكل حقيقية بينهم، أسرع نحوهم يتبعه بعض الفلاحين الآخرين الذين كانوا يحرثون حقلا مجاورا. فى الحال، بدأ الجميع يتصايحون فى وقت واحد، ولعن كل من الأمهات والآباء من كلا الجانبين، وترددت صيحات متعددة مثل، "يا ابن الكلب"، "يا خنزير"، "يا حمار"، "يا غبى". أخذ كل من شحات والآخرين يهدئون الموقف بترضية كل من الطرفين، "معلش، سماح المرة دى". لكن عندما وضح تماما أن الضربات آتية لا ريب، لاحظ الجميع أن زكريا والمرأة العجوز والولد انتحوا مكانا بجوار الجسر وجلسوا بجوار بعضهم، وبدأوا يتحدثون فيما بينهم بكل هدوء، كأن شيئا لم يحدث بينهم،

أو كأنهم هم المشاهدون لأحداث تجرى أمام عيونهم. قالت امرأة زكى، "المرة الجاية، لما الحاج عبد المطلب يدينا الميه، لازم كل واحد ياخد وقته بالتمام والكمال، وبعدين التانى ياخد دوره، لكن مش بالشكل ده، خناقات وضرب، دا مش كويس خالص يا زكريا".

أمن زكريا على كلامها، وأضاف بنفس الأسلوب المهذب، "دا أنا قعدت تلات أيام منتظر دورى، الحاج بنفسه قاللى أبتدى أروى، والعامل بتاعه بنفسه نده على وقاللى أبتدى أروى". شرح أحد الجيران الموقف لشحات، " لمدة ثلاثة أيام، الميه كانت شحيحة خالص، إحنا قلنا للحاج عبد المطلب اكمنه هو اللى بيملك المكن، إننا كلنا بنتخانق بسبب الميه، وهو السبب. مش بيخللى الميه تجرى بسرعة فى الطلمبات، دا راجل جلدة، عشان كده الميه جاية بالسرسوب وما حدش بياخد نصيبه كفاية، وكده تحصل الخناقات. قلب الحاج عبد المطلب ده أسود غطيس".

قال شحات وهو جالس على الجسر يعفر سيجارة ويعزم على جيرانه، "دا راجل غنى وبيموت فى الفلوس، امبارح بس، جات بنته نادية لدكان عم برشومى عشان تشترى ربع كيلو طماطم ودفعت أربعة صاغ، لكن لما رجعت بيها لأمها، اشتكى ابوها وقال انهم غاليين، وخلاها ترجع بيهم تانى".

تنهد زكريا قائلا، "دا بيكنز فلوسه تحت البلاطة"

قالت زوجة زكى، "بيخاف يا خويا يحط فلوسه فى البنك، لبعدين تعرف الحكومة قد إيه هو غنى، وتقوله ادفع ضرايب".

استمر شحات فى روايته، "وبعدين حضر لدكان برشومى الواد "العزب"، ما انتو عارفينه قد إيه هو فقران وكحيتى ومضطر انه يشتغل فى أرض الحاج، قام العزب اشترى بطاطس وطماطم تمنهم خمسة واربعين قرش، لكن هو دفع خمسين قرش. خمس قروش بحالهم اعتبرها بقشيش".

قالت العجوز، "هو دا الحاج عبد المطلب، ومش حيقدر يغير دمه"

" كل يوم، كل يوم .. أنا فى رأيى الساقية أحسن ستين مرة من المكن يا شحات، الميه اللى طالعة منها سخنة، وممكن تستحمى بيها كل يوم، أنا عارف الساقية دى من أيام أبويا وجدى، باشتغل عليها طول النهار، من الفجر للمغربية".

قال شحات، "إحنا فى الصيف بنشغلها بالليل"

"أحسن طبعا تشغلها بالليل"

"وكمان لازم نغنى واحنا بندورها"

"أنا لسه باعمل كده حتى اللحظة دى. ربنا يصبرنا. أرضى كلها عبارة عن رملة. ما ينفعش يتزرع فيها غير الطماطم، البطيخ والفول. بس اعمل إيه يا رب. دول تمن عيال والتاسع فى السكة"

ضحك شحات، "الستات الأيام دى بياخدوا حبوب عشان ما يخلفوش، الناس دلوقتى مخهم فى راسهم ولازم يعملوا كده عشان يمشوا الحال، ازاى انت قادر تعيش التسعة دول؟"

قال زكريا، "أرضنا يا شحات كويسة خالص، بس إحنا اللى كسلانين. ما عدناش نخدم الأرض كما يجب. المفروض الحكومة تساعدنا أكتر. دا انت لو دورت على شوية نتروكيما دلوقتى ما تلاقيش. المفتش يقولك تعالى الأسبوع الجاى. إذا ما كانش معاك فلوس تشترى من السوق السودة، يبقى انت رحت بلاش. أيام ما كان لسه فيه فيضان، عمر ما الأرض احتاجت للنتروكيما ده".

قالت زوجة زكى، وقد نسيت تماما الخناقة، "كلام زكريا كله حكم"، وافق شحات على كلامها قائلا، "أيوه كلامه صحيح، الأرض بتبقى ضعيفة، بعد خمس سنين يمكن ما يتزرعش فيها حاجة "، ثم أكمل ضاحكا، "انشالله الدنيا كلها تموت! ".

قال زكريا مبتسما، " أنا لاحظت إن زرعة الحاج عبد المطلب مش تمام. ضحك شحات، "دا مش عايز يصرف قرش من جيبه، عايز الزرعة تطلع سكيتى كده لوحدها، عشان كده هو غنى، أنا سمعت انك يا زكريا لما بتروح الكنيسة بتملا جيبك من العيش اللى بيعملوه هناك عشان تأكل عيالك".

ترك شحات جيرانه المسيحيين وهو سعيد ومنشرح، وتوجه إلى منزله متتبعا الطريق المجاور للترعة. كان ماء هذه الترعة يعكس لون زرقة السماء، وبدت المياه فى ذلك الحر الخانق كأنها تدعو الجميع ليسبحوا فيها. تخلص شحات سريعا من ملابسه، وهبط حتى مستوى الماء، ثم قفز.

كانت مياه الترعة باردة منعشة. أخذ يعوم تحت الماء لفترة، ثم بلبط هنا وهناك.عام على ظهره وهو يغمض عينيه شاعرا بسعادة غامرة. بعض الأولاد الصغار، كانوا يلعبون بجوار مسجد الحاج عبد المطلب رأوه فأتوا جريا وبسرعة خلعوا ملابسهم وقفزوا فى الماء وهم يطلقون صيحات مرحة. حالا أصبحت الترعة الهادئة مجالا للصيحات والقفزات والغطس، وأخذ شحات في مطاردة ولدين صغيرين عوما، هما ولدا عمرو، مؤذن القرية، الذى يؤذن فى الجامع خمس مرات فى اليوم داعيا الناس للصلاة. استمر الأولاد فى الصياح والحبور وهم يمثلون كأنهم سوف يغرقون، ثم طاردوا شحات محاولين الإمساك بقدميه لتغطيسه وإغراقه.

أخذوا يصيحون، "امسكوا شحات، طبوه"

زاغ منهم شحات وهو يضحك سعيدا، غطس فى المياه الطينية ولمس قاع الترعة ثم ركل برجليه وظهر مرة أخرى على السطح. وبدأ فى الطرطشة والغطس والنفخ فى الماء لعمل فقاعات. فتح عينيه ليجد الشمس تفرش ضياء باهرا وتركز بكل قوتها على وجهه،

بدت أولا كإشعاعات مبهرة، ثم كمواضع متنقلة تتراقص أمام عينيه. وليستفيد بقدر الإمكان من برودة الماء، نام على ظهره وأخذ ينثر الماء على جسده، ثم عمل حركة بهلوانية وعام على جانبه، ثم على بطنه. الذرة على الجانب الآخر من الترعة تلألأت كالذهب تحت ضوء الشمس المنحدرة، الرمال أيضا برقت بلون ذهبي؛ أما حافتا الترعة فإنهما كانتا كثيفتين بالأعشاب الخضراء، ومئات من القواقع الخضراء البنية تتأرجح أعلى وأسفل سطح المياه.

سمع بعد ذلك صوتا غاضبا، التفت ليجد عمرو - رجل ضئيل الحجم، قفطانه مرفوع إلى أعلى حتى وسطه، بينما جيوب القفطان السائبة مدلاة على سيقان عظمية نحيفة - واقفا على الكوبرى وهو يحرك يديه هنا وهناك ويصب لعناته على ابنيه. الولدان، وقد تملكهما رعبا قاتلا وهما ما زالا فى مياه الترعة، أسرعا بالخروج من الماء، بدون تجفيف، أسرعا بارتداء ملابسهما. زعق الأب، "ليه نزلتوا الترعة؟" وذلك بنفس النبرة الحادة التى يدعو بها المؤمنين إلى الصلاة، "أنا مش قلت لكم اوعوا تنزلوا الترعة لبعدين تاخدوا بلهارسيا، مش انتو بتقروا كتب؟ وحافظين القرآن؟ خلاص إذا ما كنتوش عايزين تقروا كتب أو تحفظوا قرآن، من بكرة تنزلوا تساعدونى فى الغيط!"

أخذ الولدان فى التحديق فى الماء بدون النطق بحرف، هذا زاد من غضب والدهما، لذا أسرع وأمسك برقبة أحدهما وأخذ يضربه

بالصفعات، ثم التفت ليبدأ فى ضرب الآخر. بأصوات ضارعة، أخذ الصبيان يرجوانه أن يتوقف، ويعدانه بأنهما لن ينزلا الترعة مرة أخرى. ما أن سمعت أمهما تلك الجلبة، حتى أسرعت نحوهما وهى تقول، "ويعدين بس، يا رب صبرنى"، لكن ما أن رأت مظاهر الغضب المرتسمة على وجه زوجها، بينما الولدان منهمكان فى البكاء، غيرت من لهجتها فورا وطلبت من عمرو أن يسامحهما، "دول خلاص مش حينزلوا تانى، سيبهم المرة دى يا راجلى، عشان خاطرى".

حدج عمرو الولدين بنظرة حادة، "عشان أمكم اتكلمت، أنا حاسيبكم المرة دى، دلوقتى على البيت طوالى، امسكوا كتبكم وذاكروا"، ثم أهدى كل منهما قلما على صدغه، فعاودا فى النحيب مجددا، وأصبح وجهاهما مبللين كما كانا عندما خرجا من مياه الترعة، ثم جرى الولدان نحو منزلهما. عمرو هذا، هو إنسان جاهل مثل الآخرين، يمتلك فدانين من الأرض، لكنه يكن للتعليم احتراما هائلا. بتضحية كبرى استطاع أن يرسل ابنه الأكبر "شمس الدين" إلى معهد تجارى فى أسوان ليدرس المحاسبة. عمرو هذا رجل متدين ومستقيم للغاية.

شحات - وكان قد خرج من الماء وارتدى ملابسه -، أتى وحيا عمرو بالأسلوب المعتاد عند القرويين. ابتدأ عمرو فى الشكوى لشحات، الذى اعتبره خبيرا فى شئون الحياة، بأن ابنه شمس الدين قد حضر إلى المنزل اليوم قادما من أسوان يقول بأن والده لا يرسل له مبلغا كافيا

ليعيش بعيدا عن بلده. قال عمرو بأنه كان قد أرسل له مبلغ خمسة جنيهات، لكن ابنه لم يتسلمها. فخدمة البريد كما هو معروف بطيئة للغاية. قال أيضا إن شمس الدين يده "فرطة" فى موضوع الفلوس، وإنه يذهب للسينما " ليلاتى".

ضحك شحات، "لا، ده بس يمكن بيحب واحده من بنات أسوان".

عندما يوجد شمس الدين في منزله، يرى دائما جالسا تحت نخلات أبيه. هناك وجده شحات بالفعل، وجهه شاحب، ونظرة كاسفة تكسى وجهه الشاب. ما أن تصافحا، ألقى على شحات نظرة ناقدة، كأنما يود أن يقول له، طالما إنك يا شحات لا تجد غاية سرورك سوى فى القفز فى مياه الترعة، والتنكيت على الناس، أو التسكع هنا وهناك، فإنك لن تفلح. شمس الدين يشغل وقته دائما بتلاوة القرآن الكريم أو القراءة فى أى كتاب نافع.

من النادر أن يحضر شمس الدين إلى قريته هذه، لا يأتى سوى أيام الأعياد الكبرى أو عندما يعوزه المال، بالرغم من أن أسوان لا تبعد سوى ثلاث ساعات يقضيها فى القطار. مع ذلك، هو كثيرا ما يبعث برسائل لعائلته يكتبها بخط جميل منمق على ورق أبيض ناصع من ورق المدن. هذه الخطابات مليئة بتعبيرات لا يستخدمها شمس الدين أبدا فى حواراته المعتادة: " أبى العزيز أنت وأمى، إننى فى أشد الحاجة إلى مدد كاف لكى أتمكن من الوفاء بحق الدراسات الإضافية المستفيضة

التى ســوف تنمــى مهاراتى كثيرا لأصبــح يوما سكرتيرا تنفيذيا!"، فى نهاية كل خطاب ، وبأجمل خط ممكن، يبدو توقيعه وتحته يكتب "أسوان – المعهد التجارى". كانت هذه الخطابات تقرأ عدة مرات، حتى الجيران يستمعون إلى فحواها. عمرو وقد غمره الفخار يقول، "شوفى بقه يا مراتى، إحنا فعلا ضحينا عشان نبعت شمس الدين للمعهد، شوفى بقه الحال أصبح إيه، أصبح للولد شان وشنشان!".

شمس الدين هذا، هو ضمن خمسة أولاد فى بيراط التحقوا بالمعهد فى أسوان، وهذا ما لم يخطر على بال أهاليهم فى عصرهم. مع ذلك، هو لا يحس بتجاوب كامل مع شباب القرية أمثال شحات ولا يستمتع بصحبته أو بنكاته. كل اهتماماته هى التبحر فى دراسة الدين الإسلامى لأنه إنسان تقى ورع. هو يقرأ القرآن يوميا بصوت عال كما يفعل مولانا. الكثير مما يقرأه لا يفقه معناه، لكن الكلمات المقدسة كانت تسيطر على مشاعره وتلهب خياله. نقيضا لملابس شحات القديمة الممزقة وقدميه الحافيتين القذرتين وذقنه السوداء، كانت ملابس شمس الدين أنيقة ونظيفة، دائما ينتعل صندلا فى قدميه، يحلق ذقنه كل صباح.

إنه يتتبــع الوصايا القرآنية بكل دقة وحرفية، لا يذوق الخمر بتاتا، لا يقــامر، أو يستخدم اسم الله بخفــة كما يفعــل شحات وأصدقاؤه. هو يتحدث عن أعداء الإسلام ووجوب مكافحتهم كواجب مقدس أمامه، بالرغم من أنه ما زال طالبا وقد تأجل تجنيده فى الجيش. هو مغرم باقتباس

مقاطع من القرآن الكريم فى أحاديثه، وعندما يبدأ هذا، يبدو الوقار والرقة البالغة وقد كسيا وجهه. شحات يكن قدرا كبيرا من الاحترام لصديق طفولته، لكنه الآن يشعر بالإحراج وهو فى صحبته، حيث يجد نفسه متورطا فى النطق بأسوأ الأيمانات وأقبح اللعنات أمام صديقه، ربما ليظهر له كم أصبح منحطا وخشنا وفظا. كان شحات يحس براحة عميقة عندما يغادر صديقه، لكن هو فى صميم قلبه كان يرغب أن يكون متعلما مثله.

الضحك الشافى

"أخو بهية، اللى هو فاتح، ما انتى عارفاه،حيتجوز بنت عمتى نعمات"

"إمتى ؟"

"بيقولوا الشهر الجاى"

"لا. دا محتمل يحصل السنة الجاية، هو اشترى العفش لسه؟"

"لا لسه"

"يبقى العروسة حتنام على إيه؟"

أخذت النسوة فى التضاحك بينما أصابعهن بكل مهارة تفرط حبات الذرة من قوالحها باستخدام عصا صغيرة، ثم يكسرن القوالح ويلقين بالأوراق التى كانت محيطة بالكوز فى مقطف. أخذن فى تقشير الذرة والثرثرة أيضا بلا وعى. جلسن نصف مدفونات فى أكوام من كيزان الذرة. أم حامد كانت هناك، كذلك زوجة"فاروق وطفل يرقد

على حجرها، أيضا هناك سيدتان أخريان عجوزان، هما أرملتان، كانتا تستلمان سبتا مملوءا بكيزان الذرة كأجر يوم لهما.

أم حامد، تقريبا كانت هذه أول خروجة لها منذ وفاة عبد الباسط. في السابق، حصد شحات الذرة التي تخصهم، وذهبت هي للحقل لكي تساعده، تصنع الشاي، ترسل نوبي وأحمد ليحضرا أشياء ويحملا هذا أو ذاك، تأخذ بالها من عديد من النسوة والأولاد الذين انهمكوا في جمع الحصاد. موجة إثر موجة، حاصدون، جامعون، حيوانات وطيور، يتحركون جميعا في الحقل بينما الذرة يتم قطفها. حضر شحات أولا ومعه ثلاثة أجرية من الكوم، جميعا كانوا يجزون عيدان الذرة من جذورها باستخدام جاروف! بين وقت وآخر كانوا يتوقفون ليضعوا الأحمال على الجمال التي تحمل كل شيء إلى جرن فاروق في الكوم، تبع ذلك الجامعون، هم نساء بملابس سوداء وأولاد أمسكوا بأسبتة وضعت تحت ذراع واحد. ثم تبعهم بعد ذلك قطعان الماشية والماعز تقودها عدد من البنات الصغيرات اللاتي يحملن عصا صغيرة، هن يتقافزن هنا وهناك بجلبة، يطوحن بالطوب على الغنم المتلكئ أو المتأخر. أخيرا ظهر سرب من طيور أبي قردان الأبيض ليتغذى على الحشرات التي ظهرت حديثا. بعد الظهر، وصل العزب ومعه محراث وزوج من البقر ليبدأ في تقليب الأرض وحرثها، لكي يتمكن شحات في أقرب وقت من نثر بذور العدس، فليس هناك شيء يمكن إهداره، حتى الوقت.

نحو الغروب، ظهر فاروق، دفع بسخاء لكل حصاد مبلغ خمسين قرشا، وسمح لكل واحد منهم أن يحمل حماره بقدر جيد من العلف. وصل أخيرا عدد كبير من الجامعين، لكن شحات طردهم وتابعهم بالشتائم واللعنات.

آخر جمل تم تحميله مع بداية حلول الظلام - ربط شحات حملا ضخما من العلف فوق حماره، ثم تبعه باقى أفراد العائلة سائرين على أقدامهم حتى المنزل. كثيرا ما كانت أم حامد تتوقف فى الطريق لتحيى النسوة، ودائما ما تجرى لكى تلحق بركب أسرتها؛ بالها كان مشغولا، وتشعر بالتوهج ونفسها مقطوع، لكن كانت تحس بالرضا الآن، فالحصاد بعد وفاة زوجها قد تم على خير وسلام.

محصول شحات من الذرة كان ضعيفا، أقل من طن واحد من فدانه الوحيد، بينما حقق الحاج عبد المطلب محصولا أكثر منه بقليل. لمعى حقق أربعة أطنان للفدان الواحد، فمن غيره يستطيع أن يستخدم أى قدر من النتروكيما وقتما يشاء؟. يستطيع الحاج عبد المطلب أن يحقق ذلك، لكن هو إنسان بخيل، لقد استأجر جهد أربعة نسوة عجائز يعاون بهية فى تقشير الذرة وتفصيصها، لكنه دفع لهن أقل القليل، وأمكن لشحات أن يستمع لشكايتهن وهو جالس على قهوة شلتوت. حاولن أولا أن يتملقنه، أخذن فى الصياح بصوت عال، "كل سنة وانت طيب يا حاج عبد المطلب! ربنا يوعدك بزيارة النبى، يا راجل يا كريم،

ربنا يزيدك من نعيمه كمان وكمان!"، لكن هذا لم يحقق أمانيهن. سمعهن شحات يقلن، "ربنا يقحمه فى نار جهنم". بعد هذه الواقعة، لم توافق أى امرأة أن تحضر إليه، وأصبح على بهية أن تقشر وتفرط كل المحصول بمفردها وتعمل لوقت متأخر كل ليلة.

على العكس، أم حامد هى الكرم ذاته، فقد وزعت هدايا من المحصول، ليس فقط على السيدات اللاتى ساعدنها، بل على سقاء الماء فى الكوم، الحلاق وفقراء آخرين مروا عليها، إلى أن انتهى بها الأمر أن وضعت فى مخازنها نصف نصيبها من المحصول فقط. عندما انتاب شحات الغضب، أجابت كعادتها أن الله سوف يجزى كرمها وإحسانها هذا بأفضل منه.

زوجة فاروق، ذات الأكتاف البارحة، هى إنسانة محبة لبيتها وطيبة. هى أيضا إنسانة كريمة. كل يوم كانت تحضر للنسوة اللاتى عملن فى منزلها وجبات شهية من الفول الشهى، الكرات، الجبن والبيض الذى كن يتناولنه على الطبلية، يغرفن الطعام من الصحون بقطع صغيرة من العيش. بالرغم من الغبار الذى أثارته كيزان الذرة، إلا أن امرأة فاروق وضعت فى حجرها طفلا رضيعا واهنا حتى أنه كان أمرا غريبا أن يبكى أو ينظر أو أن يعتبر من سلالة آدم. هذا الرضيع كان يرفس برجليه الحمراوين خارج بطانيته، يضحك ويبكى وفى نفس الوقت يعطس ويسعل سعالا جافا كذاك الذى يصدر من صدر رجل هرم.

دائما تجد أطفال القرية يسيرون ويجرون هنا وهناك، شكلهم أغبر، ملابسهم قديمة، ممزقة وقذرة، يبدو كأن الجميع قد أهملهم. عيونهم قذرة، مئات من الذباب تتنافس على العين الواحدة لكل طفل والذى لا يبذل أى جهد لطردها. فى الحقيقة، كانت النسوة يتركن أولادهن فى هذه الهيئة المزرية خوفا عليهم من الحسد! يعتبرن أن غسل عيون الأطفال لإزالة ما يجذب الذباب هو شيء ضار بأطفالهم. فى الحقيقة أيضا، أن القرويين مغرمون للغاية بأطفالهم ويغدقون عليهم كل مظاهر الحب، لكن لديهم خوف غريزى من المرض أو فقد النظر! لكن وفيات الأطفال وفقد النظر أمر متكرر وعادى.

تفريط بنور الذرة استمر خمسة أيام. فى آخر صباح، رفعت أم حامد عينيها لتجد كلا من نوبى وأحمد يقتربان منها مترددين، قالت لهما، "ليه انتو مش فى المدرسة ؟. كان من المفترض أن يستأنفا ذهابهما للكتاب بعد انتهاء موسم الحصاد. عين نوبى كانت حمراء كالدم بسبب البكاء وأخذ يدعكها بكمه القذر. عندما استفسرت الأم عما حدث، انخرط فى بكاء موجع ونهنهة قائلا، "الفقى ضربنى على وشى بالعصاية".

"هو اللى عمل فيك كده؟ يا ربى، وإيه تانى بس!". اكتسى وجهها بمظاهر الجد والحزم، قالت، "ما تروحوش تانى، أبدا ما تخطوها، وتعالوا اشتغلوا معانا، ناولنى يا واد شوية كيزان". ثم أخبرت باقى النسوة، "ولدى نوبى ده ولد ولا كل الولاد، باحب النوبى بتاعى موت،

دا حفظ القرآن كله ما عدا خمستاشر سورة، إذا حفظ الباقى من الممكن يكسب من الحكومة ميت جنيه". ثم تحول فخرها إلى ثورة عارمة، "نفسى كده أضرب الفقيه ده على وشه بالمركوب".

لاحظت أن إحدى النسوة كانت تقشر الذرة بيديها، فنبهتها، "استعملى العصاية يا أختى فى التفصيص، لبعدين صوابعك تنقح عليكى". ضحكت السيدة العجوز وقالت، "باقولك إيه يا بتى، عمرى ما استخدمت العصاية دى، وما فيش حاجة أبدا تأثر فى اليد العجوزة دى". بعد ذلك، استطاعت أن تحول اهتمامهن بأن حكت لهن آخر الإشاعات. تقدمت المرأة العجوز بجزعها إلى الأمام وأخبرتهن بصوتها الحاد المرتفع كيف أن جد بطة ضبط حفيدته مع "التعبان"، فثار ثورة عارمة وجرها جرا إلى المنزل. علقت أم حامد على ذلك، "كل واحد عارف سمعة البت بطة، دى حتخرب بيت جدها".

حوالى الظهر أتى الفقيه إلى المنزل. هو رجل طويل القامة بعين غائرة تدور حولها حلقات سوداء، فهو تقريبا أعمى البصر. كان على صلة قرابة بعيدة بأم حامد، هى تكن له أعجابا عظيما، لكن، ما أن ظهر أمامها حتى تجاهلت كلية تحيته، ثم قالت غاضبة، "مش حابعت عيالى للكتاب بتاعك تانى وانت نازل ضرب وتعذيب فيهم. مش حابعتهم إلا إذا غيرت معاملتك دى". فتح الرجل فمه باستغراب، "دا أنا قريبك يا أم حامد، وباعلم عيالك بذمة وضمير لأنهم زى عيالى تمام".

"أنا بادفع ثلاثة جنيه كل شهر عشانهم، أحسن أوفر فلوسي بدل ما يتعذبوا عندك، وأحسن يقعدوا عشان يساعدوا شحات في الغيط".

أجاب الرجل، "أنا متأسف خالص، بس ولدك نوبي ما قالش الحق. دا واد شقي، دايما يحب يضرب العيابيل التانيين". شرح الفقيه ما حدث وقال إنه انتوى أن يعاقب نوبي لأنه ضرب أخاه أحمد أثناء الدرس مرتين. كما هي العادة في عقاب الكتاب، أمر نوبي أن يخلع صندله ويرقد على ظهره، ثم يرفع قدميه العاريتين في الهواء حتى يتمكن الفقيه من ضربهما، لكنه ما أن بدا في تنفيذ الضربة الأولى، حتى ثنى نوبي رجله، فأصابت الضربة وجهه. تقدم أحمد وتطوع بالقول، "اللي بيقوله سيدنا الشيخ مظبوط"، فحدجه نوبي بنظرة قاتلة متوعدة نظير خيانته.

قالت أم حامد، "صحيح الكلام ده يا واد يا نوبي؟". خفض هذا رأسه إلى الأرض، ثم اعترف بأن هذا صحيح، فرفعت أم حامد يديها إلى السماء، "يا رب صبرني، كده يا واد تكدب على امك!". بعد ذلك، التفتت معتذرة للفقيه، "باقولك إيه، إذا الواد ده اتشاقى تاني، أربط إيديه ورجليه كمان واضرب فيه لغاية ما يبان له اصحاب". عند سماع ذلك، انثنت أطراف فم نوبي إلى الأسفل ودعك عينيه بقبضته، وكاد أن ينخرط في البكاء مرة أخرى. في تلك اللحظة، حضر شحات وهو يقود جملا محملا بالذرة وأخبر الولدين، "هاتوا الجمل التاني نحط السرج فوق ضهره، الجمل ده رجله عرجانة". سعيد بإنقاذه، اندفع نوبي لينفذ المطلوب.

أخبر شحات أمه، "الوقت اتأخر خالص على زراعة العدس، نفسى ومنى عينى زراعته تكون كويسة زى الدرة!". ثم طارت حمامة فوق رؤوسهم، عندما لعنتها إحدى العجائز، ضحك شحات قائلا، "إيه اللى بتقوليه ده، الحمامة دى أخويا! دا هديل الحمام يرد الروح".

أحس شحات بسرور بالغ عندما سمع بما حدث فى الكتاب. هو نفسه كان قد قضى ست سنوات فى الكتاب، يعلم تماما نوع العقاب الذى يوقعه الفقيه على المذنبين. كل الأولاد يجلسون فى دائرة ساحة مفتوحة يحفظون القرآن محدثين جلبة فظيعة. واحد تلو الآخر يتقدم نحو الفقيه الجالس القرفصاء داخل الدائرة وعصاه مشرعة فى يده، وأى غلطة فيما يجب حفظه اليوم، تتلقى عنه ضربة موجعة على يدك المفتوحة.

وعد الفقيه أم حامد أن يحضر فى المساء ذاته ليستمع إلى ما فات نوبى وأحمد من درس اليوم. وصل فعلا قبل المغرب ممتطيا حماره، وجلس مقرفصا بجوار مدخل الدار لكى يلتقط آخر إشعاعات الشمس الدافئة الغاربة. جلس أمامه نوبى وأحمد مقرفصين أيضا وشرعا فى ترديد ما حفظاه بشكل غنائى وجسداهما يهتزان من جانب إلى آخر، لأنه يقال إن هذا يساعد فى التذكر.

جلست أم حامد بقرب الباب، حتى شحات وسماح وقفا خلفها يشاهدان هذا المنظر. كان الولدان يحفظان ما يقوما بترديده عن ظهر قلب، لذا صاحت أم حامد، "يا سلام، يا سلام". لم يوقف الفقيه الترديد

سوى مرة واحدة ليصحح خطأ ما، عندما انتهى الدرس، أخبر أم حامد، "ولادك انهارده أحسن من أى يوم".

ضحكت بسعادة غامرة، وأخبرت الغلامين بتحفظ ضاحك، "مش قادرين ليه تسمعوا قدامى زى ما بيحصل قدام الشيخ، انتو عارفين كل حاجة! نفسى أرمى حاجة ظبطة على عنيكم!"، ضحك الولدان وقد أدركا أنها تتفاخر بهما.

فى تلك اللحظة، ظهر أخوها أحمد قادما من بعيد. ما أن اقترب حتى وقف فى مكانه متجمدا مركزا نظره على ما يجرى أمامه، ثم اندفع فجأة نحوهم منزعجا، "يا رب، سترك"، ثم تخطاهم مندفعا داخل المنزل. ثم توقف وارتسم على وجهه تعبير غبى. صاحت أم حامد، "مالك يا احمد، فيه إيه؟". فتح أحمد فمه كأنه سينطق بشىء ما، لكنه توقف، كأن قدرته على الحديث قد تعطلت تماما، ثم تمايل قائلا، "لما شفتكم كده متجمعين وسيدنا الشيخ وسطيكم، فكرت إن فيه حد مات، عارفين طبعا إن مراتى عيانه، أنا قلت إن هى..."

انفجرت أم حامد ضاحكة واندفعت الدموع من عينيها ووقفت على رجليها غير قادرة على ضبط نفسها.

زوجة أحمد بصحة جيدة على وجه العموم وفى قوة الحصان، لا يعيبها سوى شىء واحد، هو أنها لا تسمع إلا من أذن واحدة.

حدثت هذه العاهة عندما ضربها أحمد بقوة على أذنها تلك فى ثورة غضب، منذ ذلك الحين، أخذ يلوم نفسه على فعلته تلك ويهتم دائما بصحتها. قالت له أم حامد وهى ما زالت مغرقة فى الضحك، "كان نفسى يا اخويا تموت بحق وحقيق وتدخل الجنة عشان هى عايشة معاك!". رد أحمد، "باقولك إيه يا اختى، ما احبكيش تنكتى فى الموضوع ده". يبدو أن أحمد تذكر ما حدث منه فى حق زوجته، وبان هذا على وجهه، مما أشعل درجة ضحك العائلة كلها، حتى بدأ شحات يحس بالاختناق من كثرة الضحك. أدرك أحمد كم كان غبيا، لذا شاركهم الضحك وأخذ يحرك يديه.

جارتهم سعاد، وهى تستمع إلى هذا الضحك الهادر، رفعت حاجبها تعجبا، ومصمصت شفتيها وهى تقول لابنتها بطة، "الله، الله. دول يظهر نسيوا خلاص المرحوم عبد الباسط!".

الجزء الثالث

حب الابن لأمه، حتى بعدما يكبر فى السن ويتزوج، هى أكثر العلاقات وضوحا فى حياة الفلاح المصرى. إذا لم يبد أى احترام نحوها، حينذاك تشعر القرية كلها بصدمة واندهاش... هى سيدة المنزل المتوجة حتى يوم وفاتها.

الأب هنرى عيروط فى كتابه

(الفلاح المصرى)

الجاموسة وعين الحسود

شمس كاملة الزرقة، صباح منعش بارد مناسب للغاية بالنسبة للأسبوع الثانى من شهر مايو. كان شحات يستريح من جهد عمله فى الحقل، يدخن سيجارة وهو واقف على الكوبرى المواجه لمنزل الحاج عبد المطلب، يتحدث مع ابن الحاج الصغير، محمود.

أخذا يراقبان القادم نحوهما ممتطيا حماره، إنه ليس سوى "فاتح" صديق المرحوم عبد الباسط. كان وجهه "مزنهرا" ويبدو عليه القلق. سبب فاتح هذا فضيحة مدوية هزت القرية كلها، فقد أعاد عروسه إلى أهلها قبل أقل من أسبوع من الزواج. فاتح هذا هو الأخ الأصغر للست بهية، بينما عروسه هى نعمات، قريبة أم حامد. كان فاتح هذا مصدرا هاما للأقاويل التى تثار عنه، فهو تاجر المواشى الوسيم ذو الطبع الحامى، ودائما تجده فى حالة عراك مع آخر.

رحب محمود بالرجل، "صباح الخير يا خال"

قابل فاتح هذه التحية بسيل من الشتائم، وصاح فى ابن أخته، "يخرب بيت أبوك، انشالله بيوت الجيهة دى كلها تطربق فى بعضيها!

فين أبوك يا واد يا محمود، نفسي أطبق في زمارة رقبته واخلص عليه، دا راجل غشاش وحرامي وابن كلب. وانت حمار".

ذهل الصبي، ونظر نحو الطريق وهو يتمتم، "هو أنا عملت حاجة؟ أنا ما اعرفش حاجة يا خال".

حيا الرجل شحات، ثم نزل من على ظهر الحمار وتوجه نحوه وصافحه بحرارة، ثم أخذ يشكو من الحاج عبد المطلب، قال إنه دفع له المعلوم ليسمح له بري حقله المزروع بقصب السكر بماكينة الري، لكنه في الصباح اكتشف أن الطلمبة قد سحبت من مكانها، وترك الحاج معلومة مفادها أن الماكينة عاطلة وسوف يقوم بإصلاحها، لكن كيف يتيسر لفاتح أن يروي حقله؟

رد عليه شحات السلام بصوته الخشن بالطريقة التي يستخدمها في مجال التحيات، ثم تبسم ودعا فاتح ليصحبه إلى المنزل ليشرب معه كوبا من الشاي.

قال له فاتح بأنه سمع بأن الجاموسة التي منحها لهم صبحي الصيف الماضي قد ولدت عجل جاموس صغير، وأراد أن يراه، لكنه أضاف بأنه يخشى من مقابلة أم حامد، قال، "انت عارف اني رجعت نعمات لبيت ابوها بعد اربع تيام جواز، خايف لبعدين أمك تلومني. اللي حصل يا سيدي هو إن بعض عدويني سلطوا على واحد وعمل لي عمل

عشان أتخانق علطول مع العروسة، حطوا بودرة ناعمة فى الشاى بتاعى بحيث لما ابص على وش مراتى أشوف قدامى جاموسة، عشان كده بعتها بيت ابوها"، ثم استمر فى الحكى، "يا سلام يا شحات، نفسى الناس دول اللى سحرولى يروحوا كلهم فى ستين داهية ويموتوا وتتخرب بيوتهم! أنا والله باحب نعمات، ومنى عينى ترجع البيت تانى".

أخيرا أقنعه شحات أن يأتى معه إلى المنزل. أخذ محمود الحمار، وبينما هما يسيران على طريق الترعة، طلب فاتح من شحات بأن لا يبيع العجل لأى أحد، "أنا حاديلك جنيه زيادة عن أى عرض تانى، إذا هما دفعولك سبعة، أنا حادفع ثمانية. ويا ريت ما تاخدوش من لبن الجاموسة لغاية ما الشب يكبر شوية".

ضحك شحات، "إذا كانت لازماك من غير فلوس، اتفضل شيل". شحات أيضا كان على وعى بأن أم حامد سوف تغضب عندما يقع نظرها على فاتح. نعمات هذه كانت فى السابعة عشر من عمرها وجميلة، كانت قد تزوجت من قبل رجلا عجوزا غنيا عنده أطيان، لكن فاتح كان قد أغرم بها، فطلق امرأته وحاول أن يخرب زواجها ونجح فى ذلك. بالرغم من كل شىء، عندما فتحت أم حامد الباب، حيت فاتح بحرارة، قالت، "مرحبابك يا فاتح، اتفضل ادخل". هذا هو طبع أم حامد، فهى دائما ما ترحب بالجميع، فضلا عن ذلك، كانت تحس ببعض الفضول بسبب تلك الزيارة الغريبة. عدم ارتياح فاتح، كان واضحا على قسمات

وجهه، قال، "متشكرين يا ام حامد، بصراحة أنا وقتى على كده، بس انا قلت أطل طلة على البطش بتاعكم". احتجت أم حامد، "لا، انت لازم تشربلك كباية شاى الأول، دا واجب العرب، هو انت مش عربى؟ لا. دا انت كمان شيخ العربان كلهم". سايرها فاتح، "وانتى كمان يا ام حامد شيخة العرب، إذا جالك الضيف، لازم تغرقيه من كرمك وجودك، حتى لو شحتى من جيرانك". بدأ الاثنان فى تراسل طويل من نوع تلك التحيات، مما جعلهما يتذاكران الأيام الخوالى عندما كان عبد الباسط ما زال على قيد الحياة. فاتح، وهو مدرك أن عينيه لم تقع على أم حامد منذ وفاة صديقه، أى منذ عشرة شهور، كان يشعر فى داخله بخجل شديد، لذا أعلن بكل وضوح، "لا يا ام حامد، مش حاقدر آخد الشاى". فصاحت وقد قرأت أفكاره، "ليه، هو انت جاى فى عزا والا إيه، لازم تاخد الشاى". امتلأت عيناه بالدموع، "يا سلام يا ام حامد، مش ناسى أبدا الأيام الحلوة لما كنت آجى البيت ده مع أبو شحات، والكلام والنكت والشرب". خوفا من أن ينخرطا فى بكاء حقيقى، تقدم نحوهما شحات، ودفعهما للتوجه إلى الزريبة فى الحال، استرد فاتح مشاعره وعاد ليصبح ذلك التاجر الشاطر. بكل خبرة أخذ يتحسس العجل ،يفتح فمه، يعد أسنانه، يضغط على عضلاته ويحاول أن يرفعه من الأرض. بعد هذا كله تمتم بأن العجل ضعيف، "دا هزلان خالص، أنا أشور عليكم. ماتبيعوش الشب ده دلوقتى، انتو مش بتدوله لبن كفاية والا إيه؟"

تساءل شحات، "ومين قال إن احنا عايزين نبيعه؟" . هو بذلك يحاول أن يجارى فاتح فى أمور البيع والشراء.

"أنا افتكرت كده، لما سمعت عن العجل ده، قلت فى نفسى، لازم يا واد ما يكونش فيه حد غيرك يشتريه. دا انا حتى لو أخذته من غير فلوس، ما اظنش انك تمانع يا شحات". قال شحات بصوت ساخر، "أنا باقول إن تمنه ما يقلش عن خمستاشر جنيه"، ثم رفع يديه علامة التضحية، ثم أضاف، "لكن إذا كان نفسك فى العجل ده، اتفضل".

"خمستاشر ؟ لا بعدين. خليه الأول يسمن شوية، وبعدين اشوف".

صاحبت أم حامد فاتح حتى الباب. بعد سيل متواصل من التحيات المتبادلة، قالت، "بيتنا اتشرف بزيارتك يا فاتح". ما أن بعد الضيف قليلا عن مجال السمع، قال شحات، "خمستاشر جنيه مبلغ كويس يا امه، أنا كنت خايف لبعدين فاتح ينزل المبلغ للأرض"، زمجرت أم حامد، "خمستاشر بس يا واد، لا سبعتاشر. الشب ده نازل يعب فى اللبن عب"، ثم تخيلت أحزان فاتح، فتنازلت قليلا، " أنا حابيع له الشب بأى تمن يقول عليه، دا كان صاحب ابوك الروح بالروح". قال شحات، وهو مدرك طبع أمه التى تندفع فى عمل التضحيات الكبرى، "لا. أنا حاموت العجل ده قبل ما ابيعه بأى سعر زى ما بتقولى".

تنهدت، "زى ما تحب".

يبدو أن فاتح كان مهتما فعلا، لأنه حضر فى مساء نفس اليوم ومعه فاروق. كانت أم حامد قد سنكرت الباب اتقاء شر البرد القارص، كذلك فى وجه فاروق الذى كان يدرك عدم رضاها عن إغراقه فى الشرب. لذا ما أن فتحت الباب لهما، حتى قال فاروق قاصدا إغاظتها، "دى أول مرة أشوف باب البيت ده مقفول، الله يرحمك يا عبد الباسط".

بينما انهمكت أم حامد فى عمل الشاى، أخذ فاتح يتفاخر بمحصوله من الفول، لكنه اشتكى بأن الحاج عبد المطلب قد نظر محصوله، "الحاج فضل يقوللى، محصولك ده أعلى إنتاجية فى الجيهة دى كلها، تانى يوم بالضبط نزلت الأسعار الأرض، لكن الحمد لله على كل حال. اللى كرمنا بيه ربنا، لهفة الحاج عبد المطلب بعينه اللى تفلق الحجر، نفسى أعرف، ليه الواحد ما يسيبش غيره يعيش فى سلام؟".

وهى تقدم الشاى، أخذت أم حامد تداعب فاروق، "فاتح ما دخلش بيتنا إلا عشان يسلم على الشب". ضحك فاروق، "هو دايما مشغول يا أم حامد، لكن هو بيعزكم والله ويحب شحات. انتى ست ولا كل الستات، دا انتى أم الكرم كله". فاروق بأسلوبه اللين وصوته الأجش، يعرف تماما كيف يؤثر فى النساء.

بعد محاورات قليلة، اتفق على أن يتوجه فاتح إلى صبحى فى اللوكاندة ليسمح له بشراء العجل؛ لأنه هو يعتبر مالكا لنصفه. ذهب فعلا فاتح، لكنه عاد بعد وقت قصير قائلا إنه وجد صبحى جالسا مع الحاج على،

ثم أخبر أم حامد، "ولاد العم الاتنين قعدوا يتكلموا بخشم واحد، صبحى عايز يبيع الجاموسة مع ولدتها. قال انه عايز مية وعشرين جنيه تمن الاتنين، وقال انه حيشتريلك بدالهم جاموسة جديدة". صدمت أم حامد من هذه الأخبار، فقالت وهى ساخطة، "لا، ده كداب وغشاش، ده عايز يلهف الفلوس وبس، ده كل ما فى الأمر. أنا عارفه صبحى والحاج على كويس. مش حيكون فيها جاموسة جديدة ولا يحزنون". ظهر على وجهها الوسيم القلق، "أنا بقه مش حابيع الجاموسة. حنجيب منين اللبن والزبدة والجبنة؟ وازاى؟ إذا جات البلد بحالها، أنا مش حابيع. حاقتل أى بنى آدم يقرب على جاموستى. كلام صبحى والحاج على كلام كله شر، خليهم يقولوا اللى عايزين يقولوه".

ما أن رأى مظاهر الحزن المرتسمة على وجهها، أعلن فاتح، "صبحى ده ابن كلب، أنا سمعت الحاج على بيقوله، ازاى تدى العيلة دى جاموسة؟ انت اتجننت والا إيه؟ . مع ذلك كله ما تزعليش. فى يوم السوق، أنا حاجى وآخد العجل واشوف يرمى تمن كام. إذا صبحى اتعرضلى والله لأقتله! انتى لازمك تأكلى عيالك. أنا عمرى ما اخاف من حد. ابن الكلب ده مش محتاج فلوس، عنده بالكوم. انتى اللى محتاجة يا اختى"

تدخل شحات فى الحديث، وقد أعماه الغضب، "إحنا مش حنعمل حاجة بخصوص الجاموسة وولدتها دى. إحنا حنشترى واحدة غيرها.

بس خليهم بقى يدفعوا تمن العلف اللى أكلته، بعدين ياخدوا الجاموسة والعجل"

لكن أم حامد أسكتت الجميع، "بس. بس، اسكتوا! باقولك إيه يا فاتح، أنا القرآن بتاعى محرم على آخد حاجة حد تانى. ما اقدرش اطالب بحق مش حقى. فرضنا إنى أخدت الجاموسة وما سألتش فيه. بيتى حيتخرب طوالى. الضفر الصغير لعيل من عيالى يساوى ميت جاموسة، لكن انا حاطلب من صبحى تمن العلف فى العشر شهور اللى عدوا".

بسرعة، أخذ شحات يحسب تكاليف العلف. إنها سبعة وثمانون جنيها؛ بهذا المبلغ المحترم يمكن لهم أن يشتروا جاموسة جديدة.

اقترح فاروق، "انت طبعا ممكن تكمل التمن بإنك تبيع كام قيراط من أرضك". هو فى الواقع دائما ما يضع عينيه على الصفقات الرخيصة. لكن شحات قاطعه سريعا، "لا. أى واحد يبيع أرضه، يبقى مش راجل".

صاحت أم حامد، "ربنا مش حينسانا، هو اللى بيرزق الكل". لكن أكثر ما كان يؤرقها فى هذا الموضوع هو الفضيحة الاجتماعية بين أهالى القرية، "دلوقتى مش حاقدر أبدا أطلع بالجاموسة برة، خجلانه خالص من نفسى وخايفه من كلام الناس حيقولوا طبعا: لازم شحات

يبيع الجاموسة، شوفوا ازاى ماشى متعنطز وفى جيبه ما فيش حتى مليم أحمر".

فى اليوم التالى، انخرطت أم حامد فى حالة من الضياع والوجوم. رفضت رفضا باتا أن تضع قدما خارج المنزل. إنها لا تحتمل أبدا نظرات الجيران، هى تستطيع أن تخمن بكل دقة ما تتهامس به سعاد والأخريات. تعذبت من كل لفتة من لفتات خيالها، هن يعرفن جيدا مقدار عزة نفسها وأنفها المرفوع على فوق. الآن، هى تحت رحمتهن.

نسيت تماما أن إحساس أخيها أحمد يفوق إحساسها مئات المرات. ما أن سمع بالقصة حتى جمع بسرعة المبلغ المطلوب وتوجه سريعا إلى لوكاندة صبحى.

وسيما، مغرورا وبارد الأعصاب. هذا ما كان يراعيه أحمد عندما يطل على العالم. جلابيبه دائما ما يتم تفصيلها من أفضل أنواع الأقمشة، عمامته دائما بلا عيب يشينها، كاتينة ساعته من ذهب حقيقى. هو يحتقر ارتداء الصندل العادى فى رجليه، لكنه دائما ما ينتعل الأحذية القيمة والجوارب. لا يدخن سجائر كيلوباترا الشعبية، لكنه يختار الأصناف الغالية التى لا تجدها إلا مع أهالى المدن. هو فى الحقيقة، اقتصادى جدا فى تدبير منزله، ويرغم زوجته على مراعاة كل شىء فى إدارة المنزل، ونادرا ما دعا أحدا لزيارته. العذاب الذى كابده فى أيام طفولته وشبابه، والسنوات التى قضاها كرئيس للخفراء فى فندق فخم،

تركته فى حالة من الاحتقار للطبيعة البشرية، لكن تملكته رغبة جامحة فى أن يترك أثرا قويا فى أى مكان يقصده. بمظهره البراق الأنيق، شاربه المشذب جيدا، كتفه العريض وشعوره بأهمية شأنه، نجح تماما فى حياته. أحمد ليس من ذلك النوع من البشر الذين يتركون أهاليهم تتعرض لأى ذرة من الإهانة من أمثال الفاشلين المدعين أمثال صبحى.

فى الطريق، تقابل مع كامل، وهو عامل زراعى متزوج من الأخت الكبرى لشحات - هو دائما ما يسير بجلباب قديم ممزق قذر، يداه دائما ملوثة بطين الحقول، يبدو فى مظهره أكبر من أعوامه الأربعين. كان يعمل بأجر ضعيف فى أرض صبحى - الآن يبدو قلق جامح فى وجه كامل. أخبر أحمد أنه إذا وقف فى صف أم حامد بصفتها حماته، فإن صبحى سوف يطرده من العمل، فى تلك الحالة كيف يمكن له أن ينفق على زوجته وأبنائه الخمسة؟ استمع إليه أحمد وهو متأفف، فهو يعرف أن أم حامد هى التى ترعى أبناء كامل هذا، فهو دائما فى خشية من أن يطالب صبحى بمستحقاته. بالنسبة لأحمد، مثل تلك الشخصيات الضعيفة ليس لها أية أهمية على الإطلاق فى هذا العالم القاسى. أعلن أحمد، "أنا حاقف قصاد أى بنى آدم يدوس على طرف لاختى". بهذا الإعلان قطع على كامل سلسلة شكاواه، ثم أضاف، "صبحى ده لا قريبى ولا حبيبى، ارجع وتعالى معايا". سأله كامل وهو يحاول أن يجاريه فى خطواته الواسعة، "انت تقدر تدفع اللى عايزه صبحى؟ ".

توقف أحمد عن المسير، ورمى كامل بنظرة قاسية مما دعا هذا أن يتأخر خطوتين، "أنا ممكن أضرب بطن الأرض واطلع منها فلوس"، ثم أضاف والفخار يملأ أجنابه، "لكن أنا عندى الفلوس".

عندما وصلا اللوكاندة، أخذ أحمد يحملق فى المبنى مبديا امتعاضه. من الخارج، الحيطان مقشرة، بها صفوف من النوافذ المدهونة بلون أحمر غبى. قباب تزين الشرفة العليا أعلى المدخل، تعطى انطباعا بأنها جزء من قصص ألف ليلة وليلة فى العصور الوسطى، بالرغم من أن الفندق لم يبن سوى منذ عشر سنوات فقط. عندما دخلا الصالة شبه المعتمة التى تستخدم كمطعم وغرفة استقبال، وجدا أمامهما ممرا طويلا يقود من الجانبين إلى غرف خالية تنتظر ضيوفا لن يحضروا أبدا، تعشش فيها العناكب ويكسوها الغبار. أخذت عيناهما تستعرض بكل احتقار المفارش البلاستيكية التى وضعت على الموائد، والأرائك التى رصت على جانب بلون أزرق باهت، الحوائط لها نفس هذا اللون الكئيب. خيل لأحمد أنه إذا أشعل الفرد دستة من اللمبات، فإن الغرفة لن تكون سوى مكان قذر كئيب. توجد أيضا أعمدة تسند الأسقف العالية. صبحى كان قد استأجر فنانا محليا ليزين هذه الأعمدة بمجموعة من الآلهة الفرعونية؛ لكن هذه الرسوم الضخمة، التى شملت شكلا بذيئا لإله الإحليل، أضافت للمنظر العام، جوا هابطا مشوشا.

فى الحال، ظهر صبحى وبطنه الضخمة المنتفخة تبرز من خلال جلبابه الأبيض الواسع. ما أن رأى أحمد حتى أخذ يربت على شاربه الكث الأسود، ثم حدجه بعين حمراء ضيقة كما لو كان يبحث عن خادم ليصب عليه جام غضبه. بغمغمة غير واضحة، أشار لأحمد لكى يتبعه إلى غرفته الخاصة فى الدور الأعلى.

تحدث أحمد بصوت جاف غليظ، مما جعل صبحى يجفل قليلا، "لا. ما اقدرش اتكلم عندك. بدون أى كلام أو حديت، خلينا فى الموضوع اللى أنا جاى عشانه، عايز كام فى الجاموسة والعجل؟" . أراح صبحى جسمه الضخم على مقعد، ثم قال بصوت واثق، "ميت جنيه وعليهم خمسة وعشرين، ودا فعلا مبلغ مناسب".

"عايزك تحدد اللى مفروض أدفعه وبس"

بعد التحديد، وقف أحمد وأخرج من جيبه رزمة من الأوراق النقدية، ثم عد المبلغ المطلوب ورماه فى حجر صبحى. بعدها أمر كامل، "عد الفلوس بدل منه"، ثم قال بصوت رزين لصبحى، "سلامو عليكم" واتجه نحو الباب بدون النطق بكلمة أخرى.

شعر صبحى بالمفاجأة، لذا قام وتبعه حتى الباب وهو قابض على النقود يصيح بصوت عال، "تعالى بس يا احمد، عايز اقولك كلمة واحدة بس، عشان خاطر المرحوم عبد الباسط!".

توقف أحمد قليلا عند الباب، ثم التفت، "طيب انت عايز منى إيه دلوقتى؟ من الأول قلت لك احنا مش حنزود فى الكلام"

"باين عليك زعلان خالص، طب ليه؟"

"على العكس يا صبحى، أنا فى منتهى السعادة. أختى بكده تكون دفعت تمن الجاموسة والعجل. يعنى هى حرة دلوقتى، حرة وبعيدة عنك. إذا كنت راجل بصحيح يا صبحى، المفروض ما كنتش تطالب بالحاجة اللى انت اديتها للناس بخاطرك، أختى دلوقتى تقدر تطلع برا بيتها وتورى وشها للعالم كله". ثم أشار بغضب مما يعنى أن الموضوع ليس فى حاجة لمزيد، وأضاف، "كفاية، كفاية، أحسن نبطل الكلام اللى لا حيودى ولا يجيب، سلامو عليكم"

ترك أحمد صبحى وهو يتهته. هو منظر يفرح كل مشاهد. حالا انتشرت القصة مع بعض المبالغات وإضافة بعض توابل الإثارة إليها، وعم السرور كل من استمع إليها.

فرحة أم حامد بسبب إنقاذها لم تدم طويلا. حضر أحمد إلى بيتها وأفرغ كل غضبه عليها وعلى شحات، "أنا مبسوط ومش مبسوط اننا حلينا المشكلة دى يا اختى، تقدرى دلوقتى تحتفظى بالجاموسة والعجل وتطلعى برة وانتى رافعة راسك قدام الخلق كلها. لكن انا مش مبسوط لإن شحات ده مش راجل أبدا. لسه عيل زى العيايل

اللى اصغر منه، دا بيبذر الفلوس ومش عايز يتحمل مسئولية ويتعبك دايما ويخليكى تبكى".

ما أن سمع اسمه يتردد، حتى حضر شحات إلى المندرة الأمامية؛ بكل عنف طلب منه أحمد أن يجلس، ثم خاطبه بنفس الأسلوب القاسى، "أبوك مات من عشر شهور، مع ذلك ما غيرتش حاجة سواء فى البيت ده أو الأرض. عيلتك مش طالعة لفوق، لا دى هابطة لتحت" ثم التفت ناحية أم حامد، "شحات مش عايز يعمل حاجة مفيدة، أنا تعبت خلاص، وزعلان عشانه ومش عايز اشوف خلقته. بس إيه العمل فيكى انتى يا اختى وعيالك الصغيرين؟ بيتك محتاج مصاريف كتير. عمل إيه شحات عشان يكسب فلوس؟".

فتحت أم حامد فمها لتتكلم، لكنه قاطعها، "وانتى كمان- دايما ترحبى وتضايفى أى حد يحط رجليه فى دارك. مصاريفك كتيرة يا اختى، والزمن غير الزمن. ما عادش الحال زى ما كنتى وانتى لسه صغيرة. أيام زمان، إذا ما كانش فى البيت رغيف، ممكن تطلبيه من الجيران من غير خشا. ممكن تدخلى أى بيت وتاكلى، لكن زمان الناس كانوا قليلين. إحنا زدنا فى العدد مرتين يا اختى، دلوقتى لازم كل واحد ياخد باله من حالته وبس. أنا مش فى مقدرتى انى آخد بالى من عيلتى وعيلتك كمان. بسبب ده كله، أنا حاطق من جنابى".

احتجت أم حامد، "الرب هو الرزاق"

" أيوه طبعا، كل حاجــة من عنده. لكن البنى آدم لازم ياخد باله من مستقبله بنفسه. إحنا ما نعرفش إيه اللى حيحصل بعد خمس سنين من دلوقتى، أو عشـــرة. حيكون وقتهـا الناس بالملايين. باتكلم غلط انا يا شحات؟ وحياة رحمة أبوك تقول الحق"

كان رأس شحات محنيا إلى الأرض، عيناه مغرورقتان. كلمات أحمد جعلته يدرك أكثر من أى وقت سابق بأنه غير قادر أن يملأ الفراغ الذى تركه والده.

ضغط أحمد على كلماته المنطوقة، وقد ضايقه مظهر الدموع التى بدت فى وجه شحات، "الواحد لازم يحب الشخص اللى يبكيه، مش اللى يضحكه"، ثم التفت مرة أخرى تجاه أم حامد، "نفسى شحات يبقى راجل بصحيح، ما يكونش زى ابن الكلب صبحى، مش عايزه يقف قصادهم ويزعق ويقول:أنا حاضربك، أنا حاقتلك ! وهوه ما فيش فى جيبه قرش صاغ".

وقف شحات يجــول فى الغـــرفــة ممسكا بقطعـة ملابس يهش بهـا الذباب، لذا رفع أحمد من درجة صوته، "انتو ليه سمتوه شحات، هــو فعــــلا زى الشحــاتين. الشحـــات ياخـــد منـــك الفلـوس وبعـدين يبـص عليـك كـأنـه عايز يقولك أنا سيدك، لكن ازاى الديك يقدر يكاكى وبطنه فاضية؟"

خرج شحات إلى فسحة المنزل وضغط وجهه إلى الجدار الطينى، لم يستطع أن يضبط حزنه، قال فى نفسه، "أنا مش ابويا، وعمرى ما حاكون زيه. أنا هو انا، شحات. مش واخدين لبالهم ان ابويا راح لحال سبيله ومش راجع تانى؟".

ما أن استطاع شحات أن يتمالك نفسه، حتى رجع إلى المندرة. كان أحمد يصف ما حدث فى لوكاندة صبحى، "إذا كان صبحى نطق بكلمة واحدة غلط، والله لكنت خلصت عليه! وأخد فيه خمسة وعشرين سنة سجن!"

ثم انتقد أم حامد لأنها لم تعط صبحى العجل فى الحال، "العرف بيقول إن أول ولدة تكون ليه، بعد كده كان ممكن تبيعى الولدة الثانية فى السوق وتقسموا بينكم تمنه، انتى عارفه كده والا لأ؟".

قام أحمد ليغادر، احتجت أم حامد ومسكت فيه ليشرب الشاى، لكنه رفض وقال بصوت خشن، "يا اختى، البيت ده مبنى على الغلط والأبهة الفاضية. الواحد لازم يواجه الحقيقة، لكن انتى وشحات عايشين فى الأحلام. انتى بتصرفى كل اللى يجيلك، ولما يقع المحظور، تحتارى وما تعرفيش تتصرفى". ثم عندما وجد أن أم حامد بدأت فى البكاء، خفف قليلا من لهجته، "على أى حال، انتى اختى وأنا لازم أقف جنبك".

كان واجبا أن تحط أم حامد برجلها وتلامس الأرض بين الحين والآخر. بالرغم من دموعها التى انهالت مدرارا، علمت أن أحمد كان يتكلم بالحق، لكن بعد دقائق من خروجه، أخذت تكون فى ذهنها صورة وردية لحياتهم بعدما تتغير وتتبدل. لم يخطر على ذهن أم حامد أو أحمد أن الناس نادرا ما تتغير طباعهم، وأنه ليس من المناسب أن يتوقعوا الكثير من شحات. لقد خلق هذا الشاب ليحقق الكثير بالمقارنة بأمثاله، بالرغم من أخطائه وهفواته. عليهم أن يتقبلوه كما هو، أو أن يفقدوه للأبد.

فى نفس اليوم التالى، توقفت الجاموسة عن إدرار اللبن، وأصبحت على هذا الحال لمدة ثلاثة أيام، هنا أخبرت أم حامد شحات، "لازم ندور على طريقة نغذى بيها البطش، ما فيش حاجة بتنزل من ضرع الجاموسة غير شوية سرسوب، وكمان طعمه حامض".

التجأت أم حامد للأخذ بنصيحة كل من تقابله. زوج ابنتها كامل أخذ يندب حظه كالمعتاد،" إيه اللى نقدر نعمله ؟ أنا تعبان وانتى تعبانه. إحنا بنشحت من اللى خالقنا، لكن هو ساعات مش بيدى. ربنا حر يدى أو ما يديش. إحنا مخلوقاته".

قال العزب بأن الجاموسة ربما أكلت كمية كبيرة من البرسيم الأخضر، وسوف يتحسن حالها بعد يوم أو اثنين.

بهية كانت متأكدة أن فاتح قد نظر الجاموسة وحسدها، "صحيح هو اخويا، لكن انتى عارفة قد إيه هو بياع بهايم شاطر، دايما تقولى لى بإنك ست شاطرة وفهيمة، لكن انتى بصراحة ما تعرفيش حاجة. أقول كمان إن ضرس العقل لسه ما خضرش فى اسنانك. خليتى ليه فاتح يدخل الزريبة بتاعتك؟ ما حدش غريب أبدا يشوف الولدة، سواء كان إنسان أو حيوان حتى".

عاتبتها أم حامد، " يا سلام يا بهية، الأيام اللى فاتت دى، أنا كنت غرقانة، ومش عارفه راسى من رجلى ".

"أيوه فعلا. دا حتى وشك لسه أصفر. باقولك إيه يا خيتى، انتى تبعتى لفاتح دلوقتى ييجى، وبعدين انتى تشاغليه بالكلام، ييجى ولدك شحات أو عيل من عيالك الصغيرين يحبى وراه، وفاتح مش واخد باله، يقطع حته من جلابيته. بعدين نخليه يعرف إيه اللى حصل، قوم هو يزعل ويتعفرت. ما يهمكيش. بعدين تحرقى حتة القماشة وقت صلاة المغرب".

"لا. لا، ما اقدرش اعمل حاجة زى كده"

"طاب باقولك إيه، انتى تبعتى لفاتح. وبجودته أو بغيرها، ارفعى جلابيته لفوق، وقوليله يشخ على الجاموسة، دى الطريقة الوحيدة يا ام حامد".

انزعجت أم حامد بشدة من هذا الاقتراح، "لا. لا يا بهية، إحنا لازم ناخد فى الاعتبار نفسيته. ما عنديش غير انى أروح للشيخة داية فى الكوم".

"ليه بس تصرفى فلوس؟ بس لازم عليكى ما تخليش فاتح يبص على البطش تانى، إذا ما عملتيش كده، أنا بنفسى حاجيبه واخليه ينفذ اللى قلتلك عليه. انتى طبعا محتاجة للبن، مش كده؟ هو انتى يعنى غنية؟ عندك عشر فدادين؟"

"إذا فاتح شاف شحات وهو بيقطع حته من جلابيته، حيزعل خالص. انتى عارفة ان ولدى طبعه حامى. حيتخانقوا مع بعض. لا يا بهية. انا لازم أروح للشيخة"

"اعملى اللى انتى عايزاه. ربنا عالم قد إيه انتى محتاجة. أنا من الأول قلت انك ست عبيطة ومش عارفة حاجة". ضحكت أم حامد، "ربنا دايما بيدى أكتر من اللى بنعوزه".

فاتح أيضا علم أن الجاموسة توقفت عن إدرار اللبن، لذا حضر للمنزل. ما أن رأته أم حامد حتى سدت الباب بجسمها وأنفاسها مقطوعة، قالت، "الجاموسة دلوقتى آخر تمام، واللبن نزل خلاص". ألح فاتح، "بس أنا عايز اشوفها، خلينى أبص عليها عشان اقول لك السبب اللى خلاها تبطل اللبن"

"أوه.. آه.. لا. باقولك إيه يا خويا فاتح. المرة الجاية. رايحة دلوقتى لجارتى. ما فيش حد غيرى فى البيت"

طلبت منها الشيخة داية أن تحضر بعض شعرات من ذيل الجاموسة، ثم ربطت تلك الشعرات داخل حجاب مكتوب، وأوصت بأن يدفن الحجاب أسفل مكان الجاموسة فى الزريبة. ثم أضافت بأنه لا يجب أن يحلب أحد الجاموسة سوى فتاة عذراء، لذلك جعلت أم حامد ابنتها سماح تقوم بحلب الجاموسة، لكن لمدة يومين آخرين لم تحدث المعجزة. أخبرت أم حامد شحات، "واه، آدينى خسرت اتنين جنيه من قلة فايدة". فى فجر اليوم الثالث، أيقظها صياح سماح الفرح. لقد تدفق اللبن اللذيذ مرة أخرى.

بناء على إلحاح فاتح، توجهت أم حامد لمقابلة قريبتها نعمات، التى ما أن رأتها حتى ألقت برأسها على صدر عمتها وهى باكية "من فضلك يا عمتى، عايزك تساعدينى" ثم بصوت كله توسل، "أنا باحب فاتح، قولى له ييجى يقابل ابويا. أبويا حيطق من جنابه. قال إذا أنا رجعت لفاتح هو حيقتلنى، أعمل إيه يا عمتى؟".

حاولت أم حامد أن تسرى عنها، "واه يا نعمات، ما تكسريش قلبى يا بتى. أنا حاحاول أساعدك. يمكن أبوكى يسمع كلامى، بطلى عياط يا حبيبتى".

كان الغضب مسيطرا عليها، لذا عندما رأت فاتح فى المرة التاليه، صبت عليه جام غضبها، "انت عايز منى إيه؟ نعمات دى زى بنتى تمام، وانت طردتها من بيتك بعد أربع تيام جواز، وانت عارف كلام الناس. انت راجل بطال يا فاتح، وانا اللى كنت فاكرة انك دخلت بيتنا عشان تشوف البطش بس. انت مكار وزى التعبان يا فاتح". احتج فاتح، "ولاد الهرمة سحرولى، كل مرة أبص على نعمات، أشوف جاموسة قدامى. أنا كنت مجنون. ونفسى ارجعها من تانى. والله العظيم أنا لازم ارجعها ولو بالضرب!"

" لا. لا، شغل العفونة ده ما ينفعش، كل حاجة لازم تتم بالعقل يا فاتح. أنا حافكرلك فى حاجة". أخيرا توصلت أم حامد للحل. هى ومعها فاتح سوف يفاجئان الحاج أحمد، والد نعمات ويدخلان منزله قبل الظهر، عندما يحين وقت عودته من الحقل، يتقدم فاتح وبسرعة يقبل رأس الحاج ويطلب منه السماح والعفو. بعدها، خيال أم حامد أوصلها إلى النهاية السعيدة، قالت لفاتح وكلها ثقة، "بعد كده، طبعا عم احمد حيتكسف ويخليك تاخد مراتك. دى أحسن حاجة نعملها".

لكن الموضوع لم يسر كما خططا؛ عندما دخلا منزل والد نعمات، تقدم فاتح ليقبل رأسه، فقفز هذا بعيدا ودفع فاتح بيديه وأخذ يمطره بالشتائم، "انت أصلك ابن كلب! انت السبب اللى مخلينى مطاطى راسى وسط الناس!. أنا لازم اغير لون عمتى من أبيض لإسود! انت خليت

رقبتى قد السمسمة قدام العالم كله!". قبل أن تستطيع أم حامد إتمام الحديث، كان فاتح يمطر الحاج بوابل من شتائمه، بينما نعمات ترتعش وتقطع فى شعرها، ثم حضر الجيران وأمسكوا بفاتح وألقوا به فى الشارع، ثم التفت الرجل العجوز ناحية أم حامد وقال، "أنا ما آمنش على بنتى مع الراجل ده. دا ابن كلب، يرجعها لبيت ابوها بعد اربع تيام؟ المرة عندنا ما لهاش كلمة، إذا ما كنتش قادر احكم بيتى، يبقى أنا مش راجل. سمعت ان فاتح كان مبلط عندك الكام يوم اللى فاتوا دول يا ام حامد. شوفى بقه، قولى له إن الحاج أحمد حيخرب بيته حتى لو كان ده آخر حاجة أعملها فى حياتى! أنا حاخد عنيه نفسها فى المحاكم! لما أخلص عليه حيكون ابن حظ لو قدر يمشى فى الشارع، لإنه حيكون وقتها فقران وعقله تايه".

بعد ذلك، لاحظ شحات أن أم حامد لم تعد تذكر اسم فاتح على لسانها. أحس بسرور بالغ عندما أخبرته بأنها تنوى أن تبيع العجل لزكريا المسيحى، قائلة إنه رجل غلبان وعنده تسعة من العيال.

أم حامد وفاروق

أحست أم حامد بوقع انتقاد أخيها أحمد لها، لذا قررت أن تكون أكثر حزما فى تسيير أمور بيتها. عندما كادوا أن يفقدوا الجاموسة، اعتبر شحات بأن لها اليد العليا فى حل هذا الموضوع؛ وبالفعل كان أخوها هو الذى أنقذهم من هذا المطب. بمرور الأيام، قل اهتمام شحات بأن يكون هو البديل عن والده، وهذا زاد من قلق أم حامد. بقدوم أيام الحصاد زادت مخاوفها واتهمت شحات فى نفسها بأنه من النوع الكسلان المهمل لواجباته، وأن فاروق قد يحاول خداعهم لأنه شريكهم فى الزراعة.

أحيانا كانت مخاوفها تلك توتر شحات فينفجر فيها صائحا، "قلت لك ألف مرة، بطلى كلام كتير! المفروض المرة تفضل ساكتة علطول ما نفرقهاش عن البطانية اللى بنتغطى بيها!"

حينئذ تتراجع أم حامد وهى مستاءة متألمة وتفضل الصمت لفترة طويلة، لكن إلى حين. مع ذلك، ما أن تم حصد محصول العدس

وتجميعه فى جرن فاروق، أخذت تنبه شحات بأن يرعى المحصول بعين يقظة. يا ترى لماذا يقل محصولهم من يوم لآخر؟

شحات لا يثق كلية بفاروق. بعد ظهر أحد الأيام حضر ومعه حماره إلى جرن الدرس، فوجد بقرتين تأكلان من العدس الخاص به. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر سوى عامل وحيد يعمل فوق النورج- هو آلة ثقيلة بها مقعد واحد وأسفله أحد عشر قرصا حديديا يجره بقرتين، لكى يتم فصل البذور عن الأعشاب التى تغلفها.

وجد شحات فاروق راقدا على كنبة فى دروته بجوار شاب من أهل الكوم؛ بينما تصدح أم كلثوم بإحدى أغانيها من جهاز راديو ترانزستور، ورائحة الحشيش تملأ المكان. قفز الشاب من فوق الكنبة بمجرد دخول شحات، قال شحات غاضبا، "ليه تخلى رجالتك يطلقوا البقر على العدس بتاعى يا فاروق؟" ثم خرج بسرعة وذهب نحو حماره وامتطاه وبدأ فى التحرك. لكن الرجل الذى يعمل فوق النورج نادى عليه قائلا، "دى مش غلطة فاروق، أنا اللى طلقت البقرتين، دول أكلوا من كل الأكوام مش من عدسك انت بس"

"لا. انت كداب! واحد فيكم هو اللى ربط البقرتين جنب العدس بتاعى، انت أو فاروق! قاصدين صح إنهم ياكلوا منه". نادى فاروق على شحات وهو ما زال فى الدروة "تعالى يا شحات، تعالى بس"، لكن شحات لم ينصاع لندائه. فى المنزل أخبر أمه، "خايف اقولك انك على

حق. فاروق طلع حرامى بجد؛ لو كنت رجعت له، ربنا وحده هو العالم كان حيجراله إيه. والله العظيم ما انا مشارك حد بعد كده فى زرعى. حاعمل كل حاجة بنفسى". ردت أم حامد، "إذا انت زرعت أرض سنباط لوحدك حتضطر تقعد فى الغيط لوحدك. وحتقعد هناك ليل نهار وتنام زى ما فاروق عامل، وحنكون هنا من غير راجل. أحسن شىء إننا ندور على واحد تانى فى الزرعة اللى جاية".

"لما شفت البقر بياكل فى عدسنا، حسيت إنهم بياكلوا فى جسمى تمام. دى على كل حال غلطتى يا امه. أنا كسلان".

فاروق أيضا لم يكن سعيدا، لذا حضر للبيت وأخبر أم حامد، "كل يوم أبعت عيل عشان ينده لشحات، لكن هو رافض ييجى، أعمل ايه انا بقه؟ حاديلكم أحسن نصيب فى محصول العدس. أنا عارف إن فيه ناس كتير بتلسن على، ولاد الكلب دول!"

بعدها كان شحات يذهب للجرن كل يوم ويظل هناك لساعات، يساعد فى إدارة النورج. فاروق هذا يشارك أيضا سبعة مزارعين آخرين فى محصولهم من العدس، القمح والفول، ويتجمع فى جرنه أى محصول استعدادا لدرسه. فاروق من النادر أن يحضر لمنزله. بالرغم من العز الهابط عليه، إلا أنه ما زال يعيش فى ذاك المنزل الحقير، حيث توجد زريبة الحيوانات فى مقدمة الدار، وعائلته ما زالت تسير بعادات ومسالب أفقر الناس.

عندمـا يشاهد فـاروق شـحـات وهو صـامت، يسـأله، "باقـولك إيه يا شحات، انت خرست ليه الأيام دى، يكونش العفاريت رجعت تزورك من تانى؟ ". يجيب شـحـات، "لا. مـا فيش عفاريت. أنا شـايف إن كل الناس الأيام دى بقت عفاريت، فين الاقى الراجل اللى يخـــدم غيره من قلبـه؟ لما اتنين يشـتغلوا مع بعض، لازم يكونـــوا مـأمنين لبعـــض ويخـافـــوا على بعض". يجيب فـاروق، "خلينا نبقى زى كده دايمـا، لكن باقولك إيه، مـا فيش اتنين أبدا زى بعض، كل واحد تلاقيه ليه فكر شكل. إذا ما كانتش الدنيا كده، يبقى حتخرب وما حدش يسكن فيها".

لم يضـغط فاروق على شـحات بشـأن الاثنى عشر جنيها المدين بها، وهى تلك التى رمـاها فى حـجـر بطة بدون تفكير. مع ذلك، فـاروق أيضـا كان غـارقـا فى الديون. اكـتشـف شـحـات ذلك عندمـا اشـتكى والد فـاروق يومـا – وهو رجل طاعن فى السن، ليس له عمل سوى أن يجلس واضعـا السـيجـارة فى فـمـه – بـأن مـفـتش الزراعـة حـضـر يومـا ليطالب فـاروق بتسـديد ثلاثمائة جنيه مدينا بها للحكومة، عندما أبلغه الأب بذلك، شخط فيه وهو نصف مـازح قـائلا: "إذا مـا زودتش الفلوس اللى بتصـرفها على الكيـمـاوى، حنخـسـر مـحـصـول القـصـب، بعديهـا طوالى أبعت العسـاكر يحطوا الحديد فى إيدك".

أمر طبيعى أن يثـق شحات فى فاروق، إلى أن تتدخل بعض الأمور فيفسـد هذا الاعـتقـــاد. فى يوم من الأيـــام، حضـر لدروة فـاروق اثنان

من الأشقياء الذين اعتادوا شرب الخمر مع فاروق في قهوة عبد اللاه، هما حسن وسليمان وبرفقتهما ثلاث زجاجات كونياك. كان شحات يعرفهما جيدا، فهما مشهوران بأنهما يسبان الجميع، يعاكسان النساء، يسرقان من جيرانهما. قيل إنهما حرقا حقل أحدهم بسبب ضغينة سابقة، ويمكن بكل سهولة أن يشهدا زورا أمام البوليس إذا كان في الأمر زجاجة خمر. شحات يعتقد اعتقادا جازما أنهما هما اللذان ضربا فاروق ذلك الضرب المبرح في الخص تلك الليلة، إلا أنه احتفظ بهذا الشك لنفسه. حسن هذا هو رجل طويل القامة، طويل الساقين، بعنق قصير كثيف يجعله يبدو كأنه أحدب، هو الأكثر شرا من زميله. شحات يحترمه لأنه قريب له من بعيد، فهو عم بطة. سمعته البطالة ويشرته الغامقة السمراء أعطته اسما مستعارا هو "العبد". الآن، تعمد حسن هذا إغاظة شحات، "ليه مش عايز تحلق دقنك يا شحات؟ شكلك شكل راجل عجوز. تعالى يا شيخ تعالى، لازم كده تكون حلو معانا ولطيف..انت في عز شبابك يا واد، وعضلات دراعك حتبز أهه من كمامك".

لم يستمر الكونياك طويلا، فاروق الذى تورد وجهه، اقترح أن يذهبوا جميعا إلى قهوة عبد اللاه ليحصلوا على المزيد. بصوت كثيف أخذ يلح على شحات، "انت تيجى معانا يا شحات، هو انت حتعمل هنا إيه يعنى والعدس لسه طرى ما نشفش عشان ندرسه؟ ". انضم إليه حسن

وهو يضـــع ذراعـــه الطويـلـة حول رقبة شـحات، "تعالى يا واد معانا، إحنا لازم ننبسط". تساءل سليمان وهو يبتسم فتظهر أسنانه الخربة، "إنت ليه اتغيرت كده يا شحات؟ زمان انت كنت بلاعة خمرة"، ثم أخرج من جيبه ورقة مزيتة، أخذ ينظر حوله، ثم فتح الورقة ليبدو بعض الأفيون بداخلها. بينما تجمع الآخرون حوله، صنع تذكرة أفيون وقدمها لشحات، "خد دى وانت حتنسى كل حاجة". عندما رفض شحات، حاول كل من حسن وسليمان أن يرغماه على قبولها، لكنه فلفص منهما وغادر الدروة تتبعه ضحكاتهما الخشنة. بكل غضب، راوده شك بأن فاروق هو الذى وضعهما فى سكته. الكل يعلم أن حسن وسليمان هما بلطجية القرية وأسوأ السكارى وكل من يتبعهما سوف يكون مآله الخسران. هو لا يرغب أبدا فى مصاحبتها، ولا سيما أن العدس ليس جاهزا بعد ليدرس.

والد بطة، الذى كان قد قضى وقتا طويلا فى القاهرة يسلى نفسه بالمقامرة، هو أخ غير شقيق لحسن، كانت هناك إشاعات أنه قد وافق أن يكتب كتاب بطة على أحد أبناء حسن هذا، وهو جندى شاب اسمه "على"، لكن فتنة، وهى أخت عبد الباسط الكبرى وجدة بطة فى نفس الوقت، رفضت ذلك، وقالت إن هذا لن يحدث سوى فوق جثتها. لذا قيل إن الأمور توقفت عند هذه النقطة. لكن العرف والتقاليد تقف بقوة إلى جانب حسن ووالد بطة، فالعادات تقرر أن تتزوج البنت من ابن عمها. العرف هو السائد ومن الأمور المقدسة سواء فى الزواج أو الثأر.

حسـن هذا لم يكن فقيـرا، هو يملك ثلاثة أفدنة، أما ابنه "على" فهو إنسان ممل، سائب الفك، هناك دلائل مؤكدة تجزم بأنه سوف يسير فى خطا أبيه من حيث الفساد والسكر والعربدة، مع العنف فى المعاملة. هذه العائلة كانت دائما مشهورة بفضائحها؛ واحد من أخوة حسن الصغار اكتشف أن زوجته ارتكبت الزنى، لذا ضاجعها ليلة كاملة، ثم جزر عنقها فى الفجر وخبأ مصاغها. بعد ذلك، ادعى أن هناك لصوصا هجموا عليها واغتصبوها وسرقوها ثم قتلوها، لكن الجيران الذين سمعوا صرخاتها، كانوا يعلمون الحقيقة. لكن عندما ثبتت عليها تهمة الزنى، فضل رجال البوليس أن يصدقوا ادعاءاته.

أم حامد تحتقر عائلة حسن، لذا رفضت هذه الأقاويل، قائلة إن فتنة، وهى سيدة قوية الشخصية مثلها، لن ترضى أبدا أن تزوج بطة لأحد من أفراد تلك العائلة المفضوحة. لكن فى واقع الأمر، ليس هناك رأى نافذ لفتنة أو سعاد والدة بطة، طالما أن الرجال قد اتفقوا على أمر ما. العقيدة الإسلامية تجعل من الضرورى الحصول على موافقة الفتاة على الزواج من شخص ما ، لكن هذا، مثل كثير من الأمور الدينية التى تتناقض مع عرف القرية أو سيطرة الذكور، كثيرا ما كانت تنحى جانبا.

أحمد، خال شحات، عندما علم أن هذا الأخير أصبح واعيا وعاقلا، سعد بذلك وعبر عن هذا عندما قابله يوما عند مكان رسو المعدية. قال لشحات، "أيوه، خللى بالك كده من نفسك وخليك راجل". ثم ظهر الغضب

على وجهه عندما علم أنهم باعوا العجل، "أنا قلت لها ما تبيعش الشب. كان ممكن تخلوه عندكم ونبيعه بعد كده بسعر أعلى فى السوق. دا الأسعار فى الطالع يا ناس، دا كان ممكن تشتروا بداله بقرة. يا شحات انت دلوقتى راجل البيت وكل شيء يعتمد عليك. انت المفروض تقرر كل شيء، مش امك"

"دى بس أختك"

"إحنا ما عندناش ستات تمشى رأيها على كلام الرجالة. رأى الستات كله غلط فى غلط. أى شيء يخص الزراعة أو البهايم، هو من اختصاص الرجالة. إذا حاولت أم حامد إنها تعارض فى كل حاجة، أنا حاسيبها ومش حاسأل فيها. أنا نبهت عليها ما تبيعش البطش، لما انا أقول لا يبقى هى اللا ".

بالرغم من معارضة أحمد، صممت أم حامد أن تستبدل فاروق بطيار، الذى بالرغم من أنه كان قد طلق ابنتها الكبرى، إلا أن صلته بأم حامد ظلت قوية.

طيار هذا، مماثلا للحاج عبد المطلب، رجل نشأ فى العالم، لذا هو لا يمتلك فقط أرضا زراعية، لكن يدير دكانا فى الكوم، ومشارك فى عدد كبير من طلمبات الرى، أيضا هو يساعد المفتش الزراعى فى تسيير أمور العديد من الملاك الصغار فى سنباط. لعنت أم حامد ذلك اليوم

الذى حضر فيه عبد الباسط سكرانا ليعلن، "إذا كانت بنتى انتهى أمرها مع طاير، أنا كمان عايــز انتـهى منــه. من دلوقتى أنا حاشارك فاروق فى المزارعة!"

قررت أم حامد أن تذهب إلى المكان الذى يدرس فيه العدس لتضع الأمور فى نصابها مع فاروق. هى تشعر بالإثارة عندما تفكر فى هذا الموضوع. انتظرت بزوغ النهار بفارغ الصبر. بعد الظهر، وهى فى قمة انفعالها، ارتدت أفضل جلباب صوفى أسود لديها له أكمام طويلة شفافة، تزينت بحلق ذهبى فى وسطه حجر أخضر اللون، تلفعت بطرحة جديدة وفوق الجميع ملاية كريشة سوداء. امتطت حمار شحات الأبيض وسارت فى شوارع القرية. وجهها متورد، الملاية ترفرف حولها وتكاد أن تصل إلى الأرض. بمظهرها المتعالى هذا، الذى يعتبر طبيعة ثانية لها، بدت كأنها سيدة من الطبقة العليا.

كانت أم حامد قد طلبت من طيار وكذلك من حسن، وهو زوج ابنتها الجديد، أن ينتظراها عند مكان جرن الدرس، وعندما وصلت وجدتهما فى انتظارها، بينما فاروق وشحات ومعهما نصف دستة من الرجال يعملون بجوار النورج. حيت أم حامد الرجال بالتحية المعتادة، ثم هبطت من على ظهر الحمار وخطت فوق جوالات العدس وجلست على الأرض تحت ظلال الدروة. لفترة استراحت من عناء المشوار وهى بكل تواضع تجذب بين الفينة والأخرى طرحتها على وجهها.

هذا المظهر المتواضع لم يخدع أحدا؛ فأم حامد لها حضور طاغ. الرجال بدون وعى تجمعوا حول الدروة وجلسوا على الجوالات وعلى الكنبة منتظرين أن تنطق. فاروق وقد خشى هذه المواجهة، وقف زنهارا وعلى وجهه مظهر كلب معاقب. النساء لا يحضرن بهذا الشكل، لا سيما إذا كانت هى أم حامد الفخورة المتشامخة.

ثم بدأت بصوت خفيض بالكاد يسمع من خلال طرحتها، "يا فاروق، دا آخر موسم نزرع فيه معاك"، ثم أشارت بكل احتقار لكومة شحات من العدس، "محصول العدس زى الزفت، كل جيرانا جالهم ضعف اللى جالنا. انت ما كنتش دوغرى معانا".

لم يسمع صوت، شحات وهو جالس على الكنبة مع الآخرين، وضع وجهه فى الأرض وليس هناك تعبير محدد على قسماته. سعل فاروق ليسلك زوره، "الحمد لله ، دا أحسن. أنا كنت عايز كده، ومن فضل ربنا إن الموضوع جه عن طريقكم مش منى. أنا ساعدتكم كتير يا ام حامد. إذا ما كنتش مرابط أنا هنا فى سنباط وواخد بالى من أرضكم كل يوم، ما كنتوش حصلتوا على حاجة خالص".

وجهت أم حامد نظرة غاضبة نحوه من خلال طرحتها، قالت، "الحاج أحمد، حصد تسع شوالات من الفدان بتاعه. شحات بيقول ان حظنا حيكون كويس لو حصلنا على خمس أو ست شوالات. ليه كده يا فاروق؟ وانت عاملى كده زى العمدة، عايز تلهف كل حاجة

من غير ما تتعب نفسك. لكن الغلط مش عليك، دى غلطة ولدى. إذا كان راجل صحيح، ما كنتش سبت بيتى عشان أجيلك هنا. ده الفكر اللى معذبنى، انت اللى مخسر ولدى".

امتقع وجه فاروق، لكنه لم ينطق بشىء. أضافت، "انت خربت أكتر مما بنيت فى عيلتى؛ لما كنا مشاركين طيار، كان بيوصل المحصول لغاية بيتنا، ما كانش لازما أروح أنا بنفسى للغيط برجلى". هى الآن لها اليد الطولى. لذا قال فاروق، "إحنا بس ليه نتكلم فى المواضيع دى قدام الناس دى كلها؟". حدجته أم حامد ثم ابتسمت ابتسامة كلها سخرية، "دا أنسب وقت أتكلم فيه، ليه نخبى ؟ كل الناس عارفاك يا فاروق وازاى انك راجل دحلاب". غمغم هو، "بس المفروض المواضيع دى تكون بيننا وبس".

تدخل طيار فى الحديث - هو رجل جسيم له مظهر مسيطر - قال إنه ناقش موضوع محصول العدس مع أم حامد والمفتش الزراعى. ولأن المحصول كان فقيرا، قال وهو يرمق فاروق بنظراته الثاقبة، إن المفتش قد وافق على أن يخفض الكوتة المطلوبة للحكومة بحيث تصبح جوالا ونصف فقط. أعان طيار أم حامد لكى تقف، ثم توجها سويا خلف الدروة وعقدا مؤتمرا خاصا.

أخذ طيار يهدئ أم حامد، "ما تزعليش، وما تتكلميش كتير مع فاروق. أنا حاقف معاكى وأحل كل المشاكل".

"حتقدر ازاى بس تزرع معانا يا طيار؟ انت ليك ستين شغلة وشغلة، مشغول خالص".

"أيوه انا مشغول فعلا، لكن انا أوعدك انى حالاقى الوقت اللى اقدر أخدمكم فيه". مع حصوله على ثلث كل محصول فى مقابل وقت بسيط يستغرقه، تشبث طيار بتلك الفرصة السانحة.

عندما عادا إلى الآخرين، أخبر طيار فاروق، "دا الكلام الصح لإنه هو المظبوط، كلام أمنا ده ما يزعلش حد لإنه فى منتهى الصراحة. كل واحد ياخد نصيبه بالحق. إذا حبيت تشاركها فى الزراعة، لازم توافق على كل شروطها، إذا ما حبيتش، يمكن لها إنها تزرع أرضها انشالله شوك إن حبت".

عمال فاروق الذين تركوا أعمالهم فى درس العدس وتجمعوا كشهود، صفقوا ورحبوا بكلمات طيار، ثم ابتدأ الجميع يتكلم فى آن واحد. صاح أحدهم، "الست دى بتتكلم كلام رجالة! انت اللى غلطان يا فاروق"، آخر قال، "إذا كان شغلك مظبوط، ما كانتش جات لغاية هنا".

تشجعت أم حامد بهذا الحديث، لذا ساءلت فاروق، "ليه ما يكونش محصولنا تسع شوالات زى الخلق كلها؟ طبعا لازم الفار يلعب فى عبنا. انت مش كويس يا فاروق، وكمان كسلان، عايز تكوش على كل حاجة من غير ما تتعب. زمان لما ما كنتش مشاركنا، عمرى فى حياتى ما شفت

الغيط"، ثم لمعت عيناها - هى تزداد عظمة وروعة لا سيما عندما تغضب - "جوزى ميت، ده معناه إننا نسيب الأرض؟ كل يوم نازل تسحب مننا فلوس. أنا فاهمة كويس، نص عدسنا راح بلاش. انت اللى سرقته".

لقد زودتها حبتين، لذا راح لون وجه فاروق، وأخذ يتردد ما بين الأصفر والوردى. تعذر عليه أن يسيطر على نفسه، "ربنا وحده هو اللى بينى وبينك"، استمرت هى، "أنا نفسى اشتمك كمان وكمان"، لا تستطيع أى قوة فى العالم أن توقفها الآن، "طيار أهه معانا، أنا حاسمع اللى يشور بيه"، ثم التفت نحو طيار "أنا جاية بكرة آخد كل العدس بتاعى. اللى حيقف فى طريقى، أنا حاعمل فيه اللى ما اتعملش!". قاطعها طيار، "لا.لا سيبى الحاجات دى لى أنا. مكانك مش هنا. انتى تقعدى فى بيتك معززة مكرمة".

التقطت أم حامد أنفاسها بقوة وهى تتنهد، ثم ساعدها طيار لتقوم، قالت، "أنا راجعة بيتى". ثم فكرت فى تلقيم فاروق آخر شتيمة، لذا نظرت له باحتقار، "ما انت أصلك ليك بيوت كتير". كانت هذه هى أسوأ شتيمة توجه إليه، لأنها تعنى أنه يعمل كقواد وزان. نطق شحات بصوت يكاد أن يسمع، "سلامو عليكم"، ثم امتطى الحمار، بينما سارت أمه على قدميها بجواره كما جرت العادة. لكن كان واضحا تماما، من هو الرئيس؛ منذ الآن فصاعدا، هذا ما خمنه الرجال، لا يحدث شىء يخص عائلتها بدون موافقتها.

شحات لم يدع أى كلمة تصدر من فمه حتى وصلا المنزل، هناك تكلم بكل هدوء ، "لعلمك، طيار وابويا عمرهم ما اهتموا بالأرض، كانوا يبذروا الأرض، يحطوا ميه ونتروكيما، وكان الله بالسر عليم. إذا طلع المحصول كويس أو وحش، ما يهتموش. أبويا كان دايما يقول: ده تدبير ربك. دلوقتى النيل بطل فيضان، الأرض بقت ضعيفة والمحصول بقى قليل. النيل ما بقاش يغذى الأرض زى سابق. انتى كنتى قاسية خالص مع فاروق انهاردة يا امه". قالت هى ، "لا. أنا عايزة طيار يرجع لنا تانى". لقد شعرت بالإرهاق الآن، "دا بركة ويقدر يشغل الأنفار بسهولة، هو والمفتش أصحاب، الكل بيحترمه ويخاف منه، فاروق ده بيعر بيتنا ويجرسنا". ثم اعترفت لشحات، "أنا عملت هليلة عشان بصراحة كنت عايزة أخلص من فاروق، ربما يكون العدس اللى لهفه قليل، لكن هو فضيحة بالنسبة لينا، أنا عايزة اخلص منه ومن عمايله".

ما حدث، جعل شحات يكن احتراما وتقديرا لفاروق، فبالرغم من الشتائم التى انهالت عليه، فضل أن يظل صامتا بخصوص الاثنى عشر جنيها المدين بها هو، وأيضا لم يمس أمه بأى كلمة جارحة أمام الخلق. فاروق بالرغم من عربدته وإغراقه فى السكر، له طريقة خاصة فى حفظ كرامة الآخرين والبعد عن إيذاء مشاعرهم.

مبكرا فى صباح اليوم التالى، وهو يعمل على الشادوف ليروى حقل البرسيم، رأى فاروق آتيا سالكا طريق العربات،

عنـــدما وصـــل بالقـــرب منه، خـــاطبه شحـات، "ها إيه الأخبار، حلوه والا مـش؟". ضحـــك فـاروق ، "لا حلوة. أنا جيت عشـــان نتحـــاسب يا شحات. عايز من امك اتناشر جنيه".

"بص يا فـاروق، الفلوس دى بالذات بينى وبينك. أنا قلت لك انى حاردهالك بأى طريقة، ليه عايز تتكلم مع امى عشانها؟"

"امتى حـتردها؟ عدت عليـها تمان شـهور. أمك قـالت امـبارح نتحاسب. خلاص، نتحاسب دلوقتى". انفجر طبع شحات الحامى، "مالك انت ومـال امى. يحـرق أهلك يا فـاروق! انت أصلك عـيل مش راجل! الفلوس دى كانت بينى وبينك وبس".

قـاطعـه فاروق، "بس، بس يا شـحـات. مـا تزعلش قـوى كـده". لكن شـحـات التـفت إلى عمله صـامـتا وأخـذ يرش الماء حـوله بعنف، لذا بعـد فاروق لكـى لا يبتل، "اهدى يا شـحـات، ما تبقاش عصبى، تحب تعـفر سيجارة؟" . عندما استمر شحـات فى عمله رافضا تبادل الحديث، هز فاروق كتفيه وواصل سيره فى اتجاه المنزل.

حيته أم حامد ورأسها مرفوع لفوق، "طاب ليه ما جبتش العدس معاك؟". ثم لاحظت أن فاروق يعاملها بمنتهى الأدب، قال، "لازم تعرفى الأول ليه انا جيت اشوفك، مش ليه ما جبتش العدس. مش حيكون عندنا زكايب كفايـــة قبـل بكــرة. دلوقتى أنا حاقولك على كل حاجـــة عملتها.

أنا اتكلمت مع ابـويـا امبـارح، غرضى اقـولك انـى حـاحـاسبك على كل حاجة ".

أخـرج من جيبـه نوتـة صغيرة. أم حـامد، مشـابهة فى ذلك كل القرويات، كانت جاهلة، لكنها تفهم الأرقام جيدا. لاحظت أيضا أنه يحتفظ بسجـل لكل معاملاتـه مع الثمانية فـلاحين الذين يشاركهم فى الزراعة فى سنباط. وحالا استطاع أن يقنعها بأن شحات ما زال مدينا له، ثم اختتم حديثه، "ودلوقتى كمان، أنا عايز منكم الاتناشر جنيه بتاعة زمان".

أبدت أم حامد استغرابا، "بعد وفاة المرحوم جوزى، أنا فاكرة انى دفعت لك كل حاجة. كنت كل مرة أدى شحات الفلوس عشان يوصلهالك، سواء فلوس الحرت، الرى والنتروكيما وكل كافة شىء".

"زى ما انتى شايفه، المبلغ متقيد هنا، هو لسه عليه اتناشر جنيه، أنا لسه قايل له انى حاقولك واتخانق معايا خناقة كبيرة، دلوقتى عدى على المبلغ ده ييجى تمان شهور".

لم تنطق أم حامد بشىء. كانت غارقة فى أفكارها. أفكار شخص اكتشف أن حساباته العديدة ثبت أن جميعها كانت خاطئة. بعد لحظات استأذنت وصعدت للغرفة العلوية حيث يتواجد صندوقها المقفل. ثم عادت بعد عدة دقائق ومعها اثنا عشر جنيها أعطتها لفاروق. ثم قالت بحزم،

"باقولك إيه، أوعى تنطق بكلمة واحدة قصاد شحات بخصوص الموضوع ده. دلوقتى قوللى، حتعمل إيه فى موضوع العدس؟".

اندهش فاروق، فهى لم تثر كما يجب عند اكتشافها عدم أمانة شحات. لم يفهم فاروق أنها عندما فكرت فى هذا الأمر، تسامحت فى نفسها مع شحات، فحبها له عظيم. فى الحقيقة أيضا، كانت هى تلوم نفسها لأنها لم تراع من قبل أن تعطيه مصروف جيب مناسب. هى تعلم جيدا أن كرامة شحات وعزة نفسه تمنعه من طلب ذلك.

وهى تشاهد فاروق فاغرا فاه، طلبت منه أن يبيع نصف نصيبها من العدس فى السوق، فهى الآن فى حاجة ماسة للنقود، فوافق. ثم استمرت فى الحديث، "فى المستقبل، أنا اللى حادفعلك أى حاجة تخص الزراعة، مش حابعت الفلوس مع شحات. لازم الواحد يعرف راسه من رجليه، ممكن انا اجيلك أو انت تجينى".

شعر فاروق ببعض الخجل، "زى ما انتى عايزة. تعرفى يا ام حامد، عبد الباسط كان صاحب عمرى. ممكن تاخدى العدس كله إذا حبيتى".

تبسمت، "لا يا فاروق، ربنا حيديلك كل اللى تتمناه". إنهما يتحدثان الآن مع بعضهما كأنهما صديقان قديمان.

تردد فاروق، كان متأثرا بقوة شخصيتها، لكنه قال وهو محرج، "بصراحة، دى غلطة عبد الباسط. هو عمره ما عود شحات إنه يتحمل

مسئولية. لما شحات هرب مصر عشان ما رضيتوش تجوزوه سنية، عبد الباسط سامحه علطول. شحات مش كسلان أبدا، دا ممكن يشتغل شغل نفرين فى الغيط، لكن هو بس مش قادر ينظم نفسه. كمان هو لسه شباب. أنا باستعجب، طاب لو انا مش واخد بالى منه، حيقدر ازاى ياخد باله من عيلته؟ نفسى شحات ده يكون أحسن فلاح فى بلدنا دى".

بعد الظهر، أتت أربع فتيات صغيرات من الكوم لكى يلتقطن حبات العدس المتناثرة على الأرض. عندما رأى شحات أمه قادمة نحوهن، توقع حدوث مشهد مأساوى كالسابق. أم حامد لم تخبره بشىء، الآن اندهش عندما وجدها فى مزاج طيب وهى تحيى فاروق بسخرية لاذعة، لكن بابتسامة جذابة، "واه يا فاروق! البنات الحلوة دول كلهم شغالين عندك؟ وبعدين يا ولدى، انت حتبوظ الدنيا كلها". تساءلت إحدى البنات برقة، "هو فيه إيه يا خالة، ليه ما جبتيش معاكى سماح تلقط العدس معانا؟ دا لسه فيه كتير على الأرض".

زفرت أم حامد بغضب، "أى بنت من بناتى، إذا فكرت تيجى هنا، أنا كنت دبحتها دبح. ليه يا بنات جايين هنا؟ أنا عارفة أبو كل واحدة فيكم، وما فيش واحد فيهم فقرى".

انفجرت الفتيات فى القهقهة، فتنهدت أم حامد من صميم قلبها قائلة، "خايفة لبعدين فاروق يقل عقله ويتجوزكم كلكم مرة واحدة". فاروق بكل عنف، شخط فى البنات وحذرهن من الضوضاء التى يتسببن فيها،

وأمرهن أن يصنعن الشاى لأم حامد. جلست الفتيات القرفصاء ليشعلن النار ويحضرن الشاى وأيضا ليتسمعن للحديث الذى سوف يدور بين فاروق وأم حامد. قال فاروق بلا خجل، "من غير القمامير دول، الجرن بتاعى ده مش حيسوى حاجة. ما فيش حد من رجالتى مستعد حتى يجيب كباية ميه، البنات دول هما اللى معيشينا". ثم قام هو وشحات وخلعا جلبابيهما وفرداهما على الأرض، ثم، وهما يرتديان فقط الكلسون الأبيض الواسع، حملا خمسة جوالات من العدس وأفرغاها فى كومة كبيرة.

عندما انتهى عمل الشاى، قدمت إحدى الفتيات الكوب الأول لأم حامد، إلا أن فاروق اختطف منها الكوب وأعطاها لشحات، ثم ضرب الفتاة بكل قوته على كتفها وهو يلعنها، "يخرب بيتك! اوعى فى يوم تقدمى الشاى لمرة قبل الراجل!". دقت الفتاة رجلها بغضب فى الأرض، قائلة، "يخرب بيت أبوك!" ثم انفجرت فى ضحك هستيرى، وكل الفتيات شاركنها فى الكركرة. فى ضوء الشمس الساطع، بدا وجه فاروق المنقور الداكن مخربا بالخلاعة والتهتك، لذا كان عجيبا فى نظر أم حامد انجذاب الفتيات نحوه.

عاجلا قام فاروق بعيار العدس فى مقطف، بينما وقفت أم حامد فوق رأسه تراقبه كالصقر، ثم اشتكت، "ليه بتهز شوالك وشوالنا لا؟ مش لازم تراعى ربنا يا فاروق لبعدين تروح النار؟"

"باقولك إيه يا ام حامد، أنا أهم شيء عندى هو العدل". بينما يعدل شحات من وضع الجوال، قال معلقا، "ليه، يمكن عايز تروح الحجاز؟". ضحكت أم حامد ضحكة سخرية، "أبدا. عمر ما فاروق حينولها.. طاب ازاي؟ نفسى افهم". فاروق شاركهما الضحك وهو يحرك قبضته فى الهواء، "ابعدى عنى بس شوية"، فازاحت يده بعيدا وقالت، "طيار عمره ما غشنى زى كده، عمره ما هز شواله وشوالى أنا لا".

احتج فاروق، "أنا أنضف واحد في الناحية دى كلها. المحصول ده كان أحسن من اللى فى الجنب ده أو الجنب اللى هناك، لما الحكومة توزن نصيبها وتقول انه قليل، روحى قولى ليهم إن فاروق هو اللى سرق عدسكم". لم تنتو أن يفوتها شيء، "استنى يا فاروق! الشوال ده لسه ما اتملاش على الآخر". قال فاروق، "اسكتى يا ام حامد، انتى أخدتى نصيبك خلاص. الشوال دا بتاعى أنا".

ضحك شحات، "لما تيجى امى الغيط، تلخبط كل حاجة".

أخذت أم حامد تعد الجوالات بصوت عال، " أنا حاخد خمس شوالات، واخلى معاك سبعة عشان تبيعهم لينا ".

ابتسم فاروق، "عايزة فلوس، ممكن اديكى خمسة جنيه من جيبى".

"لا.لا، إذا احتجت لفلوس ابقى آخد من اخويا أحمد"

تعمد فاروق أغاظتها، "ليه بتعترفى قدام البنات انك بتاخدى فلوس من أخوكى؟"

شعرت بالإحراج، لذا غيرت الموضوع، "القصب السنة دى وحش خالص، وانت عارف كده"

"أيوه صحيح، التسع أيام اللى سافرت انا فيهم، انتى وشحات ما زقيتوش القصب كويس"

ثم وقف على قدميه كأنه يود أن يوضح الأمور، "والله العظيم يا ام حامد، وقدام الرجالة دى كلها، أنا حانده لواحد من رجالتى وتحلفيه إذا كنت انا بازقى القصب كفايته من الميه والا لا!"

نادى فاروق بصوت عال لرجل يعمل بعيدا، فأتى هذا مسرعا، "باقولك إيه يا محمود، قول الحق يا شيخ، إذا ما قلتش الحق ربنا ياخد عيالك ويخرب بيتك. أنا كنت بازقى القصب كفايته من الميه والا لا؟"

قال الرجل، وهو بالكاد يرغب فى ترك عمله، "أيوه، انت بتزقيه آخر تمام"

قالت له أم حامد، "بس الرجالة، أحيانا بيرووا الزرع، وأحيانا لا. مش كده؟"

ابتسم الرجل، ثم أسرع لمكان عمله.

قال شحات، وهو لا يفقه هذا الود القلبى الحديث الذى نشأ بين والدته وبين فاروق، "ما تزعلش يا فاروق". ضحك فاروق، "أنا عمرى ما

ازعل، ازاى بس عايزنى ازعل من مرات حبيبى عبد الباسط الله يرحمه، دا ابوك كان صاحبى الروح بالروح. كل يوم كان ييجى هنا وجيوبه مليانة بقزايز البراندى والكونياك. عمره ما سأل فى موضوع الفلوس أو الزرع، أنا اللى كنت بنفسى أجيب له المحصول لحد باب البيت".

ما أن تسلم شحات نصيبه من العدس، وذهب به محملا على حماره، إلا وقامت أم حامد بفرد قماشة كبيرة فى المندرة الأمامية، ثم فرغت كل الأجولة. بدأت بعد ذلك فى تجهيز ربطات سوف تقدمها هدايا لأفراد العائلة وأصدقائها. هذه الربطة سوف تكون من نصيب أخيها أحمد وزوجته، ثم اثنتان لابنتيها المتزوجتين، وواحدة لوالدة "العزب" وأخرى لعبد الرحمن. ثم لا يجب أن تنسى شلتوت المسكين وزوجته زينب فى القهوة. عندما برزت رأس سعاد فى باب الدار، صاحت هذه، "حتاكلى العدس ده كله لوحدك يا ام حامد؟ ". حتى هذه لا يمكن استبعادها من الهدايا. بعد ذلك هناك حبيبتها بهية، وبالتأكيد لا يمكن أن تنسى الشيخة داية.. وهكذا استمر الحال.

صباح اليوم التالى، عندما توجه شحات ليجلب بعض الحشائش للبهائم، اكتشف أن العدس المتبقى لن يكفيهم للستة شهور التالية، نصفه قد اختفى. بسرعة صعد إلى الدور الأعلى وهز كتف أمه بعنف وصاح فيها، "فين العدس؟". ما زال النعاس ممسكا بتلابيبها، فى ذهول تساءلت، "عدس إيه؟ حصل ايه يا ولدى؟"

هنا اشتعل غضب شحات، "دلوقتي مين فينا اللى وحش ؟ أنا والا انتي ؟ دايما تقولي عني اني كسلان واني ما باخدمش الأرض كويس، واني مش واخد بالي من حاجة خالص، إيه اللي عملتيه ده في العدس؟ تكونيش انتي برنسيسة غنية؟ انتي إيه؟ انتي عبارة عن ست غلبانة وفقرانة وجعانة كمان!"

بخوف، هبت فيه، "يا فطيس! ما لكش دعوة! "، ثم صاحت بصوت أجش، "ازاى انت تزعق في وشي كده؟ دا بيتي وانا حرة اعمل اللى انا عايزاه. امشي بعيد عني، يا ريت الكلاب تاكل قلبك! إيه اللى انت عملته للبيت ده؟ ودلوقتي عامللي شغلانة عشان شوية عدس اتصرفت انا فيهم؟"

" انتي اللي تغوري، انشالله الكلاب تاكلك انتي وأهلك كلهم!"

أصيبت أم حامد بصدمة كبرى. شحات لم يخاطبها من قبل بهذا الأسلوب، فهددت، "أنا قايمة رايحة لخالك أحمد يشوف شغله معاك ويعلمك ازاى تحترم امك!". هي في الحقيقة تخشى بالأكثر لسان أخيها أحمد.

"إذا هو جه هنا، أنا حاقطعه حتت! انتي اللي الغلط راكبك من ساسك لراسك، مش انا".

في الطابق الأرضي، حاولت أم حامد أن تتحامى في سماح، لكن هذه وقفت مع أخيها وتساءلت، "ليه يا امه بذرتي نص العدس بتاعنا؟"،

ثم أخذت تعدد أسماء كل من تسلم هديته فأصابت الدهشة أم حامد . لقد نسيت أنهم بهذه الكثرة.

"ازاى يا بت حفضتى أساميهم كلهم؛ يا سلام يا سماح، أعمل إيه بس يا بتى، كل واحد كان بيسألنى المحصول كويس والا لا، كنت اتكسف واديله شويه"

عندما حمل شحات العليقة لبهائمه، نادته أم حامد والقلق مسيطرا عليها، "ما فيهاش حاجة يعنى لما نهدى شوية عدس للحبايب والقرايب، لما الواحد يكون سخى كده، ربنا بيرزقه كمان وكمان. تعالى يا حبيبى اشرب الشاى".

"لا. مش عايز زفت"

رفعت أم حامد يديها للسماء ودعت، " يا رب، من فضلك غير من طبع ولدى شحات، وخليه يكون مهاود وساكت".

أجزاء من المباراة

الحياة فى القرية محكومة بالمواسم الزراعية. وشحات، بالرغم من أنه زرع عدسا بسبب تحكمات المفتش، فى الحال بدأ فى مساعدة العزب وعبد الرحمن وأبناء عم سالم وأيضا الحاج عبد المطلب فى حصد محصول القمح، وهو المحصول الشتوى الرئيسى. الحرارة المزعجة لصيف مصر العليا كانت على الأبواب. لذا فالحصاد كان يبدأ من الفجر حتى وقت الظهر فقط، لكن شحات كان راضيا عن نفسه، هكذا هو الحال معه دائما عندما يعمل بكل جهده فى الحقل.

عندما زادت الحرارة بمرور الأيام، بدا شكل السماء باهتا؛ الحقول الخضراء تحولت لتصبح غامقة الصفار. أصبحت القرية مغبرة أكثر من أى وقت مضى. الغبار استقر كأنما هو الطلع فوق ظهور الحصادين الغارقة فى العرق. عند الظهر، عندما يتوقف عمل اليوم، تتحلق فى الجو غلالة كثيفة من الغبار تغطى وجه السماء، وتتحول الشمس إلى اللون الأبيض الشاهق. كل صباح، يمكن أن تلاحظ الظهر المحنى لشحات وزملائه وهم يعملون فى حقل أو آخر، وهم يعملون فى السنابل

الناضجة، ممسكين أحيانا بمجموعة منها فى وقت واحد، محاولين بقدر الإمكان تفادى أشواكها، يتقدمون ببطء، يتنقلون من جانب لآخر، يقفون أو يقرفصون على أردافهم قليلا ليستريحوا قليلا. بكل ثبات وبطريقة آلية ينتقلون من نهاية حقل إلى بداية آخر، ينتظمون فى صف عرضى طويل، مناجلهم تلمع فى الشمس، ويصدر منها جميعا نفس الصوت جرراس.. جراس.. جررررس. من لمعة مناجلهم، من ظهورهم المبتلة بالعرق وبالطريقة التى يجمعون بها السنابل، يمكن أن تتخيل درجة الحرارة الخانقة التى يتعرضون لها.

كل من شحات وعبد الرحمن هما الأسرع فى العمل، العزب كان بطيئا وثابتا فى مكانه، أبناء سالم يتعبون سريعا. ما أن تبدأ العضلات فى التعب والتوتر، تزيد درجة ميل الشباب لتبادل النكات والثرثرة؛ كثيرا ما يغنون تلك الأغنية الحزينة بالطريقة الصعيدية التى تشبه البكاء "يا لوبلى.. يا لوبلى".

فقط فى حقل الحاج عبد المطلب يبدو العمل كأنه لا يتقدم أبدا، ففيه عشرات من الحصادين الأكبر سنا، الأكسل وكذلك بلهاء القرية، هم جميعا يحصدون أقل القليل، بينما القمح الناضج ينشف بسرعة ويتناثر على الأرض. يعبر هؤلاء الحصادون الكسالى عن رأيهم بقولهم، "لماذا نتعب أنفسنا. الحاج فى منتهى البخل، لا يعطينا سوى خمسة وثلاثين قرشا، بينما الآخرين الذين يعملون فى الحقول الأخرى يحصلون على

خمسين". الحاج عبد المطلب بذاته يحضر أحيانا إلى الحقل وفوق رأسه مظلة بيضاء تقيه حر الشمس، ثم يقف بعيدا يشكو كم هو منشغل، كيف أن الحصادين هؤلاء مجموعة من الكسالى، التكلفة العالية للعمالة، السعر المنخفض للقمح وكذلك مقدار النقود التى ينفقها لزراعته. بهية ، التى تحضر الشاى للعاملين تؤنبهم، "انتو والله ناس بطالين، بتسيبوا سنابل كتيرة وراكم، شوفوا قد إيه اللى حصدتوه انهاردة، قليل خالص! أعمل إيه بس يا ربى؟ ما اقدرش اعمل كل حاجة بنفسى، جوه البيت وبراه. أنا باشربكم شاى كتير، وفاكرين انتو إننا حنبيع القمح ده بشوية وشويات. مش واخدين بالكم من المصاريف ! البذور، الميه، العمال والنتروكيما!"

بهية تقدمت برجاء لشحات أن يأتى ويساعدهم. أخبرها، "بصراحة الحاج بخيل خالص، عمره ما يهون عليه يدفع كويس عشان ياخد عمال كويسين، بكده يخللى القمح كله يقع فى الأرض". ذهب شحات يوما ليحصد فى حقل الحاج، ثم خاطب الحصادين بصوت عال، "بصوا يا رجالة، الست بهية هى اللى بتجيب لنا الشاى، لكن كل يوم ترجع بيتها زعلانة. من فضلكم اشتغلوا أسرع من كده، والا حيضيع نص المحصول ده. لازم يا اخوانا نساعد سواء كان الحاج كويس أو وحش، كفاية إن مراته هى ست الستات". لكن العمال احتجوا وقال أحدهم، "ليه نتعب نفسينا ؟ إذا خسر الحاج المحصول، فده ذنبه لإنه ماسك خالص"

عندمـا توجـه إلى مـنزله يومـا وقت الظـهر، مـتـعـبـا، مـرهـقـا، مـبللا بالعرق والغبار، رأى صديقه "القط" يسير مسرعا فى الطريق المجاور للترعة. أسرع ليلحق به، لكن ما أن رآه القط قادما نحوه، أسرع فى خطوه. بالرغم من شدة حرارة الظهر، كان القط مرتديا جلبابا صوفيا أسود وجيوبه منتفخة. ظن شحات أن صديقه يتودد حاليا لعروس جديدة وذاهب ليقدم لها هداياه.

نادى عليه شحات، بعد أن لحق به ومشى خلفه بعدة خطوات، قال له قاصدا إغاظته، "وشك مغير يا قط، انت رايح جنازة والا إيه؟ عامل زى اليتيم اللى واكل أهله. ايوه، بس انت عمرك ما تقزح بالسرعة دى، يكونش عشان تلحق بالجنازة؟ لا أبدا. انت عامل زى الكلب اللى عايز يحصل كلبة فى عز الحر ده"، ضحك شحات على النكتة التى أطلقها.

بدون أن يقلل من خطواته أو ينظر خلفه، قال القط، "امشى بعيد عنى يا شحات. سيبنى لوحدى، إذا ماتت البلد كلها، أنا ما باروحش جنازات، ما امشيش إلا فى المواضيع المهمة وبس"

"طاب ليه جيوبك مبقللة كده؟"

"ساعة سودة اللى شفت فيها وشك، شايل معايا شيكولاته، سكر، شاى وكمان مشط وإسورة".

"اتلميت على الحاجات من فين يا قط؟"

"سرقتهم"

في تلك اللحظة خرجت بهية من الحقل فرأت القط، لذا صاحت، "على فين العزم يا قط وانت بجلبيتك السودة الصوف دى فى عز الحر؟".

"رايح لحبيبة القلب"

أطلقت بهية ضحكة مرحة، "أيوه.. دا لايق عليك خالص"

أسرع القط وتجاوزها وهو يقول بصوت عال، "أى مصيبة يقع فيها الراجل، يبقى وراها واحدة ست، لما الواحد يطلع فوق المره يبقى كل شىء تمام، لكن غير كده، كلكم شر"

شهقت بهية شهقة عالية.

نظر القط خلفه، "ابقى استنينى هنا يا بهية، يمكن ربنا يكتبهالك وتكونى مراتى نمرة خمسة!"

لعنته بهية، "روح. الله يخرب بيتك!"

علق على ذلك، "إيه ؟، بتقولى انك حتجينى حتى لو اتخرب بيتى؟".

خشية أن تستمع للمزيد، أسرعت بهية فى الاتجاه المعاكس.

كان كل من شحات والعزب يحصدان فى الصباح بعد ذلك بعدة أيام، عندما شاهدا القط عائدا سالكا نفس الطريق المجاور للترعة،

وعروسه الجـديدة تركب حمارا بجواره. جرى الرجال تاركين الحقول، ثم تجمعوا فوق الكوبرى ليرحبوا به، وطالما أن الوقت لا يسمح بإحضار الطبالين والزمارين، أمسك كل واحد منهم بعصا وأخذ يطبل على علب الصفيح أو أى شيء آخر يجده. صاح شحات فوق تلك الضجة الهائلة، "عارفين ليه الحر زاد وغطى اليومين اللى فاتوا ؟ أنا عارف. أصل القط كان بيتمتع بشهر العسل فى السر!"، انفجر الضحك والضجيج وعبارات الترحيب، مما جعل كل من بهية وأم حامد تخرجان من منزل الحاج ليستطلعا الأمر. صاحت بعض النسوة، "مرحبابك فى بلدنا يا عروسة. مبروك" ، ثم أسرعن يحيين العروس ويصافحنها . العروس هى أرملة من قرية الموريس، يقال إن سكانها من نسل جنود نابليون ومشهورون عموما بجمالهم. الأرملة لم تكن شابة، لكن كانت جذابة وسمينة إلى حد ما. أعطت كلا من أم حامد وبهية بعض الحلوى والكحك، فضحكت أم حامد وصاحت، "انشالله يا قط العروسة الجديدة تملا بيتك عيال!"

قال القط وهو غاضب وفى حالة هياج بسبب ذلك الاستقبال العاصف، "انتو بتضحكوا وتهيصوا جامد ليه كده قدام العريس الجديد؟".

أخبرته أم حامد، "أنا باضحك عشان انت راجل ولا كل الرجال. الكل قالوا مافيش عروسة حترضى بالقط، لكن أهه عملتها".

لأيام عدة، عندما يمر شحات والعزب على بيت القط ليلا يصيحون، "القط، القط "، واذا أخطأ وفتح ضلفة نافذة ليطل وهو عليه علامات النوم

وشعره منكوش، يقولون له، "انت زعلان ومقهور ليه يا قط، هو الحال مش ماشى تمام مع العروسة والا إيه؟".

القرويون دائما ما يكونون فى حالة انشغال دائم بأمورهم الخاصة، لذا لا يهتمون كثيرا بالأمور الخارجية، بالرغم من أن الكثيرين منهم كانا يستمعون لخطب الرئيس فى قهوة شلتوت. منذ قيام ثورة ١٩٥٢، حتى أفقر الناس شعر بقليل من التحرر، لكن قبل ناصر، كان الحاكم معناه هو الطاغية المستبد، يهتم فقط بجباية الضرائب ويجبر الناس على دخول الجندية، وعادة ما كان أحد يهتم بالفلاحين من الناحية السياسية.

فى صباح أحد الأيام، على الطريق المجاور للترعة، قابل شحات مجموعة كبيرة من مسيحيى نجع باسيلى يسيرون وقد ارتدوا ملابسهم السوداء، عيونهم حمراء من فرط البكاء. منذ الوهلة الأولى، ظن شحات أن هذا التجمع يختص بوفاة أحدهم، لكن شرحوا له بأنهم يشيعون الآن شابا اسمه رومانى إلى محطة السكة الحديد فى الأقصر، فهو مطلوب للتجنيد.

مترى العجوز، وهو الجد الأكبر لرومانى هذا، كان هو الذى يقود هذه الحملة الحزينة؛ بالكاد استطاع أن يخفى نشيجه عندما حيا شحات، ثم انهمرت الدموع الغزيرة من عيونه شبه العمياء. حتى رومانى نفسه، وهو شاب متين البنيان، دمه حامى، لا تعوزه الشجاعة والمقدرة عندما يتخانق مع أحد أفراد عائلته، هو الآن يشهق كما لو أن حكما بالإعدام قد صدر ضده.

قال مترى بصوته الواهن الحاد، "هى أخبار الديش إيه دلوقتى يا شحات، فيه حرب الأيام دى والا لا ؟ رومانى ولدى حيموت فى الديش؟ إيه الأخبار، قول الحق يا شحات".

أجاب هذا، "أنا حاعرف منين؟ أنا ما اعرفش أقرا كويس، خليها على الله يا مقدس"

استمر الرجل فى نشيجه، "حيرجع ولدنا ازاى؟ إذا ما خسرش عينه، حتتقطع إيده أو رجله. رومانى إذا دخل الديش، يبقى خلاص، راح، انتهى".

كان شحات يسمع أنه فى الأيام الغابرة، شباب القرية كانوا يلجأون إلى قطع إصبع من أصابعهم أو يفقأون عينا لكى يرفض تجنيدهم. أو أن يختبئوا فى الصحارى إذا عدموا الوسيلة للهرب واضطروا لدخول الجيش ، يتلقى أهلهم التعازى رسميا كأن ابنهم قد مات فعلا. فى الأيام الغابرة، كان هجران القرية معناه الموت المؤكد.

لكن الوقت تغير، الآن يعود أصدقاء شحات من الجيش متعلمين ومدركين لكل ما يحدث فى العالم الخارجى. حاول شحات مرتين أن يتجند، لكن طلبه كان يرفض بسبب صغر سنه. لكن الآن هو يرفض لأنه الابن الأكبر والعائل لأرملة بأولاد.

نصح رومانى قائلا، "ما تخافش يا وله، الكشف الأولانى ما ياخدش أكتر من ساعتين تلاتة، بعدين يرجعوك بيتك. دول بس حيقلعوك هدومك

ويفحصوك، إذا كنت لايق، المرة التانية حتبقى عسكرى جيش، وحتتبسط خالص، حيدولك زى ويأكلوك وكل حاجة"، ولكى يرفع من معنويات الشاب أضاف، "خد معاك باكتة سجاير، دا كل اللى يعوزه العساكر، حيخلوك تفحص الأول بعدها ترجع بيتكم بسرعة".

لرومانى، كان هذا الحديث كأنما هو وصف لحفلة إعدام، قال لشحات، "ادعى لربنا يا شحات، ما سيبك منى انا"، ثم أخذ ينهنه، واستمرت مسيرة الجنازة.

من طرف الحقل، أخذت أم حامد تزعق، "شحات، يا شحات"، عندما حضر إليها قالت إن الحاج على قد تلفن لصبحى من القاهرة طالبا منه أن يحضر إلى القاهرة ومعه شهادة وفاة عبد الباسط المجند القديم لكى يطالبوا بتقرير معاش لأرملته وأولادها. غادر شحات مكان عمله واستدعى خاله أحمد ليحضر مؤتمرا عائليا. لقد علموا أن الحاج قد أخبر صبحى بضرورة قيامه بإحضار الشهادة بنفسه، وأنه ليس هناك لزوم لحضور شحات أو أم حامد. فى المؤتمر قررت أم حامد ومعها أحمد بأن الوحيد الذى يمكن أن يؤتمن على الوثيقة لن يكون سوى شحات نفسه.

دبر أحمد بعض الجنيهات من أجل سفر شحات بالقطار، وأعطاه أيضا حذاء وشرابا من مقتنياته. سافر شحات بالدرجة الثالثة فى قطار الليل الذى كان ممتلئا بالجنود، لذا اضطر أن يقف طوال فترة السفر.

أخيرا وصل فى الفجر إلى محطة باب الحديد، ثم اخترق ميدان رمسيس وسط ازدحام خانق، وبالكاد ألقى نظرة عابرة على التمثال الجرانيتى للفرعون القديم رمسيس الثانى. ما أن خطا وسط الحوارى المتشعبة لباب الشعرية، أكثر مناطق القاهرة كثافة سكانية، حتى وجد نفسه وسط عدد كبير ممن يرتدون الجلابيب والعمم، لذا أحس فى هذا المكان كأنه فى بلدته. إذا كانت قريته تتمتع بميزة لا تختص بزمن محدد، بمعابدها الفرعونية والصحراء الشاسعة التى تحيط بها من كل جانب، فإن باب الشعرية يعيش فى جو القرون الوسطى.

أسرع شحات مخلفا وراءه العمارات، المساجد، القصور المملوكية، يشاهد لحوم ذبائح الجاموس المخططة بالألوان الحمراء، معلقة فى خطافات فى الهواء الطلق أمام محلات بيع اللحوم، وكذلك أرجل الجمال المجهزة لمن يرغب فى شرائها. يرى الحمامات الشعبية، والمقاهى التى تقدم القهوة التركية والشاى والقرفة واليانسون. وهو يسير، مرت بجواره عربة يجرها حمار، ثم طرطشت عليه عجلات هذه العربة بعضا من المياه الطينية ولوثت جلبابه، واحد من المارة بجواره أخذ يزعق، "يا عربجى يا ابن الوسخة!". ثم اقترب منه نوبى، وجهه أسود لامع وهمس فى أذنه، "تشترى أفيون؟". بعدها اخترقت طبلة أذنه نداء بياع يقول "النعناع!".

فى كل مكان، هناك من يخترق طريقه متعجلا، يدفع الآخرين بلا اهتمام، يصرخ بصوت أجش ونفاذ صبر، ضاحكا مثيرا للضجيج.

أخيرا شعر شحات بالارتياح عندما وصل إلى قهوة واسعة غبراء معلق على واجهتها يافطة كالحة "نادى أصدقاء القرنة" . هو مكان سيئ الإضاءة، كهفي الشكل، مليء برجال يرتدون ملابس القرية، يلعبون الكوتشينة، الدومينو، الطاولة أو جالسين يتسامرون، والبعض الآخر يدخن الشيشة. الجرسونات يزرعون المكان حاملين الصوانى عليها أكواب الشاى والقهوة. كل الرجال الذين نزحوا من القرنة أو بيراط تجدهم هنا. شحات الذى لم يتمش من قبل بجوار النيل حيث تقع الفنادق الفاخرة والمبانى الحكومية الضخمة ولم يزر المتحف المصرى أو الأهرام، نادرا ما كان يترك مكان القهوة عندما يكون فى القاهرة.

تعرف عليه أحد الجرسونات وقال له إن الحاج على ينام فى لوكاندة قصر مارينا، الذى برغم أبهة اسمها، ليست سوى بنسيون فقير يلجأ إليه القادمون من الريف. وهو داخل القهوة، وجد شحات مائدة متطرفة، فطلب أن يشرب شايا، ثم استغرق فى نوم عميق، لم يصح منه إلا عندما ربت على كتفه الحاج على ليستيقظ. أخذ الحاج يعنفه، "ليه ما جتش قبل كده ؟ أنا بعت تلغراف وكلمت صبحى بالتليفون" .

حاول شحات أن يستخدم ذكاءه الفطرى، لذا قال، "انت ليه قلت ان صبحى هو اللى ييجى بدل منى؟ " . أجاب ذاك، "لا. لا، أنا ما قلتش كده، أنا طبعا عارف انك مشغول فى الأرض، قلت فى بالى، إذا بعتوا الشهادة مع صبحى حيكون أحسن. دلوقتى ادينى الشهادة"

لكن شحات رفض أن يسلمها له. فى اليوم التالى، كان بجوار الحاج على وهما يزوران مكتبا حكوميا. يبدو أن الموظف كان على علاقة طيبة مع الحاج على، وكان هناك تبادل متعدد للسجائر منه وإليه، وكلاهما يولع السيجارة للآخر. أخيرا قيل لشحات أن يعود بعد شهر ومعه بعض الأوراق التى سوف يصل بها الحاج على ويجب أن تكون ممهورة بتوقيع قاض بالأقصر؛ حينذاك سوف يستحق لأم حامد مبلغ متجمد يزيد عن ثلاثمائة جنيه. كل من سماح ونوبى وأحمد سوف يتقاضى كل واحد منهم جنيهين كل شهر، طالما أن أحدهم لم يتجاوز الواحدة والعشرين من العمر.

ما أن انقضى هذا الموضوع، حتى كان الحاج فى أوج روحه العالية، لذا اصطحب شحات إلى مطعم جيد يقدم الكباب والبيرة. بعد شرب عدد من الزجاجات، أصبح الحاج سكرانا، فقال لشحات، "خلينا نقفل موضوع المعاش ده يا ابن عمى، أنا تعبت من الكلام فيه للرايح والجاى. دلوقتى اوعى لما ترجع البلد تتكلم عنه كمان. انت عارف طبعا قد إيه صبحى راجل بطال وكل مشاكلى مع امك سببها ابن اخويا ده. دا حتى طلب منى ما اساعدكش لا انت ولا أم حامد. دا بيعوم فى الفلوس عوم، مع كده بيحسدكم على إيه ؟ ما اعرفش. دايما يقول انك انت وامك ماشيين فى البلد ومناخيركم فى السما فاكرين نفسكم أحسن منه. على أى حال، سيبنا منه. انت يا شحات ممكن تعتمد على فى كل أموركم".

ما أن سمعت أم حامد عن موضوع المعاش، حتى أخذت تفكر كيف يمكن لها أن تحقق حلم حياتها وهو الذهاب إلى مكة المكرمة. هى أو شحات لم يخطر ببالهم للحظة واحدة أن يستخدموا تلك النقود فى تسديد ديونهم.

شعر أخوها أحمد بغضب عات عندما سمع أنها قبلت مساعدة الحاج على، ما أن قابل شحات حتى بادره، "انت ليه بتتكلم مع الحاج على ؟ دا مكار وتعلب. مالكش دعوة خالص بالراجل ده. ما اتعلمتش انت ولا امك من الدروس اللى فاتت؟". حاول شحات أن يستخدم المنطق معه، "أنا ما اقدرش اعامل الحاج "على" وحش يا خال. دا ابن عم ابويا. لكن بعد ما ناخد المعاش، كل واحد حيروح لحال سبيله. ما تزعلش قوى كده، إذا الواحد كان عايز أموره تنقضى، لازم يبقى حكيم وصابر".

ثار أحمد لأن شحات يحاول أن يلقى على مسامعه بالدروس، لذا رفض أن يصافحه مودعا قائلا، "طيب يا خويا، روح اعمل ما بدالك". تملك شحات غضب مماثل لذا قال، "وانا كمان مش حاخطى بيتك دا تانى!". حذره أحمد، "إذا انت عملت أى حاجة غلط فى امك، أنا حاقطعك حتت وما حدش حيحس بيك".

معاهدة السلام التى وقعت مع الحاج على، ثبت أنها قصيرة الأجل. فتنة، أخت عبد الباسط الكبرى العجوز، شبه العمياء، أرسلت قولا لشحات تخبره فيه أن الحاج على حاول أن يدفعها لتتقدم بطلب ليكون

لها نصيب من معاش عبد الباسط، لكن هى رفضت بإباء وشمم. هى وأم حامد لم يكونا على وفاق لمدة ثلاثين عاما، لكن مرة، عندما سمعت أم حامد أن فتنة تعالج عينيها عند طبيب فى الأقصر، قامت فورا ببيع غنمة ودفعت عنها تكاليف العلاج.

فتنة هذه لم تكن فقيرة، زوجها رجل عجوز معاق وملازم للفراش، لكنهم ما زالوا يملكون ثلاثة أفدنة بجوار الكوبرى، ويقوم العزب بزراعتها. عندما شعرت بالإحراج من عرض الحاج على، سعت لأن تتوافق مع أم حامد قبلما تموت، لذا طلبت من شحات أن يأتى لمنزلها يوما ليتعشى معهم، علما بأنه لم يزرهم منذ أيام أن كان يغازل بطة.

لأن مسكن الحاج على يقع قريبا من مسكن فتنة على المنحدرات الصخرية الصحراوية بجوار قرنة مرعى، توقف شحات هناك وهو فى طريقه إلى منزل فتنة.

حيا الحاج شحات بأسلوبه المتدفق، وشعر باهتمام بالغ عندما علم أن شحات سوف يتعشى الليلة عند فتنة، قال إنه يتمنى أن يلحق بهم، لكن للأسف عليه أن يقوم بزيارة صديقه مفتش البوليس. بينما يتحدث، سمعا نفير سيارة متعجلا فى عرض الطريق، متعجلا فى الذهاب، جمع الحاج الأوراق التى وعد أن يحضرها من القاهرة بنوع من التوتر الشديد وسلمها لشحات مخاطبا إياه، "خد الورقات دول، خللى امك تملاهم وتبصم عليهم وتوديهم للقاضى عشان يعتمدهم، بعدين أنا

حاخدهم معايا مصر لما اسافر تانى". قال شحات، "لا أنا حاوديهم بنفسى"، رد عليه الحاج على بسخرية، "أيـوه. انت اللى توديهم صح، ما انت تعرف تعمل كل حاجة".

تمتع شحات بصحبة عمته فتنة. وضعت بطة العشاء فى غرفة علوية وهو مكون من فراخ محمرة وأرز. كما هى العادة بالنسبة للضيوف من الرجال، لم تأكل عمته معه، لكنها جلست معه وأخذت تتذكر الأيام الجميلة عندما كان جده ما زال على قيد الحياة والبيت الكبير يعج بالناس. الآن، باستثناء بطة والزوج المريض، الغرف العديدة خالية تماما وساكنة وكئيبة.

قالت فتنة، "انت الخالق الناطق جـدك يا شحات، انت تعرف ازاى تتحدث مع كل واحد بلونه، ودايما تنكت، ربنا يحرسك من كل عين ردية".

سمعت جلبة وأصوات فى الدور الأرضى. هناك شخص ما يتحدث بصوت خفيض فظ، لذا نزلت العمة لترى ما هو الموضوع. سمعها شحات بعد ذلك وهى تزعق بصوت عال، أيضا سمع صوت بطه حادا ومنزعجا. وهو يصغى بانتباه لتلك الأصوات وهى ترتفع وتنخفض فى غضب واستثارة، فتح شحات الباب ليتمكن من الاستماع جيدا للكلمات. سمع أحدهم يصيح، "انتى يا فتنة سبب كل المشاكل، انتى اللى شجعتيها على أمور الخلاعة دى!"

زحف شحات نحو الفسحة التى أمام السلم ونظر إلى الأسفل ليتحقق من شكل هذا الذى يتبجح فى عمته. الصالة أسفل إضاءتها خافتة، بالكاد استطاع أن يميز شكل المتكلم. هو رجل طويل القامة، صدره مبطط، نحيف، ذراعاه طويلتان، ظهره محن قليلا. إنه حسن، العبد، من الكوم. وقف أمام الباب وهو مفرط فى السكر يصيح فى وجه فتنة، "كل يوم تلبس هدوم محزقة عشان تجنن العيال! الفاجرة! أنا لازم أخدها بيتى الليلة، دى مكتوب كتابها على ولدى، لازم تيجى معايا وإلا حيسيح دم! دخلة بطة على ولدى الليلة!". إذن كل الإشاعات التى سمعها شحات صحيحة. رفع حسن يده الطويلة ليضرب بها فتنة وهو يقول، "انتى يا عقربة يا عجوزة اللى مرمغتى راسى فى الطين، أنا عارف انتى بتقولى إيه للناس عنى! أعمالك دى حتخلص على ناس كتير!"

فتنة وهى ترتعش وممسكة بتلابيب بطة، بصوت مرعب، "مش ممكن تاخد بطة، يا سكران يا فلاتى، انت تاخدها ليه؟ وبأى حق؟ ابنك معاشر الزوانى وبناتك بيضربوا بطة كل ما يشوفوها جنب البير وبيشتموها شتايم وسخة، ما تقدرش تاخدها".

بطة أيضا وهى تصرخ بصوت هستيرى، "بناتك بيضربونى! أنا حتى مش باكلمهم، أروح بيتك، أبدا، أبدا".

كان مشهدا مرعبا، رجع شحات للغرفة العلوية مسرعا وأمسك أول شىء تعثر عليه يداه، إنها زجاجة ماء، ثم عاد إلى موقعه الأول.

لاحظ أن حسن ممسك بذراعى بطة يحاول جذبها للخارج، بينما تجذبها فتنـــة بجنـون إلى الداخل، حسن أخذ يصرخ فى وجه الفتاة، " اسكتى يا بت، والله لأقطعك حتت، ولا الجن الازرق حيعرف طريقك لما اخلص عليكى! أنا لازم آخـــدك بيتى! الليلـــة! ما فيش عنـدنا بنات تقول أيوه أو لا!".

استمرت فتنة فى ارتعاشـها وهى ممسكة بقوة بملابس بطة، ثم ظهر شخص آخر من بين الظلال، لم يكن سوى والد بطة، وزعق بصوت يعلو صراخ المرأتين، "أيوه، انت بتقول الحق يا خويا، الستات ما لهمش كلمة عندينا، تقدر تاخدها. بس اسكتى يا حماتى. ما تتكلميش، عايزين ننهى الموضوع ده!".

زادت صرخات فتنة، "حسن، انت وعيلتك ابعدوا عنا خالص، مش حيكون فيه جواز بولدك البايظ، بطة دى بنتى أنا، إذا أى واحد حاول ياخدها بالغصب، أنا حاقف قصاده، انشالله اموت، الرجاله السكرانين اللى زيك مش رجاله، الحريم أحسن من ستين زيك".

سمع شحات أصوات أخرى، لذا أطل من الشباك، فوجد أن هناك مجموعة من الناس قد تجمعت، البعض ممسك بمشاعل فى يديه، وآخرون مسلحون بالشوم والبلط والفئوس. كانت هناك أيضا بعض النسوة يصرخن ويبكين. الجميع كان يتصرف بشكل هستيرى.

شخص آخر حاول دخول المنزل، إنه سليمان، الذى يتبع حسن فى كل مكان، هذا أيضا ابتدأ فى شتم فتنة، "أبوكى ابن كلب، يا خرفانة يا مكرمشة، مش عارف ليه ربنا مش عايز ياخدك، الكويسين بيموتوا والزباله عايشة".

أفلتت بطة من قبضة حسن واختبأت خلف ظهر جدتها وهى تنهج وتنشج. من مكان ما، أمسكت فتنة بسكين طويل ورفعته إلى أعلى كما لو أنها تود أن تضرب به أحدا، هذا أدى إلى تراجع الرجال إلى الخلف قليلا.

ارتفع صوت فتنة فوق صوت الرجال، صوت ثاقب غريب، "أنا عجوزة وعميا كمان! لكن إذا ما سبتوش بيتى اللحظة دى، حاقتل أى واحد فيكم واقعد ابكى طول الليل!"

هنا هبط شحات السلالم مسرعا ممسكا بالزجاجة فى يده، اعترضه والد بطة وأمسك بذراعه، "لا. لا يا شحات، ما لكش دعوة بالموضوع ده!"، فزعق فيه شحات، وهو يزيحه جانبا، "أنا مش حاعمل حاجة، إبعد عنى انت بس".

بطة وشعرها منسدل على وجهها، وهى تنتحب وتصدر منها دفعات من الصرخات الهستيرية، اندفعت نحو الباب لتسده، فصفعها شحات على وجهها بكل قوته قائلا، "ادخلى جوه"، ثم أمسك بيدها وجرها جرا،

فسقطت منهارة فى ركن، تنهنه وتغطى وجهها بيديها. أمسك والد بطة يد شحات للمرة الثانية، "يا شحات، من فضلك ما لكش دعوة بالموضوع ده". فشتمه شحات، "انت أصلك ابن كلب، وما انتاش فاهم حاجة. أنا اللى عارف كويس حسن وسليمان، إذا جم ناحيتى، حاكسر القزازة دى فوق روسهم هما الاتنين".

توقف شحات قليلا أمام الباب المفتوح، ووجد حسن وسليمان ومعهما آخرون يسيرون بعد المنحدر متجهين إلى الكوم وهم يزعقون ويشتمون بأصوات خشنة سكرانة. لكن كانت هناك جموع أخرى ما زالت متجمعة فى المكان. من هيئة وشكل هؤلاء، أدرك شحات أنهم فى حالة غريبة من الاستثارة، يبدو عليهم أنهم يستعدون لقتل شخص ما، حيث أمسكوا بعصيهم مشرعة فى الهواء على استعداد أن تخبط وتكسر، وأخذوا يتصايحون بأصوات مرتعدة، أحدهم قال، "انت عارف نفسك يا شحات"، وآخر قال، "إذا عصلج، نرمى جثته فى المقبرة القديمة".

زعق فيهم شحات، "كلاب، كلكم كلاب". لكن الخوف كان يتلبسه، ولم يعارض عندما دفعه والد بطه دفعا ليسرع بالخروج والتوجه لمنزله.

ما أن ابتعد عن مجال نور المشاعل التى أمسك بها البعض، أصبح المكان أمامه غارقا فى ظلام دامس، وبالكاد استطاع أن يتلمس طريقه وهو يسير فوق المنحدر الصخرى. ثم شاهد شحات أحدهم وهو يقترب

نحوه، وأمكن له أن يتعرف عليه من طوله المتوسط وعمامته البيضاء ووجهه الداكن كأنما هو قطعة من الليل ذاته. للحظات، ظن شحات أن هذا الرجل هو حسن وقد رجع، لكن سمع صوتا مألوفا يقول، "سلامو عليكم". لم يكن هذا سوى الحاج على، ثم صدرت منه صيحة فجائية عندما أدرك أن هذا ليس سوى شحات، فصافحه بقوة غريبة بينما يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم تلجلج وهو يقول، "مين ده اللى يقدر يشتم شحات؟ إيه اللى انا سامعه ده؟ إيه اللى حصل عند بيت فتنة؟ ". لكن شحات لم ينطق بكلمة بل تابع مسيرته نحو منزله، ثم التفت وشاهد الحاج وهو يكاد يصل إلى مشارف بيت فتنة، فرجع متسللا فى الظلال وانتظر متسمعا. فى الحال سمع صوت الحاج على الغاضب يقول، "كلكم جبانات، انتو شوية كلاب، ازاى خليتوا شحات يفلت منكم؟ دا انتو أكتر من عشرين نفر! ازاى تسيبوه يفلت من إيدكم من غير ما تعوروه حتى؟ لو كنتوا عملتوا أى حاجة، انتو عارفين انى كنت اقدر اقف معاكم".

بينما يسير شحات متجها نحو منزله، أخذ يعيد التفكير فى موقف الحاج على هذا، ربما يكون قد ذهب بعد مغادرته مكتب مفتش البوليس إلى حسن وسليمان وأخطرهما بتواجده عند فتنة. هو بالتأكيد وراء كل ما حصل، وإلا ما الذى يفسر أن يحضر حسن فى نفس الوقت الذى يكون هو فيه يتعشى فى الغرفة العلوية مع فتنة، ثم يحاول أن يسحب بطة إلى الخارج؟ إنه يعلم الآن أن الحاج على قادر على فعل أى شر.

فى صباح اليوم التالى، حضرت بطة لتزور أمها سعاد، من النافذة العليا لمنزله شاهدها شحات وهى قادمة تدخل الحارة. كانت ترتدى فستانها الأحمر وفوق رأسها طرحة شفافة. ما أن اقتربت، حتى لاحظ أن أردافها تتحرك بتأرجح لطيف ووجهها صبوح جميل. كان يرتسم على وجهها ابتسامة سعادة وانتصار. ابتعد شحات فى الظلال حتى لا ترفع رأسها وتراه.

لم يعد مرة أخرى لبيت عمته، ولم يسع لطلب مساعدة أخرى من الحاج على بخصوص المعاش. ذلك اليوم، أخذ حسن يجول فى أنحاء القرية يسب ويلعن فى بطة بأقذع الشتائم، قال، "البت دى عمرها ما حتدخل بيتى! " . ثم عمل اجراءات فسخ كتب الكتاب. مع الوقت اتضح أن بطة فى حالة حب وهيام منذ زمن بعيد مع شخص يدعى عبد الستار. هو قريب لسنية ومن قبيلة السقائين المكروهة. يقال إن هذا الجمسى الشاب، عندما سمع مقولات حسن، ذهب إلى فتنة وأعلن، "أنا مستعد أتجوز بطة، أنا باحبها وهى بتحبنى. أنا حاوفر الفلوس واجهز الورق وكل حاجة". فتنة أعطت موافقتها فورا .

عندما سمع حسن بهذه الأخبار، صاح قائلا، "شىء عجيب، والله العظيم المفروض البت دى تنطرد من بلدنا دى كلها!" . ابنه على كان بعيدا فى الجيش، لكن كانت هناك مخاوف من أن تحدث بعض المجازر بين الجمسية وعائلة حسن إذا عاد. المتعاطفون فى القرية

وكانوا يناصرون بطة، انقلبوا عليها عندما علموا أنها سوف تتزوج جمسيا. قالت أم حامد، "بطة دى بنت وحشة، وحتجرس العيلة كلها".

الخال أحمد، عندما علم أن شحات قد ناصب الحاج على العداء مرة أخرى، امتلأ قلبه بالسرور. وكان قد سمع إشاعات أن شحات وهذا الرجل قد تبادلا الضرب بالشوم. لكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع من شحات حقيقة القصة، وأعلن، "يا سلام، كلام الناس دايما يقلب كل حاجة".

فى وقت متأخر من الليل، سمع طرق على الباب. أيقظت أم حامد نفسها واندفعت لتفتح شراعة نافذتها العلوية عن آخرها، وأخذت تلهث وهو تقول، "إيه الزيارة الغريبة دى؟". كان الوقت هو منتصف الليل تقريبا. فى الأسفل وقف ابنا الحاج عبد المطلب أحمد ومحمود. فى الحال ظنت أن اللصوص قد عادوا مرة أخرى، لذا صاحت، "إيه اللى حصل يا ولاد، الحاجة بهية بخير؟". بدا على الصبيين أمارات التردد والخجل، ثم دفع الولد الأكبر أخاه ليتقدم قائلا، "اتكلم!". محمود الصغير، وهو بالكاد يبلغ عمره عشر سنوات، نادى بصوت عال حاد، "عايزين ناخد الغنمة بتاعتنا. بكرة حناخدها السوق نبيعها". صاحت أم حامد وهى مغتاظة، "واه". كانت هى والست بهية متشاركين فى ملكية شاتين تحتفظ هى بهما فى زريبتها، "إيه معنته إنكم تيجوا الساعة دى؟ مين اللى قال لكم تيجوا؟ هى امكم جعانة قوى وعايزة تاكل نصيبها الساعة دى؟ إذا كانت بهية عايزة تبيع، يبقى نروح سوا السوق. دلوقتى على بيتكم انت وهو.

أنا ممكن اقتلكم كمان، ما فيش خشا ولا دين، تصحوا الناس فى عز الليل!". ثم أغلقت شراعتها بعنف وذهبت لتستأنف نومها.

حضرت إليها بهية فى الصباح الباكر، محرجة ومضطربة، "يا خيتى، عيالى دول قللات الأدب. الحاج لما عرف بالموضوع، ضربهم بالجزمة، وما استريحش إلا لما شافنى جاية لك. وحياة النبى اللى ربنا يوعدك بزيارته، ما تزعلى منى".

"لا. لا طبعا يا اختى، دا انا لما جانى عيالك فى نص الليل، خفت لبعدين يكون حصلك انتى حاجة وحشة لا سمح الله. بس ليه هما جم فى الوقت ده يا اختى؟ ". ضحكت بهية من قلبها ، "صدقينى يا خيتى، إذا انا ما كسرتش دماغاتهم لما ارجع، لاعمى وما اقدرش اروح بيتى".

أرسلت أم حامد سماح لتصنع الشاى، بينما جلستا سويا على حصيرة، ثم تنهدت أم حامد من قلبها، "أنا تعبانة خالص يا بهية"، وأضافت بصوت مرهق، "من يوم ما جوزى مات، كل يوم مشاكل مشاكل، وانتى قاعدة فى بيتك متستتة ولا دريانه اللى انا فيه. كل يوم ولاد عم جوزى دول، الحاج على وصبحى يتكلموا بصوت عالى فى اللوكاندة، دول بيشتمونى يوماتى أنا وحبيبى شحات، وفاروق هامل الأرض، واخويا أحمد أبو سيد دايما غضبان منى. لما ولادك جم الليلة اللى فاتت، حضروا عشان تكمل المصايب اللى نازلة ترف فوق دماغى".

تلألأت الدموع فى عينى أم حامد وبدأت تشهق، "أعمل ايه بس يا اختى؟" ثم أخذت تنهنه، "أنا من لحم ودم، مش حديد". بدأت تبكى الآن وهبطت الدموع بغزارة لتملأ صفحة وجهها، بهية أيضا بدأت فى البكاء - أخذت أم حامد فى صدرها وأخذا يبكيان سويا بحرقة. لم يبكيا بسبب الحزن، لكن بسبب سنوات طويلة من الخبرات المؤلمة المشتركة، وبحثهن الدائب عن شيء سحرى، اسمه السعادة.

سألت بهية بصيغة اتهام وهى تجفف دموعها وتخلى أنفها بصوت مسموع، "شحات يا اختى هو سبب كل تعبك". احتجت أم حامد وهى تجفف وجهها الغارق فى الدموع بمنديل كبير، "لا، لا. دا لسه شاب صغير وما يقدرش يعوض ابوه" ثم ابتسمت ابتسامة واهنة، "أنا عارفة إن دمه حامى، لكن عمره ما اتخانق بجد مع امه". فى الحال برق فى ذهنها خناقة شحات معها بسبب العدس، لكنها طردت تلك الذكرى، "أنا عمرى ما اخاف من طبعه، لكن كل الناس هنا بيحبوه، وما ياخدوش بالهم من كده. هو الخالق الناطق ابوه، يزعل بسرعة، لكنه يرجع فى الحال". أمسكت بهية لسانها، فمن رأيها أن أم حامد مشابهة فى ذلك المرحوم، دائما ما يسرعان فى غفران أعمال شحات بسهولة منقطعة النظير. لكنها اعترفت فى نفسها أن الجميع فعلا يحبونه؛ بدونه تصبح القرية مكانا كئيبا.

استمـرت أم حـامد فى القول، وصوتها محشرج بسبب البكاء، "أنا خايفة من شىء واحد بس، إذا شحات اتجوز أى بنت، جمسية زى سنية أو لعبية زى بطة، وما كانتش كويسة معاه، كده أنا حاخسر كل حاجة".

"ليه يا خيتى، ربنا يخليلك نوبى وأحمد"

"أنا عارفة"

"شحـات مش حيـورث غير خمس الأرض". كانت بهية تشير إلى القوانين الإسلامية. فكل ولد من الذكور له نصيب متساو، أما البنت فلها نصف نصيب الولد، وتحصل أم حامد على ثمن الإجمالى.

لم يكن هذا ما تقصـده أم حـامد، أخذت تتكلم بصوت خفيض. إنها تتمتع بقدر كبير من الأمانة، كانت تود أن تخبر بهية أنه منذ وفاة عبد الباسط، كل حياتها الآن متعلقة فى رقبة شحات. هى تحب كل أولادها، لكن شحات له منزلة خاصة. بالتدريج، اعترفت لبهية أن أعظم مخاوفها هو أن يجد شحات الضغوط عليه قوية فيهجرها. ألا يختلط بدمائه دم البدوى خليفة الكبير؟ ثم أخبرت بهية، وهى تختار العبارات المناسبة، أن حاجتها لشحات ليست اقتصادية فقط. فوجوده هو أمر حيـوى لها، بيتهـا، عائلتها وحياتها التى سوف تصبح مظلمة وكئيبة وبلا معنى إذا اختفى هو. هى تود أن تراه متزوجا، فى الحقيقة كانت تتلهف لتحقيق ذلك، قالت إنها تخطط لأن تبنى غرفة أو اثنتين فى منزلها

لشحات وعروسه ليظل بجانبها طوال عمرها. أليست العادة والتقاليد تقرر أن يظل الابن الأكبر في بيت العائلة، ويكون عليه أن يجهز العش لمعيشة جيل جديد؟

قامت بهية مندفعة وقبلت قمة طرحة أم حامد، "أنا عارفة أن كل اللى بينا خير"، ثم استأنفت بصوتها العالى المنبسط "باقولك إيه، إحنا الاتنين عارفين قد إيه تربية العيال صعبة، لكن ده نصيبنا يا خيتى".

"أيوه، هما مش دايما بيحترموا أمهاتهم زى الواجب". فجأة ارتسمت ابتسامة على وجه أم حامد وأشرق وجهها. على المرء أن يتلمس القوة الكامنة فى ابتسامتها السعيدة المشرقة، ليدرك كم هى إنسانة جميلة ومقبلة على الحياة. ثم انطلقت ضاحكة؛ هذا جعلها تبدو بسيطة ومتساهلة.

وقت أن غرقت سنباط كلها بالدماء

كان شحات دائمـا ما يخشى موعد حصـاد محصول القصب، لأنه يجب أن يحمل على عربات السكك الحديدية، وهى دائما غير كافية. ولأن بقـاء محصـول أحدهم تحت نيران القيظ لعـدة أيام، هذا يؤدى إلى فقدان نصف وزنه، لذا كانت تحدث معارك كبرى، تصل أحيانا لمرحلة القتل.

قصب السكر بـدأت زراعتـه مع نهاية فيضان النيـل وإعادة توزيع ملكية الأراضى الزراعية فى سنباط. كل فلاح خصصت له أرض عليه أن يستبقى فدانا من الفدانين لكى يزرعهما قصبا. هذا المحصول الجيـد ماديـا، يستغرق اكتمـال نضجه عاما كاملا، ويتم حصده خـلال الفترة ما بين شـهـر فبـرايـر حتى مايو. هو منح الفلاحين ثلاثة أضعاف دخلهم المعتاد. قدرة أم حامد على استخدام حصاد محصولها من القصب كضمـان، مكنتهـا من اقتراض مبلـغ كبير من الحكومة وهو ثلاثمائـة جنيه لتصرفهـا فى واجب الاحتفال بذكرى وفاة المرحوم زوجها.

الحكومة كانت قد افتتحت مصنعا لتكرير السكر فى مدينة أرمنت المطلة على النيل، وهى تبعد عشرة أميال جنوبا، وتمتد خطوط السكك الحديدية التابعة للمصنع خلال حقول القصب على هيئة خطين يمران على سنباط. خلال الحصاد، كان يخصص لكل فلاح عربتان. وعلى المفتش الزراعى أن يحدد موعد قيام الفلاح بقطع محصوله من القصب، ومتى يجلبه محملا فوق ظهور الجمال إلى أقرب مكان مخصص للتحميل بقرب الخط، ومتى يحمله على العربات. ولأن العمل فى المصنع لم يكن بالكفاءة المطلوبة، وحضور وإياب القطارات كان يحدث فيه تأخيرات متكررة، ولأن المفتش ومساعديه أمثال طيار لم يكونوا مخلصين تماما، فهم يراعون البعض على حساب الآخرين، مع انتشار الرشوة، لذا كانت تحدث تلك المعارك.

شحات يشعر بسعادة بالغة عندما يعمل فى النصف فدان المتبقى من ورث أبيه، والذى يقع ما بين منزله والترعة، هنا تستقر زراعاته التى تتكون من البرسيم والبصل، أما الجنينة الملحقة بالأرض وهى مسورة، فبها مجموعة من النخيل وتكعيبة عنب، هذه الأرض كان يرويها بالشادوف، وهو أسلوب للرى يعود إلى أيام الفراعنة. لكن فى سنباط، ومع استخدام الوسائل الحديثة، كان الموقف كله يدعو للإحباط، فكله عبارة عن تأخيرات وتعقيدات.

هذه السنة، كان محصول القصب سيئا. بقدوم شهر أبريل، تراصت أكوام القصب بجوار خط السكك الحديدية فى انتظار التحميل.

أحيانا كانت تنتظر فى مكانها لأيام عدة، لذلك نرى فاروق وهو يشتكى لشحات، "من بدايتها مش باينلها خير، قصب الناس أهه مرمى تحت الشمس عشان ينشف، وسعر قصبهم حينزل الأرض، يمكن ياخدوا نص المفروض ياخدوه. ولاد الكلب بتوع المصنع، عمرهم ما يبعتوا العربيات فى ميعادها"

تم إخطار شحات أن فدانه من القصب سوف يكون ضمن آخر دفعة يتم حصدها وترحيلها. وأن مصنع أرمنت سوف يقفل أبوابه يوم ١٠ مايو.

شحات ومن يملكون حقولا للقصب فى صف عن يمينه ويساره، قيل لهم أن يبدأوا فى قطع قصبهم ابتداء من ٢ مايو. عندما حل هذا اليوم، أكد عليه طيار بقوله، "أنا لازم أخدمك فى موضوع عربيات الشحن يا شحات، دا واجب على، بعد ثلاث أو اربع أيام، حابعت لك عربية. دلوقتى بطل كسل واشتغل بجد وما تخافش. اتكل على الله وعلى"، ثم لمس طيار صدره، علامة أنه من الممكن الاعتماد عليه.

الحصاد ذاته حدث بسرعة مدهشة. كامل زوج أخت شحات وافق على أن يساعده، بالرغم من أنه كان يخشى غضب صبحى إذا علم بذلك، وأيضا استأجر شحات عاملين آخرين من الكوم.

القصب يتم خلعه بواسطة خلخلته أولا بالفاس، ثم ينزع منه الورق الأخضر ويكوم. وكانت قد استقرت عادة جديدة برزت خلال السنوات

السابقة القليلة، هى أن أى رجل يأتى ليساهم فى قطع القصب، يمكن له أن يحمل لمنزله أى قدر من العلف يستطيع حماره أن يحمله كنوع من الأجر. نتيجة لذلك، شحات وكامل، وقد أرهقا من العمل، وكثيرا ما كانا يفردان ظهريهما لتستريح عظامهما المتوجعه، كانا بين الحين والآخر يقفان ويناديان على كل من يمر بهما قائلين، "أى واحد عايز علف لبهايمه ييجى يقطع القصب معانا، يا رجالة، يا نسوان تعالوا..."

وجه كامل، بالرغم من أنه لم يتعد الأربعين من العمر، كان مخططا ومدهنا كأنما هو وجه رجل عجوز ودائما ما تجده سائرا فى الطريق بجلبابه القديم الممزق، وكذلك يداه الضخمتان، نادرا ما تكون نظيفتين. هو إنسان هادئ ومسالم فى القرية، لكن تبدو عليه حيوية فائقة وهو يعمل فى الحقل، ودائما ما يزعق، "يا رب، ساعد الغلابة اللى زيى" أو "باين عليه يوم اسود، يا رب، فوت علينا نسمة هوا أو جيش من العمال من سماك!". شحات معتاد على رفع عقيرته بالغناء وهو يعمل. عندما عاتبه كامل قائلا إنه واجب عليه أن ينشد التواشيح الدينية وليس أغانى الحب والمسخرة، قال هذا، "ساعدنا يا الله، إحنا مسلمين، والنبى ما تزعل منا!"

مثل تلك الغابة من الضوضاء والغناء، المصاحب لها مجموعة من اللعنات، النكات الفجة، القهقهة، جذبت إليها عديدا من العمال. كامل كان يحيى كل وافد جديد بقوله، "آه، أهو صدنا سمكة جديدة ووقعناها

فى الشبكة! تعالى وخد نصيبك من العلف يا جارى، وقعت من السما والا الهوى جابك؟"

"آدى رجاله تانيين جايين"

"عنيك ولا عين الصقر يا شحات"

"واه، صلى على النبى. فى بيتنا الجاموسة رقدت أيام عيانة بسبب العين، دلوقتى عايزنى أرقد عيان، بكده لا حنلاقى حد لا فى البيت ولا الغيط!"

صوت كامل يسمع أحيانا وهو مطمور داخل القصب يزعق، "باقولكم إيه يا رجالة، ما تسافروا بحرى جيهة مصر أحسن. المكان ده ما فيهوش فايدة. يا سلام يا ابويا، نفسى ما كنتش اتجوزت أمى وخلفتنى. شايفين حالى دلوقتى ازاى؟ تعالوا وابكوا على حالى".

مثل هذه التخاريف كانت كفيلة بانقضاء الوقت سريعا، وجذبت لهم عديدا من العمال، لذا ما أن حل منتصف فترة الظهر، حتى كان نصف المحصول قد قطع. سليمان الذى كان غيطه مجاورا لحقل شحات، لاحظ أن العمال الذين يعملون فى أرضه كانوا متأخرين بشكل بالغ. لذا حضر مسرعا نحو شحات قائلا، "يا ولاد الكلب، خلصتوا ازاى قطع بدرى؟ ليه يا شحات انت وكامل كل ما يعدى عليكم واحد تقولوله تعالى حش علف على كيفك؟ المفروض كل ما يعدى عليكم أى واحد من دلوقتى، تقولوله ييجى يساعدنى انا".

مثل هذا القول، كان يقابل بالضحك والقهقهة، لكن عندما حضر ولد صغير لينضم على مجموعة العمل فى حقل شحات، احتجزه سليمان وأمسك بكتفيه، "تعالى ياد، انشالله تاكل ابوك. انت تيجى تشتغل عندى مش هنا!". فأفلت الولد من قبضته واتجه سريعا نحو شحات. ضحك هذا ونادى على جاره، "شفت يا سليمان، الواد حاسس بالأمان عندى، مش عندك!" انضم إليه كامل، "باقولك إيه يا سليمان، كلنا فقرا وتعبانين، واسناننا بتقع لوحديها من الفقر الدكر!". صاح سليمان غاضبا، "خللى بالك ياد. شحات ده بتاع عيال!"، أغرق الجميع فى الضحك، بينما علق شحات، "أحسن من اللى بيعاشر الحمير!". صب سليمان عليهم عدة شتائم منتقاة، ثم عاد لحقله.

فى اليوم التالى، هبت ريح شمالية لطفت من الجو قليلا، وبعدد أكبر من المتطوعين، انتهوا من قطع كل قصب شحات مع وقت الغروب، بينما البائس سليمان، لم ينته سوى من قطع نصف محصوله، لذا أخذ يمطرهم بشتائمه، "يا ولاد الكلب! ليه رحتوا لشحات وما جيتوش عندى؟"

صاح شحات بعدما انتهى من تكويم أخر دفعة من القصب، "الحمد لله، لو الجو ما كانش اتعدل انهاردة، كنت ضربت أى حد، وبدل من إننا ننبسط اننا خلصنا شغل، كنا حننتهى بجنازة!"

ضحك الحصادون، قال أحدهم، "انت صعب خالص يا شحات، عامل زى النار اللى تاكل كل حاجة فى سكتها!"

صاح شحات، "تعالوا يا رجالة، خلينا نخلص بسرعة، وكل واحد يروح بيته، عارفين يا اخوانا، أنا لما أرجع للبيت، كأنى رايح السجن". فى الحقيقة، لا يحس شحات بكيانه وشخصيته إلا عندما يعمل فى الحصاد. فى اليوم التالى، انقضت النسمة الباردة، وأصبح الجو نارا لا تحتمل. لذا عندما انتهى هو وكامل وسائقو الجملين من التحميل للاتجاه نحو المكان المخصص للتشوين بقرب خط السكة الحديد، شعر شحات بإرهاق شديد.

حضر طيار فى المغرب ليخبر شحات أنه بإمكانه أن يحجز له عربة فى صباح الغد عند ساحة التحميل التى تقع على بعد كيلومتر جنوبا، وسوف يحضر أحدهم ليجر له العربة حتى تصل إلى مكان تشوين قصبه.

ما أن رأت شحات وهو مهدود ومنهك، أحست أم حامد بالهم يركبها؛ خشيت حدوث شىء ما قد يعطل تحميل القصب لفترة.

مثل كل المسلمات، كانت أم حامد تحتفل بأعياد الربيع طبقا للتقاليد القبطية القديمة. ففى الأسبوع الذى يسبق عيد القيامة، يؤكل فى اليوم الأول البصل، فى اليوم الثانى الخيار، بعد ذلك بيوم يطبخ العدس وتنثر حباته على جدران المنزل، حيث يقال إن هذا يطرد الذباب،

ثم فى اليوم التالى لعيد القيامة، يقدم البيض الملون باللون الأحمر والأزرق والأصفر، ويركبون الفلوكة للتنزه فى النيل. بعد هذا اليوم بيوم يبدأ فصل الصيف.

ذهب فاروق مع شحات إلى شونة السكة الحديد فى الفجر، ووجدا هناك عربتهما، ما أن بدآ فى التفكير فى دفعها لتصل إلى مكان قصبهما، سمعا صوتا يقول، "خدوا كمان العربية دى!". لم يكن هذا غير صوت لمعى، مالك الأراضى الغنى، وهو دائما ما يكون متبوعا بعدد كبير من أتباعه.

ما أن أزاحهما الأتباع جانبا، مدعين أن هذه العربة تخص لمعى، حتى صرخ فيهم فاروق، "ازاى تسحبوا العربية دى يا ولاد الكلب، دى عربية شحات!".

شحات يعلم أن لمعى لا يحب أن يتدخل البوليس أو حتى صغار الموظفين فى أموره، وذلك بعد تأميم بعض من أرضه، لذا انفجر بكل طاقة الغضب، "كلكم ولاد كلب، أنا شربت المر عشان تتخصص العربية دى لى! دلوقتى كل كلب عايز يلطشها، دا انا لازم لى عربيتين مش واحدة يا كفرة".

تقدم شحات ودفع أحد العمال بعنف جانبا، ثم ضرب آخر على جانب رأسه مبعدا إياه من العربة، كل هذا فعله لكى يبين للمعى أنه

مستعد أن يناضل ويقاتل حتى آخر نفس، "والله لاقتل أى واحد فيكم يلمس العربية دى، ما فيش حكومة هنا، ما فيش قانون! أنا لازم أدافع عن حقوقى بدراعى، وانشالله آخد فيكم خمسة وعشرين سنة سجن إذا قتلت واحد فيكم، لكن بعد كده راسى حتكون مرفوعة لفوق!".

لمعى، الذى لم يكن فى الحقيقة رجلا سيئا، ولا يهدف سوى إلى إتمام أعماله، التفت غاضبا نحو عماله، "أنا قلت لكم يا بهايم تاخدوا عربية شحات؟ طبعا لأ"، بينما تحرك عماله للخلف بارتباك، قدم لمعى لفاروق وشحات علبة سجائره، ليثبت لهما أن اختبار الشد والجذب هذا لم يترك فى نفسه أى أثر. بالرغم من أنه قيل بأن أرباحه فى موسم جنى محصول القصب قد تجاوزت عشرة آلاف جنيه، إلا أن لمعى هذا كان إنسانا بسيطا ومجتهدا، يعمل فى حقوله كأى فلاح آخر.

لم يحاول كل من فاروق وشحات تضييع أى وقت آخر، لذا أسرعا بدفع العربة حتى لا يظهر آخر ويطالب بها. لكن فاروق، وقد أنهكه الانهماك فى الشرب واغتراف الملذات مع عدم تعوده على بذل المجهود العضلى، بدأ فورا يفرز عرقا غزيرا وينهج، ثم سرعان ما طلب أن يستريح. لذا شتمه شحات، "الله يلعنك!"، وأخذ يدفع العربة بكل جهد مستطاع. رد عليه فاروق فورا، "الله يلعن أبوك! " ثم أخذ يلهث ويجاهد فى التقاط أنفاسه، "أنا يظهر اتمزقت، وانت السبب!".

أخذا يجاهدان فى دفع العربة بكل ما أوتيا من طاقة وهما يتبادلان الشتائم، وكانت العربة تتقدم ببطء شديد على القضبان. فى هذا الصباح المشرق، كان لهاثهما، أنينهما وأنفاسهما المتقطعة، لا يقطعها سوى الشتائم المتبادلة.

"انت ابن كلب يا شحات"

"اسكت يا حمار"

"بقه أنا حمار، انشالله العربية دى تدهسك وتفصصك حتت"

"امشى، تحرقك نار جهنم يا فاروق"

"أبوك يتحرق الأول"

"خنزير"

"يهودى"

ضحك شحات وتوقف ليلتقط أنفاسه، "أنا يهودى؟ على كل حال، ربنا بيحب اليهود، عشان كده اداالهم كل حاجة".

بهذا الأسلوب المبتكر، تدفق الأدرينالين فى عروقهم بسبب الغضب، ومضى الوقت سريعا، إلى أن وجدا كومة قصب شحات أمام عيونهما. عندما أدركا أن هناك مسافة قصيرة حتى يصلا، طلب شحات أن يستريحا. فاروق، وهو بالكاد يستطيع أن ينتصب واقفا، لم يشأ تفويت

تلك الفرصة، "احنا عايزين نوصل يا كسلان يا كلب. انت وسخ وابوك وسخ كمان!"

أخيرا وصلا إلى مكان تشوين القصب، وتركا العربة لتنزلق بمفردها إلى أن تقف. تعثر فاروق فى خطوه، وبدا كما لو كان أحد الناجين من حادثة قطار، وانهار دفعة واحدة فوق كومة من القصب، ثم مسح وجهه بخرقة وأخذ يتنفس بقوة شهيقا وزفيرا متلهفا على التقاط الهواء. ثم بدأ مرة أخرى فى لعن شحات ، "يخرب بيتك! يخرب بيت اللى مجاورينك! انشالله كل البيوت اللى فى ناحيتكم تقع وتروح فى ستين داهية. كان يوم اسود اللى شفتكم فيه يا شحات! يا ابن الكلب يا وسخ! بنى آدم كسلان ما ينفعش ببصلة. أنا مش جاى عشان أزق عربيات، ما انت عارف إن رجلى تعبانة. يا ضلالى، عايز كل حاجة تنقضى ليك بالساهل، انشالله بيتكم يتهد فى بحر طين وانت تكون جواه!".

شحات، وقد انفجرت طباعه الحادة، تربع فى الطريق وأخذ ينثر الرمال بيديه أمام فاروق، كالعادة العربية التى تعنى شديد احتقاره، ثم زعق، "خد التراب ده حطه فوق رأسك وراس ابوك".

قفز فاروق واقفا وأمسك بعود قصب ورفعه ليضرب به شحات، "إنت تقدر تشتم ابويا؟". عندما تطلع شحات لفاروق، ولاحظ الدماء المتصاعدة بحيث أصبح لون وجهه ورديا، وقد انتصبت عروق رقبته، انفجر شحات ضاحكا، ثم استغرق فى سعال مستمر حتى كاد أن

يختنق. فاروق أيضا انطلق فى الضحك المستمر، إلى أن استطاع شحات أخيرا أن ينطق، "أعمل ايه يعنى يا فاروق، وانا شايفك بتحترم ابوك قوى!". عندما سيطر شحات على نفسه، قام منتفضا وقبل عمامة فاروق، ثم استمر كلاهما فى تحميل القصب.

لم يمض زمن طويل، حتى حضر بعض من رجال فاروق، وقد شاهدوهما وهما فى ساحة الدرس، لذا أسرعوا لكى يساعدوهما. بسرعة فائقة امتلأت العربة، لكن نصف كمية القصب ما زالت على الأرض. هنا تحقق لشحات أنهما فى حاجة لعربة أخرى.

مع ذلك، ونصف محصول القصب جاهز الآن للذهاب للمصنع فى أرمنت، شعر شحات بالانبساط والرضا أكثر من أى وقت مضى منذ بدأ قطع القصب، لذا وهو فى طريقه للمنزل، أخذ يجهد نفسه فى تأليف كلمات جديدة تحل بدلا من كلمات أغنية معروفة:

ليه ليه ليه ليه ؟

عندك فلوس مراتك تحترمك،

وتقول انت قلبى ودقاته،

ونور عينى.

أيامى من غيرك، يضيع عقلى،

لكن وجيوبك فاضية،

ريحة عرقك تئذى عينى.

ليه ليه ليه ليه ؟

أنا حادخن حشيش وأفيون،

واكون جامد زى التور،

واذا اتبسطت البت،

كلامها يبقى عسل

وإن ما اتبسطتش،

تشوى جسمك فى الفرن

أيوه، حادخن حشيش وأفيون،

وأكون جامد زى التور

ليه ليه ليه ليه ؟

وهو يسير فى الطريق المجاور للترعة ويتمخطر فى مشيته، شعر بدفق هائل من الفرح والسعادة، مثل ما يحدث مع جميعنا فى وقت لا نتوقعه. كان يسير حافيا، غير حليق، مرتديا جلبابه الأسود الكالح، ويلتف حول رأسه شاله الأغبر، ووجهه ملئ بغبار القصب. فجأة شعر

بشوكة اخترقت جلد قدمه، فجلس على صخرة وأزالها باستخدام شوكة أخرى، ثم شاهد سحلية تحاول الاختباء، فألقى عليها حجرا وسار فى طريقه وهو يدندن:

ليه ليه ليه ليه ليه ؟

ثم رأى على البعد صديقه العزب وهو يسير أماما، فأسرع قفزا ليسير بجانبه، ثم تحسس جيوب الصديق فوجد أن بداخلها علبة سجائر، لذا أخذ يصارعه حتى يحصل عليها، صاح العزب، "وقف يا شحات، حاقتلك والله!"

"يا عرص، ادينى سيجارة "

"ما عنديش، مش بادخن"

"واه، الله أكبر عليك"

"انت حمار، خد، بس ليك واحدة ما فيش غيرها"

أخذ شحات سيجارتين، وضع إحداهما خلف أذنه وأشعل الأخرى.

"انت حرامى، وربنا مش حيسيبك"

فى الحـال، بدأ الصديقان فى حديث متصل مع بعضهما. أخبره العزب أنه قابل الحاج عبد المطلب فى الطريق، وبدلا من أن يلقى هذا بالتحية المعتادة، بادره بالقول، "فين لفلوس اللى عليك، حسابك تقل

فى الدكان"، وأخذ الشابان يتضاحكان. لا يكتمل اليوم بدون قصة تروى عن الحاج عبد المطلب. حكى العزب أيضا قصة تختص بالرجال العاملين فى حقول لمعى، فبينما كانوا يحرقون أعقاب القصب، طالت النار حقل جار له وقصبه لم يقطع بعد، واحترق حقله بالفعل وخسر الرجل ماله، لكن العزب علم أن لمعى غضب بشدة من عماله وأصر أن يدفع قيمة الخسارة. ثم حدثه شحات عما حدث صباح اليوم مع لمعى عند مكان التحميل.

لم ينعم شحات بالنوم الهادئ هذه الليلة، فقد كان يشغله موضوع تدبير عربة أخرى لتحمل بقية قصبه. ثم حضر إليه فاروق فجرا ورائحته نفاذة من الخمر المعتق الذى قربعه وكذلك الحشيش الذى دخنه طوال الليل. وجد فاروق أن شحات مستعد للذهاب. وهما يركبان ظهرى حمارين، خشى فاروق من أن يضطرا إلى دخول معركة متجددة للحصول على عربة، لذا قال لزميله، "الناس دى بتخاف من أى واحد جرئ ودمه حامى. إذا حصلت عيطة زى انهاردة، انت اللى عليك الكلام". أجاب شحات، "لا. لا يا فاروق. الناس كلها بتخاف منك، بيقولوا انك مجنون وممكن تعمل أى حاجة، انت اللى تتكلم". انفجر فيه فاروق، "والله العظيم، لأكسر الشومة دى على راسك. أهه ما فيش حد معانا، الناس كلها غرقانة فى النوم، ما فيش غيرى وغيرك وربنا فوق. ممكن اخبط دماغك وما حدش يدرى.انت اللى تتكلم".

بالرغــم من أن الوقت كان مبكرا للغاية، إلا أنهما لاحظا تجمع أكثر من عشــرين رجلا فى ساحة الشحن وطيار فى وسطهم. لاحظ شحات أن قطار المصنع الواقف لم يكن متصلا به سوى ثلاث عربات.

عندما حياهم طيار، قال فاروق، "صباح اسود انشالله، عايزين نكمــل شحن الباقى". ضحك طيار بمنتهى الود قائلا، "أنا فاهم كويس يا فاروق اللعبة اللى بتلعبها، أنا بقه ممكن أبص على الطيور اللى طايرة فى السما واقولك مين فيهم الدكر ومين النتاية. مافيش انهاردة غير تلات عربيات، وفيه ستاشر واحــد عايزينهم، أعمــل أنا إيه دلوقتى ؟ ما تحاولش تخوفنى يا فاروق بحركاتك!".

رأى شحات إحدى النسوة وسط المجتمعين؛ تعرف عليها فورا، فــهى الست "بسـيطة"، أرملة من الكوم، هجرها أبناؤها وهجــوا إلى القاهرة وتعيش الآن بمفردها. أراد طيار أن يعطيها عربة، أما العربتان الأخيرتان فقد خصصهما لرجلين لم يشحنا أى قصب لهما من قبل؛ لكن باقى الرجال تجمعوا حول طيار صائحين غاضبين يقول أحدهم، "عايز أخلص تحميل" وآخــر قــال، "القصب نشف من الشمس" وثالث، "يا ربى.. بيتى اتخرب والحمد لله".

أصاب "بسيطة" نوع من الهستيريا، لذا ألقت بنفسها على الأرض، وحضنت أحــد عجــلات العربــة وأخذت ترتعش وتنتحب وهى تقول، "أى واحد عايز ياخد منى العربية دى، حاعمل أى حاجة، حاقتله! العربية

دى بتاعتى". حاول فاروق أن يطبق نفس التكتيك، فأخذ يزعق فى وجه طيار كالمجنون "ابوك ابن كلب يا طيار. أنا عارفك كويس، عايز رشوة"، لكن هذه الجهود باءت بالفشل. أخيرا ارتضى الرجال أن يسحبوا قرعة، وحدث هذا بالفعل، ولم ينجح شحات. اثنان ممن فشلوا، أصبحا فى حالة هياج بالغ لدرجة أنهما تشابكا مع بعضهما، وأحدهما ضرب الآخر بالشومة على رأسه. بينما طيار والآخرون يرفعون المصاب لينقلوه إلى الكوم، أفاق الرجل وأخذ فى شتمهم جميعا بينما رأسه تنفث الدم بغزارة، ثم أغمى عليه مرة أخرى.

بينما هما عائدان إلى بيوتهما، قال شحات لفاروق، "كتير من الناس حتتكسر رقابيهم عشان القصب الزفت ده، هما ليه ما يجهزوش عربيات أكتر؟".

طمأنه فاروق، "ما تاخدش فى بالك يا شحات، بعد يوم أو يومين حيكونوا عايزين يقفلوا المصنع، وحتيجى كل العربيات اللى احنا عايزينها".

رجع شحات إلى منزله فى مزاج سيئ. عندما اشتكت له أم حامد بسبب شأن منزلى تافه، التفت نحوها زاعقا، "اقفلى خشمك يا مرة! ميت مرة أقولك خللى لسانك جوه بقك، تفضلى كده ساكته زى البطانية اللى بنتغطى بيها. عليكى تبصى بس وما تتكلميش!".

شعرت أم حامد بغضب عات وأعلنت أنها سوف تذهب لبيت أخيها أحمد؛ هناك سوف تعامل بالاحترام الواجب. عندما امتطت حمار شحات، أخذت سماح فى التضرع له، "قوم يا شحات اجرى وراها وبوس على راسها، دى ماشية غضبانة". أجاب، "انشالله تروح جهنم!"

مع ذلك، أخذ شحات يراقبها وهى ترحل من الشباك وظل واقفا مكانه فترة طويلة. ثم طمأن أخته، "ما تخافيش يا سماح، أنا عارف انه لما امك تاخد الحمارة، يبقى أكيد حترجع قبل المغرب عشان اجيب عليها علف البهايم".

وهو مهموم وقلق بسبب استمرار بقاء القصب يوما آخر تحت لهيب الشمس الحارقة، ذهب نحو الشادوف ليسقى حقل البرسيم. خلع كل ملابسه ما عدا كلسونه الأبيض الذى يصل إلى ما بعد ركبتيه. لم يسحب سوى قدر بسيط من الماء، إلا واقترب منه بعض السياح الأجانب، يرتدون زى عمل أسود موحد قادمين من طريق الترعة. تعرف عليهم شحات وعرف أن جنسيتهم روسية يتجولون الآن بعدما قاموا بزيارة المعبد. أحس بقليل من الإحراج بينما صدره وظهره ينديان بالعرق، لذا أنزل جردله النحاسى فى البئر ورفعه ثم أفرغه بسرعة بالغة وهو يغنى، " يا لويلى.. يا لويلى ".

توقف الرجال فى الطريق فوقه يشاهدونه ويلتقطون له الصور. واحد منهم، أسمن من الباقين، وقف يروح عن نفسه طاردا الذباب

بمنشة يدوية، تنهد بعمق وهو يقول، "بلوكسو.. بلوكسو"، ثم أخبر زملاءه بلغته، " هذا الرجل فقير، انظروا، إنه حافى القدمين لا يرتدى ملابس على ظهره". ثم وضع الروسى يده فى جيبه، وأخرج قلم حبر صغير وأعطاه لشحات، صائحا بصوت عال "باقشيش". ما أن تحرك السواح مبتعدين، أخذ شحات يتفحص القلم، فوجد أنه مرسوم عليه مطرقة ومنجل وأيضا هناك وجه إنسان متجهم له لحية. هز كتفيه، وأعطى القلم لأول غلام مر به، ثم استأنف عمله.

هذا المساء، حضر كامل إلى المنزل ليقول إن صبحى قد طرده من عمله كمشارك زراعى، لأنه علم بأنه ساعد شحات فى قطع القصب. صبحى أخطر البوليس أيضا أن كامل يزرع بعض الخضروات بطريقة غير قانونية على حواف الترعة؛ لذا غرم ثمانية جنيهات وسيضطر أن يبيع شاة.

كامل كان يحس بقنوط بالغ، أخبر شحات، "صبحى سألنى: إيه اللى عملته ده مع شحات وأم حامد ؟ قلت له، ولادى بياكلوا كل يوم والتانى فى بيت جدتهم، ازاى يعنى ما اساعدش شحات فى قطع القصب؟، أجاب صبحى: طيب بره! انت مالكش شغل عندى، قلت أنا : انت مش ربنا اللى بيرزق عبيده. لكن قول لى يا شحات، ليه هو بيكلمنى بالطريقة دى. أنا باشتغل فى أرضه طول السنة، وكل الوقت اللى فات ده ما ادنيش غير عشرة جنيه، وشوية علف للبهايم، هو بيعاملنى بالشكل ده ليه؟"

عندما عادت أم حامد واستمعت لقصة كامل، ابتهجت من حدوث ذلك وأخبرت كامل، "انت فلاح شاطر، بس كسلان شوية، ازاى مش قادر تكسب أكتر عشان بنتى وعيالك؟ دول بيدفعوا للحصادين خمسين قرش فى اليوم السنة دى ".

عندما عاد كامل إلى منزله، أبدى شحات غضبه من أم حامد، "ما تتكلميش مع كامل بالطريقة دى". رفعت أمه يديها إلى السماء قائلة، "يا رب، دا راجل ضعيف وعلى قد الحال. شىء صعب انى آخد بالى دايما من عياله، ألبسهم واوكلهم. أنا تعبت خلاص. طاب ليه دايما كامل ساحب عياله وراه، طبعا عشان يعطفوا عليهم ويشحتوهم كام قرش"

زاد غضب شحات، "إيه اللى بتقوليه ده؟ عشان يعنى كامل راجل فقير تتكلمى عنه كده؟ لكنك دايما تنفخى فى اخوكى أحمد لإنه مليان فلوس".

"كامل ده راجل بطال وما عندهوش مخ. ازاى يعنى يشتغل عند صبحى من غير فلوس؟"

"إذا عاز كامل أى حاجة، أنا حاديله. أنا باحب الفقريين اللى زى كامل. باقولك إيه يا مرة، انتى مش الريس فى البيت ده!".

سكتت أم حامد عن الكلام، فنصف القصب ما زال على الأرض ولم يحمل بعد إلى المصنع. لكن فى صباح اليوم، لم تتواجد أى عربة

فى ساحة التحميل. أخبر طيار المزارعين أن تعليمات المفتش تنص على أن ينتظر كل واحد أمام قصبه غدا، وسوف يتوافر عدد كبير من العربات بحيث يستطيع الجميع التحميل.

اليوم التالى كان الحر شديدا للغاية ولا تهب أى نسمة هواء فى الجو. تجمع الرجال تحت ظل شجرة ضخمة بجوار طريق القطار. لقد تعرض قصبهم لنار الشمس المحرقة لمدة ثلاثة أيام كاملة، ولن يمر وقت طويل حتى لا يساوى هذا القصب شيئا، وشقاء عمل عام كامل سوف يهدر.

فى مصر، هناك حالة ذهنية تسمى "التكيف"، معناها هو أن الرجل لا يفعل شيئا، لا ينطق بكلمة، لا يفكر فى شىء. إنه نوع من الاستكانة اليقظة، وسيلة لتحويل الاتجاه الذهنى للفرد لكى يخفض من مستوى الإحباط. فى مواجهة عجزهم عن مواجهة الجهات المسئولة التى تعوزها الكفاءة، انخرط شحات وزملاؤه فى تلك الحالة. منذ الفجر حتى الظهر، تمدد الرجال تحت فروع الشجرة، يتكلمون قليلا، يروحون على وجوههم، تأخذهم سنة من نوم، يسبحون فى خيالات خالصة، هى ليست سوى حالة استرخاء ذهنى صعب الاحتمال، مشابها فى ذلك أكوام القصب المكومة على امتداد طريق السكة الحديد تكويه شمس لا ترحم.

صحا شحات من هذه الغفوة عندما هزه لمعى، الذى كان فى حاجة إلى عمال أكثر لتحميل محصوله، وكان جالسا أيضا وسط المزارعين

فى انتظار القطار. جلس لمعى بجوار شحات، ثم قدم سيجارة له، وزفر متنهدا، "ازاى الحال دلوقتى؟". أجاب شحات بطريقة آلية، "الحمد لله على كل حال". حولهم تناثر الرجال الممددون على الأرض، يتناومون، يدخنون فى صمت، يحملقون فى اتجاه الحقول التى تناثرت فيها أعقاب القصب، ثم تصل أبصارهم إلى صفوف الأشجار البعيدة حيث توجد منازلهم خلفها، مرتفعا فوقها بقايا المعبد الفرعونى، وأعلى منه، يرون هضاب الصحراء الغربية التى تكتسى بلون أزرق باهت. هذه الهضاب ارتفعت كأنها جدار. النيل فى الحقيقة، هو قاع عميق مستقيم محفور فى قلب الصحراء، مياهه لها لون يصعب على المرء وصفه. إذا أراد فنان أن يرسمها، عليه أن يخلط اللون الأبيض، الأصفر، الأحمر، الوردى مع قليل من اللون البنى، وربما يمكن أن يضيف اللون الأزرق كظلال تبدو تحت الشمس الغاربة. فى هذا المكان، يسير النيل فى منحنى مهيب خلال الحقول المتناثرة على جانبه الغربى. المنظر يكون شكلا طبيعيا متميزا، ويصبح الإنسان متفهما لماذا اختار الفراعنة ذلك السهل الطيبى لإنشاء مدينتهم العظيمة.

تنحنح لمعى ثم بصق على الأرض، قال، "من غير النتروكيما، الأرض كلها تبقى ولا حاجة". هو الآن زرىّ الشكل، يكسوه الغبار، غير حليق، عيناه متغضنة الأطراف. على البعد وهو جالس هكذا، يبدو لمعى مهموما بالمحصول مماثلا فى ذلك شحات. استمر فى الحديث، "أرضنا

دى اتزرعت من زمان خالص، ودلوقتى حتى بناخد من تراب البلاد اللى عمروها زمان وخربت ونستخدمها سماد. كل الأراضى اللى هنا يا شحات مليانة من عضامهم وبرامهم. الأرض خلاص تعبت وقدمت".

تجاوب شحات وقال بصوت متعب، "كانت غلطة كبيرة إنهم عملوا السد العالى، الحكومة كانت بتظن إنه حيطلع أكل كتير، لكن الأرض بقت ضعيفة. القصب كان وحش السنة دى. غلط خالص إنهم منعوا الفيضان اللى كان بيجى كل سنة فى ميعاده". بدا صوته كأنه صادر من فم رجل طاعن فى السن، أضاف، "يا ريت يهدوه ويخللوا الفيضان يرجع من تانى".

ضحك لمعى، وقال بأسلوبه الهادئ، "لا. لا، الحال كويس دلوقتى، احنا حاليا بنزرع تلات زرعات فى السنة. عندك مثلا القصب، الفول، الحمص والبرسيم. مثلا أنا عندى ميت فدان، زمان كنت ازرع محصول واحد، إما قمح أو عدس. كان يمكن أتحصل على ألف جنيه دخل، وإذا دفعت مائتين جنيه للبذرة والرى وخلافه، مكسبى يرسى على تمنمائة جنيه، ومن المائة فدان دول، تلاقى عشرين أو ثلاثين فى المية ضاعوا بسبب الفيران والحشرات. دلوقتى إذا أنا زرعت قصب بس، ممكن أكسب خمستاشر ألف جنيه من الميت فدان، طبعا حاصرف نص المبلغ، ويتبقى معايا قول سبع أو تمان آلاف جنيه. قبل السد العالى، الحكومة ما كانتش تساعدنا كتير، دلوقتى احنا بنحقق إنتاج أكتر بمرتين

أو تلاتة أكتر من قبل". رد شحات، "أنا راجل فقير وجاهل كمان". هو على اقتناع كامل أن رجلا غنيا مثل لمعى، هو المؤهل لأن ينطق بمثل هذا الكلام الكبير. لقد سمع مرة لمعى يقول إنه بعد عشرة أو عشرين سنة، لن ينتج وادى النيل في مصر الحبوب والعلف، قال إن الدولة سوف تستورد العلف من السودان، القمح من سوريا والعراق، بذلك تستطيع مصر أن تنتج الفواكه، الخضروات، الزهور لتبيعها لأوربا، وأضاف لمعى، "احنا حنعمل أحسن حاجة لمصر ونحقق فلوس كتير. دا احنا ممكن نعمل أى حاجة، بس الأول نعرف ازاى بتتعمل".

أفاق شحات من غفوته، "لا. إحنا لازم يا عم لمعى ناكل من عرقنا وشقانا، وما نعتمدش على بلاد تانية توكلنا! ممكن بهايمنا تاكل ورد؟ تقدر عيالنا تبلع الزهور اللى بتقول عليها؟ جاموستى لازم تاكل من أرضى. ليه اشترى علف من غيرى ؟ لا، دا ما ينفعش". قال لمعى، "باقولك إيه يا شحات، فى رأيى إنه لو الحكومة ادتنا الدقيق عشان نعمل العيش، يبقى ممكن نعمل احنا بعد كده أى حاجة هما عايزينها". كان رد شحات مرتفع النبرة، لدرجة أنه أيقظ العديد من النائمين، "أبدا. الفلاحين ما يوافقوش على الكلام ده! المسئولين اللى فى مصر مبططين فوق كراسيهم ومش فاهمين حاجة. يقدر الوزير يمسك الفاس ويزرع الذرة؟ طبعا لا. ما يقدرش غير انه يقرا ويكتب وكان الله بالسر عليم". كل كيان شحات كان يخبره أن طبيعة الإنسان تدفعه دفعا لأن يكرر

العمـــل الذى برع فيـــه ويحـــافظ عليـه؛ وما يعرفه الفرد أفضل كثيرا ممـــا لا يفقـــه فيـــه شيئـا. قـــال لمعى، "فى مـصـر بيقـولوا ....." . قاطعه شحات، "سيبك من مصر دى، أنا عايز الحاجة الكويسة تحصل هنا فى بلدنا"

ابتسم لمعى، "احنا يظهر مش قادرين نسيب عوايدنا القديمة، مش كده يا شحات؟".

بعد ذهاب لمعى، كان شحات ما زال مهموما. أخذ يحملق على الحقول التى أمام عينيه، ثم تجاوزها ناحية الهضاب البعيدة، قائلا فى نفسه إن هذه الأرض كلها ليست سوى هبة من النيل؛ وبدون فيضانه السنوى والغرين الذى كان يوزعه على الأرض، فإنها سوف تموت يوما ما.

قاطع أفكاره صوت سليمان الأجش وهو يغالب نعاسه، "وحياة ربنا، انت عيل يا شحات، ليه اتكلمت كتير مع لمعى، راسنا ورمت!".

فات وقت الظهر، أخذ شحات يستجلى بعينيه الأفق الجنوبى لعله يشهد أثرا لدخان القطار، لكنه لم ير شيئا. وهو حائر، والشمس تسرع نحو الأفق الأحمر فى الغرب، قام شحات وسار متجها ناحية دروة فاروق مخترقا الحقول المحصودة. وجد فاروق منحنيا فوق ولعة يحاول أن يصنع شايا. ما أن وضعا الأقداح على فمهما ليشربا، حتى شاهد شحات بنظره الثاقب الآثار الأولى للدخان، ثم سمعا صوتا خافتا

لصفارة قطار، ثم، أخيرا، ظهر فى انحناءة طريق القاطرة ذاتها من بعيد. أخذ شحات فى عد العربات، إنها حوالى خمسين عربة. استمرت القاطرة فى تقدمها، ثم كانت تقف بين الحين والآخر لتترك بعض العربات. أصبحت تجر خمسا وعشرين عربة، ثم خمس عشرة، ثم ثمان. فكر شحات، لعل هناك المئات من المزارعين متناثرين على طول الطريق منتظرين تلك العربات. لاحظ أن لمعى بمفرده حصل على سبع عربات، لذا فالثمانى عربات تركت له وللمنتظرين تحت الشجرة. لكن عدد المنتظرين بالإضافة إليه يصبح تسعة، وليس هناك سوى ثمانى عربات!.

صرخ فى فاروق، "خللى بالك يا فاروق، فيه عجز فى العربيات، داخلين على خناقة إن شاء الله، قوم بسرعة، خلينا ناخد عربيتنا".

"لا. رجلى وضهرى لسه موجوعين من المرة اللى فاتت، ما اقدرش أجرى"

أسرع شحات جريا مخترقا الحقول نحو القاطرة التى تتحرك ببطء. ما أن رآه الرجال الجالسين تحت الشجرة، حتى انتفضوا واقفين وجروا على خط السكة الحديد. أخذ فاروق يبحث عن جلبابه وصندله. بعد ذلك، لاحظ أن شحات قد توقف عن الجرى، ثم تقرفص جالسا على الأرض. لعنه فاروق، "يا ابن الكلب، ما لقتش غير الوقت ده عشان تشخ!". لم يدر فاروق أن شحات كان فى قمة الاستثارة، لدرجة أن مصارينه تحركت عليه. فاروق، وهو حافى القدمين، ورأسه مكشوفة،

أخذ يحجل بسرعة تجاه القاطرة بالقدر الذى تسمح به قدماه. أخذ يقفز فوق الجسور كأنما هو ولد صغير، ويطرطش فى الماء كأن الشيطان بذاته يطارده.

سليمان وصل إلى العربة الأولى وادعى أنها تخصه، فى اللحظة التى وصل فيها شحات الذى أخذ يزعق فيه بوحشية، " سليمان، العربية دى بتاعتى، بتاعتك اللى بعديها ! روح خدها بسرعة ! مش عايزين خناق، العربيات كتير". سليمان، وقد رأى أن العربة التالية لم يحجزها أحد، أسرع نحوها. اثنان من رجال فاروق، أسرعا بالحضور من مكان الجرن ليساعدا شحات فى جر العربة حتى مكان تواجد قصبه. سليمان وآخرون كانوا فى قمة الإثارة لدرجة أنهم دفعوا عرباتهم بعنف تجاه عربة شحات، مما جعل شحات وفاروق ومن معه يقفزون بعيدا حتى يتفادون السحق. أمطرهم شحات بسيل من شتائمه المنتقاة. الرجال الذين كانوا خلفه، أخذوا يزعقون، "ادفع بسرعة يا شحات، لبعدين حد يستولى على عربيتنا، خلينا نحمل بسرعة".

فاروق الذى وجد حمارا فى مكان ما، أخذ يجول به هنا وهناك على الطريق الموازى للخط يصرخ بأوامره ويشتم الجميع، "واحد واحد يا بهايم ! كل واحد ليه عربية واحده بس! يا محمود، يا ابن الكلب! سيب دى لعلاء الدين. يا سليمان، يا طماع يا فقرى، المفروض محدش يبتدى يحمل إلا لما كل واحد ياخد عربيته!".

انفجـر فيـه سليمان كأنـه البركان، "حنحمل العربية دى حتى لو سنباط كلها غرقت دم!"

"خدها يا سليمان. يخرب بيتك!".

حضـر رجـل مسرعا وأمسك بكتف شحات، "ساعدنى يا شحات يا خويا. يا ربى، أنا لازم آخد عربية عشان حمايا!"

شحات لم ينظر خلفه حتى ليتعرف على من يحدثه، "أنا ما يهمنيش حد خالص!"، قالها وهو يدفع بالعربة، "أنا واخد العربية دى أحملها بقصبى واخلص من الموضوع ده!"

عندما وصلوا إلى مكان تشوين قصب شحات، أخذوا يحملون العربة بسرعة خرافية، بينما الشمس تغرب والظلام بدأ يحل جزئيا. الآخـرون اندفعوا ليساعدوا فى تحميل العربات الأخرى. فاروق اختفى، وأخيرا انتهى العمل، واتجه شحات نحو منزله حاملا على كتفه سلما كان قد استعاره من الكوم. لم يشعر من قبل بهذا القدر من التعب والإجهاد، أخذ يتأمل السماء التى تزينت بالنجوم بتعبير فيه راحة عميقة، حامدا الله. هوذا محصول القصب قد انتهى شأنه وفى انتظار العام القادم. شعر أن حرارة جسمه مرتفعة وأحس أنه محموم وكل عضلاته تنقح عليه. عندما حياه رجل عابر مستفسرا إلى أين العزم، استدار شحات وبطبيعته الساخرة قال، "رايح جهنم!".

بعدما تخلص من السلم، وصل منزله فى الظلام، ليجد أم حامد واقفة فى الحارة تصرخ وتحرك يديها بجنون، "شحات، تعالى بسرعة! جاموستى يا ولدى، يا خسارة يا جاموستى! ". وهى تحاول جاهدة التقاط أنفاسها وفى حالة هستيرية، أخبرته أن الجاموسة وهى تتجول وتسير فى اتجاه المعبد الفرعونى، سقطت فى المحلة، وهو الاسم الذى أطلقه القرويون على بركة آمون - رع المقدسة. كان الذعر متملكا من أم حامد، تظن أن هذه الحادثة ليست سوى عقاب من السماء، لأنها طلبت يوما معونة الآلهة القديمة لإنجاب ذكر يعيش.

اندفع شحات نحو المعبد، وشق طريقه وسط القرويين المتجمعين حول شاطئ البركة الموحل الذلق. فى الأسفل، وسط المياه السوداء، المغطاة برغاو خضراء، أخذت الجاموسة تتحرك هنا وهناك خائفة من صيحات المتفرجين أكثر من أى شىء آخر.خلع شحات ملابسه بسرعة ووضعها على جانب، ثم انزلق فى البركة ووصلت المياه حتى صدره، وهو يصرخ بتحديد الاتجاهات، " بسرعة، هاتوا الحبال دى ! ياللا يا رجالة. انتو بتتفرجوا وجاموستى بتغرق! خللوا بالكم من العيابيل دول، لبعدين يقعوا فى الميه!. انت يا كامل، شيل شوية الحشيش دول!". بدأ الهدوء يكتنف أعصاب الجاموسة بعدما تعرفت على صوت صديقها شحات، وهى مستمتعة ببرودة الماء الآسن.

فى الظلام، كان العديد من المتفرجين يتزحلقون ويسقطون بسبب الحشائش الزلقة. صاح شحات، "ابعدوا شوية يا عيال، ما تخلوش حد يقرب ناحية الميه!". بسرعة ربط الحبال حول كل قدم للجاموسة، وثبت آخر حول بطنها، بينما كامل يصنع طريقا بالتخلص من الحشائش ويجهز ممرا طينيا يمكن شد الجاموسة نحوه. أمسك طابور من الناس بالحبال، ثم أخذ شحات يوجههم بصوت خشن منغلق، "شدوا أكتر يا رجالة! شدوا حيلكم! شدوا! ". لفترة ، بالرغم من الصياح، اللهاث، التأوه لم يحدث شىء. ثم بطرطشة مياه عظيمة، اندفعت الجاموسة خارجة من المياه وهى تنخر بصوت عال كله خوف.

عندما عاد شحات بجاموسته إلى المنزل، أخذ الجميع فى تبادل رواية هذه القصة بانفعال شديد، يقدرون قيمة الجاموسة، يتذكرون ما نطق به شحات، ما فعله وكيف كان منظره ويستمتعون بهذا الحدث المسائى المثير.

الأم والابن

بعد العشاء، أصيب شحات بإسهال. رأسه كانت تدور، وعندما شاهد سماح وهى تضرب كلا من نوبى وأحمد، انفجر فيها، "سيبيهم لوحديهم، دا آخر يوم فى السنة. دول عيال صغيرين وتعبانين". تملك الغضب سماح فردت، "انت اللى مدلعهم، حتى لو طلبت من واحد منهم يجيب ذرة ملح أو بق ميه، ما يرضاش".

فقد شحات تحكمه فى أعصابه، فرمى فى اتجاهها بفردة صندله، فزاغت منه وهى تشتمه. قام، وعلى وجهه تعبير مرعب. صاحت أم حامد، "اجرى يا سماح، اجرى". فى لحظات قليلة استرد هدوءه، لكن سماح استمرت غاضبة، وأخبرت أمها، "شحات ده مجنون".

شعر أنه فى حال أسوأ صباح اليوم التالى، تقيأ مرتين، لكنه كان قد وعد فاروق بأنه سوف يحمل جوالين عدس من الجرن يسلمهما إلى المفتش الزراعى فى مكتبه الذى يبعد حوالى ميلين على الجانب الآخر من سنباط، لكن عندما وصل هناك، وجد المكتب مغلقا وعدد كبير

من الناس منتظرين خارجا. انتظر شحات معهم حتى وقت الظهر. أخيرا ظهر المفتش وفى معيته طيار. إلا أن المفتش رفض استلام عدس الحكومة من شحات قائلا، "إذا انا ابتديت آخد حبوب من دلوقتى، حاتحجز هنا طول وقت بعد الضهر، على دلوقتى أروح أطل على الغيطان، لازم كلها تتحرق ونخلص منها بعد كام يوم".

بالنسبة لشحات، وهو فى قمة التعب والإرهاق بسبب الحر وما يشعر به من مظاهر الحمى والإسهال، كان هذا أكثر مما يحتمل، لذا انفجر، "ليه ما تاخدوش الحبوب دلوقتى؟ إذا ما جبناش فى الوقت المحدد تحملونا بغرامة، واذا جبناها ترفضوا استلامها؟ نعمل إيه يعنى؟"

أخذ الجمع يشجع شحات ويصفق له! لكن طيار، خوفا من أن يتعرض شحات للأذية، تدخل وسحب شحات جانبا قائلا، "كفاية كده، خلاص! روح بيتكم وانا حاآخد بالى من العدس ده".

ما أن وصل إلى منزله وهو يترنح فى سيره، ألقى بنفسه على فرشته محولا وجهه ناحية الحائط. شعر بدوخة وسخونة تسرى فى بدنه، عيناه امتلأت بالدموع. كل من شحات وأم حامد لديهما خوف غريزى مبالغ فيه من المرض. إنهما لا يخافان من الموت، لكن لا يلزم سوى أقل القليل من المتاعب الجسدية، وعكة معدة، ارتعاش بسيط، حتى يشعران أنهما على شفا الموت، فوق كل شىء، كانا يخشيان الحمى بالذات.

ما أن وضعت أمه يدها على جبهته، نسيت كل شىء من مهام المنزل واستقرت بجواره، ترجوه أن يشرب شايا أو قهوة، فكان يهز رأسه رافضا صانعا صوتا معينا بلسانه يعنى الرفض، ثم يدير جسده بتأن ليواجه الحائط مرة أخرى. فى وقت العشاء، استطاع أن يتناول قليلا من الفول المدمس والفلفل الأخضر. أثناء الليل حلم أن معدته قد انتفخت وأصبحت بالونة ضخمة، فصحا مفزوعا غارقا فى عرقه.

ازدادت الحمى ومعها الإسهال فى اليوم التالى، لا يتحرك إلا وتقرص عليه بطنه فيسرع جريا نحو مكان الأعشاب الطويلة المجاورة لجدران المعبد، ثم يعود متهالكا ووجهه أصفر ويكاد أن يغمى عليه. عندما علم الجيران أنه مريض، أتوا جميعا فى المساء ليطمئنوا عليه، كل منهم يهز رأسه بالتحية ويقول بشكل رسمى، "سلامتك يا شحات، عياك ده حل بدرى، إن شاء الله تخف ويعدى بسلام".

أتى أصدقاؤه يمزحون، "إيه يا شحات، هو انت لسه ما متش؟".

فيبتسم ابتسامة ضعيفة ويرد، "إن شاء الله انت يا بعيد"

"واه، وليه لا يعنى، إذا كانت إرادته"، ثم يضحكون ليرفعوا من معنوياته.

شمس الدين، الطالب، حضر بالرغم من مشاغله الكثيرة، كان والده قد أخبره بعدم قدرته على الصرف عليه أكثر من ذلك، بينما هو كان يأمل أن يلتحق بدراسة أعلى، لذا فهو بعد الامتحان الأخير سوف يجند

فى الجيش، أخبر شحات، "دا واجب على لازم أقوم بيه. بالكاد استطاع هذا الشاب أن يخفى المرارة التى يحس بها، عندما أخبر شحات بأن الحاج عبد المطلب سوف يرسل ابنه الأكبر، أحمد، إلى الجامعة فى القاهرة السنة القادمة. كان شحات يعلم بأن شمس الدين اعتاد الكذب عندما كان يخبر الغرباء بأنه يتعلم فى القاهرة وليس فى معهد متوسط بأسوان. أراد شمس الدين، قبل أن يغادر مرقد شحات، أن يترك انطباعا فاضلا، لذا أخبر شحات أنه يود له أن يخف من مرضه قبل قدوم يوم الجمعة، حيث إنه ينتوى أن يلقى خطبة فى الجامع، عنوانها "كيف نصلى".

هذا أبهج شحات أكثر من أى أحد آخر؛ بالكاد استطاع أن يخفى شعوره بالإثارة. بعدها أبلغ أم حامد، "عندينا فى بلدنا ناس عايزة الحرق؛ كل المجرمين واللى ماسكين فى الدنيا بايديهم وسنانهم حيروحوا الجامع يوم الجمعة، عشان يسمعوا شمس الدين وهو يخطب فيهم ازاى يكونوا مسلمين بحق وحقيق. الحمد لله على كل حال".

كثير ممن زاروا شحات بدأوا فى الشكوى من هجوم شرس للعقارب! فبين ليلة وضحاها، عثر على تلك الحشرة المؤذية فى كل مكان، فى طريق الترعة، عند السكة الحديد حتى داخل البيوت ذاتها. الأولاد الصغار أخذوا يجوبون الشوارع ممسكين بمشاعل أو مصابيح محاولين الإمساك ببعض منها لبيعها للمستشفى فى الأقصر. طفلان وشاب

فى الثامنة عشر من عمره تعرضوا للدغ العقارب فى الكوم، وقد توفى الشاب. أسوأ ما فى الأمر، هو أن هناك امرأة لدغت وهى تعزى وتندب فى جنازة الشاب. قال شحات إنهم يجب أن يلوموا السد العالى. قبل ذلك، كان كثير من العقارب تغرق بسبب فيضان النيل. لم يظل الزوار كثيرا فى زيارة شحات، بالرغم من أن أم حامد كانت تعزم عليهم بشرب الشاى. لكن الضجيج المتصل وهم فى حضرته، مع دخان السجائر والثرثرة التى لا تنتهى والضوضاء، تركته كأنما هو الخرقة البالية وشاعرا بأنه أسوأ مما كان.

فى الليلة التالية لمرضه، هبت رياح جنوبية مجنونة، إنها الخماسين. أصبح الهواء حارا لا يطاق ومشبعا بغبار خانق. كما يحدث دائما فى الخماسين الذى يحدث فى الصيف، تنتشر حالات الحمى والإسهال بين سكان القرية؛ قالت أم حامد إنه بانتشار هذه الرياح المحملة بالغبار ومعها العقارب أيضا، لا تتذكر هى أياما أسوأ من ذلك، لقد اضطرت أن تقفل كل النوافذ، وبذلك أصبح البيت مكتوما وخانقا.

نام شحات معظم اليوم الثالث، لكنه فى المغرب خرج ووقف فوق السطوح ليشاهد السماء بمنظرها الرائع باللون الأحمر والذهبى من جراء ذلك الغبار الكثيف وظلاله على ماء الترعة ونوافذ اللوكاندة. ثم شعر فجأة بنسمة باردة تهب بشكل لا يمكن التعبير عنه بعد ذلك الحر الخانق داخل المنزل المحكم الإقفال، لذا حمل فرشته إلى الخارج. لكن ما

أن هبت رياح الخماسين مرة أخرى، قامت هذه بطرده شر طردة وأزاحته داخل المنزل بسبب ذلك الغبار الكثيف الذى تجمع فورا وغطى أكتافه ووجهه وبدا كأنه كريات الطلع، وحتى عندما غطى وجهه ببطانية، وهو يكاد أن يختنق، وجد الغبار طريقه إلى عينيه وأنفه بسهولة بالغة.

معظم القرويين، لا تظل حالة الحمى والإسهال التى يتعرضون إليها فى ذلك الوقت سوى يوم أو اثنين، لكن فى الليلة الرابعة لمرض شحات، تطورت علته إلى حد خطير. ارتفعت مظاهر الحمى وأصبحت حرارة بشرته ملتهبة، لدرجة أنه تعذر عليه النوم، لكنه وهو فوق سريره، أخذ يحملق فى سكون على نقطة معينة من السقف، بينما ذهنه فى بلاد بعيدة. بعد صلاة المغرب، لم تترك أم حامد جانب فرشته، تضع يدها بين الحين والآخر على جبهته تتحسسها.

انزعجت من رقدته تلك، فعيناه مفتوحتان عن آخرهما، وبالكاد يلتقط أنفاسه، لذا سألته، "شحات، راسك واجعاك قوى؟ دى سخنة زى النار يا ولدى". أجاب، ولكن بعد برهة، " أيوه يا امه، بس انا نازل أحلم"

"تحلم بايه يا ولدى؟"

"حاجات كتيرة خالص". لفترة لم ينطق بحرف، ثم، عندما اعتقدت أنه استغرق فى النوم، فوجئت به يسألها، "يا امه، إذا انا مت دلوقتى، حيحطنى التربى فى القبر، مش كده ؟ وبعدين يجينى ناكر ونكير يسألونى ويضيقوا على؟"

"أيوه يا ولدى"

كان يتكلم بصوت واهن متعب، لدرجة أنها أمالت رأسها للأمام لتتابع كلماته، أضاف، "أنا عملت حاجات وحشة كتير، زى القمار، معاكسة البنات، الشرب وكمان الشتيمة والخناق معاكى، كمان أنا أخدت الاتناشر جنيه اللى كان المفروض أسلمهم لفاروق. الملاكين دول مش حيكونوا حلوين قوى معايا، دا انا سمعت كمان إن وشهم فى حالتى حيكونوا زى العفاريت، حيمسكوا فى خناقى وهات يا ضرب، لغاية ما يوصلونى للنار السابعة، وحاقعد هناك لغاية ما كل ذنوبى تخلص".

انتاب الفزع أم حامد وهى تستمع لهذا الكلام، "معلش، ما تاخدش فى بالك"، ثم حاولت أن تسرى عنه، وهى تمسح جبهته بخرقة مغموسة فى مياه باردة، قالت، "يمكن يا ولدى ياخدوك للجنة علطول".

مرة أخرى، زادت فترة الصمت، أخيرا قال، "ناكر ونكير دول" ثم بصوت ضاحك خافت كأنما قد أعجبته الفكرة، "لا. لا، أنا مش زى شمس الدين، طبعا هما حيسألونى، انت كنت بتشتم أمك؟ إذا قلت أيوه، حينزلوا فى ضرب، واذا قلت لا، يعنى باكدب، برضك حينزلوا فى ضرب، زى ما بيعمل فى الشيخ الفقى والغفرا". توقف عن الحديث. أغمض عينيه، راح فى غفوة متجددة. بالنسبة لأم حامد، مرت الساعات وهى فى أشد حالات القلق والانزعاج، وخيل لها أن الأمسية لن تنتهى.

بعد أن حل الظلام الدامس خارجا، وقفت أمام النافذة، بدا شكلها كخيال. ظلت في وقفتها تلك لفترة طويلة، إلى أن فتح شحات عينيه مرة أخرى.

سألته، "أجيبلك اللمبة؟ " . لكنه لم يجب، فأضافت، "راسك لسه بتوجعك؟"

"خالص خالص. والأحلام نازلة ترف على".

استقر في ضميرها أنه يجب أن تحضر له طبيبا مع بزوغ الشمس. مرت ساعات، ثم حضرت سماح والولدان صامتين وحملوا فراشهم إلى السطوح. جلست أم حامد مرة أخرى على الأرض بجوار فرشة شحات. كان ما زال مرتديا جلبابه الأسود الذي ذهب به إلى مكتب المفتش؛ وقد رفض أن يغيره. عندما حضرت سماح، وسألت بصوت خفيض عما إذا كان هناك أي شيء ممكن أن تقوم به، إلا أن أم حامد لم تفكر في أي شيء سوى أي تستقر بجوار فراش ابنها. أخبرت سماح والحزن ممسكا بتلابيبها، "حياتي مش حيكون لها طعم من غيره"

"أنا عارفه كده يا امه"

ارتعش صوت الأم وهي تنهنه، "إذا.. إذا ما خفش يا سماح، ما اقدرش أبدا أستحمل كده". تفحصت سماح وجه أمها الذي غرق في الدموع، وعندما كانت تتحدث تختلط كلماتها بالنشيج والأنين.

أضـافت الأم، "لما اتولد، كنت أنا مش ابوه اللى وشـوشـت فى ودنه الله أكبـر، عمرى قلت لك كده؟ لكن يا ربى، فـين أيام زمـان من دلوقـتى؟ دا ابنى الأولانى اللى عاش لغاية مـا بقى راجل". ثـم كتـمت أنينهـا بقطعـة قماش حتى لا توقظه.

حوالى الساعة العاشرة، ظهر ظل نور أحمر متأرجح على جدران الغرفة، ثم حضرت سماح لتخبر والدتها أن الرجال ابتدأوا فى حرق أعقاب القصب فى الحقول كما يفعلون كل سنة بعد قطع القصب. قامت أم حامد وخرجت لتلقى نظرة فى اتجاه الشرق، فشاهدت منظرا عجيبا، فى خط مفرد، من إحدى نهايات الأفق الشرقى إلى الآخر، فى منتصف المسافة حتى بلوغ النيل، ارتفع جدار من النيران طوله ما بين سبعة إلى ثمانية أقدام، الشرار ينتشر فى كل الاتجاهات كما لو أن هناك مجموعة هائلة من الينابيع تلقى بالنيران عاليا. بدا الوادى كله كأنه قد تفجر باللهب البراق. كانت فى موقعها هذا، تسمع صوت النار وهى تتقدم وتأكل.

بالتأكيد، انتظر المفتش ورجاله انتهاء عاصفة الخماسين، لكن ما زال هناك ريح خفيفة، وكل ما هو على مرأى البصر يسبح فى ضوء أحمر متذبذب. حرق حقول القصب، يعنى أن الحصاد قد انتهى، وأن القصب كله قد وصل إلى مصنع التكرير. بالرغم من أن موقع النار كان بعيدا نحو سنباط، إلا أنها بدت كأنها قريبة للغاية وتهدد أم حامد.

وجدت أيضا هالة سوداء من الدخان تتحرك فوق الحقول، بينما أسراب الطيور تفر هاربة. اللهب يرتفع عاليا فى السماء كثيفا، لونه أبيض متوقد بحيث ظهر نصل كل فرع حشيش واضحا تماما. تدريجيا، بدأت ألسنة اللهب فى الخمود، بينما حزم من الدخان الأسود تحوم فوق القرية.

عادت أم حامد مرة أخرى لتجلس بجوار شحات فى الغرفة المظلمة، عندما تشتعل بعض من أعقاب القصب التى لم تلحقها النار بعد، ترسل فجأة صورة شعله من اللهب تنير الغرفة. هذا المنظر ذكر أم حامد بنيران جهنم. أغمضت عينيها وباتت تغفو قليلا، لكن حتى وهى تنساب نحو النوم، كانت ما زالت ترى تلك الأضواء المتوحشة، كأنما نحن فى اليوم الأخير، وجدت نفسها داخل إطار منظر مرعب كله لهب ودخان، بينما إبليس ذاته، وهو ضخم الجثة، أسود، له قرون وقبيح الشكل- يقود شحات إلى النار وهو يدفع به بعصا طويلة، كما كان شحات يفعل عندما كان يطارد الأولاد إذا تصرفوا تصرفا لا يرضيه. تملكها خوف وفزع، لذا سارعت بإيقاظ نفسها وأسرعت تتحسس نبض شحات، تلاحظ حركات صدره لتتيقن أنه ما زال يتنفس، ثم انخرطت فى دعاء باك وتضرع لله لكى ينقذ ابنها.

حوالى الساعة الثالثة صباحا، بدأ شحات فى التقلب بعنف فى فراشه، وهو يئن ويتوجع وينطق بعبارات غير مفهومة كما لو كان يحلم بكابوس. لقد كان يتوجع طوال فترة المساء، أما الآن فهو يقذف بيديه

فى كل الاتجاهات محاولا الهرب من شيء مرعب. غطت أم حامد فمها بيديها، غير قادرة أن تحول ناظريها عنه؛ حاولت أن توقظه من حالة الهذيان تلك، وأخذت تناديه بصوت خفيض، "شحات، شحات يا ولدى". أخذ هو فى التأوه بصوت عال متألم، لدرجة أن سماح والولدين وقفوا على الباب بالكاد يلتقطون أنفاسهم، معتقدين أن شحات يموت.

كل من الولدين الصغيرين ماتا فى جلدهما من الخوف، شعرا كأنهما فى طريقهما للبكاء والعويل، رغبا من صميم قلبيهما أن ينطقا بشيء بهيج، لكن أنات شحات الخشنة أصبحت أعلى ومستمرة ، لاحظت أم حامد أنه يود أن ينطق بجملة "الله أكبر.. الله أكبر..".

فجأة فتح عينيه، ثم جلس قاعدا ونظراته موجهة إلى نقطة محددة فى الظلام، وصرخ بصوت مرتفع ممتد "الله أكبر.. الله أكبر..!"

تراجع الأولاد إلى الخلف فى ذعر بالغ، حضر الجيران منزعجين، شراعات النوافذ والأبواب فتحت، الكلاب هوهوت، بدأ الأطفال فى النحيب- أسرعت أم حامد إلى النافذة ودفعت بالشراعات للخلف، وصاحت بأعلى صوت، "لا، لا. شحات عيان خالص وهو بيحلم، ما فيش حاجة يا ناس!".

عندما استدارت، أسقط شحات رأسه بعنف على المخدة وهو يتنفس بعمق، ثم صدرت منه أنات عميقة هزت كل كيانه، أخذ يجاهد

ليلتقط أنفاسه. قبضت أم حامد على يده وانتظرت أن ينطق بشيء. عندما تحدث معها، تكلم بصوت هادئ، لكن بنبرة ضعيفة وبانفعال وما زالت عيناه مركزتين على شيء ما بعيدا عن محتوى الغرفة. قال إنه حلم بأنه كان فى حوش مقابر- يتجول بينها وهو يرتدى جلبابه الأسود القديم الممزق، شعر بأن رأسه تؤلمه؛ فهو قد تعرض من قبل إلى التعذيب من شياطين بعث بهم إبليس، كانوا ينهشون وينبحون داخل دماغه، ثم أخذ يبكى ويئن إلى أن سقط فجأة فوق شاهد قبر وخبط رأسه وأصابها. كان الأمر يبدو كأن هناك مجموعة من الشياطين المهتاجة المتوحشة، يدورون داخله فى ثورة يريدون أن يخرجوا.

ثم فجأة ظهر أمامه رجل ملتح يرتدى ثيابا بيضاء، يحمل فى يده سبحة كهرمانية، هذا الرجل أخذ ينادى عليه فى صوت له صدى غريب، قال، "مين؟ مين انت؟ شحات؟ انت لسه بتشحت؟ تعالى عندى، تعالى! ليه لابس هدوم سود بتاعة روح نجسة؟ أدخل هنا، أدخل!"

ثم اجتازا سويا بوابة ضخمة، فى الحال أصبح الهواء باردا ومنعشا، مع ضوء مبهر جميل يملأ المكان، بالكاد استطاع شحات أن يفتح عينيه فيه، كان الضوء يلمع كنور الشمس، من داخل هذا الضوء انبثق شكل رجل آخر، هو أيضا ملتح، لكن هناك هالة من النور الذهبى تحيط به، لدرجة أن شحات اضطر أن يغطى وجهه بسبب الإبهار، ثم أخذ منه هلاهيله السوداء وأحرقها أمامه، وأعطاه عباءة بيضاء لامعة

ليلبسها، ثم ربط زنارا أخضر حول وسطه. بعد ذلك قاداه إلى الأمام ليسير فى حديقة واسعة تزينها أشجار إعجازية وزهور وينابيع ذات جمال لا ينطق به، كل هذا ملأه بشعور مقدس يصعب وصفه. حبس نفسه وتعثر نبض قلبه وسمع أصواتا ترتفع فى رتم هادر سحرى تقول "الله أكبر، الله أكبر"، هو أيضا، شاركهم فى هذا النداء وقد سيطر عليه فرح لا ينطق به اكتنف كل كيانه.

من خلال الكلمات المتدفقة من فم شحات، من النيران المنطلقة من عينيه، من كل حركاته، أدركت أم حامد ذلك الجمال الذى يصفه، لدرجة أنها وقفت وقد رشقت قدميها فى الأرض متيقنة أن هذه بالحق هى البشرى الطيبة. الآن هو سوف يشفى، لأنها فهمت ماذا يعنى هذا الحلم.

الرجل الأول هو الملاك جبريل، والثانى هو النبى بذاته، لأن المباركين فقط هم الذين يمكن أن يعاينوا وجهه. هو الذى ربط الزنار الأخضر حول خصر شحات ، وحرق الشياطين الذين كانوا يعربدون فى صدر شحات، حدث ذلك عندما حرق ملابسه السوداء.

أم حامد إنسانة طموحة، تأمل دائما من صميم قلبها، لكنها حتى الآن لم تنل ما يسر القلب. الآن وقد غط شحات فى نوم عميق، بشرته باردة والحمى اختفت، أخذت تردد بعض الأدعية التى تشكر فيها الله على نعمائه. مع ذلك، الشكوك ما زالت تعربد فى صدرها، هل هى حقا تريد أن تتغير طباع ابنها؟

الجزء الرابع

الإصبع المتحرك يكتب، وقد كتب،

هو يتحرك قدما، لكن لا دهاؤك أو تقواك،

تغريه أن يلغى ولو نصف سطر منه.

كل دموعك، لن تستطيع محو حرف فيه.

من رباعيات الخيام

تراجيديا وكوميديا

فى الحياة الحقيقية، الحدث الفردى العرضى الذى يمكن أن يغير كل شىء، أمر نادر الحدوث، وهذا ما أدركته أم حامد التى تتمتع بخيال خصب رومانتيكى. دائما ما يفعل الناس كل ما هو عادى من شئون الحياة، مثلا تناول الطعام حول النار - مجرد تناول الطعام - لكن فى نفس الوقت، بدون تفكير ، يتحقق شعورهم بملء السعادة التى تغمر كيانهم. بنفس القدر، هذا يحدث بالنسبة للمآسى والتراجيديا، حيث تتقلب حياة بعض الأشخاص فى سلسلة متواصلة من الإخفاقات. وهذا مماثل لمقولة أن يصبح شحات هو سيد قراره، وقادرا على أن يملأ الفراغ الذى خلفه وفاة والده. هنا تستقر مجموعة كاملة من الإخفاقات الغامضة وإساءة للحكم، معظمها تافه للغاية، بحيث يمر بدون الانتباه إليه عندما يحدث فعلا.

عندما طويت صفحة شهر مايو وحل بدلا منه يونية ثم يوليو، رمال الصحراء وغبارها تحولت لتصبح حرارة لا تطاق، حانت الذكرى السنوية لوفاة المرحوم عبد الباسط بدون أن يدرى أحد بقدومها، العائلة أيضا ليس لديها المال الكافى لكى تحتفل بهذه المناسبة حق احتفال.

خلال تلك الشهور، وجد كل من شحات وأمه وخاله أنفسهم فى حالة تطاحن وتصادم مشترك، لم يرغب واحد منهم فى حدوثه. لكن، كالسمكة التى وقعت فى شراك الصياد، تعلقوا جميعا بآمال زائفة من صنع خيالاتهم، وسيقوا نحو التزامات لا يستطيعون الوفاء بها. كما يحدث فى كل الصدامات العائلية، الغضب الناشئ عن الحب المعارض، جعل من مناقشاتهم أكثر عشوائية والكلمات المتبادلة أكثر قسوة وتجن.

من بين الثلاثة، نجد أن أحمد يعتقد أن على الإنسان أن يقرر مصير حياته. بالنسبة لشحات وأم حامد، القدر والنصيب يتحدد بناء على حركة قوى خارجية لا يمكن التنبؤ بها، وكل ما هو حسن مصدره الله فقط. مع ذلك، ألا يستطيع أتباع إبليس من الشياطين أن يسمموا إرادة الإنسان، بحيث يحدث ضررا بالغا بالفرد ولكل من يحبهم ؟. كما هو حادث فى أحلام شحات، لا يستطيع أحد أن ينقذهم من تلك الملمات سوى الله وحده.

ما أن بذرت تقاوى السمسم فى الأرض، وما أن بزغت النبتات الخضراء لمحصول القصب الجديد، حتى قل الجهد البدنى المطلوب بذله فى الحقل- هذا لحسن الحظ بالتأكيد، فدرجة الحرارة خلال فترة الظهر ترتفع إلى درجات لا يمكن للبشر احتمالها. شحات، وعنده الآن من الوقت ما يكفى ويزيد، استدان مائة جنيه من الحاج عبد المطلب، لقد كان يأمل، وهو الآن رئيس عائلته، بأنه إذا تيسر له الوفاء بتسديد مصاريف

الاحتفال بسنوية والده، فإن هذا كفيل بأن يحقق له الشعور بالحرية أخيرا، ويصبح بعدها إنسانا محترما محبوبا. جرب حظه أولا فى موضوع شراء الغنم ثم ذبحها، عندما تأكد له أن هذا النوع من النشاط ليس مربحا، اشترى مسنا للسكاكين وأخذ يدور به من منزل إلى آخر.

كل من المشروعين فشلا، ومما جعل الأمر أسوأ بالنسبة له، اتهام خاله له بأن فشله يرجع لسوء اختياره للعمل الإضافى، طلب منه أن يبذل جهدا أكبر على أن يبيع الساطور والمسن فى سوق المدينة ليحصل على ربح من ذلك. شعر شحات بغضب جامح يسيطر على كل كيانه، لذا قضى ليلة فى قهوة عبد اللاه. عندما عاد إلى المنزل، كان يتطوح من السكر وشرب الحشيش. انتظرت أم حامد حتى استغرق فى النوم، ثم فتشت هدومه واستولت على كل النقود المتبقية فى جيوبه، واستخدمتها فى شراء جوالين من الدقيق من دكان الحاج عبد المطلب. فعلى الأقل، هذا ما قالته لشحات فى اليوم التالى، لن تجوع العائلة. بذلك ترك شحات وهو مدين.لقد طار رأسماله، وليس لديه الوسيلة المناسبة للتعويض.

أمه، هى كالعادة، ممزقة ما بين الحقيقة والخيال، ترفع يديها للسماء بين الحين والآخر تقول، "من فين حالاقى فلوس عشان أصرف على عيالى دول؟ من فين؟"، لكن لا يمر سوى وقت قصير حتى تتشامخ وتقول إنها سوف تدعو مائة شيخ لكى تحتفل بذكرى سنوية المرحوم عبد الباسط.

هذا الأمر كان يشعل غضب شحات، فينفجر فيها، "حلمك شوية على الفلوس! عايزة يعنى تصرفى كل اللى ف جيبك على السكر والشاى؟ وتندهى نص سكان بلدنا يحضروا عندنا عشان تضايفيهم! دا إحنا لو جبنا عشر مشايخ بس، حناكل بعديهم عيش وبصل وبس!". فتشتعل هى أيضا بالغضب وترد، "انت مش جوزى! مش ابو عيالى! ليه بتتمقلت على؟"

بدأ شحات مرة أخرى فى معاقرة الخمر. فى ليلة عاد إلى المنزل وهو يتطوح فوجد أمه وخاله مجتمعين سويا. عندما دخل، فهم من الطريقة التى كانا يتبادلان بها النظرات أن الحديث بينهما كان يدور عنه. شيطانه همس فى أذنه أن يعطيهما شيئا مثيرا يحيرهما. أعلن لهما أنه ينوى أن يتزوج فتاة معينة، تصادف أنها تنتمى بصلة قرابة لصبحى والحاج على. هذا الأمر لم يخطر على باله من قبل، الآن نجح بالفعل من شد انتباههما.

صرخت أم حامد، وصاح فيه أحمد، "هو انت مش راجل؟ ازاى تقول انك حتناسب العيلة دى بالذات؟". صاح شحات فى وجهه، "بعد سنة من دلوقتى أنا حاعملها، وما حدش فيكم حيقدر يمنعنى".

فى الحال، بدأت أم حامد فى اقتراح هذه وتلك من بنات عائلتها كعروس مناسبة له، لكن شحات قال إنهم جميعا يشبهن أنثى الجاموس. هدد أحمد بأنه سوف يسجل اسم شحات لكى يلتحق بالجيش، لكنه تراجع عن ذلك عندما لاحظ أنه كان مرحبا بذلك.

في حر الصعيد الذي يشبه نار الفرن، تقل قدرة المزروعات على امتصاص الغذاء والماء من الأرض. المفتش الزراعي فشل في زيادة كمية المياه الموجهة لحقول سنباط، لذا جفت نبتات القصب وتكسرت، وسمسم شحات، الذي كان ينمو جيدا في مايو، أصبح نموه معوقا في يونيو. بقدوم شهر يوليو، وتحت أشعة الشمس الحارقة، توقف تماما عن النمو. في النهاية، اصفر لون نبات السمسم وتضاءل حجمه، بالتالي أصبح عقيما. عندما شاهدت أم حامد حقل السمسم، صاحت، "خلاص، رحنا بلاش، ضاع منا المحصول ده كمان". لم تعد تلقي باللوم على فاروق، بالرغم من أنها كانت دائما ما تصف أعماله بأنها نص نص. ثم تشكو لشحات قائلة، "وإيه اللي يقدر فاروق يعمله؟ ما فيش ميه جاية من طرف الحكومة، صرفنا كتير على النتروكيما، لكن هي فين الميه؟ ". إنها للأسف، مدينة للحكومة بمبلغ مائتين من الجنيهات، هذا بخلاف مائة جنيه سحبت بها لوازم للبيت من دكان الحاج عبد المطلب. ولم تحصل حتى الآن على نقود المعاش الذي وعدت به.

في غمرة قلقها وعجزها، لجأت أم حامد بشكل منتظم إلى طلب المشورة من أخيها أحمد، بدا لشحات أنها بالكاد تستطيع أن تنطق بجملة مفيدة بدون أن تذكر، "أحمد قال، أحمد عمل"، هذا زاد من درجة امتعاضه وتذمره، لذا عاد إليهما وهو أكثر إلحاحا في طلب زواجه من إحدى قريبات والده. أخيرا، وقد قر في ذهن أحمد

أنه ربما يكون شحات جادا فى هذا الأمر، طلب من أخته أن تتقدم للمحكمة بطلب لتحصل على حكم بأنها هى الوصية على سماح ونوبى وأحمد. بهذه الطريقة، كما شرح أحمد، إذا نفذ شحات هذه الزيجة وحدث أى نزاع، حينئذ تكون هى المتحكمة فى أربعة أخماس أرضهم الزراعية. محتارة والقلق يحيط بها من كل جانب، وافقت أم حامد على اتخاذ هذا الإجراء. وتحدد للنظر فى طلبها هذا، أحد أيام الأسبوع الثانى من شهر أغسطس، هذا أضاف رصاصة أخرى فى عملية إذلال شحات.

لذلك، ما أن حل شهر أغسطس والجلسة، تقدمت كل من أم حامد وأحمد بطلباتهما، لكن شحات عارضهما، وصلة القرابة التى تربطهم جميعا أصابها الشىء الكثير. كانت أم حامد على وعى كامل لما يمكن أن يحدث إذا زادت فيها. فى أعماق قلبه، كان شحات أيضا يدرك ذلك، لكن كل منهما صمم أن يؤذى الآخر.

قبل يومين من انعقاد جلسة المحكمة، نشبت خناقة كبرى بين شحات وأمه. هو دائما ما يعترض أن تذهب سماح إلى الحقل لتحش عليقة البهائم من الحقل، أعلن، "أنا قلت ميت مرة، ما تبعتيش سماح الغيط، ما احبش حد من الجيران يجيب سيرة اختى بكلمة بطالة".

لم تكن هناك رغبة كامنة فى ضمير أم حامد أن تنخرط معه فى خناقة، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من رسم ابتسامة ساخرة

على وجهها وتقول، "أيوه يا ولدى، لو كنت انت بتجيب اللى يكفى بهايمنا، ما كنتش اضطريت أبعت سماح".

مجروحا، فكر شحات أن يطلق عليها إجابة مفحمة، "أنا عايز أبيع الجاموسة واشترى بدالها تاكسى". بسرعة شاهد مظاهر القلق والذعر ترتسم على وجه أمه، أخيرا أصاب الهدف، صاحت أمه وقد لحقها قلق حقيقى، "أبدا، مستحيل، دى اللى اشتراها لينا هو أحمد، عشان العيلين وسماح، مش عشانك"، ثم أضافت، "أبوهم مات، ولقوا فى خالهم نعم الأب"

عندما بدأ شحات فى شتم خاله، قاطعته جازمة، "إذا ما بطلتش شتيمة فى أحمد، أنا مش قاعدالك فى البيت ده دقيقة واحدة! حاآخد سماح والولدين واروح بيت أخويا! حاخليه يودينى مصر عشان نعرف نقبض المعاش، واذا ما كانش لى معاش، حاغسل هدوم الناس وامسح بلاط البيوت، كمان ممكن اشغل عيالى خدامين".

أصيب شحات بصدمة شديدة. أمه لم تتكلم بهذا الشكل من قبل، لذا انفجر فيها، " ليه؟ ما عندكيش بيت؟ احلق شنبى دهه إذا أخدتى قرش صاغ من الحكومة!". استمر الغضب مسيطرا عليه. فكر أنه إذا كان البيت لا يسعهما معًا، فعليه هو وليس هى مغادرة المنزل. إنه سوف يذهب إلى القاهرة. نعم، وسوف يصطحب معه الولدين. لذا نادى عليهما، "نوبى، أحمد! مين فيكم يوافق يروح معايا مصر؟".

الولدان، وهما مغرمان بشحات ، وفى حيرة شديدة من كثرة الخناقات الناشبة بينه وبين أمه، وافقا على هذا الاقتراح بكل سرور. صاح شحات وأمارات الانتصار بادية على وجهه، "شفتى، وانتى يا سماح، إيه رأيك؟". سماح وقد استمعت لقدر كبير من هذا الكلام الفارغ، التفتت غاضبة من والدتها وشحات قائلة، "إيه الكلام ألفاضى ده! إذا سافرتم كلكم أنا مش حاسيب بيت ابويا. لازم انتو الاتنين تتكسفوا على نفسيكم! ". هذا القول عقلهما، وانتهت بذلك تلك المعركة الجزئية.

عندما حضر أحمد إلى المنزل تلك الأمسية، وهو يحضر الآن كل يوم تقريبا، أخبرته أم حامد عن تهديد شحات، "لازم تتكلم معاه يا أحمد، دا تعبنى خالص".

نصحها أحمد، " مش ممكن يكون بيتكلم جد فى موضوع بيع الجاموسة، دى على كل حال مشكلة بسيطة، الزمن حيحلها. سيبى الموضوع على ما هو عليه". قالت، "الأيام دى، نازل فى تهديد، بيقول انه حيروح مصر ويسيبنى. أنا مش عارفة أروح لمين وفين. إذا جيت عندك، يغضب ويضربه الدم ويقول، المفروض خالى ده ما يخطيش البيت ده تانى، ليه تقدميله انتى شاى وأكل؟".

لم يهتم أحمد كثيرا بهذا الحديث، قال، " شحات مش عايز يبيع الجاموسة يا اختى، هو بس عايز يعمل معاكى شبطة والسلام، بكده يلاقى عنده عذر يتحجج بيه ويروح بسببه لمصر، ويبعد بكده عن المسئولية".

فى الحقيقة، يشعر أحمد بالتوتر سواء عندما يخاطب أخته أو شحات. كان واضحا أمام عينيه أن العلاقات تزداد سوءا بين الأم وابنها من يوم لآخر، وأنه يمكن أن يلام على ذلك إلى حد ما. منذ أدرك شحات عدم قدرته على الحلول مكان والده، أصبح متوترا ومن السهولة بمكان إثارته، وبذلك يصعب التعامل معه. فى منزله، أخبر أحمد زوجته، "حاحس براحة شديدة لو شحات وأمه اتصالحوا مع بعض. نفسى شحات ده يصبح راجل بحق وحقيق وياخد باله من الغيط والبيت ويتجوز جوازة كويسة. دا كل اللى نفسى فيه".

أحمد يلوم أم حامد مثلما يلوم شحات، فهى التى ورطت العائلة فى الديون، واستمرت فى إسرافها كأنما عبد الباسط ما زال على قيد الحياة يحضر مكاسبه من القمار. أحمد يشعر ويؤمن أنه لا يجب على المرأة عموما أن تتدخل فى أمور الزراعة أو المحصول. هذا هو عمل الرجل تماما، حتى لو كان هذا الرجل هو شحات. لذا التفت بعنف نحو أم حامد قائلا، "انتى السبب فى كل حاجة بتحصل هنا. مش قادرة تضبطى بيتك زين، ولا قادرة تلجمى ولدك. بتصرفى فلوس مش بتاعتك، وتخلقى عدوين ليكى من غير لازمة". ثم، وهو يشاهد الدموع وهى تنهمر من عينيها، وافق أن يتكلم مع شحات.

بحث عنه أحمد، إلى أن وجده فى خص وراء منزل العزب، هناك كان شحات يساعد صديقة فى تشحيم محراث. كان كل من الشابين

قذرا، وجههما وملابسهما عليها خطوط سوداء من الشحم. أسرع العزب وأحضر بطانية نظيفة وكنبة ليجلس عليها أحمد، الذى كان يرتدى جلبابه الأصفر النظيف. ظل الخال صامتا لفترة، ثم تنحنح مخاطبا شحات، "ها.. انت إيه اللى عايزه يا شحات؟"

"عايز أبيع الجاموسة"

"ليه؟"

"هو كده وخلاص. أنا حاعمل كده، وما فيش حد يقدر يدخل بيتى ويقول اعمل ده وما تعملش ده. أعمل اللى أنا عايزه".

رأى أحمد أن إعلان ابن أخته هذا، يخفى وراءه قدرا كبيرا من الإحساس بالفشل، لذا قرر أن يستخدم العقل والمنطق فى الحديث معه، فأحمد، أكثر من أى شخص آخر، يؤمن أنه من الممكن للإنسان أن يحدد مصيره ومستقبله إن شاء ذلك، ألم يفعل هو كذلك؟.

قال بصوت رزين كله تعقل، "انت راجل دلوقتى يا شحات، وعندك أخين صغيرين وأخت لازم تاخد بالك منهم وترعاهم. ازاى تقدر أمك تصرف عليهم وتكسيهم وتأكلهم؟ انت عارف إن فيه ناس يا ما مش بيحبوها عشان مناخيرها المرفوعة لفوق وكلامها الكتير. المفروض انت اللى تاخد بالك من عيلتك، بدل من ابوك أو امك أو حتى أنا".

شاب عيني شحات قليل من الضباب، واستقرت غصة في حلقه. هو عندما يستمع لخاله يتكلم هكذا، يود من صميم قلبه أن يكشف كل مكنونات قلبه ويخبره بكل ما يقلقه ويشغل باله. هو لم يفكر لحظة واحدة أن يبيع الجاموسة، أو أن يقترن بعروس قريبة لصبحي والحاج علي، كل ما يطلبه ويتمناه هو أن يعامل كإنسان راشد. الآن وهو يستمع لخاله وهو يخاطبه كفرد له احترامه وكيانه، أراد هو أيضا أن يبوح بما يرهقه. لكن من يستطيع أن يضمن بأنه إذا فعل هذا، واستمع له خاله بكل التفهم والتقدير، أن لا يستمرا في نفس الموقف الحالي، أي أن يظلا غير متفاهمين؟ . لكن على أي حال، طبيعته المشاكسة تغلبت أخيرا، أو قل هم شياطينه الذين كانوا يعربدون في قلبه، أو ربما مرأى أحمد – وهو جالس أمامه، أنيقا، وسيما بارد الأعصاب، مع مظهره الذي يؤكد انطباعا يوحي بنجاحه البالغ في حياته العملية وسلطته التي لا تنازع – أو ربما كل هذه الاعتبارات، جعلته يكرر القول، "أنا عايز أبيع الجاموسة".

اكتسى وجه أحمد بقدر كبير من الحيرة ، وبدا عليه كشخص موشك أن يفقد أعصابه. مظهره الأول الذي كان عبارة عن تفهم وتعاطف وتعقل، حل بدلا منه تدريجيا نوع من الغضب الجامح وأصبحت ملامحه حادة، متجهمة ورافضة.

قال، "بص يا شحات، الجاموسة لا هي لك ولا لي، أنا خطيت برجلي وسط النار عشان أخصصها لاختك واخواتك. إذا كنت فاكر انك تقدر تبيعها دلوقتي، يبقى انت مش عارف راسك من رجليك".

كانت هناك الآن فرصة متاحة لشحات لأن يتراجع، لكن أمه ظهرت فجأة على باب الخص، ثم ما أن رأى وجهها الفخور القلق، أخذ يكرر مجددا، "أنا لازم ابيع الجاموسة". تراجع أحمد للخلف وعيناه ينطلق منهما الشرر، وأخذ يلفظ كلماته بصعوبة بالغة، "بس باقولك إيه يا شحات، لغاية اللحظة دى، أنا باحترمك كراجل. لكن إن فكرت تمس بصباع واحد الجاموسة دى ..."

"ما فيش حد فى البلد دى أو اللى حواليها يقدر يخلينى أغير رأيى!"

وقف أحمد على قدميه دفعة واحدة، "اسكت! أنا دلوقتى أبوك، ما تتكلمش معايا بالشكل ده!"، فى غضب جامح خبط بقبضته على الباب وهو يرتعد من الانفعال. رد عليه شحات، "أبويا ميت ليه سنه دلوقتى، ما ليش لا أب ولا أم كمان!"

أحمد وصوته كالرعد وهو يتقدم خطوة إلى الأمام، "اخرس. ينقطع لسانك عشان ما تنطقش بحرف واحد"

تقدم العزب ووقف بينهما، "بس، معلش، المسامح كريم". أزاحه شحات جانبا، وأخذ كل من شحات وخاله يتبادلان الشتائم. أحمد وهو يرتعد من الغضب، انحنى وتناول فردة صندله ورفعها عاليا كأنما ينتوى أن يضرب بها وجه شحات. لم يحدث من قبل، حتى فى أقسى لحظات

الجنون، أن تبادلا مثل تلك الشتائم المقذعة غير المبررة. بالنسبة لكليهما، الأنانية ظهرت فى أجلى صورها، شحات لأنه شعر بأنه إنسان فاشل، وأحمد بسبب كرامته المجروحة وعدم إبداء مظاهر الاحترام الواجبة له. إن البؤس لا يوحد الناس، كما قد يتخيل البعض، لكنه يفرق ويبعد.

أحمد، وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه، فقد توازنه وعقله، فهوى بقوة على وجه شحات بالصندل، محدثا صوتا مريعا. بعد لمحة زمن، بدا على وجه أحمد أمارات الذعر، إنه لا يصدق ما فعله بابن أخته، لقد تذكر على الفور كيف أنه، بنفس الطريقة، أفقد زوجته القدرة على السمع. لقد عرضها على أكثر من طبيب بلا فائدة، الآن هو تسبب لشحات فى نفس الأذية. أحس بالإعياء والخدر يسرى فى مفاصله، فارتمى على الكنبة ودفن وجهه فى كفيه، أما العزب فإنه اصطحب أم حامد إلى الخارج.

حمل وجه شحات الآثار الحمراء للضربة التى تلقاها على وجهه. فى ألم أخفض رأسه وهو يحملق فى وجه خاله بنوع من الكراهية الفجة العميقة، لا يوجهها سوى مختبر للأحزان، يرى من كان يحبه ويقدره وقد نزل قدره أمام عينيه مئة درجة.

عندما نطق أخيرا، أتى صوته على شكل عواء حيوانى، "إذا حطيت الجزمة فوق راسى يا خالى، ما اقدرش أنطق بكلمة، لكن إذا حبيت أضربك دلوقتى، لا انت ولا عشرة زيك يقدروا يمنعونى!". بالكاد منتبها لما يحدث أمامه كما لو أن كل شىء قد انتهى أمره، رد أحمد بصوت أجوف،

"أيوه.. انت على حق. أنا عمرى ما حاخطى حتتكم دى تانى، حاخد اختى وسماح والعيلين لبيتى فى الأقصر، أأكلهم واكسيهم وكل حاجة. خلاص، كل شىء انتهى بيننا ".

"خد أختك بس. سماح دى أختى، ونوبى واحمد دول اخواتى، دول مش بتوعك، دول ناسى وأهلى وملزومين منى".

اتجه أحمد إلى أم حامد واخبرها، "إذا كنتى عايزة تيجى لبيتى، أهلا وسهلا، قومى هاتى هدومك والعيال واجهزى".

صاحت بين نشيجها وبكائها، "مش ممكن يا خويا أسيب بيت جوزى"

"أيوه، عندك حق يا اختى"

خرج أحمد وهو يجد في سيره، كأنه يرغب بشدة أن يتركهم جميعا خلفه. عندما وصل إلى منزله القريب من النيل، أخبر زوجته، "أنا مش راجع لبيراط دى تانى أبدا"، ثم كرر ذلك ثلاث مرات، "أبدا، أبدا، أبدا". أفكار أحمد فى تلك اللحظة كانت قاسية، غير عادلة أو إنسانية، بل إنه فكر أنه لو تحصل على مسدس، فإنه سوف يتوجه فورا إليهم ويفرغه فى قلب شحات. لقد حكم على أم حامد وشحات حكما جائرا، وقلبه امتلأ بقدر هائل من الاحتقار والكراهية. لكنه ما أن هدأ قليلا، حتى رفع عينيه للسماء طالبا، "محتاج لمساعدتك يا ربى،

اللهم اخزيك يا شيطان، دا بيوسوس فى صدرى انى أروح اقتل ابن اختى، يا رب، انت الغفور الرحيم".

عندما هدأ تماما، أخبر زوجته، "أنا.. من دلوقتى، ما ليش دعوة خالص بيهم، لا بالواد ولا امه، غسلت إيدى منهم".

عندما رجع شحات إلى المنزل، لم يخاطب أمه، بل دخل من فوره ليستحم، ثم غير جلبابه وجمع حاجاته فى صرة صغيرة، ثم التفت نحو أخويه قائلا، "نوبى انت وأحمد، قولوا لأمكم مع السلامة، إحنا نازلين مصر".

لم تصدق أم حامد أنه جاد فى قصده هذا، لذا تحدثت بسخرية بالغة، "أيوه يا خويا، سافر وفى ستين ألف سلامه"، ثم استدعت كل ما تمتلكه من كبرياء وأنفة لتقول، "أخويا قال لى إنى امتلك نص اللى معاه، لكن انا قلت له أبدا ما اسيب بيتى. قلت له، دا مش بيت شحات، دا بيت جوزى، ومش ممكن أبدا أطلع منه لغاية ما اموت".

زعق فيها شحات، "خدى الأرض كلها كمان، اشبعى بيها، أنا مش عايزها، ومش راجع هنا تانى". صاحت بصوت متصاعد، "فاكر يعنى انك لو مشيت، ما حدش حياخد باله من الأرض؟" ثم انطلقت فى ضحك هستيرى، عيناها لامعتان بالغضب، ثم وهى تجمع كل إرادتها، هزت أصبعها فى وجهه "إذا لقيتنى مرمية على شريط السكة الحديد ومقطعة

حتت، ابقى ولا تاخد بالك منى، لكن أخويا أحمد، ربنا يخليه، لو شافنى حتى مكشرة، ييجى طوالى ويطبطب على".

دفعها شحات جانبا، "إذا البيت ده كله سقط فوق راسك، مش حارفع صباع!". ثم أدار ظهره وأسرع فى طريقه يلحقه الصبيان، وكان هذان حافيين يرتديان جلابيب قطنية قذرة اعتادا على لبسها. ما أن أدركت الأم أنهم بالفعل راحلان مع أخيهم الأكبر، حتى طاردتهم وهى تلهث، وتقريبا كادت أن تنكفئ على الأرض، وطرحتها هبطت على كتفيها، وشعرها تطاير فى الهواء، "انت ما تلزمنيش يا شحات"، هذا ما صرخت به وهى تجرى وراءه، مما أدى إلى أن يفتح الجيران نوافذهم ووقفوا على الأبواب، "روح، روح، خاب أملى فيك؛ إياك تدخل بيتى تانى". فجأة توقفت فى مكانها وهى تنتحب وتنشج، ثم استدعت أصعب قول يمكن أن يؤثر فيه، فقالت، "خالك أحسن منك ألف مرة".

هذه هى آخر الكلمات التى نطقت بها أمه وسمعها شحات. لم تتوقع هى تأثير هذه الكلمات عليه، لكن فى حالة الرفض والإنكار الجامح هذه، سوف يتذكر هو بشكل دائم تلك الصرخة طوال حياته – لقد أطلقته حرا.

تركت أم حامد وحيدة، رجعت إلى فرشتها، سقطت عليها وأخذت تنتحب وقد دفنت وجهها فى وسادة. لساعات طوال ظلت فى رقدتها تلك

مرتديه ملابسها تحملق فى السقف، وتطلب من سماح أن تتخلص من فضول الجيران. شعرت كأن الغرفة والجدران والسقف جميعا قد قدت من كتلة مصمتة من الحديد، وأنها إذا استطاعت أن تزيل هذا الحديد، فسوف تتحسن الأمور ويصفو لها الحال. ثم تذكرت أن لا حديد هناك، ليس من شيء سوى رحيل شحات ومعه ولداها الصغيران. امتد الزمن ليصبح هو الأبدية، سمعت صوت عمرو يؤذن لصلاة المغرب، بين الحين والآخر، تسمع أصواتا تتحدث فى الطابق الأرضى. تحولت أفكارها نحو نوبى وأحمد، سماع قرار المحكمة فى موضوع الوصاية سوف يكون فى الغد. هوذا شحات ينتقم منها وذلك بمنعها من حضور جلسة المحكمة. ما الذى سيفعله القاضى إذا لم يكن الصبيان حاضرين؟. هى فى قمة انزعاجها وحزنها، وهذا الفكر مستقر فى ذهنها، أسرعت بالهبوط إلى الدور الأرضى وهى تبدو غير مهندمة أو جذابة كعادتها، بل وجهها متورم وملابسها مكرمشة.

التفت بملاءتها السوداء، وجعلت سماح تسرج لها الحمار، غادرت المنزل وهى تحث الحمار على الإسراع فى اتجاه النيل. أحمد لم يكن متواجدا فى منزله وزوجته لم تشاهد سوى شحات والولدين. وهى ذاهلة عما حولها، تركت الحمار هناك وركبت المعدية لتعبر النيل، ثم استأجرت عربة حنطور نقلتها حتى محطة السكة الحديد. لقد شوهدوا هناك يشترون التذاكر وأخذوا فعلا قطار المساء متجهين إلى القاهرة.

لقد نفذ ما انتوى أن يفعله. لذا رجعت إلى منزلها واليأس الكامل مسيطر عليها.

لم تكن فى حاجة أن تقلق بخصوص القضية، فالقاضى عندما لم يجد شحات أمامه ليناقض طلباتها، بل وأثبت بذلك عدم قدرته على تحمل المسئولية عندما استبعد الولدين، منح للأم حق حضانة ابنيهما الصغار، كان أحمد قد ذهب معها لحضور الجلسة. شعرت بعد ذلك بالذنب يأخذ بمجامعها، هى كانت على يقين كامل أن شحات لن يطالب حتى بنصيبه الشرعى فى الأرض، إنه جاحد معها، لكنه هو فى الواقع مشابه لها تماما، لديه نفس الشموخ والكبرياء الجامح.

مر أسبوع بأكمله، كلما حضر أحد من القاهرة، تأتى إليه أم حامد وتسأله عما إذا كان قد رأى شحات والولدين. كانت خائفة أن تسافر إلى القاهرة بمفردها، كيف يمكن أن تعثر عليهم فى مدينة يقطنها ثمانية ملايين من البشر؟ عندما لم يدلها أحد على شىء، بدأ قلبها يتقسى بالأكثر على شحات. إنها لن تغفر له أبدا عملته تلك، قالت لسماح، "شحات ده عمره ما حاخليه يخطى بيتنا تانى طول ما انا عايشة!".

إذا أى إنسان سأل عنه، تجيب هى بكل مرارة، "شحات مات، يا رب يموت". بعد تسعة أيام من الخناقة، وهى تصنع الجبن، حضرت إحدى الجارات مسرعة ووقفت على الباب لتخبرها أن نوبى وأحمد قادمان الآن فى الطريق. لم تصدق أم حامد ذلك، وهى فى ذهول كامل،

قفزت واقفة، ودلقت اللبن على الأرض، ثم اندفعت خارجة . استدار الصبيان ليدخلا الحارة، ما أن رأتهما، حتى غمرتها سيول من الراحة والفرح، فهجمت عليهما وأخذت تضمهما إلى صدرها وتقبلهما وهى تبكى بحرقة. ثم أخذت تتأمل فيهما، إنها متعبان ورفيعا العود ولا يزالان بملابسهما التى سافرا بها وقد أصبحت أكثر تمزقا وقذارة. لذا ارتفعت درجات غضبها وبعنف بدأت فى استجوابهما. قالا إن شحات ضغط عليهما لكى يرجعا، أما هما فقد كانا غير راغبين فى تركه، لكن كان هناك عجز فى نقوده، وهو فى القاهرة، استلف جنيهين، ثم اصطحبهما إلى محطة باب الحديد وتركهما فى رعاية جندى من القرنة كان عائدا إلى موطنه وأعطاه الجنيهين . لكن عندما حضر كمسرى القطار، جعلهما هذا الجندى يختبئان تحت المقاعد محتفظا بالنقود لنفسه ولم يستغن حتى عن قرش واحد، لذا سافر الولدان بدون طعام. ما أن وصلا إلى الأقصر، حتى اضطرا أن يستعطيا أربعة قروش من رجل من القرية وجدوه فى السوق لكى يدفعا حق ركوبهما المعدية. أما عندما كانا فى القاهرة، فقد استقر بهما المقام فى غرفة صغيرة لأحد أقارب عبد الباسط، وهو جرسون فى قهوة. كان يقدم لهما طعاما فى الصباح والمساء فقط، بينما يختفى شحات طوال النهار باحثا عن عمل، لكنه لم يعثر على شىء. نوبى مرض؛ قال إنه أصيب بالإسهال وتقيأ فى القطار.

تدفقت الدموع على خد أم حامد، وما أن انتهيا من رواية قصتهما، حتى ركعت على ركبتيها وأخذت فى الانتحاب بمرارة كأنما هى فى جنازة، صاحت، "تعالى يا عبد الباسط، تعالى شوف نوبى وأحمد، تعالى يا راجلى وشوف شحات عمل معانا إيه!". حضرت إليها كل من سعاد وبطة، لكنها لم تهدأ أبدا، أخذت وهى ترتعش تقول، "أعمل ايه بس يا ربى، ولا حاجة. أعمل يا رب كل اللى يرضيك". بعنف مفاجئ، أمسكت بطرحتها وأخذت فى تمزيقها إربا وألقت بها جانبا، ثم رفعت وجهها الباكى نحو المساء، ثم بصوت مرعب أصاب من التفوا حولها بقشعريرة، "يا رب، إذا كنت أنا شريرة، عاقبنى وحط على! لكن إذا كان هو الغلطان، احرقه فى نار جهنم".

عن راكبى الخيول العربية.. وإرادة الله

فى الثامن من شهر أغسطس، وهو يوم جمعة، عاد شحات فى وقت الاحتفال بمولد سيدى أبو الحجاج، الذى سيبدأ اليوم. ما أن خطا على رصيف المحطة وخرج إلى الشارع، شاهد فى نهايته بقرب النيل، رجالا فـــوق الســـلالم الخشبية يعلقون الزينـات واللمبات الكهربائية المعلقة فى حبل طويل، يزينون به المسجد وضريح الولى اللذين يقعان فى حضن الجـدران الجرانيتية لمعبد الأقصر الشامخ. كان شحات يسير وشمس ما بعد الظهيرة تصب أشعتها على وجهه وتتسلل خلال الأرجاء المفتوحة بين قمم الأشجار والمنارات وأعمدة المعبد الجبارة. مقام أبى الحجاج يقع داخل نطاق ساحة من ساحات بناء ضخم شيده رمسيس الثانى، كان هو أيضا مغطى بأشعة الشمس التى تلمع كأنها الجواهر. خلف المعبد يقع نهر النيل ومرسى المعدية التى سوف تقله إلى البر الغربى. فى الأحوال العادية، كان يجب عليه أن يسارع هو نحوها، لكن الآن ليس فى ذهنه فكر محدد، لذا توقف فى مكانه يستجلى ذلك المنظر المبهر لفترة طويلة.

يستمر الاحتفال بالمولد عشرة أيام. كل ليلة تجذب إليه عشرات الألوف من الفلاحين المقيمين بالقرى المحيطة بالأقصر، وسوف يحجون إلى مقامـــه احتفالا بمولده ووفاته أيضا. كل ليلة، سوف يتجمع ألوف

من البشر - بينما صوت المنشدين العميق الخشن يترنم بالأذكار والشعـر والمديح، ويتم تضخيم أصواتهم إلى حد بالغ الإزعاج يؤدى إلى الصمم بواسطة ميكروفونات مثبتة فى كل مكان - تجدهم وهم يتراقصون فى وجد دينى عميق، يتمايلون ويتطوحون فى مكانهم ويديرون أجسامهم هنا وهناك لساعات وساعات بعنف بالغ، وينتشر فى الجو زغاريد النسوة الزاعقة الطويلة مع أصوات المنشدين المتسارع الصاخب.

الباعة يتجولون وهم يزعقون، "حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبى! "، ثم يسير موكب هائل من الدراويش، يدورون بعنف يلوحون بعصا طويلة فوقها مصابيح متلألئة. خارج جدران المعبد، فى ساحة متسعة، يتجمع مجموعات ضخمة من الممسكين بالمزمار، الناى والصنج؛ وأمامهم الحواة، البهلوانات، المشعوزين، الراقصات، الأراجوزات والمصارعون، وعلى بساط الحشائش تتجمع المراجيح والدوارات والزحاليق وكل ما يبهج الأولاد. هناك أيضا مئات من النصبات يباع فيها كل أنواع الحلويات، المشروبات واللعب. ثم تجد مئات من القرويين يحملون عصيهم يدورون فى حلقات متتابعة، أو يلتفون حول أنفسهم والسكاكين الحامية بين أسنانهم وأخرى مغروسة ومخترقة خدودهم. كل

واحد يحيى الآخر، حتى من يعرفه معرفة بسيطة، كأنما هو صديقه الحميم. ويستهلك قدر هائل من الخمور، البيرة والحشيش. بعد منتصف الليل، يمكن لك أن تعثر على عدد من النسوة المتشحات بالسواد واقفات تحت ظلال الأشجار يعرضن تقديم خدماتهن لقاء أجر معلوم.

مع تدفق الجماهير الهائل، دوى موسيقات الفرق المختلفة التى تلعب كلها فى نفس الوقت، أصوات الباعة الجائلين العالية، الصيحات الباكية، الأصوات الصادرة من العارضين، قرع الطبول، الصوت الثاقب للنايات، الصوت المزعج للدفوف والصنج، الضحك، الصراخ، وفوق الجميع الصلوات التى تم تكبيرها عشرات المرات بواسطة الميكروفونات، تكتمل بذلك صورة عش المجانين هذا.

فى وقت النهار، تتضاعف أعداد تلك المواكب، ترى الجمال المزخرفة بالزينات، العربات المكسوة بالورود وهى تحمل أطفالا بالعشرات، جماعات من الحجيج حفاة الأقدام يلوحون بالأغصان وهم يستمعون للأناشيد الدينية، و، كما كان يحدث أيام الفراعنة، ترى فلوكة كاملة العدة تحمل على العربات التى تجرها الحمير تسير متمهلة فى شوارع المدينة.

لكن كل هذا لا يقارن بما يحدث فى الليلة الختامية للمولد، وهو يحل فى اليوم العشرين من شهر أغسطس. فيه يحضر عدد من البدو المتطين الجياد العربية الأصيلة، وقد حضروا بها من بطن الصحراء العربية، يلوحون بعصيهم فوق رؤوسهم، يصيحون صيحات ثاقبة، يروحون ويرجعون وهم فوق ظهور جيادهم بسرعة بالغة وبراعة منقطعة النظير خلال ممر ضيق، يحيط به الجمهور من كل جانب. كل المظاهر السابقة يمكن لشحات أن يتجاهلها، إلا مظاهرة هؤلاء المتطين الجياد، فهى تشعل فيه روحه البدوية حتى الصميم.

هذه الليلة وليال لاحقة عليها، بات شحات فى بيت صديقه العزب. إنه لا يخرج أبدا أثناء النهار بحره المزعج، لكن عندما تنتشر نسمات باردة فى المساء مصدرها الصحراء الغربية، يتسلق هو الهضاب ويسير مبتعدا بقدر الإمكان عن الوادى ويستمر فى سيره لساعات طوال. فى يوم العشرين من الشهر، اكتمل القمر واقترب شكله من الأرض، وأخذ يرسل ضياءه فينير الهضاب والصحراء بضوء خافت محبب. عندما سأله العزب لماذا يسير فى الدروب الصحراوية ليلا، علما بأن هذا الصديق يخشى تماما تقليده فى ذلك؛ أجاب شحات بأنه يفعل ذلك لكى يصلى منفردا. ثم وضح الأمر بقوله، "الناس التانية بيصلوا عشان ربنا

يرزقهم بمحصول كويس، بفلوس، جوازة حلوة. لكن انا بأطلب منه حاجة واحدة بس. هى انى أموت".

فى إحدى المرات وهو يسير فى الطريق الموازى للترعة، رأته أم حامد، فأشاحت بوجهها وتابعت سيرها. منذ اللحظة الأولى التى خطا فيها من القطار، علمت هى أنه قد عاد، لكنها كانت ما زالت فى حالة من عدم الاتزان؛ فى لحظة تبدأ فى شتم شحات، وفى التالية تبكى وتلوم العناية الإلهية، ثم فى ثالثة تؤنب نفسها قائلة، "أنا غضبت على ولدى، ربنا بيعاقبنى، وأهى الزرعة بتموت، نفسى أشتكيلك يا رب!". فأخبرتها سماح بانفعال بأنه يجب أن تتقبل حكم الله طالما أنه صادر من لدنه.

كثيرا ما كانت تعلن، "هو أحمد اخويا، ما فيش غيره، حتى ولو انه ما خطاش بيتى من يوم ما شحات سافر، وما سألش فى. بس برضه، هو أحسن من أى حد وعمره ما يمكن ينسانى أو ما يسألش عنى". اعترفت لسماح بأنها تلوم نفسها كثيرا بسبب حبها للثرثرة والكلام الكثير، وقالت، "شحات ده زى ابوه تمام، ما يحبش الكلام والرط الكتير"، ثم ذهبت بعيدا وتمنت لو أن شحات مد يده عليها كما كان عبد الباسط يفعل أحيانا، ثم تذكرت كيف أن ابنها أنقذها مرة عندما تهجم عليها زوجها، فى نوبة غضب، وكاد أن يفصل رأسها من جسدها ببلطة.

اشتياقها لشحات عميق للغاية، "لما كان شحات بيشتغل فى الغيط يا سماح، كنت انا مرتاحة ومبسوطة. دلوقتى انا تعبانة والهم راكبنى. أعمل ايه بس يا ربى؟ اشتريت ست شوالات نتروكيما عشان زرعة القصب، لكن دلوقتى فاروق بيقول انه لسه عايزين شوالين كمان. لو كان شحات لسه هنا، كنا اتشاورنا فى الموضوع ونشوف إيه الصالح".

فى الحال، يطرأ على ذهنها فكرة أن صبحى والحاج على ربما سحرا لشحات، لذا قالت لسماح، "هما بيفكروا انه لو بعد عنى ، حاكون تحت رحمتهم". هذا التفسير أسعدها لأنها بذلك استطاعت أن تلقى باللوم على جهة أخرى، وكانت هى قد استشارت الشيخة داية التى أكدت لها أن شحات واقع تحت تأثير عمل شرير، لذا ملأت الشيخة طاجنا صغيرا بالماء، وغطته بقطعة قماش، وأخذت تلففه وهى تهمس ببعض من أدعيتها، ثم أزاحت الغطاء، ويا للعجب، الماء اختفى. بدلا منه وجدت خيوطا قطنية قالت إنها منتزعة من جلباب شحات، ومعها وجدت أيضا حجابا وبعضا من جذور النباتات والأعشاب. طبقا لتوجيهاتها، أخذت أم حامد كل هذه المصائب وأحرقتها فى منزلها. لكن للمرة الأولى، تخيب مجهودات الشيخة داية.

وهى حانقة وممرورة بسبب انقضاء عدة أيام بعد ذلك، ولم يحضر أحمد لزيارتها، أخيرا تلفعت ملايتها وذهبت لتزوره فى منزله الذى يقع بقرب النيل. لكنه لم يقابلها بالود المعتاد، بل وأخذ يعنفها بحدة بالغة،

"إذا أى حاجة وحشة حصلت يا مرة، يبقى انتى السبب! ازاى اقدر ارفع راسى قدام الناس وابن اختى واد بايظ ؟ لكن انتى برضك السبب. أنا حادور على بلد تانية أروح اسكن فيها أنا وعيالى بعيد عنك!".

فى تلك اللحظة فقط، أدركت أم حامد أنها فى حاجة ملحة لتواجد شحات بقربها، أخذت تتنهد وهى تفضفض لسماح التى عينتها كاتمة لأسرارها وصديقة، "إذا أى واحد اتكلم كلمة بطالة تمسنى، شحات ممكن يقتله قتل. دا دايما كان يدينى فلوسه أحفظهاله، وكان يوافق على كل كلمة أنطق بيها، يا سلام يا ربى، بس هو إيه العمل السو اللى عملته فى حياتى؟"

لم يكن الابن والأم فقط فى حاجة لأن يتلاقيا، لكن كل القرية أيضا كانت مهتمة بهذا الموضوع. كثير منهم قصد شحات لكى يعقله ويعيده لمنزله، منهم فاروق، شلتوت، العجوز يوسف، وأصدقاؤه عبد الرحمن، التعبان، العزب والقط، ولدهشة شحات البالغة، أتى إليه أيضا الحاج عبد المطلب ليقول، "إذا خالك شافك وانت بتشتغل فى الغيط، وحالك انصلح، طوالى حيتكسف على روحه، وبكده تنقطع كل الألسنة اللى بتتكلم كلام بطال فى حقك".

صباح يوم، حضر شحات إلى الحقل وخاطب فاروق بشأن نقص المياه التى تروى حقل القصب. فى ظهر نفس اليوم، عندما حضرت سماح لتحش بعض الحشيش للبهايم، وجدته وهو يبنى سورا من الطين كان قد تهدم فى جدار الجنينة، فاندفعت جريا لتخبر أمها.

أخيرا استسلم شحات ورضى أن يذهب لزيارة والدته برفقة العزب. أثناء سيرهما فى شوارع القرية، أصيب بحالة فجائية من التوتر والشجن، لكن صديقه منعه بالقوة من أن يستدير عائدا. كانت هناك عاصفة تهب من الصحراء الغربية، والآن تعلق ضباب أبيض من الغبار على جدران المعبد والمنازل والأماكن الخالية من الأشجار، وخلت شوارع القرية من المارين. عندما شاهد شحات الأشجار وهى ملتحفة بالغبار الثائر، وقهوة شلتوت المسنكرة والصحراء الخالية من خلفه، بدا له كأن القرية كلها فى حالة من الموات والخواء، كما لو كان هذا المنظر فصل من فصول أحلامه، كأنما هى الحطام الساكن للمعبد الفرعونى.

عندما كان يقف فوق الهضاب التى تعلو القرية، يبدو العالم أمامه عظيما وغامضا، ويرى نفسه أقوى وأكبر من أى إنسان آخر. الآن وهو سائر إلى بيته، بدا له كأنه ينحدر من الهضاب غير المحددة للحياة.

ما أن وصلا إلى المنزل، حتى لاحظ أن كل شىء الآن فى نظره يبدو صغيرا ضئيلا عن الصورة التى انطبعت فى ذهنه، حتى أم حامد المنتظرة فى الفسحة الداخلية، بدت منكمشة وأكبر من سنها، كتفاها منحنيتان إلى الأمام بطريقة لم يعهدها من قبل. كانت تتوقع هى أن يتقدم نحوها ويقبل رأسها طالبا السماح والمغفرة، كان هو يتوقع أن تندفع نحوه والدموع تسح من عينيها وتحتضنه بشوق ولهفة، لكن هذا لم يحدث أبدا، كلاهما لم يفعل ما هو متوقع.

أم حامد لها حضور طاغ، فبخلاف أصابعها المرتعدة، بدت فى مظهرها أكثر برودا وقسوة. حيت العزب بكل ترحاب قائلة، "حمدلله على سلامتك يا عزب! "، وتجاهلت تماما تواجد شحات. وعندما قدمت بعض الحلوى للعزب، أخذ هذا يمزح، "متشكرين، بس انا حاخد اتنين"، ثم صدرت منه ضحكة قصيرة. كان العشاء معدا على طبلية على السطوح، أربعة حمامات محشية بالفريك، فطيرة كبيرة يحبها شحات مصنوعة من الدقيق، البصل، شوربة الفراخ. أكل العزب بشهية مفتوحة وهو يصدر أصواتا غريبة من فمه. أما شحات، فإنه لم يتناول شيئا، لكنه جلس صامتا كأنه تمثال يستمع إلى حواديت أمه.

تحدثت أم حامد بلا توقف فى شتى الأمور، وأخذت تثرثر بكل ما أوتيت من حيوية وطاقة. عائلتها جميعا بخير، ولله الشكر والحمد !– لكن مياه الرى غير كافية فى أرض سنباط. عبد الرحمن اشترى أرضا وليس تاكسيا كما كان ينتوى أولا. زوجة شلتوت، زينب وكذلك امرأة صبحى ولدت كل واحدة منهما ولدا ذكرا، لكن هى الآن لا تتذكر الأسماء التى أطلقاها على كل واحد منهما. قاطعها العزب مازحا، "لازم سموهم ناكر ونكير"، فضحكت أم حامد جزلا. كانت تجلس على الأرض وحولها ثلاثة من أحفادها الصغار يجلسون أحيانا على حجرها، أو يشدون شعرها وذراعها، راسمين بذلك صورة رائعة للأمومة السعيدة. حينما أحضرت سماح الشاى، ولم يلمس شحات كوبه، تبرع العزب وشرب الكوبين

وهو يتصبب عرقا، ثم استمرت أم حامد فى الرغى: فاتح ونعمات تطلقا، لكن نعمات لن تستطيع الزواج الآن لأنها تحمل طفل فاتح، سنية أيضا حامل للمرة الثانية، وسوف تغادر القرية قريبا لتلحق بزوجها الذى يعمل فى أسوان. بطة سوف تتزوج من الشاب الجمسى بعد يومين، ثم بصوت هامس قالت إن "على"، وهو الشاب الذى رفضت أن تقترن به، هرب من الجيش وحضر إلى الأقصر، وإنه قد حلف بأنه سوف ينتقم لشرف العائلة، بالتأكيد سوف تحدث معارك دموية تلحق بكل من الطرفين. بطة بنت مش كويسة، لا تختشى أبدا وماشية على حل شعرها. الحاج عبد المطلب وسالم يتعاركان مرة أخرى، لكن هذه المرة بسبب إيجار بعض الأراضى، واليوم بالذات ذهب الحاج ليتقابل مع مأمور القسم. يوسف العجوز هو الذى قال ذلك، لكن إذا أى إنسان صدق هذا الثرثار....

استمرت أم حامد فى سلسلة من الحكايات لا تنتهى، وصوتها يتناسب مع كل حدث ترويه، الآن هى همسة مصدوم، صيحة معترض، ضحكة ساخر، حكم جازم، تتحدث بطلاقة، لكن مثبتة نظرة قلقة تجاه شحات، بينما هو يحملق ساكنا على قمم المساكن وأعواد النخيل، لكنه من جانب آخر كان يستمع إليها، متفكرا فى ذهنه كيف أن الحياة فى قريته هذه ليست سوى نوع من الكوميديا التى لا تنتهى. يوما ما كان يشاركها البهجة بما تنطق به، أما الآن فإن حكاياتها تملأ قلبه بحزن لا مثيل له.

في الخارج، أخبر العزب، "لما دخلت بيتى ده، حسيت كأنه طابق على صدرى. ما كنتش قادر ألقط نفسى، حسيت انى حاتخنق، كأن فيه شيطان إسود ماسك زمارة رقبتى". إنه لم يتبادل أى كلمة مع أمه، ولا حتى لمحة، أضاف ، "أنا راجل مش عيل صغير، ممكن أعرف مكانى كويس. في ظرف يوم أو يومين، حاروح للجهات الحكومية واطلب الأوراق اللازمة، وبأسرع وقت يمكن اروح السويس". صوته كان ينقصه الاقتناع، "أبويا كان بيديلها فلوس كتير من القمار، لكن انا ما اقدرش أعمل زيه. أنا مش ابويا".

عندما أخبرها العزب في اليوم التالى أن شحات ينوى أن يغادر القرية مرة أخرى، قررت أم حامد أن تعمل واجب سنوية عبد الباسط بعد خمسة أيام من انتهاء مولد سيدى أبو الحجاج. كانت تعلم يقينا أن شحات عندما يعلم، سوف يضطر للبقاء حتى يحضر هذه المناسبة؛ فمن مهام الابن الأكبر الإشراف على خدمة المشايخ الذين سوف يحضرون للإنشاد. قالت أيضا إنها سوف تستقدم مائتين من المشايخ من القرى المجاورة، واعدة نفسها أن هذه المناسبة ستكون آخر مظهر من مظاهر إسرافها، بل وفى استطاعتها أن تذبح شاتين بدلا من واحدة. بدون تفكير، أسرعت للحاج عبد المطلب واستدانت منه خمسين جنيها. هى مماثلة لعبد الباسط من قبلها، عندما تواجه بالكوارث، عليها أن تظهر للجميع، بما فيهم ابنها، أنها ترفض رفضا باتا أن تخسره أو تفقده.

الساعة الثالثة بعد الظهر، القرية مستغرقة فى نوم القيلولة وساكنة؛ كأنما الحياة قد انمحت منها. شحات كان منهمكا فى إصلاح الحائط المتهدم. لقد ثبت أن أم حامد كانت على صواب. ما أن أخبره العزب بالوقت الذى حددته لتحتفل بسنوية المرحوم، أدرك فورا أن الواجب يحتم عليه أن يظل فى القرية، على الأقل كنوع من الاحترام لذكرى والده. وهو منهمك فى عمله، مرت عليه امرأة ملتحفة بالسواد، لم تكن سوى بطة التى كانت تطرق بابا بعد الآخر تدعو الجميع لحضور حفل زفافها. شحات احترم شجاعتها، دع القرية تسلقها بألسنتها، لكن هى لن تفوت فرصة لحاقها بالسعادة أن تتسرب من بين يديها، كما حدث معه هو.

استمر فى عمله لبضع دقائق قبل أن تمزق صرخات مجنونة سكون القرية، صرخات لم يستمع شحات لمثيل لها من قبل. جرى حافى القدمين عبر الحقول فى اتجاه الصرخات. بعض الصبية والبنات الذين كانوا يلعبون فى الشارع بدأوا فى البكاء والعياط. امرأة عجوز اندفعت نحو شحات وهى تندب وتخبط خديها بيديها. الأبواب والنوافذ فتحت على مصراعيها وأخذ الرجال فى المنازل القريبة فى الجرى. مئات من أسراب الحمام، أثارها هذا الهرج المفاجئ فنهضت من فوق جدران المعبد وأخذت تطير عاليا فى دوائر متلاحقة. جمهرة من الناس كانت متجمعة فى إحدى أطراف القرية، دفع شحات طريقه وسطهم، ثم وقف ساكنا فى مكانه. بعض من المتجمعين خلفه هربوا من المنظر

الذى أمامهم مقشعرين جزعين وهم يهزون رؤوسهم، ثم بدأوا فى فتح أفواههم لينطقوا بشىء ما، لكنهم صمتوا كالآخرين. حل هدوء قاتل ولم ينطق أحد بحرف.

على بعد مسافة صغيرة أمامهم على الطريق، رقدت بطة وهى تئن وتتوجع. ملابسها مرفوعة إلى فوق بحيث بان جسدها الأبيض لامعا تحت شمس الظهيرة الباهر. طرحتها بجوارها ممزقة، شعرها الطويل الأسود ملتف حول طوب الأرض. كانت الشمس ترسل أقسى ما عندها من أشعة، لدرجة أن كل التفاصيل كانت واضحة للعيان. فوقها انحنى شاب بملابس الجندية، تعرف عليه شحات فورا، هو ليس سوى "على" ابن حسن. كان يحمل فى يده مسدسا يهدد بأنه سوف يقتل أول من يفكر الاقتراب منه. كان هناك دم يلطخ يده. عندما رأى شحات الدماء تلوث ما بين سيقان بطة، علم ما الذى حدث. فى القرية، يتم فض بكارة العروس برقة، باستخدام إصبعين فى ليلة زفافها، بحضور أمها لكى تمسك بها وتهدئ من روعها وهى تتألم. بعد ذلك تستعرض الأم قطعة قماش ملوثة بالدماء للنسوة الحاضرات كدليل على استمرار عذرية ابنتها. لقد انتقم هذا الجندى لشرف عائلته شر انتقام. فبطة الآن لن تذهب للجمسية وهى عذراء.

لم يتحرك أحد حتى قام هذا الشاب واستدار وأخذ يجرى فى اتجاه جدران المعبد، ثم اختفى فى حنايا الصحراء. ما زال الجميع

واقفين مذهولين، أخيرا اخترق صفوفهم كل من أم حامد، سعاد وبهية ونسوة أخريات وأحطن بالفتاة التعيسة الصامتة، يخفين عريها بملابسهن السوداء الطويلة. بعض من النسوة انكفأن على جانب من الطريق وأخذن في البكاء والعويل، كما لو أن إحداهن قد ماتت، بعد ذلك حملن بطة إلى منزل أمها.

أخذ شحات ينصت لتعليقات الناس الذين حوله، وتحقق وهو مندهش أن التعاطف كله كان إلى جانب الجندى وليس بطة. وفكر، إذا كان قد تزوج من سنية، فربما كانوا قد قتلوه. توقف عن الإنصات، وأخذ يستجلى وجه السماء. فى العلا، أخذت أسراب الحمام تطير فى دوائر متتابعة وهى تطلق همهمات حزينة. بدأ الناس فى التفرق، بينما شحات يجاهد فى التقاط أنفاسه. لقد تفجرت داخله رغبة قوية فى أن يغادر بعيدا عن هذه القرية.

بسرعة تسلق الممر الضيق المؤدى إلى الهضاب الغربية، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى قمة هضبة عالية مطلة على الوادى. هناك ارتمى على بعض الصخور البارزة مبعدا وجهه عن منظر القرية، ومحملقا فى اتجاه تلك الصحراء الخاوية. كل عضلاته كانت تتوجع والعرق يتسابق ليقتحم عينيه. أخذ يلتقط أنفاسه بجهد عظيم محاولا ملء رئتيه من الهواء البارد النقى. كل ما حوله ليس سوى السماء ذات الزرقة العميقة فوق غبش الصحراء والوادى المترب المغبر. ضم ذراعيه بقوة حول

صدره، كما لو كان يتقى بهما بردا ألم به فى الداخل، وأخذ يعصر بدنه عصرا، كأنما هو شحات فعلى يطاردونه فى الشوارع، مكسورا ضعيفا، أو أنه حيوان تلقى علقة ساخنة وفى انتظار أن تلحقه ضربات أخرى. رقد فى مكانه هذا بلا حراك فترة طويلة، بدا كأنه إنسان فقد فى الفراغ اللانهائى، وهو الآن مجمد وفى وضع يائس.

مر الوقت. الشمس الآن فى طريقها للغروب، ثم غربت فعلا وسط هالة من الضباب القرمزى على حافة الصحراء. الهواء أصبح ساقعا، يود أن يخبره بالحدود الضيقة التى يمكن للإنسان أن يمارس فيها حريته. انتفض من رقدته واقفا مدركا أنه مضطر اضطرارا أن يعود للوادى، فقط لكى يحس بالدفء.

مرة بعد أخرى، أخذ يسائل نفسه، "أنا حاعمل إيه؟" كأى إنسان تجمد وانحشر فى حالة من الانقباض الخالص، عجز أن يبتعد بأفكاره ليرسم لنفسه مستقبلا. قال إنه سوف يسافر إلى السويس أو إحدى البلاد العربية، لكن داخل قلبه الفلاحى، شعر أن مجرد مغادرته قريته هذه، هو الموت بعينه. أخذ يحملق فى الصحراء، حيث لا يمتد إلى نهاية الأفق شىء سوى الرمال والهضاب. لقد تمنى أن يفقد نفسه وذاته إلى الأبد فى ذلك الفراغ الساكن الهادئ. تلك الهضاب الصخرية، سوف تبعد عنه العالم كله وتحميه فى فراغ لا حدود له، فكر، "حياة البدوى هى أجمل حياة، دائما متمتعا بحريته، لكن ما أن يعيش الإنسان فى قرية،

فإنه فورا يصبح فلاحا للأرض، ولن يصادف فى حياته إلا المتاعب والمصاعب. اثنان أو ثلاثة من البدو يتعايشون مع بعض ويراعون ويحبون بعضهم بعضا، فيه كل الكفاية.

بشكل غامض أخذ يتصور نفسه، رجلا، ذرة تافهة، يختفى ويذوب فى الخواء الذى لا يشغله أحد، هناك ستكون الصخور والرمال هى أصدقاؤه وزملاؤه، لكنه حينذاك لن يخشى الفراغ أو الصدى الذى ينبثق من خطو يخطوه، لقد ود من صميم قلبه أن يهرب إلى حياة حرة لم يعشها من قبل. ربما كان قد سمع بعض الأشياء عن حياة البدو منذ زمن بعيد، ربما أيضا أن يكون قد ورث تلك الرؤى الحياتية الحرة وتغلغلت فى دمائه وبشرته التى ورثها من أجداده البدو. ظل لفترة طويلة مثبتا نظره يستجلى الصحراء الشاسعة إلى الأسفل.

أصبح الجو أكثر برودة، تسلق إلى هضبة أعلى وأخذ ينظر إلى الوادى فى الأسفل. من ثنايا الضوء الخابى وهو يستعرض المنازل والأشجار، الوادى المنبسط الأخضر بنهره المتسع الملتوى، بقايا المعابد الفرعونية، الترعة والطريق المجاور لها، كانت جميعا تتلاشى تدريجيا، يرى الناس وهم يتحركون كأنهم دمى صغيرة تتحرك ببطء. يمكن له الآن أيضا أن يشاهد على بعد ميل فى اتجاه الجنوب الطريق المستوى الذى يؤدى إلى وادى الملكات، والتمثالين الضخمين المهشمين لمنون، الرامسيوم على اليسار، ثم الوادى الضيق الذى يؤدى إلى معبد

حتشبسوت الذى يتلوى فوقه تلك الهضاب التى تؤدى إلى وادى الملوك. كل هذه المعالم عرفها وخبرها فى طفولته. ربما يخبرنا الحجر والنقوش الهيروغليفية عن الحروب، المذابح، لكن المآسى والدماء قد انقضت منذ زمن موغل فى القدم، الآن هى ليست سوى رسوم حائطية وحطام وبقايا لها نفس هدوء الصحراء.

حل الظلام، لكن نحو الشمال، فى اتجاه ثنية من النيل، شاهد ثلاثة أشرعة لفلوكة تسبح فى الماء. بالنسبة لشحات، النيل هو بحر النيل، مانح الحياة. فى هذا الشهر بالذات كان يفيض ويغطى جانبيه، أما الآن، ومنذ خمسة عشر عاما، حجز السد العالى تلك المياه، لذا لن يفيض النهر مرة أخرى. تعجب وتفكر شحات عما سيكون شكل حياته إذا لم يتم ترويض النيل، بالطبع سوف يكون أكثر فقرا، لكنه سيكون حينذاك فى حضن الرتم القديم الطبيعى المألوف. هذا السد هو الذى خلق لفلاحى الصعيد ذلك العمل المستمر طوال العام فى الأرض حتى فى أيام الصيف الذى لا يطاق. هو السبب فى انتشار طلمبات الديزل، الخناقات المستمرة عند تحميل القصب إلى المصنع، اللمعيين، الفاروقيين وأمثال الحاج عبد المطلب، هو الذى غذى إسراف أمه وتطلعاتها الجامحة.

بالنسبة لشحات، أصبح النظام والتعقل محدودين. لن يتمكن العلم أو التقدم أن يعظما من شأنهما، بل بالعكس، جعلا الحياة أكثر صعوبة ومشقة. أليس هناك الشياطين المختبئون، القدر الأعمى، إغراءات إبليس،

ثورة الدم الحار للشخص نفسه، تنتظر جميعا المرء فى مفترق للطرق؟ لِمَ إذن، يحدث نوع من التغيير؟

سمع أصواتا بعيدة حية، أخذ يجهد أذنيه ليتسمع. استطاع أن يميز نهيق حمار على البعد، نداء ممطوطا لبائع يغنى قائلا "البصل الحلو اللى زى العسل!"، زمارة تلعب بموسيقى فرح وزواج، عويل خافت لصوت امرأة تعدد. يا للعجب، أحدهم يتزوج، وآخر قد مات. تذكر على الفور أمه وهى تحكى الليلة الماضية عن كوميديا الحياة فى القرية، ثم تذكر بطة وهى ملقاة على جانب الطريق والدماء تغطى فخذيها، فى الحال رجعت إليه حالة اليأس القاتل.

بدأ القمر فى الصعود، كاد أن يكون مكتملا، غدا هو الليلة الختامية لمولد سيدى أبو الحجاج. غرق الوادى فى الظلام، فحول المنازل والأشجار المستندة على بعضها بعضا، بدأ بحر من الضباب المنير يتصاعد إلى العلا. ظل هذا المنظر طويلا فى ذاكرة شحات، حزم من البخار بيضاء كأنها الأشباح، طفت ببطء فوق الحقول الممتدة على مدى البصر، وبقرب القمر ذاته رأى نتفًا ضخمة من السحاب لونها أصفر ترتفع فوق انحناءة الصخور وأخذت تتحرك بلطف بالغ.

شعر شحات كأن الله ذاته قريب، يلقى بنظرة نحو الأسفل، كما هو، من عليائه فى السماء. الصحراء المبدورة بالنجوم التى لا يحصى لها عددا،

كانت بعيدة بعدا لا يمكن إدراكه، لعل من هذا المكان البعيد تتجمع الملائكة تشاهد ما يحدث على الأرض، على الأرض يعبث إبليس وأتباعه ويخلقون الشر والعنف، لكن هنا على الأقل، فوق هضاب الصحراء، كل شىء يسبح فى السلام والطمان وحكم الله الذى لا يمكن لكائن ما أن يتحداه. بينما ينظر إلى الأسفل نحو الوادى المملوء بالظلال، تذكر كلمات سنية عندما قالت إن الغروب يبدو كأن الأرض تعبر عن شكرها لله، لقد عاكسها حينذاك وقال إنها فرعونية تعبد الشمس، لكن الآن، وقر فى ذهنه أن الأرض ربما تكون فى حالة من الانتظار لتدخل مجالا كله خير، فالشمس سوف تشرق بعد ساعات قليلة فوق الصحراء وتهزم بذلك الظلام المخيف.

الحياة قد تبدو قاسية وسخيفة، لكن كل شىء موضوع فى مكانه المناسب ومقدر، وهو جزء من خطة الله. هذا ما تعنيه حياة الناس على الأرض، ثم زعق بصوت عال، "كله من عنده، أنا ما ليش يد فى أى حاجة، كل شىء من عندك يا كريم".

كان الممر الذى يخترق الصخور منحدرا بشدة، لكن شحات لم يفكر كثيرا فى قوته أو أين يضع قدميه. أحيانا كان القمر ينير أمامه، وأحيانا خلفه. ما أن اقترب من المنحدر الأخير، حتى سمع عواء ذئب صحراوى. بالنسبة لشحات، كان صوته يشبه أصوات الجن وأتباع الشيطان الذين كانوا يطاردونه بالشكوك، كانوا دائما ما يهمسون فى أذنه، "انظر ما الذى سوف يحدث لك يا شحات، دقق النظر".

بعد الظهر، الطريق إلى النيل كان مزدحما بالناس، فهم يتدفقون إلى الأقصر ليشاهدوا الليلة الختامية للمولد. أم حامد كانت فى منزلها ترعى بطة، وكلها استنكار ورفض لما حدث. ورفضت أيضا أن يحضر كل من نوبى وأحمد الليلة الختامية، فالاحتفال بسنوية عبد الباسط على الأبواب، والمفروض أنهم جميعا فى حالة حزن، لكن الولدين تسللا ووجدا شحات واقفا فى مكان عبور المعدية ومعه العزب وعدد آخر من الأصدقاء. أخبر شحات الولدين أن يلتصقا تماما بجانبه عندما يختلطون بالزحام فى البر الشرقى، وقال إنه سوف يرسلهما إلى المنزل مع أحد الأصدقاء عندما يحل الظلام.

أخواه بالكاد تعرفا عليه. ففى منزل العزب ، أصر أن يتهندم ليحضر تلك المناسبة الهامة، لذا اختفى جلبابه القديم الكالح وشاله الرمادى وقدماه الحافيتان. بدلا من ذلك، استحم، حلق شعره وذقنه وشذب شاربه، وفوق عمامته شد شالا أبيض طرفه يتطاير فى الهواء، واضح أنه جديد. كان وسيما للغاية، كأنما هو شخص آخر غير شحات الذى عرفاه.

تم تجهيز مركبة بخارية أحضرت من أسوان لكى تسع تلك الجماهير الكثيرة المتدفقة تريد أن تعبر النيل، فهناك عشرات الآلاف من المتوقع أن يحضروا الليلة الختامية. الولدان، وهما ما زالا غير معتادين على منظر شحات الجديد، شعرا بسرور بالغ عندما صعدا مع شحات

إلى الطابق الأعلى للمركب واستندوا جميعا على السور. بينما يراقب شحات النيل وهو يزحف مبتعدا، لم يشاهده من قبل بهذه الروعة والجمال. شمس ما بعد الظهيرة ترسل إشعاعات براقة على صفحة المياه وتنعكس على الهواء ذاته. من فوق ظهر المركب، أشرق النهر بنور الشمس، وأصبح لون مياهه ذات لون يصعب وصفه، هو خليط لين ورقيق من اللون الأزرق الغامق، الفضى، الأخضر، وفى أجزاء أخرى أشرقت المياه بلون نحاسى. كل هذا بدا فى عين شحات كأنه خلطة منسجمة من الألوان الخضراء والزرقاء والفضية. لم يشأ أن يغادر النيل، وشعر بالأسى عندما وصل المركب إلى البر الشرقى وانسل الجميع إلى الشاطئ.

كانت شوارع الأقصر مكتظة بالجماهير، شحات والولدان وأصدقاؤه ذابوا فى وسط بحر من الناس متجهين جميعا نحو مقام الولى المبارك، الذى شاهدوه وهو منتصب عاليا فى حضن معبد الأقصر. فموقع المقام هو ساحة عظمى كان قد بناها رمسيس الثانى الأعظم بين الفراعنة. ببطء شديد، والرجال يضغطون عليهم من كل جانب، تقدموا حثيثا من مكان رسو المركب حتى مركز البوليس، ثم شقوا طريقهم بمشقة بالغة خلال حارة صغيرة إلى طريق السوق واجتازوا صفا من المحلات، أخيرا استداروا غربا ليواجهوا النيل، حيث حملوا حملا وسط الجماهير. ما أن خطوا فى رحاب المعبد، حتى تعلق

الغبـــار والعفـــار الذى أثارته أقدام الرجال الزاحفة وتعلق فوق آلاف من العمم والرؤوس، خالقا ضبابا كثيفا لونه أصفر. فى ثنايا هذا الضوء الغريب، وجدوا أنفسهم فى مواجهة مباشرة للشمس، مما أضطرهم أن يضعوا أيديهم فوق حواجبهم. سهام من الضوء المبهر، اقتحمت الأماكن المفتوحة ما بين أعمدة المعبد الفرعونى الضخم بتماثيله ذات الأحجام الخرافية، كذلك عم فوق قمم الأشجار وضريح الولى. الهواء تشبع بجزيئـــات لامعة من الغبار، وكل شىء بدا كما لو كان من وراء حجاب من الضوء الأصفر البراق. الضريح زين بمجموعة هائلة من الأعلام، بينما التف حول مناراته وأعمدته الجرانيتية حبال مثبت فيها لمبات كهربائية عارية.

باستثارة متصاعدة، شقوا طريقهم إلى الأمام، لكن الطريق كان يصعب تماما العبور خلاله، من حولهم، هناك أجساد تضغط عليهم. تكونت خيوط من العرق أخذت تجرى فوق جبهة شحات؛ وأمسك بقوة بيدى الصبيين الساخنة الغارقة فى العرق. حولهم أطلق الرجال تحيات صاخبة إلى بعضهم البعض، وسمعت أصوات كلها انفعال. لكن على وجه العموم، أصبح الاستماع لأى شىء متعذرا بسبب تلك الضوضاء الشاملة. أصبحت حرارة الدفع والاندفاع، مع الأجساد المتلاصقة تماما، شيئا مستحيلا وخانقا، فيه تتشتت عناصر الرؤية والسمع. أحس شحات برأســه تدور وتلف، وأخـــذ يحملـــق من خـــلال الرؤوس المعممـــة،

مرة على المنـــارات، وأخـــرى على الضـــريح الذهبى، ثم نظر مـباشرة إلى الشـمـس التى أخذت تلمع فى عينيـــه. الغبـــار والعـفـــار الملتمع وحـزم الأضواء، ألقت بتدفقات مبهرة من الضوء على العمم البيضاء التى أمـامـه. أكد له ذلك المنظر الذهبى الذى يراه أمـامـه، أن هـذا ليس مـجرد غبار وضوء، لكنه عبارة عن رؤيا؛ هذا المنظر السحرى المختلط بالضـيـــاء الرائع، وذاك الصيـاح الذى يصـدر من المتـجـمـعين حـول الضـريح - الذى فى حد ذاته يؤكد فناء وغرور الحيـاة، وتواجد مـا هو أعلى وأسمى - دعاه هذا كله لأن ينسى ذاته ويسبح فى الذكريات، تمنى أن يموت. فماضيه مؤلم ومستقبله مبهم، وهذا الحاضر السحرى ، تلك الهمسة من العمر، سوف تصبح ماضيا عما قريب وتنسى كأى شىء آخر حدث له. لماذا إذن يعيش؟

صاح واحد بجواره، "الجياد، الخيل!"

التفت وشاهدهم، أتوا من جـهة اليسـار فى هياج مرعب، الجـياد براكبيها تنطلق بكل ما أوتيت من سرعة كأنما تنتوى أن تعتلى رؤوس الحاضرين. كان هناك رعد من صوت الحوافر، سحابة من الغبار، ثم ظهرت رؤوس ممتطى الجياد من البدو، التى استقرت خلفا، والوجوه إلى جانب، رقاب بنية اللون، عضلات مشدودة كالحبال، عواء وصيحات جبارة، عصيان مرفوعة إلى أعلى فى الهواء، يستخدمون المهاميز، فتنطلق الجياد وهى فى حالة من الجنون. ضد أشعة الشمس المبهرة،

والجلبة والضجة الكبرى، بدوا كأنهم ليسو فرسانا، بل هم حلم انبثق من ثنايا الأساطير، لا يظن شحات أنه شاهد شيئا آخر يفوق ذلك فى جلاله وعظمته. اندفع هو إلى الأمام، ممسكا بكتفى الصبيين، يزاحم الناس حتى يتسنى لهم أن يقفوا أماما ليشاهدوا. رجال البوليس يهزون عصيهم بعصبية بالغة، يحاولون إزاحة الناس إلى الخلف ليخلوا طريقا للفرسان. هؤلاء يركضون فى اتجاه واحد وهم يهتفون بأدعية الحمد لله فى صيحات متوحشة مثيرة، ثم يدورون بكل مهارة ويركضون راجعين نفس المشوار، يتفادون بعضهم بعضا بمقدار شعرة رأس، وهم يصيحون: الله أكبر، الله أكبر، وهى صيحة الحرب الإسلامية. عندما يحدث توقف بسيط لهذا العرض، يمر الناس بسرعة متجاوزين رجال البوليس لينتقلوا إلى الجانب الآخر، مخاطرين بحياتهم، لعلهم يشاهدون منظرا أفضل، ثم ينطلق الفرسان مجددا ، وكل إنسان انخرط تماما فى هذا العرض البدوى المتوحش.

شحات يشاهد العرض وهو مشدوه، مسحور، ثم غلبه نوع من الوجد الغريب، لون الهواء مبهر- بلون لم ير مثيلا له من قبل - السماء، المنارات، الهتاف المحيط به من كل جانب، صياح الفرسان المملوء حماسا، ملأ كل هذا نفسه بفرح غامر غير منضبط. أخيرا سوف يعثر على ذاته وكيانه، فى مكان بعيد، مكان يقع فى حضن الأبدية ذاتها، سوف يعثر على الخلاص ويتخلص من كل ما يتعبه ويشغل باله وروحه،

عندما نظر بوجد وانتباه نحو الفرسان القادمين المندفعين ضد شعاع الشمس، وسمع الصياح الثاقب من حوله، رأى نفسه كما كان يظهر فى أحلامه، مرتديا ملابس بيضاء، بينما هلاهيله السوداء قد أحرقت، ثم وهو يروح ويجىء، مثل هؤلاء الفرسان، وسط حديقة متلألأة رائعة الجمال، ويستمع لأصوات متبتلة تحمد الله، حرة غير مقيدة. ثم همس لنفسه، "كله من عند الله".

ثم اندفع إلى الأمام.

بدا له أنه قد وصل إلى الجهة الأخرى بسلام، مع ذلك تردد قليلا، واستدار ليواجه الفارس القادم ونظرة اعتذار تكسو وجهه، ثم فجأة، حط الحصان بكل ثقله فوقه، واختفى تماما خلف الحصان الجاثم وراكبه.

حدثت فترة صمت فجائية، لكن هذا لم يحصل فى الحال بالنسبة لجميع الناس، فالبعض ما زال يصوت ويصرخ. بدا أيضا أن الزمن قد تباطأ ، حتى أن قرع حوافر الخيل، العمائم البيضاء، سحب الغبار الكثيف الأصفر، أخذت جميعا تدور وتلف حول بعضها ببطء شديد. الأبيض تحول إلى أحمر، قرع الحوافر والغبار أخذ يدور أكثر بطئا؛ هذا هو ما يتذكره أخوة شحات: الصمت المفاجئ، صوت قرع الحوافر وهو يرتفع وينخفض، الأبيض الذى تحول إلى أحمر، الغبار وهو يدور ويدور ببطء بالغ.

كان العزب هو الذى وصل أولا. ركع على ركبتيه وحضن رأس شحات بين ذراعيه. رأى الولدان الرأس عاريا وقد تحول فى اتجاه واحد، بينما الوجه عبارة عن قناع كامل من الدماء والغبار. رفع الرجال الجسد وحملوه خلال الزحام، أحدهم كان يزيح الناس بعنف بكلتا يديه ليتقدم الصبيان إلى الأمام، لم يكن هذا سوى عبد الرحمن، وبدأ الجمهور يتحرك معهم. ثم عندما وصلا إلى مكان فسيح، لمحا جسد شحات وهو مسجى على الأرض بجوار حائط، بينما بعض الناس منحنون عليه، وآخرون ممسكون بعصيان غليظة يلوحون بها لكى يتفرق المتفرجون، لكن الناس تدافعوا وضغطوا عليهم. لعدة دقائق، تعذر عليهما أن يشاهدا شيئا، وبالكاد استطاعا أن يلتقطا أنفاسهما.. ثم تم سحبهما من بين الجمهور مرة أخرى، فوجدا أنفسهما محشورين داخل عربة مفتوحة.

هناك كان شحات مكوما على مقعد بجوارهما، يجلس منحنيا ورأسه مستندة على ذراعه، ثم شاهدا عمته الممزقة مليئة بآثار الدماء والغبار. خلال دموعه الثخينة، بدت بشرته لامعة ومندية وحمراء. بدون أن يتحرك أو يرفع رأسه، لكى لا يريا وجهه، كانا هما يحملقان فى شعره المجعد وقد غطاه الدم والغبار، خاطبهما. لم يدريا حينذاك أنه فى حالة صدمة عصبية، وأنه لن يتذكر ما قاله لهما لاحقا، لقد أمرهما بصوت أجش متعجل أن يتبعا العزب حتى النيل ويعبرا النيل ويذهبان

إلى بيت خالهما أحمد لأنه يأمن عليهما هناك. لقد كانا يستمعان إلى صوت متحشرج فظيع، لدرجة أنه عندما وصلت العربة إلى المستشفى، شعرا براحة عميقة للابتعاد عن هذا المنظر غير المألوف لأخيهما، وتأكد لهما أن الله لم يشأ أن يميته بالرغم من كل ما حدث له ومنه.

لا اله إلا الله...لا اله إلا الله...

هذا الهزيز العميق، بأصوات خشنة، رن بكل حماس خارج المنزل، وبينما الصيحات تتردد متسارعة بكل نشاط وهمة، وقف شحات أمام والدته وهي تملأ الصينية بأكواب الشاي. كان الوقت هو منتصف الليل، والدعوات المنطلقة تعلو إلى عنان السماء لعلها تبعث بالراحة لروح المرحوم عبد الباسط.

خرج شحات من المستشفى ذلك اليوم فقط، وبالرغم من أن رأسه ما زالت ملتفة بالضمادات وجسمه متصلب ومتألم، أصر أن يفي بواجباته كابن أكبر لأبيه. لقد كان حظه حسنا للغاية، حافر الحصان خبطه في جانب جبهته الأيمن، وتسبب في إدماء شديد تطلب سبعة غرز، وربما يحمل آثار ذلك بشكل دائم. ساقه اليمنى وذراعه ما زالا لونهما أزرق بسبب الكدمات، لكن جميعها سوف يبرأ مع الوقت، أما الصعوبة التى كان يعانى منها عندما يتنفس، فقد اختفت الآن تماما. عندما عبر الطبيب عن اندهاشه لعدم تعرضه لإصابات أخطر من ذلك، كان رد شحات، "الحمد لله "، ولم يذكر أى تفاصيل عن الحادث، واذا تم الضغط

عليه ليحكى، يستعيد المثل القائل "المقسوم تشوفه العين"، لذا تدريجيا، اختفى الاهتمام بتحرى أسباب الحادث، وكل ما كان يهم القرية هو أن شحات قد عاد إلى منزله.

وهى منتظرة داخل المستشفى، مر على خاطر أم حامد كل أحداث حياتها، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها، ثم تذكرت وعد ابنها عندما قال إنه سوف يكون فريدا من نوعه - بالمقارنة بغيره ممن تعرفهم، بما فيهم أخيها أحمد - وأنه سوف يصبح رجلا كاملا يتحمل المسئولية. تذكرت أيضا كيف أن المرحوم عبد الباسط كان دائما ما يغفر لشحات. تعلم هى تماما أن كل القرويين يحبونه، وأيقنت أن هناك أسسا قوية ومنطقا مقبولا يتنبأ له بعيش هانئ وحياة كلها سعادة وتوفيق. بذعر بالغ، كلبش فى قلبها، عندما تخيلت حياتها خاليه من وجوده. عندما حضر إلى المنزل، ودت أن تخبره بأن الماضى عدى وفات وهو ليس سوى سلسلة من الأخطاء، وأنهما يمكن أن يستأنفا حياتهما من جديد، هو أخيرا أصبح ذلك الراشد الذى تحتاج لعونه، هو مثلها، مساويا لها، إنه ابنها.

لكن خلال الأيام القليلة التى ظل فيها داخل المنزل، لم ينطق بشىء، بينما أم حامد فى هم مقيم خشية أن يكون مخططا لأن يغادرهم إلى الأبد. كانت على يقين بأنها سوف تخبره بأن كل شىء سوف يبدأ من جديد، وأنها سوف تراعى منذ الآن موضوع إسرافها وتبذيرها للنقود،

وأنها مستعدة أن يعيشوا عيشة بسيطة قانعة، وهو الذى عليه أن يتخذ القرارات مهما كان شكلها، لأنه هو رجل البيت. لكن فى كبريائها العنيد، لم تجد فى نفسها المقدرة أن تعترف له بكل هذا.

" الله.... الله..... الله..... الله ....

صياح مائتين من الشيوخ تقريبا تصاعدت إلى عنان السماء. لم تشاهد القرية من قبل مثل ذلك الذكر، بالرغم من أنهم جميعا يعلمون أن أم حامد قد اقترضت نقودا من الحاج عبد المطلب لكى تقيمه. تناول شحات الصينية من يد والدته واستدار لكى يذهب بها، فصاحت وقد وضعت يدها على فمها، "شحات"، لقد كانت فى خشية أن يغادر بمجرد انتهاء الحفل.

التفت نحوها، "عايزة إيه؟"

لم تستطع النطق بما كانت تنوى أن تخبره به، وربما لن يحدث هذا أبدا، لكن أخيرا نطقت بجملة واحدة، "السلام يا ولدى"، ثم استدارت خلفا، وبدأت فى البكاء بحرقة واضعة منديلها على عينيها، هى تدرك الآن أنها على وشك أن تفقد كل شىء. رجع إليها شحات وهو يقول، "بس. بس بطلى عياط". ثم ترك الصينية واقترب منها وضمها إليه، الأكتاف التى استراحت بين يديه كانت ما زالت دافئة ومضطربه، لاحظ أيضا كم أصبحت نحيفة وصغيرة الحجم، علم يقينا أن حياتها

بدأت فى الأفول، لقد وضح له الآن أن أقسى الأعوام وأصعبها وأكثرها تعقيدا مع أمه ما زالت فى رحم المستقبل، لكنه لم يهتم. أحس فقط بنوع من التعاطف العميق نحوها، همس لنفسه، أنه مهما حدث فإنها ليست سوى إرادة الله ومشيئته، مدركا فى استسلامه هذا، أنه يتنازل عن بعض من حريته، وربما لن يعثر عليها مجددا، لذا شعر بنوع مختلط من الحزن والفرح.

حلت مواسم وانقضت، أتت أيام الشتاء، مظلمة، طويلة، باردة، ثم سريعا تحولت إلى نار الصيف، وبدأت الظلال تطول تحت أشجار الأكاسيا المترهلة التى تراصت على طول الترعة، وأحضر الحصادون حبوب الصيف إلى المنزل، أخذت طيور أبى قردان تتغذى على خيرات الحقول المروية حديثا، ثم يحل الشتاء مرة أخرى. الزمن يمر، وخلال كل ذلك الوقت، يصنع شحات القليل، يذهب ويعود من حقله، يبدو عليه أنه يعرف كل حجر، كل شجرة على طريق العربات الذى يصل ما بين سنباط ومنزله. هنا يجد ماضيه وحاضره، ولا يتصور أى مستقبل بعيد عن حقله. الطريق من والى القرية، ومرة أخرى ما بين حقله ومنزله، وحالا سوف يفكر فى الزواج.

وافقت أم حامد وكذلك خاله على العروس التى اختارها، وهى ابنة عم لوالدته، وقد أخبر شحات صديقه العزب، "البت مش حلوة قوى، لكن أنا حطيت عينى عليها ولقيتها بنت كويسة، وتشتغل تمام، حتكون نافعة خالص فى بيتنا".

كالمعتاد، بددت أم حامد معاشها المتجمد فى موضوع إدخال الكهرباء إلى منزلها، هذا أشعل الحسد فى صدور جيرانها المضطرين إلى الاستمرار فى استخدام لمبات الجاز. الحاج عبد المطلب ثار ثورة عظمى وهدد بأنه سوف يلجأ إلى المحكمة إذا لم تسدد الديون التى عليها، هذا الأمر سبب نوعا من الأسى فى صدر صديقتها بهية. وكان إذا ندد شحات بأمه، تقول هى، "ربنا هو الرزاق". ما زالت أمنية أمنياتها أن تزور مكة قبل أن تموت. حصاد القصب أنقذ العائلة من مآس كثيرة. يوما ما سوف تنتج أشجار النخيل بلحا بكميات كبيرة يكسوهم بحلة من الرخاء الجزئى. الآن هو شحات الذى يتعامل فى معظم الدخل، كلما أصبح أكثر استقلالا فى تصرفاته المالية، كلما زادت درجة مشاكسة أم حامد، لكن إذا حدثت خناقات بينهما، فكلاهما يعلم أن الصلح قادم. لقد اعتاد القرويون على عادات الأم والابن، لكن لم يتقبلوا أبدا موضوع زواج بطة من الجمسى.

سنية هجرت القرية كلية، كانا قبلا يختلسان النظرات والكلمات، ولا يعلم أحد مقدار ما يشعر به شحات جراء فقدانه لها.

نوع من القدرية تغلب على طباع شحات، ولم يعد يفكر فى الماضى. كل جموح شبابه - الآمال والعواطف الملتهبة أصبحت خافتة بلا شكل أو طعم أو لون، شىء ما يتذكره كحلم. لكنك الآن فى استطاعتك أن ترضيه وتجعله مرحا فكها، وهو سريع الفهم والبديهة كما كان دائما. ولا يستطيع أحد أن يحكى قصة فى إحدى الأمسيات بقهوة شلتوت مثلما يفعل شحات.

ما بعد ذلك

كمراسل يكتب عن حياة الفلاحين، أود أن أشرح كيف كتبت قصة شحات هذه.

معظم علماء الأنثروبولوجى (علم الإنسان) تنحصر بحوثهم العملية داخل قرى العالم ومدنها، طريقتى كانت مماثلة لعملهم. معنى هذا، أننى عندما أذهب لقرية ما، أبدأ أولا بدراسة نظامها البيئى والاقتصادى أو الزراعى- الحرث، الزرع، نزع الحشائش، الحصاد ثم دراسة المحاصيل الأساسية. بما أن الجهد العضلى هو مركز الحياة فى القرى التقليدية، كنت أنخرط فيها مع تطور البحث الذى أقوم به. هذا الأسلوب هو أسرع طريقة لاكتساب ثقة الفلاح وقبوله، كذلك أيضا لكى أنمى الشعور بالحياة فى أى مجتمع اختار دراسته. إذا استراح القرويون وعاقر بعضهم الخمور فى المساء، كما يفعل الكثيرون، كنت أشاركهم فى هذا. فى معظم الأحوال، كنت أستخدم مترجما معى، أستأجر خدماته محليا، أيضا استفيد منه بعض المعرفة بالألفاظ المتداولة بلغته هو. لقد اكتشفت أن تواجد مساعد من نفس البيئة

الاجتماعية محل الدراسة يمدنى بتعضيد خلقى هام. كنت أيضا أسجل بطريقة الاختزال ملاحظاتى وكل ما ألتقطه من حوارات بقدر الإمكان، مفضلا التعرف على المعلومات من الحوار العادى بدلا من تدبير نوع من المقابلات الرسمية، إما مكتوبة أو مسجلة على شرائط. حتى أفضل المحاورين الذين يتصفون بالحيادية، يميلون إلى أن " يقودوا " بدون شعور منهم أو حتى بشعور منهم بالموضوع الذى يتناولونه فى خطوات محسوبة مقدما.

على هذا المنوال، يقود تفحص المجتمع الزراعى إلى معرفة نظام التسويق بشكل طبيعى، كذلك تحويل قيمة المحاصيل إلى نقود وطعام تتغذى به الأسرة. من الزراعة، يتحول الإنسان بشكل طبيعى ليتعرف على الحياة الاجتماعية والدينية. بذلك لا يختلف نظام التعايش هذا كثيرا عما يصنعه عالم الإنسانيات. مماثلا لهذا العالم، على أن أدرس نوع الحضارة التى أفرزت تلك القرية، تاريخها، معتقداتها، فلسفتها، فنونها، آدابها وأحوالها السياسية والاقتصادية الحالية. وبقدر الإمكان، أحاول أن أستجلى نوعية القيادة العليا التى تحكم. فى حالة شحات هذا، كان رئيس مصر حينذاك هو الرئيس أنور السادات.

لإنجاز قصة شحات، انتقلت لهذه القرية عام ١٩٧٤، وعشت فى فندق القرية الذى يديره ابن عم أبيه، وهو صبحى. فى الحال استأجرت خدمات اثنين من المترجمين، كلاهما طالب، واحد من أجل الفترة الصباحية

والآخــر للمسائيــة (المترجمون عادة ما يتعبون بعد خمس أو ست ساعات من الترجمة المستمرة). ولمدة ثلاثة شهور، أنهيت دراسة النظام الزراعى للقرية، وكان على أن أتعرف على الناس. شحات وأصدقاؤه كانوا من ضمن معارفى؛ وكنت قد قابلتهم لأول مرة فى الحفل الذى وصفته فى قصتنا هذه. وكنت حاضرا أيضا عندما مات والده، عبد الباسط. بعدها رجعت إلى القاهرة لأقضى عدة أسابيع أدون على الآلة الكاتبة كل ملاحظاتى. عندما عدت، كان كل من شحات ووالدته فى حالة حزن بالــغ على وفاة المرحوم، ثم عادا لممارسة حياتهما العادية وانخرطا فى شئون القرية كالمعتاد. فى تلك اللحظة أخترتهما ليكونا هما عماد قصتى.

فى نفس الوقت تحصلت على خدمات رجل أعتبره مترجما رائعا موهوبا، هو نوبى أبو الحجاج. هو موظف حكومى فى الأقصر وتاجر (يدير محلا لبيع السجائر فى المساء). مدينة الأقصر تبعد حوالى ثلاثة أميال من بيراط. كان هذا من حسن حظى، لأن نوبى هذا ينحدر أصله من إحدى العائلات المرموقة والتى يعتقد أنها تنحدر من نسل الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم). هذا حقق لنا نوعا من القبول العام فى القرية. بالإضافة إلى وضعه المميز داخل مجتمع القرية، لم يكن نوبى قديسا، لكنه كان يستمتع بالشراب والمنادمة مثل أى شخص يجلس بجواره؛ هذا أعطى لنا فرصة لأن نفحص ونتوغل فى حياة كل من القديسين والأشرار فى آن واحد.

فى كل واحدة من عشرات الدراسات التى قمت بها وتختص بدراسة حياة الفلاحين، هناك قدر كبير من الارتجال ومحاولة الإفادة بقدر الإمكان من الظروف. تدريجيا، تنبثق وسيلة معينة ومحددة تحكم العمل وتستمر بعد ذلك بطريقة مرضية. شحات وأنا كنا نصحو مبكرا لنذهب إلى حقله فى الصباح الباكر؛ فى البداية لم يكن يعرف أى كلمة باللغة الإنجليزية، وأنا أيضا بالنسبة للغة العربية، لكن شحات كان سريع البديهة والفهم، لم يمر وقت طويل قبل أن يعرف كلانا قدرا مناسبا من لغة الآخر، بحيث أمكن لنا أن نتواصل؛ فى الحقيقة، شحات الآن يتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة منقطعة النظير. فى منتصف النهار نعود إلى منزله، هناك نجد أم حامد وقد أعدت لنا غذاء لذيذا نأكله فى غرفتها العلوية المريحة، وكان يحضرنا أيضا نوبى أبو الحجاج الذى يحضر ممتطيا دراجته من المدينة، معتبرا أن وظيفته الحكومية قد استوفت حقها منه. لمدة أربع أو خمس ساعات يوميا، بعدما نأكل ونحتسى أكواب الشاى والقهوة، يبدأ شحات وأمه ونوبى وأنا فى استعراض كل الأحداث التى وقعت خلال الأمسية السابقة وهذا الصباح، نعيد تكوين الحوارات والأحداث التى أسجلها فى سجل ضخم (فى الواقع، أصبح هذا السجل عبارة عن سبعمائة صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة بعد ذلك). أحيانا كان نوبى المترجم يظل معنا حتى إنه أحيانا يحضر معنا وجبة العشاء، لا سيما إذا كانت هناك حفلة أو وليمة مقامة فى مكان آخر بالقرية.

خلال فترات ما بعد الظهر، لمدة استمرت ستة أو سبعة شهور، كونًا فيها تاريخ العائلة السابق. المتعلم قليلا من المصريين، الذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب وهو صغير، له ذاكرة مدهشة. كثيرا ما كنت أنا ونوبى نستعرض معلومات أم حامد وشحات منفردين عن تفصيلات حادثة معينة حدثت فى الماضى؛ كان من النادر أن يختلف سردهم للواقعة كثيرا، حتى الحوارات بمنطوقها نادرا ما تختلف. الجزء الثانى والثالث من قصة شحات الذى ينتهى بموضوع مرضه وحلمه وهو فى الجنة، يتوافق مع تلك الفترة.

فى اللحظة التى ظننت أن القصة قد انتهت أحداثها، سافرت إلى القاهرة وكتبت المسودة الأولى من واقع مذكراتى، حدث موضوع عراك شحات مع أمه وخاله وأنا لست فى القرية. هذه الأحداث قمنا بإعادة صياغتها بعد ذلك من جلسات تمت معهم هم الثلاثة كل واحد بمفرده. عندما أخبرنى شحات بموضوع الخناقة وهو فى القاهرة، عدت فورا إلى القرية. مع ذلك، كنت متواجدا خلال الأحداث الدرامية للفصل الختامى لهذا الكتاب: عودة شحات لمنزله واستئناف نشاطه، اغتصاب بطة فى عز الظهر على طريق القرية، هروب شحات إلى قلب الصحراء، الاحتفال بمولد الحجاج بالأقصر، التصالح ما بين الأم وابنها. النهاية بفقراتها المختصرة، كتبتها لاحقا بعد عامين. كانت الخاتمة مختلفة تماما فى القصة الأصلية، كان على شحات أن يغادر القرية فى نهاية القصة

الأصلية، لكن عندما أعدت التفكير، رأيت أن النهاية الحقيقية كما كتبتها مجددا ما كان من الممكن تفاديها.

ربما يخطر على بال القارئ عدة أسئلة فيما يختص بهذا الأسلوب الذى اتبعته، وسوف أحاول هنا أن أتوقعها. لقد حاولت أنا ونوبى المترجم، على قدر استطاعتنا، أن نظل ملاحظين وليس مشاركين، وأظن، بشكل أساسى، أننا نجحنا فى ذلك، ولا سيما لدور نوبى كعامل ملطف (كنت أنا وشحات دائما ملازمين لبعض، فى كل أوقات صحونا، لمدة عام كامل تقريبا؛ عدة مرات نشبت بيننا معارك مرة، بالأخص معارك نشأت من السكر المشترك، وبالطريقة العربية، كانت تصل أحيانا إلى حد تبادل اللكمات، مرة ألقينا على بعض المقاعد، وأحيانا كنا نشتبك فى معارك حقيقية، هذا كان يسوء القرية، وكل شخص، وبالأخص نوبى، كان يسعى لتحقيق الصلح والسلام بيننا. كنت أفرح بذلك، طالما أن هذا سوف يجلى المواقف ويصفى الأجواء، كذلك شحات، لكن حينما يتصل الأمر بالوقائع المؤثرة على سير القصة، كنت أنا ونوبى نبتعد تماما.

ككاتب، كنت أشعر أننى أفهم وأعرف هؤلاء الناس جيدا، لذا كان اهتمامى ضئيلا فيما يختص بإعادة تصوير الأحداث وما اعتمل فى القلوب؛ لا شىء أو حتى كلمة واحدة فى الحوارات قمت باختراعه. مثلا المنظر القبيح الذى تحاول فيه جدة بطة إنقاذها من زواج سيئ؛

كنت أنا ونوبى واقـفـين على السـلالم، منزعـجـين لكن خـائفـين من أن تتدخل فى أى خطوة من المعركة. مرة أخرى، عندما أصيب شحـات فى الليلة الختامية للمولد، قمت أنا ونوبى وآخرون من أبناء القرية أن نتخانق ونتدافع ونرفص لكى نجبر الجماهير لكى يبتعدوا عنه ليمكن لنا أن ننقله إلى المستشفى، وهناك اضطررت أن أمثل دورا هستيريا لكى يسرعوا بمعالجته لأنه كان قد فقد كمية كبيرة من دمه. على العكس، شكرنا الله لأننا لم نكن حـاضرين خلال أيام خناقة شحـات مع والدته؛ كل من نوبى وأنا أحـسـسـنا براحـة عـمـيـقـة ونحن نلتـقط تفـاصـيل الحـدث من فم المشـتركين فيـها بعد ذلك بوقت كـاف، عندمـا هدأوا جميعا. كنت أيضـا حـاضرا يوم أن اغتصـيت بطة وأصـبت بصدمة حضـارية، لكن هذا ما حدث مع شحـات أيضا.

فى لحظات كثيرة، كنت أصف الأفكار والمشاعر الداخلية للأبطال، لا سيما بالنسبة لشحات وأمه؛ هذه تم ترسيخها بناء على ما أخبرنى به كلاهما وما شعر به حينذاك.

مـا أن بدا عـملنا الحـقـيقى، كنت أقـضـى جل وقـتى مـعـهـم، أتناول الطعـام فى منزلهم، وأحـيـانـا كثـيـرة أبات عندهـم، بالرغم من أننى كنت أفضل أن أحـتـفظ بغرفتى التى استـأجرتها باللوكاندة القريبـة كمكان هادئ أستطيع فيه أن أنام وأكتب.

مع إمكانية استثناء موضوعين كنت قد كتبتهما عن الحياة الريفية، أشك أننى تعرفت على أحد، شاملا فى ذلك أفراد عائلتى ذاتها، بمثل تلك المعرفة الحميمة وأنا أتدرج فى معرفتى بشحات.

هذه الطريقة، هى الاندماج الشخصى الكامل، بالطبع تختلف عما يصنعه عالم الأنثروبولوجى، على الأقل من الناحية الفنية. عالم الإنسانيات عادة ما يبدأ دراسته باستخدام نموذج تصورى مبدئى ليقود به اختباراته ولمساعدته فى ترتيب الحقائق. من المحتمل أيضا أن يستخدم إجراءات علمية أخرى، مثل الاختبارات البحثية، التقديرات الجزافية أو أى نوع من الأنواع المتعددة للقياسات العلمية المعترف بها. ربما يستخدم طريقة السؤال والجواب ليجمع إحصاءات عن طريق أخذ عينة كبيرة من أهالى القرية. مهما كان أسلوبه العلمى، فإنه سوف يستخدم أسلوبا إما أن يكون "نظريا" أو "علميا" أو "دراسيا". الصحفى، بالإضافة إلى اهتماماته المختلفة، تدريبه، ارتباطاته الأكاديمية المختلفة، سوف يتبع أسلوبا آخر تماما للبحث والفهم.

فى النهاية، كل دراسة تهتم بالإنسان تمتد ما بين جناحى العلم والفن، والفرق ما بين الصحفى وعالم الإنسانيات هو واحد من عدة درجات؛ واحد يخلط بعض العلم مع الفن، الآخر يخلط بعض الفن مع العلم. كل من عالم الاجتماع والمراسل الصحفى، إذا كانا أمينين ويشعران بالمسئولية تجاه الحقائق، يهدفان فى الواقع إلى زيادة التفهم

بالموضوعات كنوع من الدراسات العلمية المقبولة، أو كصورة حقيقية كما يتصورانها ويكتبان عنها. نقرا هنا إحدى الملاحظات التى كتبها أنطون تشيكوف فى إحدى مذكراته، عندما كتب، "سوف يكون الإنسان فى أفضل حال عندما توضح له حقيقة شأنه".

هذا هو هدفنا العام والسبب الذى من أجله كتبت قصة شحات وبالطريقة التى اتبعتها فى الكتابة. هو إنسان حقيقى، وشخصيته ووجوده هما الوسيلتان للتعرف عليه.

رتشارد كريتشفيلد

واشنطن،

خريف عام ١٩٧٧

ملحق الصور

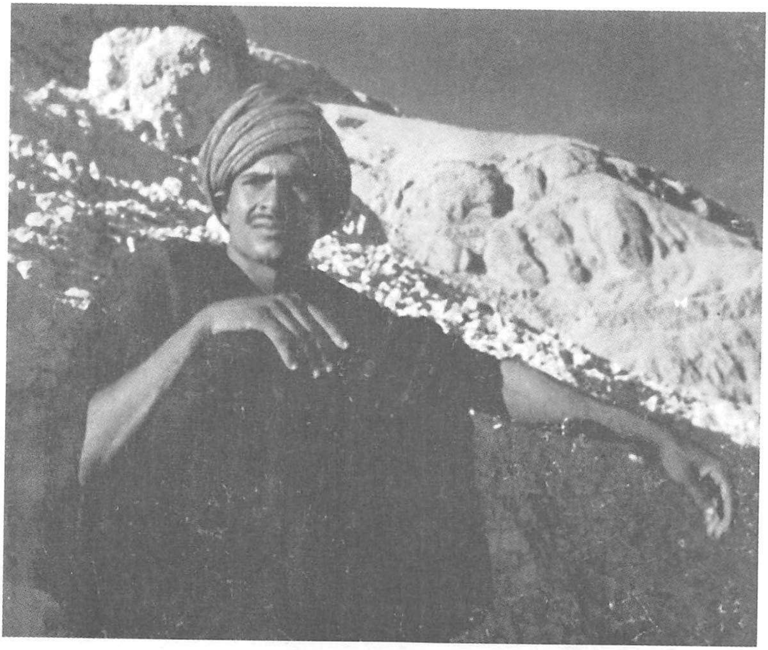

صورة الغلاف

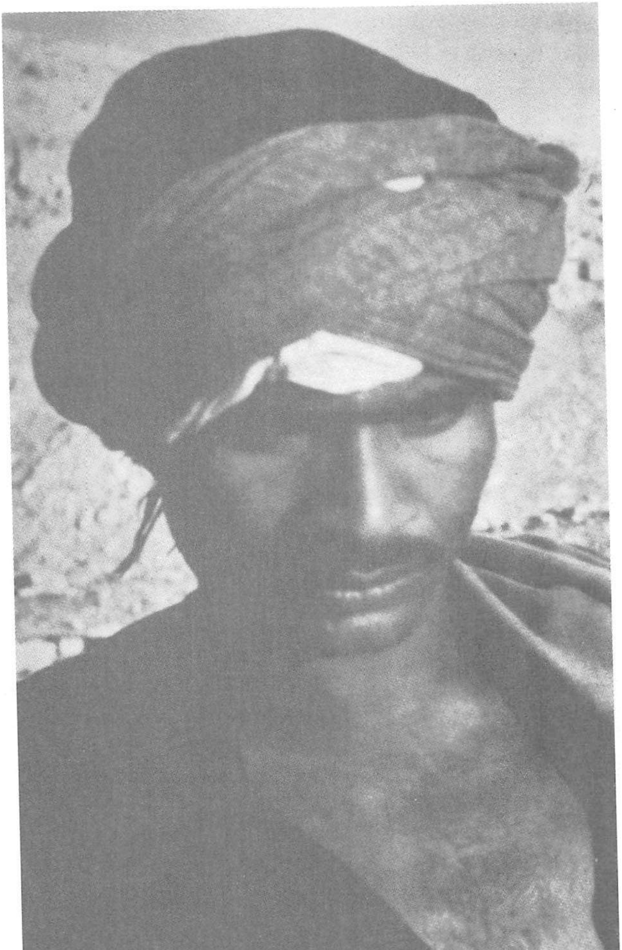

صورة (شحّات)

نجع لوهلة وهو واحد من أحد عشر نجعا يكونون قرية بيراط

وهو يقع خارج أسوار مدينة هابو ، وهو المعبد الجنائزى للفرعون رمسيس الثالث وفى الجانب الشرقى الأعلى لهذه الصورة تظهر حقول لوهلة والنجوع العشرة الأخرى لبيراط ، وهى تتناثر من الصحراء حتى الجانب الغربى للنيل . وتقع مدينة الأقصر عبر النيل على بعد ميلين شرقًا .

المنظر من الجانب الشمالى للمعبد كذلك لحارس المعبد . فى الخلفية يتبدى نجع قرنة مرعى ، كذلك تلال الصحراء الغربية ، حيث تبدأ تلك الصحراء الشاسعة .

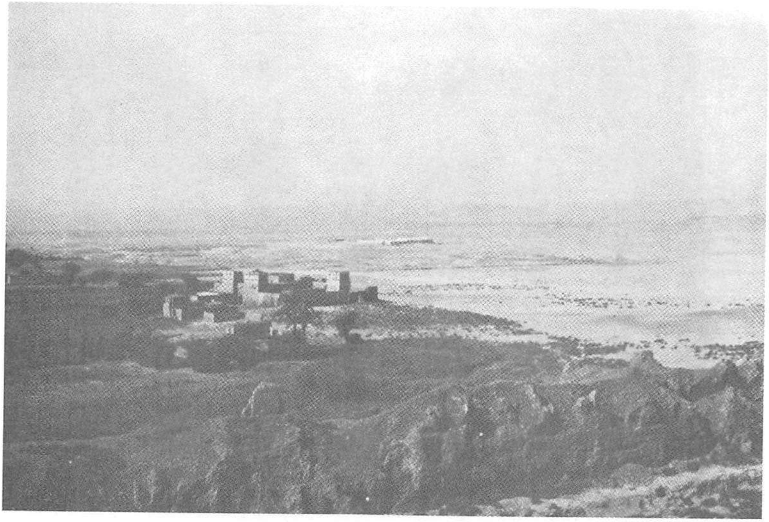

من الناحية الجنوبية ، يظهر النجع الوحيد المسيحى ، وهو نجع باسيلى ويقع فى طرف الحقول المروية ؛ ويوجد هناك كنيسة فى تلك الصحراء القاحلة والتى استخدمت فى العبادة منذ عهد الاحتلال الرومانى لمصر .

أعمدة المعبد لرمسيس الثالث ، وهضاب الصحراء الشرقية تنهض فوق البيوت الطينية للفلاحين ، وتظهر أيضا أشجار النخيل بينما شحات يزرع حقل أسرته بالبصل والبرسيم .

مـجرى قناة مـيـاه الرى التى تجرى خلف بيت الشـحـات ، وكذلك مـا تبـقى من الأرض الزراعيـة التى خلفـهـا الأجداد . هذا المجرى يمر على حـديقة عائلة شـحـات المزروعـة بالنخـيل والعنب ، وكذلك يمر بمنزل سنيـة ، وتظهـر الأرض التى يحـرثهـا (العزب) ، كذلك منزل وأرض الحاج عبد المطلب وهو بخيل القرية .

أم حـامـد ، والدة الشـحـات ، تلك التى تجـاهد لكى تحـافظ على عـزة نفسـهـا وعطشها الجامح لبزوغ مستقبل أفضل ، بالرغم من حياتها الصعبة ، ومـا تعرضت له من مآس .

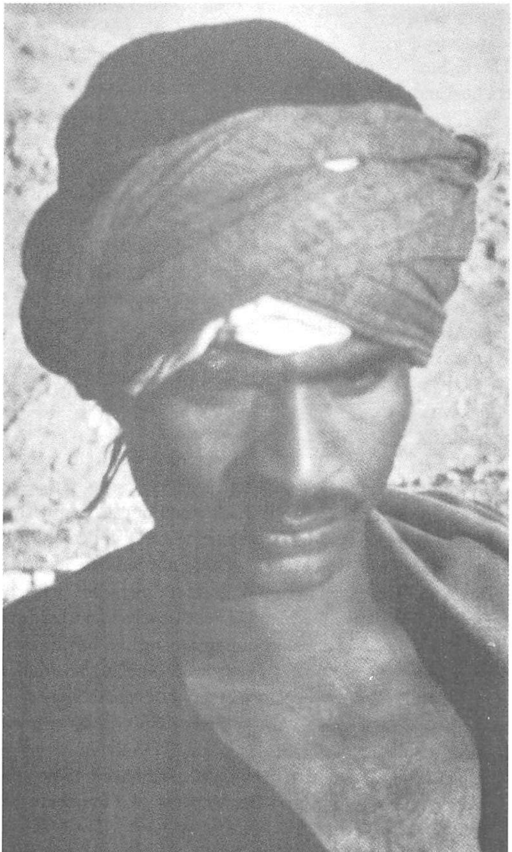

إنه شحات ، وهذا الاسم يعنى فى اللغة العربية «ذلك الذى يستعطى» ، لكنه أيضا يعنى «المرجو من الله» . شكله الذى ينتمى إلى الجنس السامى ، وطباعه الحادة وعشقه للصحراء ، تكشف عن أصوله البدوية .

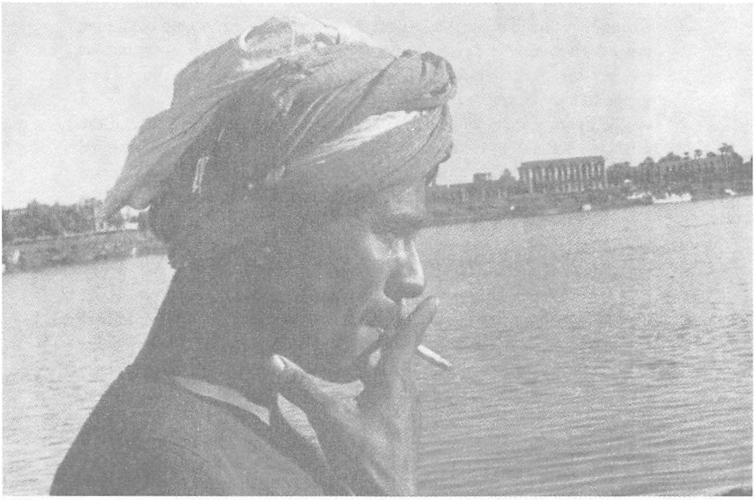

شحات ، النيل ، ومعبد الأقصر

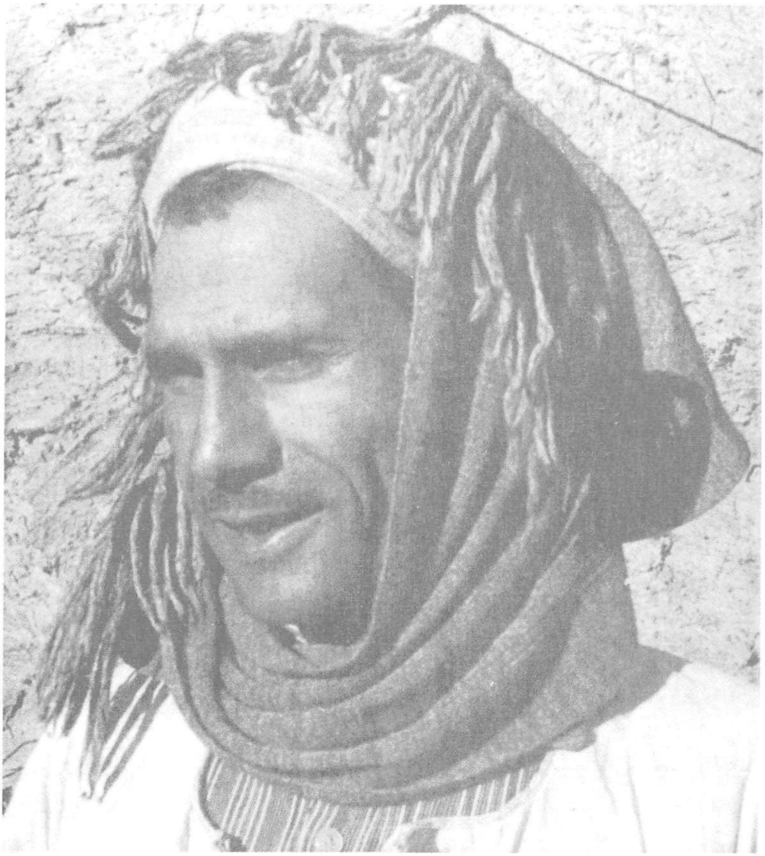

أحمد ، الأخ الرصين لأم حامد ، وهو مثال الرجل الكامل فى نظر شحات ، لكنه أيضا يعتبر منافسا له فى حب واحترام الأم .

فاروق ، مشارك شحات فى المزارعة ، وهو إنسان له معاييره الخاصة بالقيم والأخلاق .

إنه العجوز يوسف ، ذلك الذى يبيع الليمون للسواح ، وهو يقف أمام لوكاندة هابو . منزل شحات قريب ، ويمكن الوصول إليه عن طريق حارة صغيرة خلف اللوكاندة .

شحات يعمل على الشادوف ، وهو أداة يدوية لرفع مياه النيل من القنوات إلى الحقول ، وكان يستخدم على مدى ست آلاف من السنوات الغابرة .

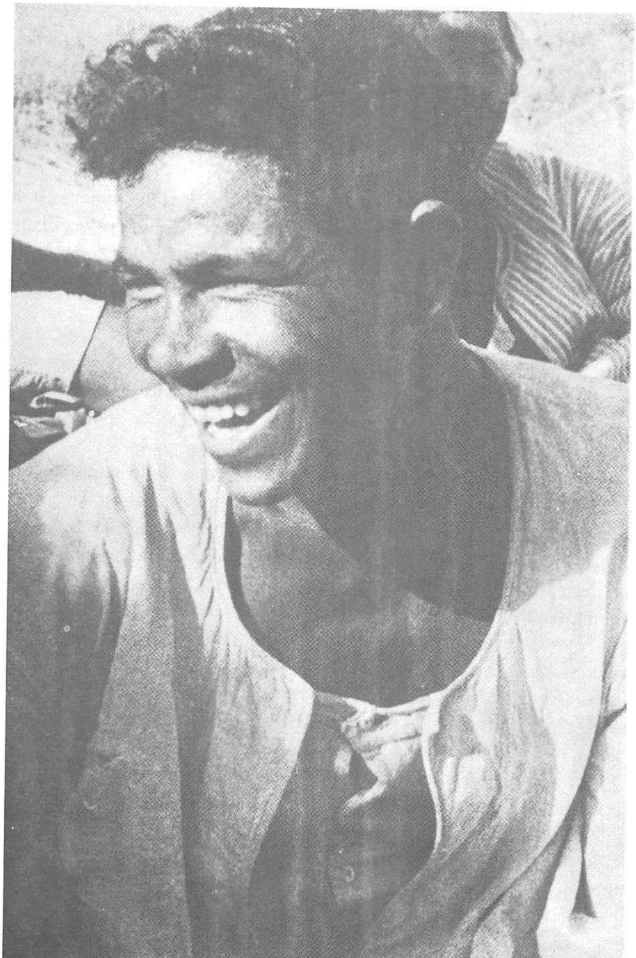

العزب ، وهو صديق شحات ، وهو يمثل شكل فلاحى مصر القدماء ، الذين هم من أصول فرعونية وليس عربية .

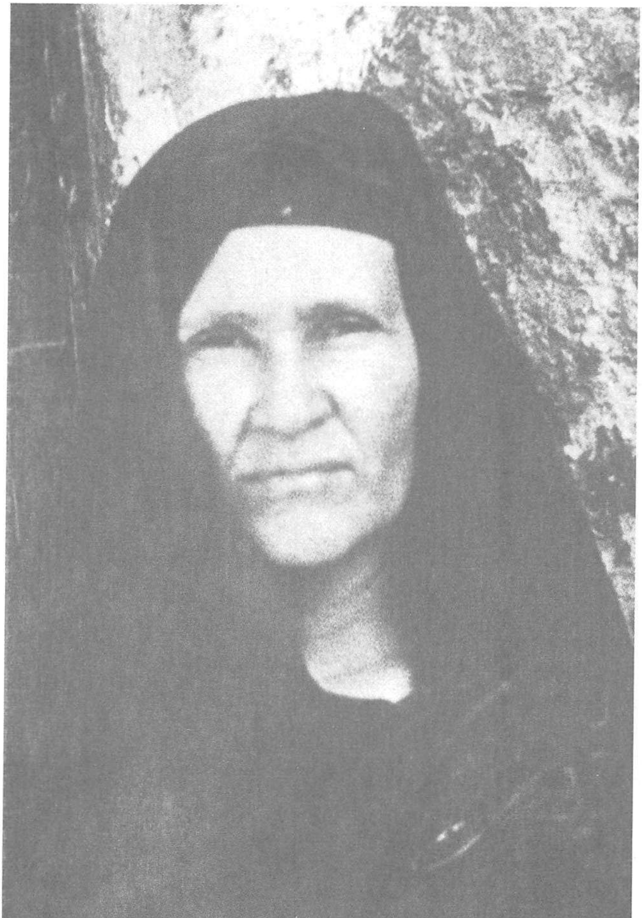

بهية ، زوجة الحاج عبد المطلب ، وهى صديقة أم حامد وزميلتها فى الثرثرة ورواية الحكايات .

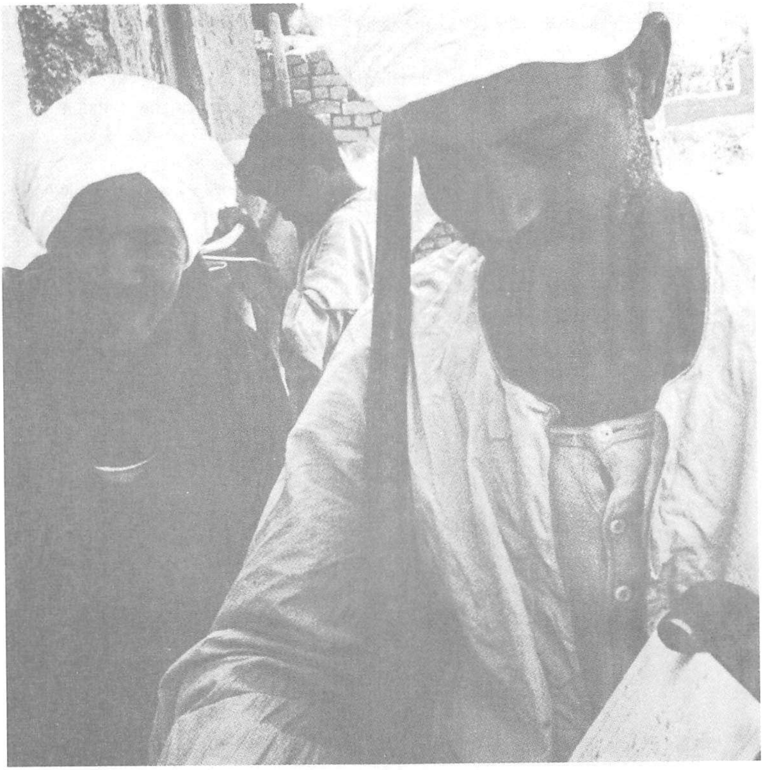

فاتح (على الشمال) وهو تاجر المواشى ، ولمعى (على اليمين) وهو الذى يمتلك مائتى فدان ويعتبر أغنى الملاك فى بيراط .

«الثعبان» أحد أصدقاء الشحات

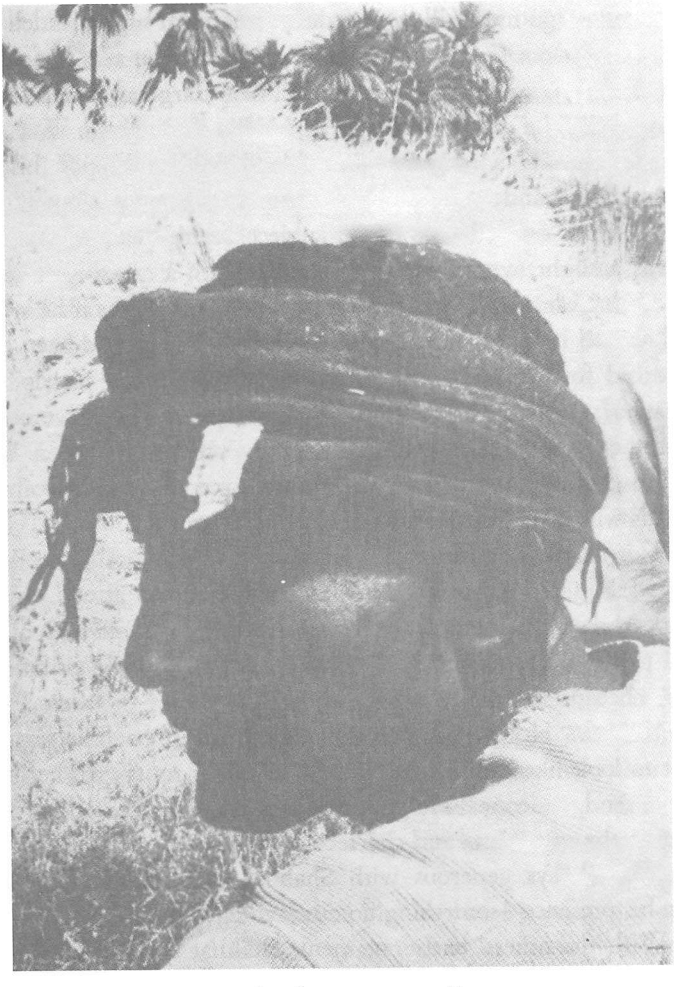

عبد الرحمن ، صديق آخر للشحات

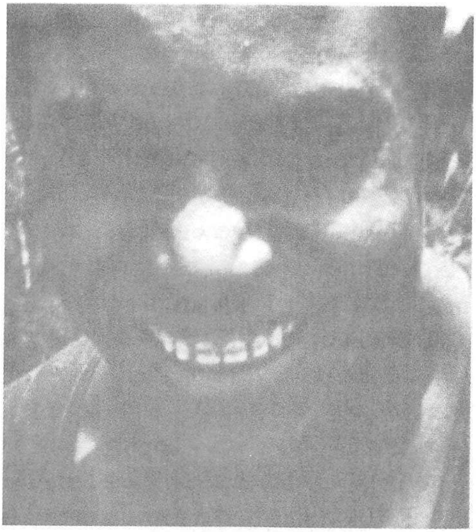

جمال

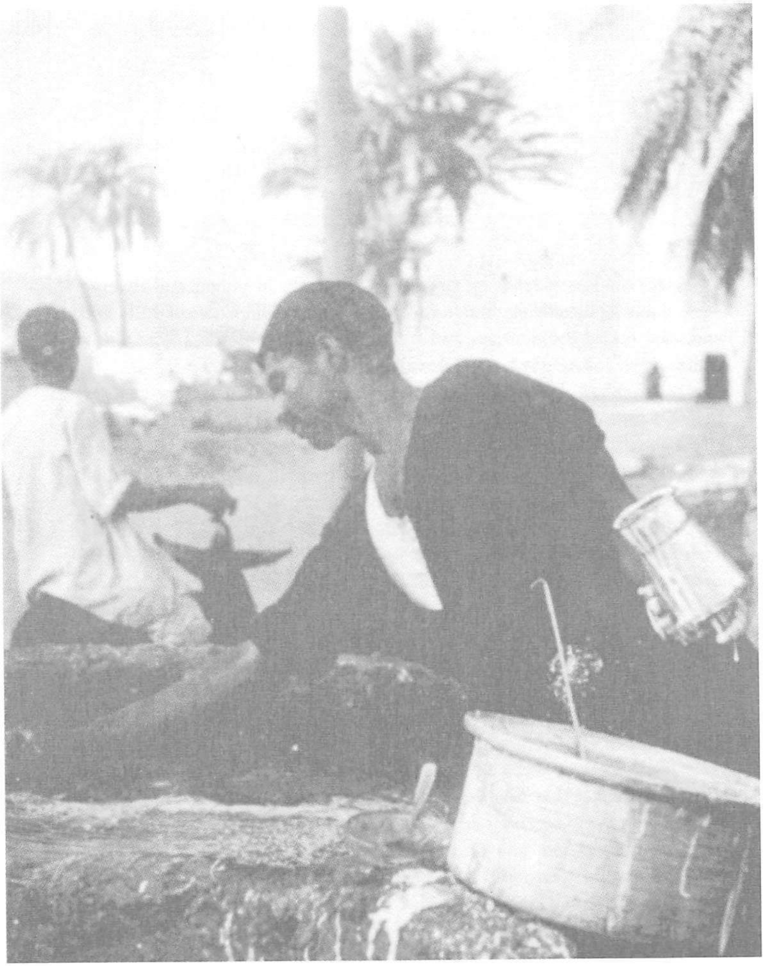

شحات وهو يصنع الكنافة أثناء شهر رمضان ، بينما ما زال فى حالة الحداد على وفاة والده .

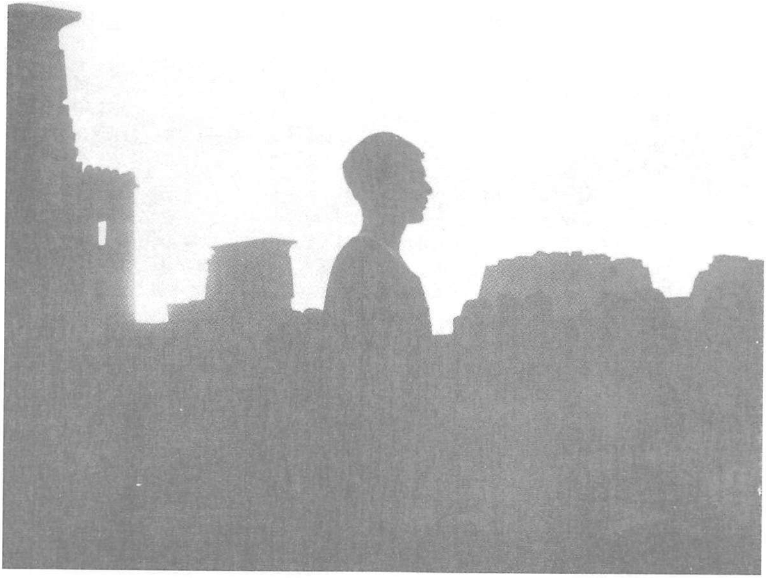

شحات وبصحبته أخيه الأصغر نوبى فى فترة غروب الشمس أمام معبد رمسيس الثالث .

شحات وهو يرقص على الموسيقى التى انبعثت من راديو القهوة

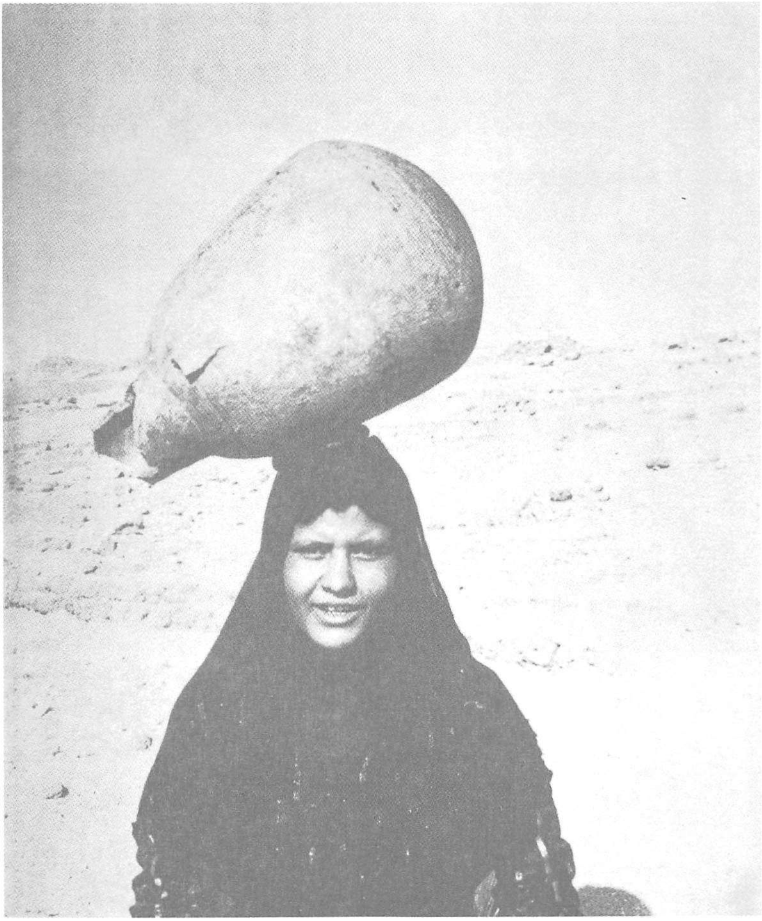

بطة ، وهى قريبة شحات

شحات وبجواره أخيه أحمد ينظفون الجاموسة فى مياه ترعة رمسيس ، مهملين إمكانية إصابتهم بديدان البلهارسيا التى تتواجد بالمئات بجوار الشاطئ .

شمس الدين (على اليسار) وهو الطالب المجتهد ، يقرأ القرآن ، بينما شحات يستمع إلى أغانى الحب العربية براديو شمس الدين .

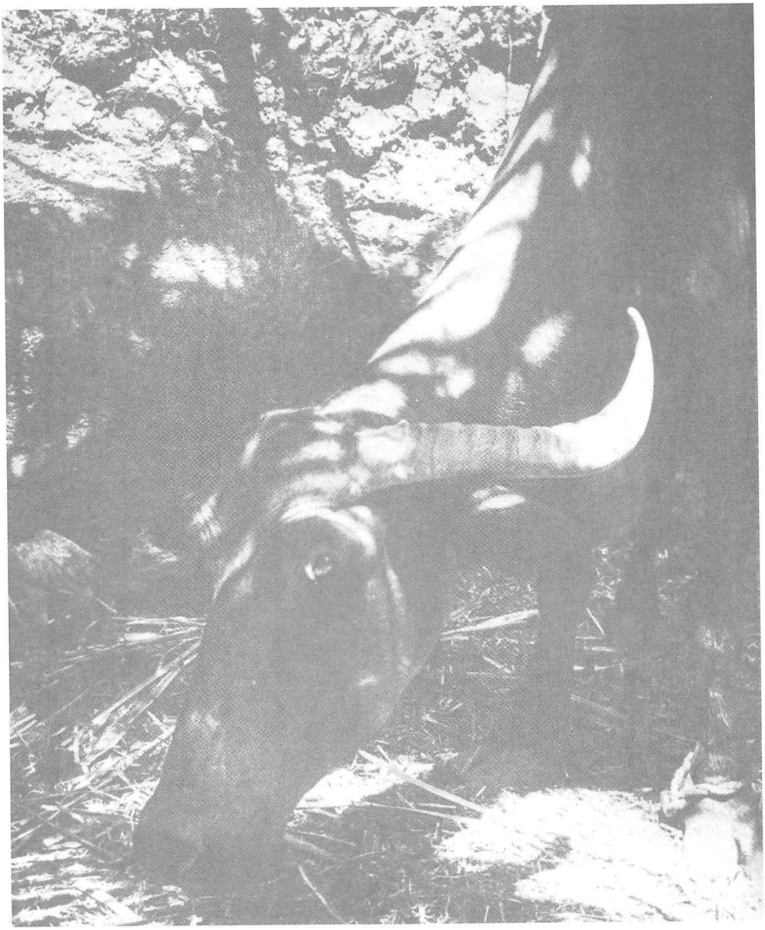

عنـــدما توقفت الجاموسة عن إدرار اللبن ، شك شحـات أنها قد أصيبت بعين أحد الحساد .

أم حامد وقد ارتدت أفضل ملابسها وهى فى واحدة من زياراتها النادرة للحقول

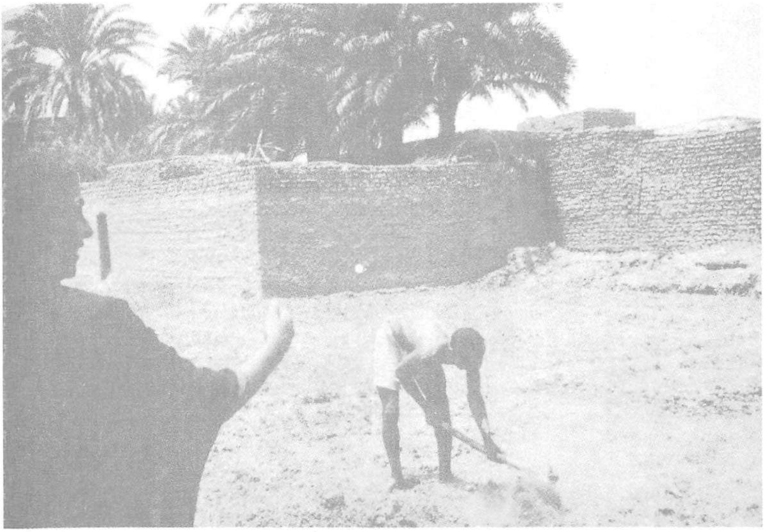

أم حامد تراقب شحات وهى يزرع ما تبقى من أرض الأجداد ، والحديقة التى بها النخيل والعنب تظهر فى الخلف .

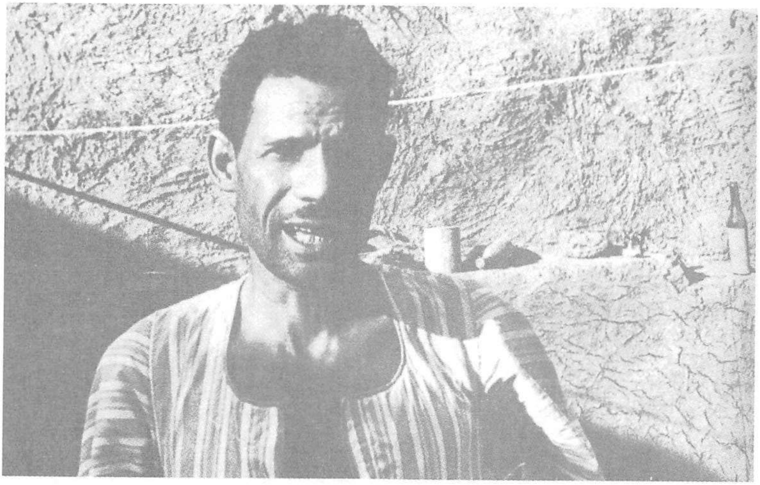

أحمد أثناء إحدى معاركه مع شحات

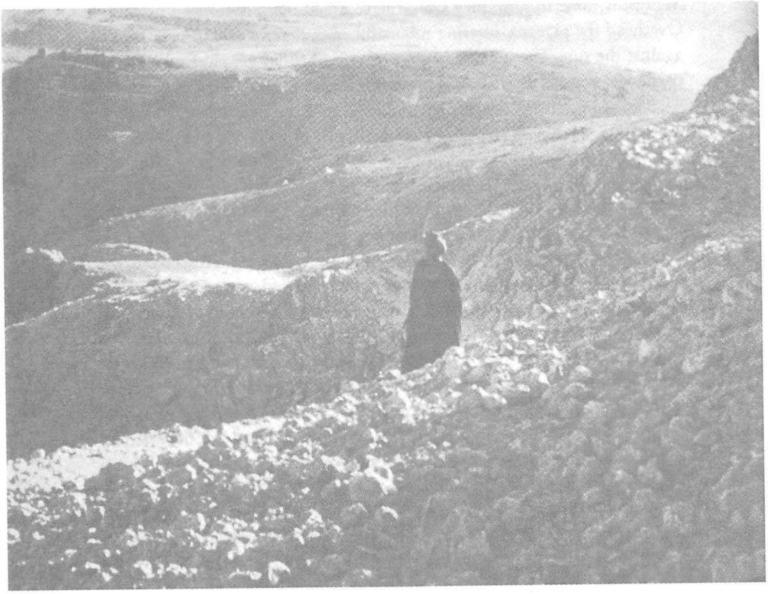

شحات يهرب إلى التلال التى تعلو القرية

من فوق التلال الصخرية خارج بيراط ، شحات يحملق فى الصحراء

شحات يستعرض وادى النيل أسفل

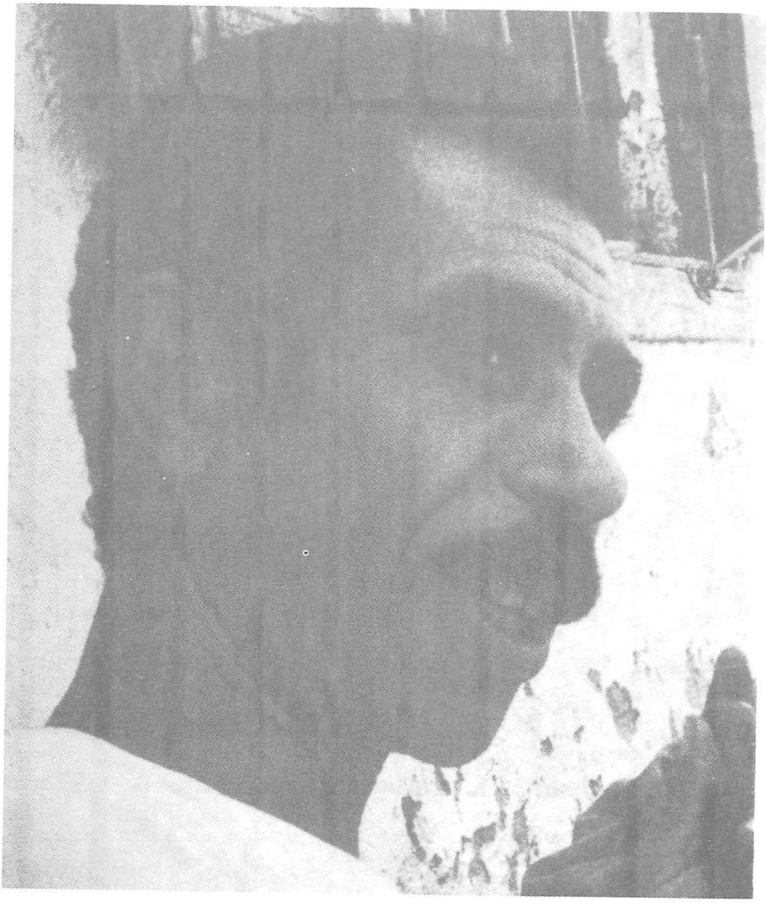

المترجم الذى ساعد المؤلف ، نوبى الحجاج

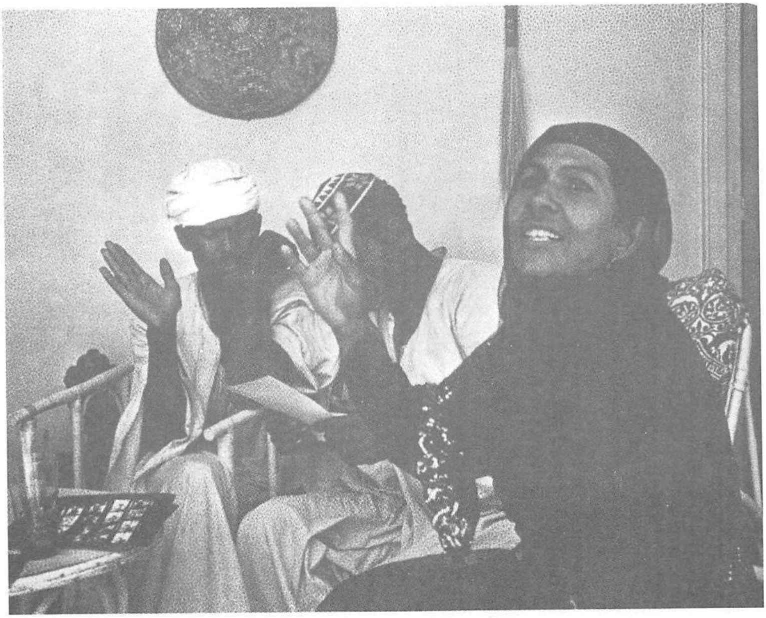

شحات وأم حامد يفحصان الصور الفوتوغرافية التى تحكى قصتهما

شحات ، وأم حامد ، ومؤلف هذا الكتاب ، ثم أحد الفلاحين . وكانوا يعملون فى الحقــول كل صبــاح ، ثم يتقابلون مع أم حــامد والمترجم نوبى الحجاج لمدة أربع أو خمس ساعات بعد الظهر لكى يشكلوا الأحداث والحوارات . أما شحات الذى كان يتحدث اللغة العربية ، بالتدريج تعلم اللغة الإنجليزية .

المؤلف فى سطور

رتشارد كريتشفيلد

هو كاتب ومراسل صحفى أمريكى يراسل صحيفة (الإيكونومست) اللندنية، ومساهم فى مجلة (كرستيان ساينس مونيتور). وقد كتب العديد من الدراسات التى تختص بدراسة حياة الفلاحين فى العالم الثالث منذ عام ١٩٥٩، وهو مؤلف لعدد كبير من المقالات والكتب فى هذا الموضوع بالذات، يشمل ذلك كتاب " اللغز طويل المدى "، " الوعاء الذهبى المكسور"، " حياة الفلاحين فى ظل أربعة حضارات "، " القرى". فى عام ١٩٨١ تسلم الجائزة الأولى لمؤسسة ماك آرثر.

هذا الكاتب قضى أكثر من عامين مع شحات وجيرانه من الفلاحين القاطنين بقرية بيراط القريبة من مدينة الأقصر، يسجل معاركهم، أفراحهم، عاداتهم، والحفلات والولائم والذكر، ويرسم صورة تعتمد على الحوارات الحقيقية لأبطاله. لذا أيها القارئ لا تنزعج عندما تقرأ هذا القدر الكبير من الشتائم المتبادلة بين أبطال القصة، لأن هذا هو ما يحدث فعلا فى مصر.

لإتمام قصة شحات هذه، قدمت له مؤسسة فورد منحة عام كامل ليقضى وقته وسط فلاحى الصعيد، وتحت الشمس المحرقة.

المترجم فى سطور

سمير محفوظ بشير

ولد فى ١٩٣٧/٣/٢٩

حصـــــل على بكالوريوس تجـارة ١٩٥٨ ، وكان يعمـل محاسبًا فى الجمعية التعاونية للبترول .

النشاط الفنى :

كتب للمسرح الكوميدى .. وتم تصوير مسرحيتين له فى أبو ظبى عام ١٩٨٠ باسم : بس فينك يا عريس ، عن الفراق .

من مترجماته :

ترجم عدداً من الكتب لدار ميريت عند صديقه الأستاذ/ محمد هاشم منها :

- قصة جوجل – تأليف : بيتر فايس .
- عن الكتابة – تأليف : ستيفن كنج .
- احتفال – مؤلفه ذو أصل أمريكى (هتور همر) .

التصحيح اللغوى : عبد الوهاب صلاح
الإشـــراف الفنى : حســـــن كامـــل